رحـــــلة

سمو الأمير محمد على باشا

شـقيق الجناب العالى الخـــديوى

إلى الجهة الشمالية لأمريكا

المطبعة الأمـــيرية بالقاهـــرة
١٩١٣

مقـــدمة الكتاب

بســم الله الرحمن الرحيم

الحمـد لله مكون الأكوان ومدبرها . ومبدع الحوادث ومغيرها . لا إله إلا هو جعل الآثار دالة على باهر قدرته . ودقيق حكمته . والصلاة والسلام على نبينا محمد خير من أقلته الأرض . وسـيد من أظلته السماء . أمر بالهجرة طلبا للعلم ودعى اليها . ورغب فى الرحلة اتساعا للمدارك والرزق وحض عليها . وعلى آله وأصحابه الذين جابوا القفار . واقتحموا لجج البحار . وضربوا فى الأرض هادين . وجابوها مرشدين . فكانوا كالنجوم هداية فى الظلمات برا و بحرا . أو كالمـاء مبعثا للحياة تكوينا ونشرا .

و بعد فان ما بلغته الانسانية من الحضارة والعمران وكل مانشاهده باعجاب فى أنحـاء المعمورة : ابن فكرة

والفكرة قد زين الخالق بها عقل الانسان وحلاه بسمو المدركة وأعطاه النطق لتكون له السيادة المطلقة على جميع ماظهر على سطح الارض وما استتر فى باطنها من حيوان ونبات وجماد

واظهارا لتلك السيادة اقتضت حكمة الخالق أن يجعل مخلوقاته كلها

من جهـة المدارك درجات متفاوتة بعضها أعلى من بعض وأعدّ للانسان المرتبة العليا . اتخذ هذا النظام قاعدة عمرانية لفائدة الانسان لينفذ ماقضـاه فى حكمه السابق لدى تكوين الوجود من ضرورة وضع الانسان فى مركز ممتاز سـام مشرّف على مخلوقاته أجمعين كما وضع الحيوان فى درجة أعلى من النبات والنبات أعلى من الجماد على ذلك كان مايدركه النبات لايدركه الجمـاد وما يدركه الحيوان لا يدركه النبات وما يدركه الانسان تعجز حتما باقى المخلوقات عن ادراكه ولأجل هذا كان الانسان بحق سيدها وسلطانها

تدرج الانسان بمـا أودع فيه بالفطرة من قوى المدارك والفكر والنطق فى مدارج النمو والارتقاء

فكر أولا فى الوسائل والطرق التى تضمن له قوام حياته وسـط معترك الوجود . وفكر ثانيا فيما يدفع به الغوائل والعوادى دفاعا عن نفسه . ثم فكر فيما بعـد فى الحصول على شئ من الهناء والسـعادة وتخفيف آلام ومتاعب الحياة بقدر الاستطاعة .

كان الانسان عند نشأته الأولى محاطا بالجهالة من كل جوانبه وفى كل حوائجـه وكان مختلطا بالوحوش الضارية التى معظمها اندثر مع تقادم العصور والأزمان . يعيش عيشتها من القشافة والخشونة عارى

الجسم مثلها لا يعرف الا الثمار مأكلا . و بطون المغارات والكهوف مرقدا . مضطرًا للرحيل عند فراغ تلك الثمار لمكان آخر يجد فيه قوته وقوام حياته . والا كان يصادف حتما حتفه بجهله فلاحة الارض واستثمار خيراتها لمصلحته . ولكن عند مااستخدم ما أودعه الله فيه من المدارك وقوة التفكير انتقل من حالة الهمجية هذه الى المدنية ومن حالة الرحلة الى الاستكانة والاستقرار فى اقليم سماه فيما بعد وطنا . ثم تعلم كيف يبتنى له مساكن اتقاء الحر والبرد سماها بعد قرية فمدينة فمملكة . ثم تعلم الزراعة وفلاحة الأرض ثم الصناعة ثم تحليل المعادن واستخدمها لفوائده وتعلم الملاحة والتجارة وتمكن شيأ فشيأ من توفير أسباب الراحة والهناء فى عيشته

أوجد العلوم والمعارف وغرضه منها معرفته كيف يعيش فقوى بها و بالتربية مداركه حتى كادت تزول الغشاوة التى كانت تمنع نظره من إبصار حقائق هذا الكون الغامض المحفوف بالاسرار العديدة المتنوعة . تمكن بالفكر والاستنتاج وقدح القريحة والنشاط والصبر والدأب على العمل من كشف بعض تلك الاسرار ومن ايجاد الوسائل التى سدّ بها احتياجاته الكثيرة الضرورية والكمالية حتى وصل لدرجة العمران الموجودة فيها الأمم الحاضرة المتمدنة فهو لذلك مدين

فى مدنيته لتلك الصفات وعلى الاخص لقوة الافكار .

فنيت الاجيال وبقيت الافكار التى سيرتها فتوارثتها العصور من بعدها هكذا تفنى الامم وتبقى الفكرة مضيئة طريق العصور التالية

ولما كانت قوة الفكر تختلف اختلافا بينا بين الافراد وبين الأمم ظهرت بقدر اختلافها ميزة فرد على فرد وتفوق أمة على أمة . وما نشاهده فى عصرنا الحالى من الفروق العظيمة بين درجات التمدن والحضارة والعمران بين أمم الأرض بأسرها انما هو نتيجة طبيعية لازمة للمدارك قوة وضعفا وحركة وسكونا وأصالة وخطلا .

بالفكر تمكن الانسان من قهر الطبيعة على افشاء الاسرار التى تخفيها فكأن الفكر طلسما كشف به مخبآتها ومفتاحا فتح به كنوزها فأخرج لنا منها قوى لولاه للبثت فى عالم الغيب .

بالفكر أظهر الانسان أسرار البخار والكهرباء والمغناطيس وعرف خواص الاجسام وأدرك عالم الميكروب .

ومن الواضح الجلى المشاهد فى جميع أطوار الانسان وحياته منذ نشأته أن من كانت فكرته وقادة ومداركه واسعة وكان ذا جد ونشاط ومثابرة وجلد ارتقى فى مدارج الانسانية وأنقذ نفسه وأمته من حمأة الهمجية وسار بها شوطا بعيدا فى مراقى الحضارة والعمران . وأما

من كان فكره كاسدا وهمته فاترة فانه وقف بالطبيعة عند حد النشأة الأولى وبقى الى الحيوانية أقرب منه الى الانسانية

هذه النظرية تجلت فى الشرق والغرب قديما وحديثا فقد كان الشرق فى قرونه الأولى والوسطى مهبط الأديان ومقر العرفان ومطلع بدور الأنبياء والمرسلين كما كان زاهيا زاهرا ببدائع الصنائع والمخترعات . حاليا بمكارم الأخلاق وجميل الصفات يكاد يكون منفردا فى الدنيا بسن القوانين الاجتماعية والنظامات العمرانية . وبالجملة فقد كان على سطح الأرض شمسا تنبعث منها أنوار الحضارة وتنتشر منها أضواء المدنية كما كان كعبة يقصدها طلاب العلم من أمم الغرب فيجدون ضالتهم المنشودة من علم مفيد وعمل نافع وصناعة متقنة وزراعة نامية وتجارة رائجة وقوانين محكمة ونظامات قويمة . كانوا يجيئون الشرق خماصا ويرجعون الى بلادهم بطانا بين طبيب حاذق ومهندس بارع وفلكى مطلع وصانع متضلع وزارع خبير وتاجر قدير . وما وصل الشرق الى هذه الدرجة التى أكسبته السلطان والسيطرة على باقى الأمم الا باستعماله قوة المدارك واستخدامها بجد ونشاط فى مصلحته وفائدته . ولا يتيسر لمن يريد معرفة مقدار ما كانت عليه مدارك الشرقيين من النور والعرفان وأفكارهم من

الاصـابة والأصالة وعزائمهم من المضـاء والقوة الا اذا تتبع آثار ذكائهم واستقرى المجهودات الفائقة العظيمة التى بذلوهـا فى فائدة وتقدم الانسانية والوسائل الكبرى التى اسـتخدموها لقشع الحجب الكثيفة التى كانت تستر ما اكتشفوه من اسرار الطبيعة

ظهر فى الشرق مدنيات كثيرة ترجع كلها الى مصدرين

أحدهما . رقى تدريجى وراثى فى الهيئات الاجتماعية

ثانيهما . رقى منبعث عن الفكرة الدينية .

فمن النوع الأول مدنية المصريين القديمة التى من أهم مميزاتها رقى الفكر وتوجيهه الى اتقان الصناعة واتجاه العقول الى نور العلم فى عصور مطبقة الظلام .

ويكفى زيارة معاهد الآثار المصرية والمعابد المنتشرة فى مصر وعلى الخصوص فى الوجه القبلى لمعرفـة مقدار الاتقان الذى بلغته تلك المصنوعات وللاسـتدلال على أن جميع الهياكل والاهرامات والبنايات الأثرية قامت على أدق القواعد العلمية والفلكية

ومن الأول كذلك مدنيات اليونانيين المقتبسة عن المدنية المصرية ثم مدنيات الاشوريين والفنيقيين والقرطاجيين

أما مدنيات النوع الثانى فقد ظهر فى الشرق ثلاثة خضع لمبادئهم

الدينية القسم المتمدن فى العالم .

ظهر أحدهم فى مصر وهو موسى عليه السلام . أرسله الله تعالى ليضع للعالم القوانين التى تلائم ذلك العصر هداية من الخالق ونورا لبنى البشر .

وظهر الاثنان الأخيران فى الشام وبلاد العرب .

أحدهما عيسى عليه السلام أقام للناس قبسا سطع نوره حتى بهر العالم اذ كان سراج هذا القبس مستخرجا من معدن الآداب العالية والاخلاق الكريمة والرحمة هداية كذلك من الخالق ونورا لبنى البشر أجمعين .

ثم ظهر بعده هذا العربى الهاشمى الذى فاق الأنام فى علو المدارك وسمو الافكار كما كان أكبر وأقوى من خدم الانسانيـــة بأسرها بارشاد الناس بالحكم القويمـة والتعاليم الراقية الكريمـة التى بعثه الله لنشرها فى كل الكون سلاما وبركة ورحمة للعالمين . بزغ نور تعاليمه الاسلامية من سماء بلاد العرب ثم انتشر فى أرجاء آسيا وسرعان ماانتقل الى افريقية الشمالية مبتدئا بمصر مارا ببلاد المغرب مجتازا بحر الروم حتى وصل الى أوروبا من مطالع الأندلس . ففك العقول من أسرها وأرشدها الى أن لها حقوقا وعليها واجبات وأضاء لها مناهج الحياة العلمية والعملية وعلمها كيف تنتهجها فخرجت بذلك من

الظلمات الى النور ومن الموت الى الحياة بتلك الروح الجديدة روح التمدن الاسلامى والذكاء الشرقى .

طافت هذه الروح على البشر منذ ثلاثة عشر قرنا تدعو الناس الى الاخاء والتعارف بين جميع أفراد المعمورة على اختلاف أجناسهم ومعتقداتهم وتباين مذاهبهم ومشاربهم . تدعوهم الى التضامن الانسانى فى كل أطوار حياتهم . تدعوهم الى جعل العدل أساسا لمعاملاتهم الاجتماعية والسياسية كما تدعوهم الى استعمال الرحمة والحنان . حاثة على مكارم الاخلاق حاضة على التمسك بوسائل العمران وقد رسمت لهم طريقا جديدا لم يسبق له مثال فى السواء والسهولة وتقريب المسافة فى تحقيق وصول الآمال للسعادة الدنيوية والنعيم الأبدى .

تنادى تلك الروح الجنس البشرى بأعلى صوتها

« ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا »

وتقول لهم

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان »

تقول لهم

« ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى و ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون »

كما تقول لهم حاضة على الحركة والعمل

«وأن ليس للانسان الا ماسعى وأن سعيه سوف يرى»

و يقول مهبط تلك الروح صلوات الله عليه «اطلبوا العلم ولو بالصين»

و «ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء»

دين كله تعارف و إخاء وعدل (وعلم ورحمة) و (حركة وعمل وفكر وتنبيه) كان من شأن انتشاره فى أرجاء الدنيا أن تيقظ لحكمه الناس أجمعون المؤمنون به وغير المؤمنين .

وليس من الغريب أن هذه الحركة الاسلامية كما مدنت الشعوب المتبربرة وأكسبتهم مدنية أقرلهم بها التاريخ كان لها صدى فى الغرب الذى كان حينئذ تائها فى ظلمات الجهالة غارقا فى لجج الهمجية لا يبصر الضوء الا من سم الخياط ولا يتنسم الحياة الا من مطالع الشرق لان تلك الحركة الاسلامية لم تجئ لتخلص بمزاياها أقواما معينين بل هى جاءت لسعادة الانسان من حيث هو انسان .

أفاقت كل هذه الحركات التمدينية الشرقية الغرب من رقدته الطويلة التى كان تائها فيها كما أيقظت عزيمته التى طال عليها الفتور فارتحل

النشيطون من أبنائه الى بلاد المشرق واغترفوا من بحاره العذبة ومناهله الرطبة كل ما كان غريبا منهم مجهولا لديهم من أنواع المصنوعات والحرف وأخذوا من ذلك الحين يشمرون عن ساعد جدّهم مشتغلين على الأخص فى الماديات متنقلين فى الصناعة والتجارة والزراعة والملاحة من سيئ الى حسن ومن حسن الى أحسن ومن كامل الى أكمل .

سار الغرب على هذا النمط المرغوب فيه جدا فى جميع مرافق الحياة الضرورية والحاجية والكمالية حتى نال من المنعة والقوة والسلطان الدرجة التى هو عليها الآن وسبق الشرق فى الماديات بعد أن كان مسبوقا وساده بعد أن كان مسودا وحقق الحكمة الشرقية « لكل مجتهد نصيب »

وعجيب أن الغرب فى سيره الى الحضارة لم يطرق الا نفس الطريق الذى بذل الشرقيون وأجدادهم الكرام مهجهم الغالية فى تمهيده وتنسيقه . وهم لوقوف الفكر الشرقى عند الحد الذى وصلت اليه مصنوعاتهم ومتاجرهم وملاحتهم وعدم تقدمهم فيها الى الأمام بنفس الخطا السريعة التى خطوها فى الأدبيات بوجه أعم وفى علوم الفلسفة والبلاغة والمنطق وعلم الكلام بوجه أخص مضافا على ذلك تفريط الخلف فى المحافظة على متروكات السلف سيما المادية منها كانوا قد ضلوا عنه وجعلوا غيرهم من هؤلاء الغربيين الذين

كانوا وراءهم فيه بمراحل يسبقونهم اليه واكتفوا بقبول تعويض بسيط تاريخى عما فقدوا بأن نالوا من الغربيين اقرارا لهم بفضل السبق عليهم فيه .

كبا الشرق فى الماديات أو وقف ساكنا عند حدّ جهاد أبنائه الاولين . وخصص النفيس من أوقاته الغالية فى الاشتغال بتلك الادبيات مهملا الماديات التى عليها قوام الحياة والتى هى موارد الثروة الحقيقية فبعد أن كان مطلع شمس الفنون وينبوع الصنائع والعلوم وبعد أن كان أستاذ الغرب فيها من غير مراء انقلب حاله من أحسن الى حسن ومن حسن الى سيئ على العكس تماما من الخطة العمرانية الحديثة التى اختطها الغرب لنفسه بل أصبح الشرق يلتمس نوره من زهراء الغرب . كل ذلك لأن الشرق وجه التفاته للادبيات دون الماديات التى أهملها كل الاهمال ولأنه خفف سيره الى الأمام فى موارد الرزق والثروة فى حين أن الغرب كان ينهب الأرض نهبا طلبا للاتساع فى الممتلكات والمقتنيات لا يعرف للقناعة حدّا ولا تحجبه عن نيل غاياته ومطامعه شم الجبال ولا لجج البحار بل حلق الى السماء يريد استخدامها أيضا حتى خضعت لمشيئته الأرض وما فيها وما عليها .

بعد ذلك كان حقا على الشرق أن يترك للغرب تراثه القديم تراث العز

والسلطان تراث العلم والعرفان والثروة والسعادة فى اليوم الذى تخلّى فيه عن تلك الصفات والمميزات التى ضمنت له قديما جمع هذا التراث .

نعم نام الشرق نوما عميقا واستغرق فيه حتى أيقظه من أوروبا ومن أمريكا حركة قوية تحمل عجائب المصنوعات وغرائب المخترعات برا وبحرا وهواء وأرهقــه مناد يناديه كيف حلا لك النوم وهو مرّ علقم ولذّ لك الرقاد وهو السم الزعاف ثم ذكّره بنظرية تنازع البقـاء وبقاء الانفع فلق هـذا الصوت فى بلاد اليابان آذانا صاغيـة وقلوبا واعية فى أمة نشيطة كانت خير مثال يتمنى كل شرقى أن يحذو حذوه وأن يتتبع خطاه رنّ هذا الصوت فى مصر فتداركه هذا الرجل الكبير الجليل القدر المعدود واحدا من اثنين نبغا فى عصره هو الحاج محمد على باشـا رئيس عائلتنا المصرية الملوكية الكريمـة فالتفت للأدبيات والمـادّيات على السواء ووجه لها عنايته الفائقة النادرة المثال فانتشل الامة مما كانت واقعة فيه من المهاوى السحيقة . فالمدارس أنشأها والارساليات العلمية قررها وتعهدها والفاوريقات من جملة أنواع أسسها وبناها وأنجحها والترسانات والارصفة والجسور والترع والقناطر وكل شئ حيوى فى البلاد باشره بنفسه واستخدمه لفـائدة بلاده والجيش والبحرية قواهما بعـد أن رباهمـا على النسق الحديث المتين

وباصالة حكمه وحسن درايته وطّد الأمن فى البـلاد وافتتح القسم العظيم من الاقطار السودانية وضمها على بلاده العزيزة . وعليه فان مصر مدينة بتمدنها الحـديث لتلك العائلة الخديوية الكريمة وتاريخ مدنيتها الحديثة مقترن بتاريخ الحكم العلوى من غير مراء ولا نزاع

سارت البلاد على هـذا النمط حتى تبوأ عرشها من حسن حظها عباسها الثانى فضاعف قواها وبث فيها حياة جديدة أخرى من نشاط وهمة وإقدام حتى انها تاقت فى عصره الزاهر لاسترداد مجدها القديم وعزها التالد فأخذت تعمل على ذلك باحثة على أسباب الرقى الأدبى والمـادى بكافة الوسائل وعلى الأخص بمضاعفـة موارد الصـناعة والتجارة والزراعة وتعميم العلوم والمعارف بين طبقات الأمة .

وجدير فى الواقع بأمة لهـا تاريخ مجيد ومدنيـــة عريقة بأمة ملكها العباس الذى لا تعرف قواه الملل ولا مداركه السامية الواسعة الكلل أن تتمكن من الوجود فى مصاف الأمم الراقية وأن تحوز قصب السبق فى مضمار الحياة العلميـة والعملية خصوصا وبين أبنائها الأماجد من يعرفون بواسع بصيرتهم وجليل رأيهم كيف يبعثون فينا هذه الحيـاة من جديد فى مثل هذا الزمن الذى صـعّب فيه التزاحم الحيوى أمر المعيشة على الناس .

فى مقدمة أولئكم الأبناء حفيد محمد على باشا وسميه وشقيق الجناب العالى الخديوى قام وأخذ على نفســه الأبية أمر الرحلات فى أنحاء المعمورة ليحيي فى البلاد صفاتها القديمة لتعود لها سيرتها الأولى فلا تكون دون غيرها فى السعى والتطلع لعجائب الأعمــال العظيمة والمدهشة فى الاقطار المترامية الأطراف . والمتنائية الاكناف . ورأى أبنــاء الملوك يسبقون رجال العلم فى هذه الرحلات الشاقة . فتاقت نفسه العالية الى سبقهم فى ذلك . ولقد سبق أغلبهم بالفعل . فأصبح سموه فى أوائل الامراء المعدودين ولعا بالرحلة الى كل ما يفيد بلادهم ويرقى شـؤون أممهم . وهكذا عرف كيف يرفع رأس مصر . وكيف يبعث فى نفوس الشرقيين صفات آبائهم الاولين .

لم يغمض جفنه حفظه الله فى أى ســنة من السنين عن التجوّل فى أقطار المعمورة . فى البلاد الغربية و بلاد أمريكا واليابان . مستطلعا ماوصلت اليه تلك الأمم من بواعث الحياة الجديدة وأسباب العمران . وقد كان فى كل رحلاته يودع ماعَنّ له من المشاهدات النفيسة بطون الصحائف و يرصدها فى أفق السجلات التى صارت نبراسا يهتدى به كل من طالعها من المصريين . الذين هم موقف نظره السامى . وغيرهم من أبنــاء الشرق . بقصد أن يغرس فى نفوسهم

مبادئ حبّ الاستطلاع والسير فى الطريق الموصل للحياة الحقيقية .
حتى لا يكونوا عالة فى العلوم والمخترعات والصناعة على غيرهم . ولكى يشغلوا فى هـذا العالم المكان اللائق بشرفهم العريق .

امتـاز سمو الأمير الجليل محمد على باشا بصـفات غاية فى الجلال والجمال وخلال كريمة نبيلة تزين كل من تحلى بها فهو صادق العزيمة قوى الارادة صـبور على تحمل المشاق مهما بلغت اذا رأى فى تحملها بلوغ مأربه وتحقيق بغيته .

شرع دولتـه فى زيارة أمريكا عقب حادثة التيتانيك فلم تثنه عن عزيمته المـاضـية القوية المصائب الكبرى التى أحدقت بالكثير من الأنفس البشرية بغرق تلك الباخرة ولا النصائح الكثيرة من أصدقائه العديدين ويكفى لمن تصفح رحلته أن يقف على ماتكبده من مشاق الانتقال ومتاعب السـفر الطويل متى أمعن نظره فى الآلاف من الكيلومترات التى قطعها فى تنقيبه وبحثه فى الآثار النفيسة التى صنعتها يد الانسان وهى عجائب جديرة بالتدوين والنشر بين الأنام .

وبديهى أن الرحلات العلمية تمتاز بعضها على بعض بقدر مايمتاز أصحابها من الصفات وقوة الاستعداد لحب الاستطلاع ودقة الملاحظة واستيفاء البحث ومتانة الوصف وقوة التصوير وصحة الاستنتاج واختيار الأنفع

وبفضل الله تعالى جاءت الرحلة ناطقة بأن صاحبها المفخم كان ممتازا بهذه الصفات الجليلة وهى هى التى جعلت لرحلته النفيسة شأنا خاصا فوق شأن غيرها .

وصفت لنا رحلته فيما وصفت كيف أن الامريكى اذا شرع فى مشروع لا يثنيه عن انجازه المستحيل والمتعذر على غيره بل هو كثير الثقة فى نفسه والاعتماد على ذاته يبذل عند اللزوم بسخاء حاتمى لايكاد يضارعه سخاء فى الوجود كل غال ومرتخص حتى يبلغ فى النهاية مبتغاه وينال حظوته فيما شرع فيه . خلال جميلة وأخلاق حميدة من شأنها الازدراء باليأس والقنوط .

وصف لنا الأعمال العظيمة والعمارات الشاهقة والقناطر والكبارى التى لا يضارعها غيرها فى الكبر والطول فى كل بلاد الدنيا لتصبو نفسنا للعمل على منوالها . وليتعشق بعظمها وفخامتها قلبنا فنأتى فى بلادنا على نسقها ونتعلم صنعها ومتانة ودقة هندامها وذوقها . وبالاختصار فقد جاءت الرحلة أنفع سفر يقتنى وأشهى ثمر يجتنى بل وخير كتاب دوّن فى هذا الباب .

مصر فى أول مايو سنة ١٩١٣ عثمان مرتضى

الرحلة الامريكية

لسمو الأمير محمد على باشا

بسم الله الرحمن الرحيم

إن السياحات الكثيرة التى قمت بها بقارة أوربا فى أول نشأتى منذ كنت فى السادسة من عمرى مكنتنى من رؤية كل مهم فى هذه البلاد ولذا فكرت فى تغيير وجهتى إلى البلاد الأخرى خصوصا أن أوربا صارت الآن قريبة الينا والطريق اليها أصبحت سهلة والمغرمين بزيارتها كثيرون فابتدأت فى سنة ١٩٠٩ ميلادية أن أسيح فى بلاد اليابان لأرى شيئا جديدا من مناظر طبيعية بديعة ومصنوعات دقيقة ولأقف على سر تقدم اليابانيين ووصولهم إلى هذا المجد الشامخ ولله الحمد وفقت إلى غايتى وقدمت لأبناء وطنى الأعزاء نتيجة رحلتى بقدر مااستطعت ومارأيت . وهنا أستميح نظر القارئ الكريم أن أذكر أهم الأسباب التى دعتنى لتحمل هذه المشقات العظيمة فى القيام بهذه السياحات : إن هناك تآليف كثيرة عن جميع بلاد الدنيا وقد اطلعت على كثير منها ولكنى أعتقد أن رؤيتى الشئ بنفسى أنفع من قراءته فى الكتب فمهما كان الوصف جميلا فانه لايؤثر فى النفس تأثير المنظر البديع عند ما يقف الإنسان أمامه ويشعر بقدرة الخالق العظيمة وجمال الطبيعة .

إن ميلى الغريزىّ للسياحة واعتقادى بمـا شرحته للقراء جعلانى أوجّه سـياحتى هذه السـنة إلى الولايات المتحدة وكندا وألاسكا وبالجملة إلى الجهة الشمالية لأمريكا وإنى آسف جدّا لعدم تمكنى من السياحة فى مكسيكا لكثرة الثورات الداخلية فيها ولعدم اتساع الوقت لزيارة كل ماذكرته آنفا والتعريج عليها بعـد ذلك . وممـا يزيد أسفى مشابهتها للبلاد الشرقية وحرمانى من رؤية أمثال عساكرنا السودانيين الأشدّاء فيها وقنال بناما القريب إليها والذى سيفتح فى هذا العام .

ولمـا قررت السفر إلى الجهات المذكورة قبـل اتفقت مع كوك وقرّرت السفر على الباخرة كرون پرنسيس سيسـيل فى أوّل مايو أى قبـل دخول فصل الحر الشديد بأمريكا وهذه الباخرة تابعـة لشركة النورد تشرلويد الألمـانيـة ولمـا وصلت إلى باريس أخذت أعدّ العدّة لهذا السفر وكنت أتردّد على محل كوك لأقرّر خُطّة السـياحة النهائيـة وقد ساعدنى الحظ ووفقت لعمل برنامج السـياحة بمساعدة المستر بروكر أحد رؤساء محل كوك الذى رأيت فيه الكفاءة العظيمة فلم نترك أعجوبة أو منظرًا جميلا يستحق الزيارة فى الدنيا الجديدة إلا وقرّرناه فى خطة سياحتنا التى تستغرق ثلاثة شهور . وبينما كنا نعلل النفس بقرب السـفر وننتظر بفارغ صـبر يوم قيامنا برحلتنـا الجميلة

حدثت فاجعة غرق أكبر باخرة فى العالم وهى التى تسمى (تيتانيك) التابعة لشركة (ويت ستار لاين) أثناء سفرها لأول مرة من انجلترا الى أمريكا وكانت حمولتها (٤٦٠٠٠) طن وسرعتها ٢١ عقدة وسبب غرقها مصادمتها فى الساعة الثانية عشرة مساء بجبل من الثلج (آيزبرج) عائم على وجه الماء . وقد فصلت الجرائد الأوربية كيف كانت المصادمة وحصول الغرق تفصيلا مسهبا لاداعى لإعادته الآن فى رحلتنا إلا أننا نقتصر من ذلك على ذكر مارأيناه مهما ويستحق المدح والإعجاب إن عدد الركاب الذين كانوا فى التيتانيك لايقل عن ٢٥٠٠ شخص كان من المستحيل نجاتهم جميعا بواسطة الستة عشر زورقا التى كانت بها ولذا ابتدئ بانقاذ النساء والأطفال أولا ثم نزل بعض الرجال فى المحالّ الباقية من هذه الزوارق وكان من بين الراكبين فى الباخرة الكولونيل (استوِر) ياور المستر (تافت) رئيس الجمهورية السابق وهو من أصحاب الثروة التى تقدّر بمبلغ ٧٥٠ مليون فرنك وكان قد تزوج فى انجلترا بممثلة اشتهرت بجمالها الرائع وكان عائدا معها بعد أن قضيا (شهر العسل) فى مصر فى فصل الشتاء الماضى فبدل أن يسرع إلى النجاة بنفسه أظهر شهامة ومروءة وصار يساعد السيدات والأطفال على النجاة وفضلهم على نفسه .

والذى أثر فى نفسى كثيرا منتهى الإخلاص والصداقة التى أظهرتها السيدة (ستورس) لزوجها الذى كان معها فى هذه الباخرة وهو المشهور بثروته التى لاتقل عن ٢٥٠ مليون فرنك فإنها لما دعيت لمفارقة الباخرة كغيرها من السيدات أبت نفسها الشريفة أن تفارق زوجها وأجابت الربان الذى كان يدعوها الى النجاة بنفسها قائلة : إن الخمسين سنة التى أمضيتها مع زوجى المحبوب بين السعادة والشقاء لاتسمح لى اليوم بأن أفارقه فى وقت الشدة فأنا أفضل الموت معه على أن أعيش لحظة واحدة بعده فمات الاثنان المسنان متعانقين بعد قُبلة الوداع الأخير وأضافت السيدة ستورس الى صحيفة الإخلاص أكمل مثال له يستحق أن يدوّن بالذهب وينشر فى العالم ليكون عبرة ومثلا لمحبى المروءة والشهامة والإخلاص .

إنّ هذا الضرب من الإخلاص قلما يوجد له مثال بين الرجال والنساء . وهل لنا أن نؤمل بعد أن أبدت هذه السيدة أمام العالم أجمع هذا المثال للإخلاص الكامل أن هذه الروح الطاهرة ستسرى بين النفوس فى أكثر الأسرات حتى تقوى صلات المحبة بين أفرادها وبذلك تسود الألفة بين أبناء البشر ؟

أما أسباب الغرق فهى الاعتقاد بأن هذه الباخرة الكبيرة متينة جدّا

ولا سبيل إلى أن تغرق ولذا أمر ربانها بأن يسرع فى السير بآخر قوة باخرته حتى يقطع المسافة بين انجلترا وأمريكا فى مدّة أقل مما تقطعها باقى بواخر العالم فتأخذ التيتانيك الشهرة وتفوز بالسبق ولكن يالأسف خاب الظن وكانت العاقبة وبالا . لقد أسرعت السفينة ولكن ماذا كانت العاقبة ؟ تصادمت بذلك الجبل الهائل ولشدّة سرعتها لم يمكن تحويل سيرها وإيقافها دفعة واحدة فذهبت هباءً منثورا

إن هذه الحادثة أخذت دورا هائلًا فى باريس حتى كنا من الصباح إلى المساء لانسمع إلا أخبار غرق التيتانيك . إن حصول مثل هذه الفاجعة لما يثنى الهمم عن السياحات . فكم من صديق كان ينصحنا بالرجوع عن عزمنا ولكن للهالحمد أنا ورفيقاى مسلمون مخلصون لله ولدينه الحنيف نعتقد أن لكل أجل كتابا فيقيننا بالله زادنا توكلا عليه فلم نثن عن عزمنا . وكنت كلما سئلت : هل أنت مسافر ؟ قلت نعم — أفلست خائفا ؟ لا . إن الله قادر أن يحمينى من الأذى وهو الحى الذى لايموت .

إنى لا أريد أن أخفى عليك أيها القارئ مقدار ما كان من تأثرى من سماع كل هذه الأخبار المزعجة التى لاتطمئن القلوب لها . نعم إنى كنت أشعر بسرور لأنى سأرى أشياء جديدة لم أرها أثناء سياحاتى

الماضية إلا أنى فى الحقيقة كنت أشعر بأن هذا السرور يكون عندى أعظم بعد أن أتمم هذه الرحلة وأعود سالما إلى بلادى العزيزة . ولما لم يبق لنا سوى ٢٤ ساعة على ميعاد السفر ذهبت الى كوك وتسلمت جواز السفر ووقعت على حسابى عندهم وأخذت منهم دفتر شيكات لأخذ مايلزمنى من النقود بأمريكا . وقد أخبرت بأن الشركة اعتنت بى كثيرا وأعدّت لى أحسن محل بالباخرة (كرون برنسيس سيسيل) وقد أخبرنى أيضا محل كوك أنه سيمر على محل سكنتا اليوم (٣٠ ابريل سنة ١٩١٢) الساعة ٨ ونصف مساء مَن هو مكلف بأخذ أمتعتنا الثقيلة لإرسالها مباشرة الى الباخرة حتى لانتعب وقد حصل ذلك وبما أننا غدا صباحا سنقوم الساعة ٩ والدقيقة ٥٠ من محطة (سان لازار) ويلزمنا أن نكون مبكّرين إلى المحطة فضلنا أن نبادر إلى النوم حتى يكون لنا من الراحة مايساعدنا على تحمل مشاق السفر إن شاء الله .

يوم أوّل مايو سنة ١٩١٢ ـ أصبحنا بخير مستعدّين للسفر بالقطار المعدّ للمسافرين بالنورد تشر لويد . ولما أرسلنا فى طلب سيارتين من ذوات العدّاد (تاكس) أخبرنا أن اليوم عيد الفعلة وقد اشترك معهم سوّاقو السيارات فاضطررنا إلى استحضار عربتى أجرة ركبت

فى الأولى مع الصاغ خيرى والثانيـة ركبها مصـطفى بك رضا ومعه الأمتعة الخفيفة ولما وصلنا إلى محطة (سان لازار) وجدنا فى انتظارنا المسيو (لوموان) مدير محل كوك ببـاريس والمسـتر (بروكز) الذى ساعدنا فى تنظيم خطة السياحة وتكلمت عن كفاءته سابقا . وانمـا حضرا ليكونا على علم من إعداد غرفة (Compartiment) خصوصـية لنا و يعرفا أنحتاج إلى أىّ شئ آخر يمكنهـما تأديته لنا . وقد وجدنا أيضا أحد عمال شركة النوردتشر لويد فى انتظارنا وأخبرنا أنه موفـد من قِبَـل الشركة ليخبرنا أنها أعدّت كل ما يلزم لنا فى الباخرة وأمرت سائر عمالها بأن يعملوا كل مايريحنا ويسرنا . والذى زاد سرورى هو رؤيتى صـديقنا القديم عثمان بك غالب فى المحطة . حضر ليشـيعنا فشكرنا له هذا الإحساس الشريف ولا شئ يفرح الغريب أكثر من رؤية أحد مواطنيـه خصوصا إذا كان من أولى مودّته . مكثنا بضع دقائق مع هؤلاء المشيعين إلى أن سمعنا التنبيه بتحرّك القطار فصالحناهم جميعا وشكرناهم كثيرا وأسرعنا إلى محالنـا التى أعدّت لنا فكان معنا عدد عظيم من الأمريكيين المختلفى الخلقة والهيئة .

تحرّك القطار من باريس حيث كانت الساعة ٩ والدقيقة ٥٠ وبعد وصولنـا إلى محطة (أشير) (Achère) أى بعد أن سرنا مقدار

٤٥ دقيقة انكسرت القــاطرة واضطررنا أن نمكث بهذه المحطة ٣٥ دقيقة إلى أن أحضرت قاطرة أخرى صغيرة وسارت بنــا سيرا بطيئا جدا كسير قاطرات البضاعة فكان ذلك سببا فى تأخرنا ساعة عن ميعاد وصولنا إلى (شربورغ) . أوصلنا القطار إلى الرصيف فوجدنا نقالتين خصوصيتين للمسافرين على الباخرة (كرون پرنسيس سيسيل) الأولى للأمتعة والبريد والثانية للركاب وبعد أن نزلنا وانتظرنا هنيهة سارت بنا النقالة إلى الباخرة المذكورة التى كانت بعيدة عن الرصيف لكبر حجمها ولمــا قربنا منها وجدنا باخرة أخرى انجليزية أقل منها حجما اسمها (فيلاديلفيا) قريبة من باخرتنا وتابعة (للترانس اطلانطيق) ووجهتها أيضا أمريكا ولكنها تسافر بعدنا بعشر دقائق . وصلنا إلى الباخرة (كرون پرنسيس سيسيل) فاذا هى عظيمة ذات أربع مداخن كبيرة كأنها قرية عامرة أهلها فرحون مستبشرون تظهر عليهم علامات السرور والابتهاج . فلاقتنا هذه الجموع المستأنسة بصياح الحبور ولسان حالها يقول أهلا وسهلا بباقى أفراد أسرة هذه المدينة الفخمة . صعدنا على ظهرها فسمعنا نغمات موسيقى رجالها المطربة خففت عنا آلام السفر وشكرنا الله اذ دخلنا فى زمرة هؤلاء المسرورين ولم تمض هنيهة حتى قــدم الينا مفتش الشركة ومعــه ربان الباخرة وبعــد التعارف حضر

رئيس الخدم وأخبر أن غرفنا معدة تحت أمرنا فذهبنا معه إليها ووجدنا ما اختاره لى جميلا أنيقا يستحق الإعجاب بنظافته وكامل معداته .

إن هذه المقابلة أثرت فى نفسى تأثيرا حسنا جدا خصوصا بعد أن سمعنا أنه كلما قربنا من أمريكا كانت الخدمة غير منتظمة . والحقيقة أن الإنسان لايجد فى هذه الباخرة مايشكو منه فان جميع الخدم فى غاية الأدب ينتظرون أى إشارة لتأدية طلبات المسافرين .

انى لم تسمح لى الفرص بزيارة أكبر بواخر الاطلانطيق حتى يظهر لى الفرق بين الباخرة التى سافرنا عليها وبين هذه البواخر ولكنى أظن أنه لا يمكن أن تكون سفينة أحسن ولا أبدع نظاما مما اختارها الله لنا وساقنا حظنا الى السفر عليها .

إن الباخرة (كرون پرنسيس سيسيل) حمولتها ٢٠٠٠٠ طن وقوة آلتيها اللتين تسيرانها ٤٥٠٠٠ حصان وطولها ٧٠٦ أقدام وعرضها ٧٢ قدما وارتفاعها ٤٤ قدما وبها ست طبقات تسع ٥٢٠ مسافرا فى الدرجة الأولى ومثلها فى الدرجة الثانية وعددا عظيما آخر فى باقى الدرجات . أضف إلى ذلك ٧٠٠ من الملاحين وغيرهم من عمال السفينة . والذى يظهر قوتها العظيمة أنها تحرق كل يوم

حمولة سبعين عربة فحم وزن العربة الواحدة ١٠ أطنان ولا تسل عن سرعتها ففى أيام الصحو عندما يكون البحر هادئا تقطع ٢٣ عقدة فى الساعة . أما الخدم فعددهم ١٩٠ سفريا و١١٤ طباخا و٧ خبازين وقـــد علمت أن الخبز الذى يعطى لســائر الركاب ومن ضمنهم المستخدمون والملاحون والمهاجرون هو الخبز السميذ (الخاص) النظيف لا الجراية وذلك من مدّة سنتين .

وبالجملة لا يسعنى الا الإعجاب بهذه الباخرة والثناء الجميل على القائمين بخدمتها إذ أن الانســان يشعر بمجرد وصوله ومكثه ردحا من الزمن بها بالنظام الالمــانى ومراعاة تنفيذ الأوامر الصادرة من كبراء مديرى حركاتها إلى التابعين لهم .

بعد أن استرحنا قليلا حضر رئيس الخدم وأخبرنا أنه مرسل من قِبَل القومندان ليعرض علىّ مأوى آخر أبهى وأوسع مما أنا فيه وهو مايدعى عندهم (المسكن الأمبراطورى) وهو مشتمل على عدّة حجر منها واحدة للأكل وأخرى للقابلة وحجرة نوم بلوازمهــا من حمــام ومحل راحة وغيرهما فقبلت ذلك مع الشكر وانتقلت إليه فوجدت أن الاسم ينطبق على المســـمى وهو يؤجر على ماسمعت بمبلــغ ٤٠٠ جنيه فى السفرة الواحدة فأرسلت بطاقة باللغة الالمــانية للقومندان أشكره

على هذا اللطف والاعتناء بى وأظن أن هذا كان أقل مايستوجبه كرم فعله لاسيما أنه قدّم لى هذا المسكن بدون أن يكلفنى بدفع الفرق بل كان ذلك من باب الأدب وحسن المعاملة .

سارت الباخرة بنا تحرسها عناية الله فى نحو الساعة السابعة مساء وبعد ساعتين حضر عندى قومندانها ليزورنى فوجدته رجلا فى نحو العقد السادس من عمره فى غاية الأدب والرزانة تظهر عليه علامات الهيبة والوقار والشجاعة فأعدت شكرى اليه شفاها وقدّمت إليه الصاغ خيرى ومصطفى بك فمكث معنا مقدار ماسمح له وقته فودّعناه بمثل ماقابلناه به .

لما حل ميعاد العشاء استفهمت هل من الضرورىّ لبس (الأسموكين) فأُخبرت أن ذلك ليس ضروريا خصوصا فى هذه الليلة حيث أن حضورنا كان متأخرا . نزلنا للعشاء وقد جهزت لنا سفرة صغيرة على أتم نظام . أما المطعم فكان فى الطبقة الثالثة بعد مسكننا وهو حجرة رحبة تشغل كل اتساع الباخرة وهى مرتبة ومنظمة تنظيما أنيقا يعجبك كل مافيها لاسيما لونها الأبيض الناصع وكثرة الزهور الموضوعة على الموائد التى تسر النظر ويذهب حسن روائها بتأثير حركة الباخرة وأما المآكل فانها لذيذة واللحوم يؤتى بها من أمريكا وأنواع

الأسماك من انجلترا والفواكه وأنواع الخضر من فرنسا وقد تلذذنا من جودة الخبز و بالجملة المآكل جميعها حسنة ولذا يفضل الأمريكيون السـياحة فى البواخر التابعـة لشركة النورد تشر على غيرها لمـا يلاقونه من الراحة فى المأكل والمشرب والخدمة والمسكن . وكانت الموسيقى تشنف آذاننا وقت العشاء ومن الساعة ٩ مساء تدار البيانو بالكهرباء وهى من أتقن الآلات وأجودها حتى إن الانسان لايجد فرقا بينهـا و بين التى يديرها أبرع المفننين فى البيانو . و يستمر هذا العزف مقدار ساعة من الزمن فى الردهـة الكبرى الوردية اللون وهناك بيانو أخرى عادية فى وسط هذه الردهة . وقد لاحظنا رسم البرنسيس ولية عهد المـانيا معلقة على حائط الردهة بطولها الطبيعى وهى التى سميت هذه الباخرة باسمها . و بعـد أن انتهينا من العشاء عدنا إلى مكاننا وأمضينا ليلة جميلة لهدوء البحر .

وفى صباح اليوم الثانى (٢ مايو) بعد أن ارتديت ملابسى أخذت أستريض على ظهر الباخرة ولأصور لك مقدار اتساعهـا أذكر أنى طفت فى أحد مماشيها خمس مرات فوجدتنى قطعت ميلا انجليزيا . أما الممشى الذى فى الطـابق الأعلى فمغطًى من كل جهة بألواح من زجاج سهلة الإقفال والفتح وعددها ١٩٦ حتى إذا كان الهواء

شديدا والبرد قارسا أقفلت هذه الشبابيك وإلا فتحت ـ وهذا يسهل الاستراضة للراكبين . كذلك من أراد أن يستريح يمكنه أن يستلقى على أحد الكراسى المعدّة لذلك بدون أن يتأذى منه المستريضون ولا خوف عليه من تأثير البرد ولا من ابتلاله بالماء ولتكميل أسباب الراحة قد خصص لكل جهة من هذا الممشى خادمان لتأدية الطلبات تحت رآسة ثالث وقد لاحظنا أيضا غير هؤلاء الثلاثة اثنين من الملاحين بملابسهما النظيفة للحراسة وبأيديهما المكانس أو قطع من القماش لإزالة أى قذر يجدانه . وملخص ما كان فى يومنا هذا هو ما يأتى : من الساعة ٧ صباحا الى الساعة ١٠ الفطور ويمكن الراكب أن يتناوله فى المطعم أو على ظهر الباخرة أو فى غرفته وهو مشتمل على أنواع اللحوم على اختلافها من بارد وشواء وبيض وسمك وغيرها .

فى الساعة العاشرة تقدّم الحساء ومعها ساندويتش باللسان العجالى أو الكافيار ـ من الساعة ١٠ ونصف تعزف الموسيقى يوما فى الجهة اليمنى ويوما فى الجهة اليسرى بالتناوب من هذا الممشى الذى وصفته . هنا رأينا طائفة المهاجرين الفقراء الذين يذهبون الى أمريكا فى طلب الرزق من كل جنس يغتنمون فرصة عزف الموسيقى ويرقصون على

نغماتها ليخففوا عنهم آلام فراق أوطانهم . وقد رأينا فى صباح هـذا اليوم جملة بواخر ذاهبة الى أمريكا أو راجعة منها وأظن أن التسـلية الوحيدة للمسافرين فى المحيط الاطلانطيق الخالى من الجزر هى رؤية مرور البواخر بكثرة يخاطب بعضها بعضا بالتلغراف اللاسلكى .

والغـداء يبتدئ من الساعة ١٢ الى الساعة ٢ بعـد الظهر ويقدّم للمسافر كشف عام به كل الأنواع التى بالمطبخ فله أن يختار مايشاء منها وأيضا يقدّم له كشف صغير (Menu) يعدّه رئيس السفرة فان وافقه يأمر السّفرىّ المكلف بخدمتـه أن يقدّم له غداءه على حسب هـذا الكشف الصغير والا طلب مايريد من الكشف العام .

إن المسافرين معنا كانت أشكالهم غريبة ولم نر سـيدة واحدة من الأمريكيات جميلة كالتى يراها الانسان فى أوربا أو فى مصر وبالجملة كان الجميع من رجال ونساء كالصور التى تصوّرها الجرائد الهزليـة المضحكة فهذه الوجوه ذكّرتنى سياحتى باليابان وكوريا .

والحاصـل أن جميع المسافرين كانوا أمريكانيين ولم يكن بالسفينة غيرنا من أبناء الأمم الأخرى وكلهم كانوا من أرباب الأشغال وأغلبهم إسرائيليون وقد لاحظنا أيضا بينهم أسرات مرتدية ملابس الحـداد ونظن أنهم أقارب المنكوبين فى حادثة غرق التيتانيك .

ومن الساعة ٣ مساء الى الساعة ٦ يعزف مرة ثانية البيانو الكهربائى فى الردهة الكبيرة . وهناك جملة ألعاب أخرى على ظهر الباخرة لقضاء الوقت هذا غير ماهنالك من المحال التى يمكن للمسافر أن يستريح أو يتمم أشغاله فيها كالمحلين المخصصين للتدخين وحجرة المكاتبات ويوجد أيضا مكتب للتلغراف اللاسلكى ومطبعة معدّة لطبع أخبار العالم لتوزع علينا كل يوم قبيل الساعة ٤ مساء بشكل مجلة وهذا من بدائع هذا العصر الجليل .

يبتدئ العشاء فى الساعة ٦ مساء وينتهى فى الساعة ٩ ولأجل أن نتبع النظام ارتدينا (السموكين) وعلى هذا الترتيب أمضينا ولله الحمد يومنا بعد أن ختمته بلعب الدومينو مرتين مع مصطفى بك وافترقنا للاستراحة ونحن مسرورون .

(يوم ٣ مايو) وفى اليوم الثانى من سفرنا دعانى القومندان لأشاهد مايقومون به من الأعمال لتجربة أدوات النجاة التى تستعمل فى حالة الخطر (كفانا الله شره) وكان الجو هادئا والبحر ساكنا . وتكون هذه التجربة عادة فى الساعة ٥ مساء فصحبنى الصاغ خيرى وصعدنا الى غرفة القومندان التى بأعلى الباخرة وتجاور مصدر الأوامر فقابلنا بكل ترحيب وأخذ يسرد علينا معلوماته الغزيرة وقد اطلعنا على خارطة

الطريق القـديم الذى كانت تتخذه البواخر قبل حادثة التيتانيك وأظهر لنا الفرق بينـه وبين الطريق المتبع الآن فاذا هو يزيد مسافتنا ٢٠٠ ميل عما كانت قبل حيث انه أخر الطريق عن أصله بمقدار ٦٠ ميلا الى الوراء وهذا للابتعاد بقدر الامكان عن مقابلة الثلوج السابحة على وجه المـاء (آيز برج) التى تسبب المصادمات وقد أرانى أيضا جملة بار ومترات لمعرفة مقدار ضـغط الهواء والمكانــ الذى توجد فيه الباخرة وهى مختلفة الأنواع . منهـا ماهو خاص بالنهار والشمس . ومنها ما هو خاص بالليـل والنجوم وقد أرانا أيضا التلفون الخـاص بالمنارات السابحة فى البحر الذى له آلتان موضوعتان فى مقدّمة الباخرة وكذا عنـده عدّاد كهربائى على اليمين وآخر على الشمال لمعرفة مقـدار الدورات التى تدورها كل آلة من الآلتين المذكورتين . فالقومندان بذلك يمكنه أن يعرف فى كل لحظة سرعة هـذه الآلات وانتظامها بدون أن يتحرك من مكانه . وعنده أيضا تلغراف مورس وبالجملة كل الاختراعات الحـديثة عنده . وبعد ذلك نخرج بنا من هذا المكان وأرانا آلة لها يد يحركها فتدق الأجراس عند السوّاقين فى قاع البـاخرة وهى علامة الخطر فيأخذون حذرهم ويخرجون من أمكنتهم للنجاة . والغريب أن قاع البـاخرة مقسم الى ١٩ قسما كل قسم له باب محكم

يقفل فى مـــدة ٣٠ ثانية على التدريج وبطريقة ميكانيكية وعنــد القومندان لوحة بها نمر هذه الأبواب فكلما أقفل باب أضـــاءت النمرة بنور كهربائى علامة أنه محكم الاقفال

وقد ذكرت قبلا مقدار ماتحرقه الباخرة كل يوم من الفحم فهذا المقدار العظيم يشغل جزأ كبيرا من الباخرة فى قاعها . وهو موضوع فى جملة محال فكلما فرغ محل من الفحم ملئ من ماء البحر حتى لا تفقد الباخرة موازنتها فكل هذه الترتيبات مدهشة وعظيمة ولكنى لا أقدر أن أقول إنها تمنع الخطر دائما فكم من تلف صغير جر مصيبة عظيمة وما الأمر الا بيد الله .

ومع ذلك إنى أعجب جدا من جميع هذه الترتيبات المحكمة الوضع والسريعة التنفيذ ويزيد إعجابى جدا محافظة جميع الضباط والملاحين على تنفيذ الأوامر بغاية الدقة والضبط . وقد تحققت أن احترام الرؤساء عندهم من أهم واجباتهم وهذا هو السر الوحيد لنجاحهم فى جميع أعمالهم العظيمة .

وبعد أن أتممنا رؤية جميع هــذه الآلات العجيبة عدنا إلى غرفة القومندان وتسامرنا معه قليلا ثم انصرفنا من عنده شاكرين له حسن اعتنائه بنا مبدين له إعجابنا بما رأيناه وقد قال لى أثناء المحادثة إن الشركة تنفق فى كل رحـــلة ٦٠٠٠٠ مارك أى ٧٥٠٠٠ فــرنك او ٣٠٠٠ جنيه انجليزى فى الذهاب والأوبة

هذا ولما كانت أسرع السفن هى التى تتخذ بريدا (بوسته) كانت المسابقة بين الشركات مستمرة وقد أخبرنى أن الشركة تأخذ على كل كيس بوسته ٤٠ فرنكا فى كل سفرة وفى فصل الشتاء وأيام الأعياد يصل عدد الأكياس من ٤٠٠٠ الى ٥٠٠٠ كيس وقد تنقل السفينة فى بعض الأحيان مقادير كبيرة من الذهب أو الفضة من أمريكا إلى أوربا أو بالعكس وقد أخبرنى القومندان أنه نقل مرة ما مقداره ١١٠٠٠٠٠٠ جنيه من الذهب إلى بنك روتشلد بانجلترا وفى هذه المرة أرسلت معه مركب لخفارته . ولما وصلوا الى ميناء بورتسموث كانت بانتظارهم باخرة بها جملة من رجال الشرطة لمقابلتهم والمحافظة على هذا المبلغ الجسيم فليتأمل القارئ عظمة التجارة التى تنقل بهذه البواخر . أمسينا والحالة أخذت تتغير فشعرنا بالاهتزاز وقد أخبرنا أن الحرارة ستبتدئ من غد وفى أثناء سيرنا تقابلنا مع باخرتين إحداهما أشارت الينا بأن الجو غير معتدل والضباب مالئ الفضاء وهذا ما يخشى منه كثيرا ولكنا لما أصبحنا يوم ٤ مايو لم نجد أثرا لهذا الضباب بل كان الضوء متلألئا رغما من السحاب المخيم علينا والمطر المنهمل فوق رءوسنا . أما حالة البحر فكانت فى هياج مستمر وهنا عرفنا الفرق الهائل بين السياحة فى البحر

الأبيض المتوسـط وبينهـا فى المحيط ومع ذلك كنت مطمئنا لأنى علمت من الملاحين أن هـذه الحالة آمن كثـيرا من حالة وجود الضباب الذى يسبب الأخطار أما رفقائى فكانوا مرضى .

فهـذه التغييرات أيقظت فى نفسى حب الاسـتطلاع والسؤال عن حالة البحر فى فصل الشتاء فاستفهمت وعلمت أنها تكون أحيانا سـيئة جدّا حتى حدث مرة أن اقتلع البحر حجرة القومنـدان وأخذ معه الزوارق المعدّة للنجاة ويومئذ لم تتمكن الباخرة من قطع أكثر من ١٢٠ ميلا فى ٢٤ ساعة وهى تقطع عادة ٥٤٠ ميلا فابتهلت إلى الله أن لا يرينا شيئا من ذلك .

انطوى هـذا اليوم الصعب والحمـد لله وذهبت للنوم متأخرا عن عادتى فكيف يكون الانسان هادئا والسفينة تمـر بنا اذ ذاك على تيار (جولف اسـتريم) الهـائل الذى تبلغ سرعتـه أحيانا ٢١ عقدة فى الساعة واذا أضفت اليها ١٠ عقدات أخرى سرعة الهواء فى هذا الموقع بلغت سرعة المـاء والهواء ٣١ عقدة وهى كافية جدّا لتحطيم أعظم مركب ولكن لم تبلغ سرعة الهواء أكثر من سبع عقدات أثناء هذه الليلة وذلك من فضل الله علينا

(يوم ٥ مايو) فى صباح ذلك اليوم أخذت الحالة فى الهدوء قليلا

وصفًا أديم السماء وقد أخبرنا أننا نستطيع أن نخاطب اليوم نيويورك بواسطة التلغراف اللاسلكى . ولقدصادفنا فى سيرنا ذاك اليوم باخرة من شركة (كونارلين) وسبقناها .

فبعد ما قضينا هـذه الليلة وصلنا الى المكان الذى يكون فيـه تيار الجولف استريم خطرا فانه نقطة ملتقى الثلوج والأهوية الباردة التى تهب من جهة الترنو (Terre Neuve) وهذه الثلوج يتكوّن أصلها فى الجهات الشماليـة حيث توجد هنـاك على حالة هائلة ثم تنفصل بتأثير الحر قطع عظيمة منها وتنحدر متبعة التيارات إلى الجنوب كأنها الجزائر وأحيانا تكون مرتفعة عن وجه المياه كجبل عال ومن هنا سميت باسم آيزبرج (Isberg) وهى كلمة ألمـانية معناها جبل من الثلج .

وممـا رأيتـه صعبا جدّا عمل الملاحين الذى ملأ فؤادى شفقةً عليهم وقد طرأ بفكرى فى تلك اللحظة أن ألوم نفسى قائلا لهـا ما الداعى لترك أوربا الجميلة والمخاطرة بالحياة فى هذه الأسفار البعيدة نعم إن الانسان وقت الشدّة تجيش نفسه وتطرأ عليه هـذه الأفكار وما أسرعه إلى تذكر أهله وخلانه ووطنه . ولقد مرت هذه الخيالات والأفكار على كلمح البصر وشـعرت بأن لسانى يردّد كلمات كثيرة فانتبهت إليها فاذا هى دعوات وتضرعات إلى الله أن يرجعنا سالمين

ويردّنا إلى أصدقائنا ووطننا العزيز الذى كلما رأيت تقلبات الجوّ ازداد حنينى وشوقى إليه . فأين سماؤنا الرائقة وشمسنا الذهبية وهواؤنا العليل وأىّ مسافة شاسعة تحول بيننا وبين مصر مهد المدنية ومنبع العرفان . كفى يالسانى الآن فان شعورى أجلّ من أن تحيط بوصفه عبارتك .

إنى أسمع بعض الراكبين معنا يغنون ويعزفون على البيانو فما أشجع قلوبهم أهذا وقت السرور والجوّ عابس والباخرة تلعب بنا كالريشة فى مهب الرياح ولكن سبحان من بيده تصريف الرياح وتسكينها .

لله الحمد والشكر فى هذا المساء أخذ الجوّ يعتدل وبينما كنّا على ظهر الباخرة رأينا زميلنا مصطفى بك كأنه يزحف الينا يمشى الهُوَيْنا مصفرّ الوجه محدودب الظهر مرتجف الأعضاء تظهر على وجهه علامات الخوف الشديد فأسرعنا إليه لنسأله عما دهاه وعن طول غيابه عنا لأنه لم يخرج من حجرته مدّة ٤٥ ساعة فشرع يقص علينا ما جرى له ويصوّر لنا كيف كانت حالته خلال المدّة الشديدة كأبرع مشخص يمثل دوره فى مسرح التمثيل وقد كنّا معجبين بمهارته ووصفه الآلام التى اعترته فقال : شعرت بألم شديد برأسى فألقيت نفسى على سريرى لعلى أجد فى ذلك مخرجا مما ألمّ بى فلم تزدد الحالة الا سوءا أريد الصياح فلا أجد لنفسى قوّة فسلمت أمرى إلى الله وصرت أكابد

ما أكابد وأذوق من مرّ العـــذاب ألوانا حتى جعلت كل ما على السرير فوق وحشرت فى الجوانب بعض الوسادات لأمنع اصطدامى بالحـائط ولكن ماذا يفيدنى وأنا العليل البائس والضـعيف اليائس فكل حركة كانت تقلبنى وكل هزة تكاد تذهب بروحى . حاولت النوم فلم أستطع إليـه سـبيلا فأغمضت عينى حتى لا أرى تحرّك ما أمامى من الأشياء فصـارت أذناى تسـمع صوت الأمواج الهـائلة وقعقعة العدد وما زاد شـقائى إلا حرمانى لذة الطعام والشراب فانى لم أقدر أن أتناول شيئا طول هذه المدّة أما اليوم فقد ثاب إلىَّ بعض قوّتى حتى استطعت أن أرتدىَ ملابسى شيئاً فشيئاً إلى أن كشف الله عنى مانزل بى من كرب فخرجت الآن من الظلمات إلى النور ومن الضـيق الى السعة . فهـدَأنا روعَه ولمـا قرب ميعاد العشاء نزلنا الى غرفتى وتناولنا مالذ لنا وطاب ثم افترقنا للراحة والنوم .

(يوم ٦ مايو) اصبحنا والبـاخرة تمخر فى عبـاب البحر بسرعة مدهشـة والمطر يهطل مدرارا والجو عابس فصرت أسأل من كل ضابط عن الحالة فكان جوابهم إن الحالة تُطَمْئن فلا الضباب يحدق بنا ولا هواء الجنـوب يعصف علينا . ولقـد وضعت الحواجز التى توضع عادة لمنع سقوط الأوانى على الموائد وقت الفطور فسألت رئيس

السفريين هل البحر هائج حتى تضعوا هذه الحواجز فكان جوابه مقلقا لأنه أخذ يبالغ فيما نحن فيه . ولقد يتصور البعض أن السياحة فى المحيط لذيذة ولا يشعر الإنسان بهيجان البحر لكبر البواخر ولكن هذه الفكرة غير حقيقية لأنه لابد للبحر أن يتلاعب بأكبر باخرة كيف يشاء وما على المرء إلا أن يتصور اتساع المحيط الهائل ونسبته إلى حجم الباخرة حتى يحكم بصحة ماقلته وما هى إلا ألعوبة على سطحه .

إن أسرار الطبيعة هائلة ومدهشة فمهما وصل الإنسان من الرقىّ لايمكنه أن يحيط بجميعها ولكن البحث وحب الاستطلاع من مزايا الإنسان فتراه محبا لمعرفة ما خفى عليه وفكرى أن تنوير العقول لا يتم إلا بالسياحات فانها تعلم الإنسان كل شئ وتظهر له الأسرار وما وصل إليه أقرانه المتمدينون من الرسوخ فى العلم وكثرة المكتشفات والمخترعات فيأخذ لنفسه ما حلاله وبذلك تزداد معارفه وترتفع مكانته ويكون على بينة من الامور .

إن أتعاب السفر تزول إذا استفاد الانسان منها باكتساب ما ينقصه من المعارف فان لذة تثقيف العقول لايعلوها لذة فما أكبر سرور النفس عند وقوفها على مجهول .

إن الله تعالى خلق الطبيعة فى أجمل خلقة وأحسن تكوين فما

من شئ إلا وكان لوضعه حكمة عظيمة . لقـد تأذينا من تيار (الجولف استريم) ولكن لولاه لما وجد مخلوق من بنى الإنسان فى ارلندا وانجلترا والجزء الشمالى من فرنسا بل كل القسم الشمالى من أوروبا .

لاحظنا أثنـاء سفرنا هـذا أن المحيط يتغير فى كل وقت فبينما نراه هادئا ينقلب هائجا وبينما نرى السماء صافيـة نرى المطر يهطل مدرارا وبينما الرياح ساكنة تهب دفعة واحدة فلا تبق ولا تذر . اليوم رأينا باخرة وجهتها « نيويورك » وهى قريبـة منا حتى كأنهـا هى وسفينتنا قطاران يمشـيان على طريق حديدى واحد فوجود الضباب يحجب النظر ومنه تحصل المصادمات هذا وان سائر البواخر الذاهبة إلى أمريكا لها طريق واحد وكذلك التى تعود فهـذه فى الجنوب وتلك فى الشمال .

فما أشدّ سرور السائحين عنـد ما تلاقى باخرتهم باخرة أخرى فمثلهم اذ ذاك كمثل تائه فى ظلام ليل حالك فى وسط أجمة هائلة فيمنّ عليه الله بملاقاة صديق له فهل يتصوّر مقابلة أحسن وقعا على النفس من هذه المقابلة الجميلة ؟ هنا يشعر الراكب أنه ليس وحيدا فيذهب عنه الخوف قليلا ويطمئن قلبه بوجود الباخرة الأخرى بجانبه واذا حصل لا قدر الله خطر فباب الأمل فى النجاة مفتوح لقرب هذه الباخرة منه .

فى الساعة العاشرة ونصف عزفت الموسيقى كالعادة وعند الثانية عشرة ونصف أمكننا جميعا أن نتناول الغداء بحجرة السفرة لتحسن الحالة وبعد ذلك مشينا قليلا على ظهر الباخرة وشعرنا بزوال الأمواج وسكون البحر وسرعة الباخرة العظيمة .

وبعد ذلك أرسل إلى القومندان من يرجونى أن أُصَوِّر معه بالمصوِّر الشمسى (الفوتوغراف) فلم يسعنى إلا قبول طلبه لما رأيته منه من عظيم عنايته بى وضربت موعدا لذلك يوم الثلاثاء (أى غدا الساعة ٥ مساء) .

وبينما نحن فى الردهة نسمع البيانو أتت الينا الجرائد اليومية وبها أخبار آخر ساعة فوقع نظرى على تصريحات المسيو (جيليوتى) فى المجلس عند أخذ رودس بدون مقاومة فأثر عندى هذا الخبر تأثيرا شديدا ولا يمكننى وصف الحزن الشديد الذى اعترانى حينئذ ولو أن حصول ذلك الاغتصاب الجديد كان منتظَرا من وقت إلى آخر . ومن رأيى أنه من العار ترك هذه الجزر تذهب بدون مدافعة وإنى أفضِّل ضياع بعض البوارج التى عندنا فى سبيل الدفاع عن هذه الحالة المحزنة وإلا فما الداعى لعدم بيع طرابلس اذا بلغ الإهمال إلى هذا الحد فى هذه الجزر الجميلة . حقيقة إنى مصرىّ ولكنى مسلم أوّلا وشرقىّ ثانيا فضياع مثل هذه الدرر يحزننى فما أشدّ آلامى عند

رؤيتى ضياعَ مجد الشرق وعظمته شيئًا فشيئًا . مرّت على أفكارى هذه الأحوال المظلمة فاسودّت الدنيا فى عينى وشعرت بحرج الموقف وجعل اليأس يستولى على نفسى لولا أملى فى الله واعتقادى بيقظة الشرقيين الذين لايتركون بلادهم تذهب أمام أعينهم وهم عنها ساهون .

فشدّة هذا التأثير جعلتنى أتقلّب فى فكرى تاريخنا العظيم والأدوار الكبيرة التى شغلناها فى المجتمع الإنسانى فزاد أملى بالله لأنه هو القادر وحده أن يُرجِع الينا مجدنا السابق بمعونته أوّلا ثم باجتهادنا وتعاضدنا واتفاق كلمتنا واتحاد وجهتنا فترتفع رؤوسنا ويذهب عنا الذل والمسكنة والعار . فصوت الموسيقى فى مثل هذه الحالة ليس إلا نغمة محزنة أخذت تذكرنى جميع المصائب المحدقة بنا واحدة فواحدة فزادت أشجانى فلم أطق صبرا على سماعها فأسرعت إلى الخروج حيث أكون منفردا أناجى الله تعالى فى أمرنا وأدعوه أن يوفقنا إلى مافيه نجاحنا . فكأن الفضاء غير المتناهى أخذ يضيق شيئًا فشيئًا ويحصرنى فيه .

تصفحت ثانيا الجريدة فاذا نحن على بعد ٦٧٥ ميلا من منار (امبراواز) القريب من نيويورك وقد قطعنا لغاية اليوم ٣٢٧٧ ميلا

من الطريق وكان أملى الوصول إليه فى الساعة السادسة من مساء اليوم وفى التاسعة منه الى أرصفة شركة النوردتشر اذا كنا لم نصادف هذه العوائق التى أخرتنا ومع ذلك اننا نحمد الله كثيرا لوصولنا إلى هذه البقعة سالمين رغما مما قاسيناه وتكبدناه من عصف الرياح وتقلبات البحر وتغيرات الجو . ذلك الذى جعلنى أكره السياحات الطويلة فى البحار .

أخذ الركاب يجهزون أمتعتهم لتأميلهم أن يصلوا إلى نيويورك فى صباح الغد ولكن ليس الأمر بيدهم بل بيد الله .

إنى لست متحققا من الوصول غدا ولا يمكننى الثقة بالشئ قبل وقوعه خصوصا فى الأسفار ولذا لا أرتاح إلا إن وصلت إلى نيويورك ونزلت فى البر فمتى رأيت اليابسة ووضعت قدمى عليها أقول حقيقة تم السفر فى البحر وأحمد السُرى .

قبل حلول ميعاد العشاء رأينا على ظهر الباخرة عددا عظيما من الملاحين فظننا أنه ربما كان الغرض الاستعداد للتمرن على طرائق إطفاء الحريق أو طرائق الإسراع فى تجهيز أدوات النجاة ولكن لا هذه ولا تلك بل كان الغرض إعداد مرقص للسائحين والسائحات الذين طفح السرور على وجوههم فأرادوا أن يرقصوا طربا و يتمايلوا

جذلا فـرفعت الكراسىّ وأعدّ محـلّ على ظهر البـاخرة لذلك ثم أحضرت جمـلة من الأعلام المختلفة الألوان وعلقت بشكل بديع يتخللها مصابيح جميلة متلألئة بالأنوار الكهربائية وقد أحسنوا تنظيم هذا المحل حتى صار يشـبه سرادقا مقفلا من كل جهة . فلم يمكنى أن أتصوّر لِمَ هـذا السرور مع أن الزمن الباقى لوصولنا هو ٢٤ ساعة ونحن مازلنا فى عرض البحر ولسنا بعيدين عن الأخطار . أفما كفاهم الأيام الماضـية التى كنّا نرقص فيها بالرغم منا لكثرة اهتزاز الباخرة من هيـاج البحر ؟ كان الأولى أن يبتهلوا الى الله ليتمم نعمته عليهم ويوصلهم إلى نيويورك سالمين . أما أنا فنزلت إلى غرفتى وتناولت مع رفيقىّ العشاء وقد أرسـل إلىّ القومندان دفتره الخـاص بتدوين أسماء الذين سافروا معه لأكتب فيـه ما رأيت منـه ليكون تذكارا عنـده . فكتبت فيه باللغة العربية انى أشكره لحسن عنايته بنا ولمـا لقيناه من جميع أعوانه من الاعتناء الزائد بنا ودعوت له أن يكافئه الله على خدماته الجليلة لنـا وللذين سافروا معه ووضعت على هذا اسمى وقـد وقّع على ذلك أيضا رفيقاى خيرى ومصطفى . وبعـد ذلك لعبت دورا مرن الدومينو ثم أوى كل منا إلى مضجعه فصليت لله ودعوته طالبا حسن الختام .

(يوم الثلاثاء ٧ مايو) ـ هببنا من نومنا على صفير الباخرة المزعج فما لبثت أن علمت أننا محاطون بالضباب وهذا ما كان ينقصنا من عجائب الاطلانطيق وتقلباته التى طالما حدّثت عنها فى مواضع مختلفة من رحلتى هــذه فكأن المحيط شق عليه أن لا يرينـا منظرا من مناظره المخيفـة فأسرعت وارتديت ملابسى وصـعدت على ظهر البـاخرة فوجدت أنه يستحيل أن يرى الانسان مَنْ أمامه وشممت رائحة السـمك التى فى بعض الأحيان كنت أشمها بمنيل الروضـــة بمصر وقت نقصان النيل ولـكن هنا هذه الرائحة تأتى من السمك المشهور وجوده قريباً من نيويورك .

فشعرت بمقدار الخطر المحدق بنا ـ إنّ شدّة الرياح وتلاطم الأمواج واهتزاز الباخرة أخفّ عندى من وجود هذا الضباب وإننا نحمد الله أن لم يأت هذا اليوم العصيب إلا فى آخر أيام السفر لا قبل الوصول بثلاثة أيام كما أُخبرنا ـ ان رؤية الضباب تؤثر فى الأعصاب وتقبض الصدر . والغريب أن الباخرة تصفر كل دقيقة ولـكننا كان يخيل إلينا أن تلك الدقيقة التى بين كل صفير وآخر هى خمس دقائق ولذا أخرجنا ساعاتنا لنعلم المدّة بين كل صفيرين فوجدناها دقيقة وعلمنا أن تقديرنا الأوّل كان من ناحية الوهم الذى سلطته ساعة الشدّة على عقولنا

ولا عجب فما أطولَ أوقاتَ الشدائد على منتظرى انفراجها .

إنه بمناسبة وجود الضباب بين لى القومندان الاختراع الجليل الذى ينبىء عن قرب باخرة فى وقت لا يمكن بالنظر ولا بأعظم نظارة أن تشاهدها وهذا الاختراع عبارة عن الأجراس المنبئة بوجود بواخر قريبة . فى مقدّمة الباخرة يوجد جرسان من هذا الاختراع ، واحد من جهة اليمين ، والآخر من جهة الشمال ، وعند ما تقترب أىّ باخرة يدق الجرس الذى من جهـة هذه الباخرة . وبهذه الطريقة يعرف القومندان من أىّ جهة يأتى الخطر فيبتعد عنه وعلى ماقيـل لى إن هذه الأجراس تنبىء من بعد ميلين وقد رُكبت فى باخرتنـا من منذ أربع سنوات .

وقـد أخبرت أننـا سنمرّ على سفينة واقفة فى عرض البحر وهى مستعملة كمنار ومنها تعـلم المسافـة الباقية لنـا وعلى ماعلمت يلزمنـا إحدى عشرة ساعة منها للوصول إلى نيو يورك .

نحن الآن فى الساعة ٩ صباحا فلا يمكننا أن نرى هـذه البـاخرة (المنار) لشدّة الضباب ولكننا كنا نؤمل سمـاع صفيرها (لأنها تصفر أيضا مثل باخرتنا وقت الضباب) والذى كان يخيفنا كثيرا هو قيـام بواخر البوستة فى ظُهر هذا اليوم من نيو يورك و يبلغ عددها العشرين

فهذا العدد العظيم سنصادفه فى طريقنا . ولما كان الجزء الباقى من الطريق تطرُقه البواخر الغادية والرائحة فالخطر عظيم لوجود هذا الضباب والإنسان لا يشعر بالخطر الا اذا كان مُحدقًا به .

جاءت الساعة العاشرة والجو لم يزل على حاله وسرعة الباخرة أنقصت إلى ربع السرعة الأصلية ولم نمرّ على الباخرة (المنار) فى هذا اليوم لم نشاهد أحدا يستريض على ظهر الباخرة على حسب العادة خوفا من الرطوبة فذهبنا إلى الردهة لسماع صبية كانت تعزف على البيانو ومكثنا الى نحو الساعة الثانية حتى أخذ النور يضىء والضباب ينقشع فخرجنا إلى ظهر الباخرة لنرى ماذا تم فاذا نحن أمام هذه الباخرة (المنار) فسُررنا جدّا وابتدأ الاطمئنان يدخل قلوبنا وأطلق للباخرة سرعتها الأصلية فلم يبق لنا إلا مسافة احدى عشرة ساعة للوصول إلى نيو يورك أى كالمسافة التى بين الاسكندرية ورودس . وبعد أن تناولنا الغداء لعبت أيضا دورا من (الدومانه) وفى نحو الساعة الخامسة حضر عندنا المصوّر يدعونا أن نذهب إلى القومندان للتصوير فذهبت اليه مع الصاغ خيرى فوجدناه فى انتظارنا باشًا مسرورا هادئا كعادته فصرت أصوّر له مقدار تخوّفنا مما كنا فيه فأجابنى إن الأجراس المنبهة أنبأته بقرب باخرة المنار على بعد سبعة

أميـــال وقد سمع صفيرها على بعد خمســـة أميال فهنأته بدقة حسابه ومقدرته العظيمة وكثرة معارفه وبعـد أن فرغنا من التصوير دخلنا معه إلى غرفته فصار يشرح لنا آلة أخرى بواسـطتها يعرف عمق ماء البحر وهى آلة غير تلك الآلة المستعملة فى كل البواخر التى هى حبل طويل ذى عقـد طول مابين كل عقـدة وأخرى معلوم وفى منتهى هذا الحبل قطعة ثقيلة من الرصاص فتلق هذه القطعة بقوة فتغوص فى المـاء فعدد العـقدات الغائصة يدل على مقدار العمق ولكن هـذه الآلة لاتصلح الا وقت السير البطىء وهى مسـتعملة كثيرا فى المراكب الحربية أما هذه الآلة الجديدة فهى مباينة للتى شرحتها وهى صـالحة لاظهار العمق فى وقت سـير البـاخرة بأكبر سرعتها (أى ٢٣ ميلا فى الساعة) ولأهميتها أصفها للقارئ بالتقريب :

فى مؤخر الباخرة أسطوانة ملفوف عليهـا حبل دقيق من الصلب طويل وفى نهايته قطعة عظيمة ثقيلة من الرصاص بينها وبين الحبل أنبوبة مقفلة من الجهة العليا ومن الجهة السفلى يمكن فتحها فتوضع داخل هذه الأنبوبة أنبوبة أخرى من الزجاج ملونة بلون أحمر يزول سريعا بالمـاء ثم تقفل الأنبوبة الحـديدية وفى أسفلها توجد فتحات صغيرة لامكان دخول الماء فيها وهى محكمة حتى إن الهواء الموجود

بالأنبوبة الحديدية لايمكن خروجه وبعد ذلك يدلى الجميع فى البحر بواسطة ادارة الأسطوانة التى يقف بجانبها أحد الضباط و بيده عصا دقيقة من الحديد فهـذه الآلة تسقط عمودية فى قاع البحر وحيث إن الهواء الذى فى الأنبوبة لايمكنه الخروج فكلما نزلت الآلة فى الماء ازداد ضغط الماء على الهواء المحبوس فى الأنبوبة فينقص حجمه من هـذا الضغط ولا يزال كذلك الى أن يشعر الضابط بوصول قطعة الرصاص الى قاع البحر وهذا يظهر له من حالة الحبل المصنوع من الصلب فيوقف بعصاه الحديدية الإدارة و بعد ذلك تسحب الى الأعلى فالماء الذى دخل فى الأنبوبة الحديدية بواسطة الضغط أزال جزءاً من اللون الأحمر الملونة به الأنبوبة الزجاجية ومعلوم عنـدهم طول الأنبوبة الزجاجية فيقاس الباقى منهـا أى الذى لم يذهب لونه وبحساب خاص عندهم يمكنهم معرفة عمق البحر أما مخترع هذه الآلة المفيدة فيدعى (طومسون) وقد كان يعمل هذا المقاس كل ربع ساعة فى وقت الضباب حتى يتأكد القومندان من الموقع الذى تمرّ منه الباخرة .

جاء المساء وذهبنا للعشاء واذا كل الراكبين يسرعون الى الخـارج فقمنا لنرى ماذا جدّ واذا نحن أمام منار (امبر واز) القوىّ القـائم

فى أوّل مدخل بوغاز نيو يورك و بعــد أن وقفنا قليلا للاطلاع عدنا لنتمم عشاءنا ثم افترقنا على أن نكون على استعداد تام غدا الساعة ٦ صباحا .

رست الباخرة على محل الحجر الصحىّ وحيث إن وصولها كان ليلا فقد أجلت عيادة الطبيب للغـــد الســاعة ٦ ونصف صباحا لعدم وجوده . قمت مبكرا الساعة ٥ صـــباحا (يوم الأربعــاء ٨ مايو) وارتديت ملابسى فكنت على اســتعداد بعد نصف ساعة من قيامى من النوم وفى نحو الســاعة ٧ و ٣٠ دقيقـة تحولنا للدخول فى الميناء و يلزمنا ٣٠ دقيقة لنصل الى الرصيف المخصص للشركة وقد لاحظت أن عمال المكس كانوا فى الباخرة للقيام بواجباتهم . أما مخبرو الجرائد فلا تسل عن عددهم فانهم أتوا أيضا ليتنسموا أخبار القادمين و يملؤا بها أعمدة جرائدهم الكبيرة وهم يتسابقون الى ذلك فيبتدئون بالاطلاع على كشف أسماء الراكبين فى الباخرة واذا وجدوا اسما بينهم من أسماء المشهورين يجتهدون فى مقابلة صاحبه وقـد يمرون على غرف الباخرة التى من الدرجة الأولى ليعرفوا من بها ولهم طرق غريبة فى استنشاق الأخبار من الملاحين أو من الخدم أو من الضباط أو من المسافرين أنفسهم فاذا علموا أن القادم من أرباب المصارف المشهورة يسألونه

عن قصده وهل له مشروع مالىّ جديد وما هى آراؤه فى الحالة المالية فى السنة الحاضرة واذا كان من كبار أمة يسألونه عن سبب زيارته لأمريكا ثم يستدرجونه بحيلهم فى الكلام و يأخذون عما يدور بينهم بعض مذكرات و يتوسعون فيها بعد ذلك و يدرجونها بكل سرعة فى جرائدهم . و إنى أرى أنهم مضطرون إلى عملهم هذا و إلا فما الذى يملأ هذه الجرائد العظيمة التى لا تقل احداها عن ثمان صفحات ـ فكان من نصيبى أحد هؤلاء المخبرين وهو شيخ عتيق فى صنعته بارع فيها وهو مخبر جريدة (ورلد World) المشهورة بنيويورك ولعلمى أن مثل هؤلاء المخبرين يلزم الاحتراس من لسانهم فلم أردّه خائبا بل قابلته وتحادثت معه على قدر مايستطاع من الاختصار و بعد ذلك طُلِبنا لنمرّ أمام مفتش المهاجرين وكان يسلم إلى كل واحد منا ورقة حمراء صغيرة بها اسمه ولقبه وبعض إيضاحات أخرى وهى مجعولة لمعرفة شخصية القادم فيقدّم السائح هذه الورقة لأحد المستخدمين المنوطين بذلك فيسأله عن اسمه وعن المدّة التى سيقيمها فى أمريكا و يطبق أجوبته على الورقة التى كتبت أوّلا عند النزول فى الباخرة وهى التى تسمى جوازا (بسابورتا) .

هنا يلزمنى أن أقول شيئاً عن هذه الورقة إن الأسئلة التى بها كثيرة

جدًا منها ما هو مستعمل فى جميع جوازات بسابورتات العـالم ومنها مالم أره إلا فى بلاد أمريكا كالأسئلة الآتية : هل أنت متزوج بأكثر من واحدة ؟ هل سبق أن أصبت بمرض معدٍ وما هو ؟ ماهى حالة صحتك الآن ؟ هــل أنت كامل الخلقــة ولا توجد بك عاهات ؟ ما سبب مجيئك الى أمريكا وما هى المـدّة التى ستمكثها فيها ؟ ماهو مقــدار ثروتك ؟ ماهو الموجود معك الآن من النقود ؟ أىّ جهة تقصد الإقامة فيها ؟ وهكذا مما لا أتذكره لكثرته فتأمل أيهــا القارئ مقدار هــذه الشدّة ولوكان مثل هــذا البسابورت فى بلادنا لهاجت علينا الأفكار قاتل الله الأغراض .

ذهبنا فى صحبة رئيس الخدم إلى رئيس ديوان المكس فعرفنا أنه وصلته أوامر من مركز الرآسة التابع لها بواشنجتون بأن لا يفتح حقائبنا فشكرته على ذلك وأبديت له سرورى من هذه المعاملة الحسنة .

وفى أثناء ذلك كانت الباخرة ترسو رويدًا رويدًا على الرصيف وقد شاهدنا كثيرا من الرجال والسيدات والأطفال وبيدهم جميعا الأعلام المختلفة ينتظرون القادمين من الأقارب والأحباء فكنا نرى علامات البشر والسرور بحسن القدوم بادية عليهم حتى إن بعض الســيدات كنّ يرسلن القبلات من بعيد الى أقاربهن وأصحابهن . رست الباخرة

فاشتدّت المزاحمة على الخروج أما نحن فكنا منفصلين عن هذا الجمع لنرى مدخل البوغاز الجميل ولا عجب فإنه يستحق الالتفات اليه والإعجاب به ورغما من انهمار الأمطار كان المنظَر بديعا جدًّا فالبواخر الراسية أو الذاهبة أو القادمة كانت لا تعدّ ولا تحصى كذلك الأرصفة التسعة التابعة لشركات مختلفة أما المنازل الشامخة ذات العشرات من الأدوار المصنوعة من الحديد فكانت تستلفت أنظارنا فتتعجب من عظمتها وبدأنا نشعر بكبر هذه البلاد ووصولها إلى الغاية القصوى فى صناعة الحديد وقد دلنا ذلك على أن هذا المعدن رخيص فى هذه البلاد حتى إنه يصنع منه كل شئ . وبعد ذلك نزلنا نقابل القومندان فودّعته مكررا الشكر .

ولما أردنا النزول بعد أن هدأت الحالة قابلنا أحد رجال كوك وهو شابّ ألمانى تظهر عليه علامات الذكاء والسرعة فى تأدية وظيفته فأُخبرنا أنه قادم لخدمتنا مأمور بالقيام بكل حاجاتنا فأوصلنا إلى سيارة أعدّها لنا فى طريق كان يتسابق إليه مخبرو الجرائد فكم وكزوا هذا المسكين وكم توعدوه بالشر لعدم مساعدتهم فى إيقافنا لمحادثتهم . ولما ركبنا السيارة أعطى اسم النُّزُل سرًّا للسائق حتى لا يسمعه هؤلاء المخبرون واستأذن منا فى إحضار المتاع ويلحقنا .

أما نحن فكنا لانعرف أين نذهب فتركنا أمرنا للسائق الذى أسرع فى السير إلى أن وصل إلى باخرة معدّة للتعدية من الشاطئ الذى نحن فيه وهو يسمى (ن . جرس N. Gersay) إلى الشاطئ الآخر الواقعة عليه نيو يورك وكان أمامنا جملة من العربات والسيارات فأخذت كل عربة مكانها فى الباخرة ونحن أخذنا مكاننا أيضا بسيارتنا وقد لاحظنا أنه يوجد ثمـان بواخر للتعدية الى جهـات مختلفة من نيو يورك أما نحن فأخذنا الباخرة التى توصلنا الى طريق نمرة ٣٢ وهنـا يمكن أن أذكر أنـ الأمريكيين لهم طريقة جديدة استحسنتها فى ترتيب شوارعهم وهى أنهم يختطونها كلها موازيا بعضها لبعض وليس لهـا أسماء بل منمرة . فمدينة نيو يورك يخترقها ١٦٢ شارعا كلها يوازى بعضها بعضا وهذا غير نيو يورك القديمة الباقية على حالتها فشوارعها لاتزال تسمى بأسمائها القديمة .

مررنا أثناء سيرنا على جملة من الطرق وقد لاحظنا أنها ليست بالغة الغاية فى النظافة بل هى كطرق سـائر المبانى فى النظافة ولكن الذى يستلفت النظر هو شدّة الزحام وعدد العربات الكبيرة المحملة بضائع التى تجرها خيول عظيمة الخلقة من كل جنس وعلى ماأُخبرنا أنـ نيو يورك جامعة من جميع أجناس البشر وكذلك الحيوانات والعربات

والسيارات الاتيــة من بلاد مختلفة . أما منازلها ودكاكينها فإنها على حسب الترتيب الانجليزى ومن كـثرة دخان المعامل والمداخن يراها الإنسان سوداء وهى على الجملة ليست نظافتها كما يرام .

وصلنا إلى نُزُل (بلمونت Belmont) فطلبتُ لنا غُرَفا فأُعطيت لنــا فى الدور الثالث عشر وصعدنا اليها وقربنا من منافذها فشاهدنا المنظَر بديعا جدّا حتى إننا كنا نرى الأشخاص كالنمــل من كثرة الارتفاع . كذلك كنا نتصوّر الترموايات العديدة كأنها اللُّعَب الصغيرة التى تكون فى أيدى الأطفال ولكننا لعدم تعوّدنا مثل هــذه الأمكنة المرتفعة كنا نستصعب وجودنا فيها لا سيما أن النجاة لا تكون متيسرة لمن فيها اذا حدث حرق كالقــريب من سطح الأرض ففضلت أن أختار غرفا فى الدور الأقل ارتفاعا من الذى فيه غُرَفُنا وقد طلبت ذلك ونُقلنا إلى الدور العاشر ولكن حركة الترموايات الكبيرة مقلقة جدّا ففهمت السبب فى اعطائنا الأدوار المرتفعة وعلمت أن فكرة الحريق يلزم إبعادها عن خيالنا .

إن عدد سكان نيويورك يبلغ ثلاثة ملايين نفس وهى تعدّ بعــد لوندره أكبر مدينــة تجارية فى العالم وهى فى الحقيقة عاصمة الولايات المتحدة الأمريكية ولو أن واشنجتون هى مركز الحكومة الرسمى

وعاصمتها ولكنّ عددا هائلا مثل سكان مدينـة كنيويورك محتاج إلى بضائع وأشياء أكثر من غيرها ولذا ترد التجارة إليهـا من كل صوب بفكرة أنها تروج وتباع

لغاية ظهر هذا اليوم لم ننتقل من النُّزُل وكنا ننتظر متاعنا وبعد حضوره أبدلنا ماعلينا من الملابس ونزلنـا إلى قاعة الاستقبال لمقابلة المســـيو يانج (Young) مدير محـــل كوك فى نيويورك فأريته برنامج سياحتنا ففهمت منه أنه يعلم ذلك قبل مجيئنا فعرض علىّ أن يدخل بعض تحوير فيه .

لـــا حان ميعاد الغداء ذهبنا إلى غرفة الأكل ولما كان نُزُل بلمونت من أحسن فنادق نيويورك كنا ننتظر أن نرى فيـــه ما يروقنا ولكن خاب ظننا ولم يعجبنا خدّامه وإنى أرى فرقا عظيما بين فنادق أوروبا الكبيرة وبين هــذه فى النظام ووضع الغرف والترتيب العام والخدمة والنظافة .

هنا كل شئ كبير هائل: المنازل بها فوق الخمسين طبقة وعدد غرفها يزيد عن الألف ولكنها صغيرة تشبه حُجَر البواخر . نعم إن فى بعضها عشر مصاعد (اسانسورات) للصـعود والنزول ولكن ما الفائدة اذا كان النظام غير كاملٍ . ومن الغريب فى أمرِ هــذه الفنادقِ أنِ هناكِ

إذنا عاما بالخروج والدخول والجلوس فى رَدَهَاتِها وصالوناتها فنرى أناسا من كل الطبقات فى رَدَهَاتِهـا يجلس أىّ انسان فى المحل الذى يريده يدخن كيف يشاء ويحرّر خطاباته ويضرب مواعيد مقابلة فيهـا لأصحابه وهكذا وقد عرفنا أن هذا التساهل انمـا هو لايهام الوافدين من أوروبا أو من بلاد أجنبية أخرى أن حركة هذا الفندق عظيمة والإقبال عليه كثير وهذا من باب الإعلان والنشر فتسمع من أصحابه مثلا أن عدد الواردين اليه لا يقل عن ٢٠٠٠ نفس فى كل يوم . صدقوا ولكن هل هذا العدد العظيم يقيم فيه ؟ لا .

اذًا هـذه الطريقة هى من ضمن طرق الاعلانات التى برع فيهـا الأمريكيون وقـد لاحظنا أنه اذا حضر زائر وأراد مقابلة أىّ شخص بالفندق فمـا عليه الا أن يذكر اسمه واسم من يريد مقابلته الى مركز الإدارة الذى يعطى هذين الاسمين الى أحد الغلمان فيدور فى الرَّدَهَات مناديا بهذين الاسمين فخيل إلينا أننا فى احدى الاسواق أو فى أحد المحال التجارية التى يباع فيها بالمزاد العلنى .

ان السماء كانت تمطر ولكنى لم أرد أن أطوى سجل يومى بدون أن أرى شيئا جديدا فطلبت من المسيو يانج مدير محل كوك ارشـاداته فأشار على أن نمتطى سيارة ونذهب الى الرياض العامة فى أعلى البلد

ثم نزور الأماكن العظيمة المشيدة فى نيويورك فوافقناه على هذه الفكرة ورجوته أن يأمر لنا بإعداد سيارة (ليموزين) ويحدّد الأجرة مقدّما ويزوّد السائق بما يلزم من المعلومات وقد حدّدنا ميعاد الاستراضة الساعة الثالثة بعد الظهر ـ هنا كل شئ غال ولا يسمع الانسان إلا الدولارات وأجرة السيارة فى الساعة الواحدة ٥ دولارات أى خمسة وعشرون فرنكا .

صعدنا إلى غرفنا لنستريح قليلا حتى يأتى ميعاد الاستراضة فلم أتمكن من ذلك لوجود تليفون بحجرتى ورغبة الكثيرين من مخبرى الجرائد وأصحابها وغيرهم فى مقابلتى وان سكت جرس التليفون كان يأتى أحد الخدم حاملا بطاقة يطلب صاحبها مقابلة وهكذا الى أن وردالىّ أخيرا ظرفان أحدهما يحتوى على رسالة من كاتم أسرار جمعية الاتحاد السورى بنيويورك بإمضاء عباس أبى شقرة والآخر يحتوى على بطاقة المسيو قيصر صباغ فمضى الوقت ولم أذق للراحة طعما وأتت الساعة الثالثة وإذا جرس التليفون يدق وقائل يقول لى إن السيارة فى انتظاركم فأسرعنا بالنزول بواسطة المصعد (الأسانسور) الذى يلزمنى أن أصفه قليلا ليعلم القارئ مقدار الصعوبات التى تكبدناها . ان هذا المصعد يهبط بالانسان بسرعة رائعة تذهب بالعقل وتؤثر فى الأعصاب كذلك

فى صعوده فانه يرتفع دفعة واحدة فيهتز الراكب اهتزازا شديدا يسبب فى بعض الأحيان فقد الموازنة فيالله اذا تكرر الصعود والهبوط جملة مرار . وبالاختصار ركبنا السيارة وذهبنا الى مدير محل كوك بشارع برودوى (Broadway) وهو أطول شارع بنيويورك طوله نحو ١٣ كيلو مترا فوعدنا بارسال دليل يرشدنا إلى كل ماتريده .

انى ممن يحبون الهدوء والسكون ولذا أعشق جمال الطبيعة ، وكثرة الحركات فى المدن العظيمة لاتروقنى ؛ فما أراه الآن فى نيويورك من الحركة المدهشة جعلنى أسأم الإقامة بها وإنى أشعر بنفسى كأنما وُضعت فى مصفحة اسطوانة جوفاء من الداخل والخارج ومعى جملة من قطع الحديد وقذف بى فى شارع منخفض فصرت أتدحرج ولا قوة لى أن أمنع هذا السير السريع وأتخلص مما أنا فيه .

عدنا من محل كوك لنتمم استراضتنا فذهبنا من الشارع نمرة ٥ وهو أجمل شارع بنيويورك به أعظم وأكبر المحال التجارية إلى السنترال بارك (Central Park) وهو متنزه جميل فى وسط المدينة كمتنزه (هايد بارك) بلوندره ومنه الى شاطئ نهر (الهدسون) الذى أعجبنى جدًا المناظر الجميلة التى به خصوصا المنازل الخصوصية فانها مشيدة تشييدا يقتاد أعنة الحَدَق اليها ولم نقطع من هذا الشاطئ ٤ كيلو مترات حتى رأينا

تمثال الجنرال جرانت فاستمررنا ونحن مسرورون بهذه الاستراضة اللطيفة الى واشنجتون بارك وهو مســـتراض آخر وعلى ربوة منـه مدرســة العميان والصم والبكم . أما الجسور وعظمتها ودقة صنعتها وارتفاعها وطولها فلا تسل عنها . مدهشة وكثيرة ومن أحسنها جسر واشنجتون . هذا وقد رأينا أثناء سيرنا بنايات هائلة ومدارس عديدة وقد ألفت نظرَنَا كِبرُ الجــامعة الأميركانية وحسن موقعها وجمال بنـائها ولكن لا عجب من ذلك اذ أننـا فى بلاد المليارات والمشهور عن أغنياء أمريكا الغَيرة الشديدة والمنافســـة حتى فى الهبات العلمية وبما أن جامعتهم حديثة بالنسبة لباقى جامعات الأمم الأوربية لا بدع أن اختاروا من كل جامعة مارأوه جميلا ومفيدا ووضعوه فى جامعتهم ولا بد من أن تكون أرقى بكثير من أشـباهها بأوروبا وغيرها ولا يخفى أن الذهب الوهَّاج يسهل الصعوبات ويجعل كل شئ ممكنا فبثروتهم الهـائلة يُحضِرون الأساتذة المـاهرين والمخترعين المشهورين لأنهـم لا يضنون بدفع أجور عالية تحبب المجتهدين فيهم .

عُدْنا إلى الفندق فى الساعة السادسة مساء مسرورين من كل مارأيناه ولقد استغربنـا كثيرا لقلة رجال البوليس خصوصا فى الأنحـاء المتطرفـة ولا بد أن نيويورك لا تخـلو من قُطَّاع الطرق واللصوص

كسائر المدن الكبيرة ـ ولما دخلت غرفتى وجدت فيها باقة من الورد الأحمر الجميل مكللة بشريط أحمر من الحرير مكتوب عليه بالقصب جمل الترحيب بحضورنا من نادى السوريين بنيويورك .

تناولنا العشاء وافترقنا للنوم طلبا للراحة مما لحقنا من التعب وفى صباح الخميس (٩ مايو الساعة ٩ و ٣٠ دقيقة) حضر عندنا المسيو يانج ومعه الدليل فنصحنا أن نذهب إلى المدينة القديمة لمعرفة الفرق بينها وبين الجديدة ثم الى البورصة والى مركز التجارة فقبلنا مشورته فأمر الدليل أن يخاطب أحد سماسرة البورصة تليفونيا يرجوه أن ينتظرنا ليأخذنا معه الى البورصة التى لا يمكن زيارتها الا بواسطة أحد سماسرتها لأنه ألقيت من مدة قنبلة مفرقعة بيد أحد الفوضويين فى داخلها ومن وقتها حصل التشديد فى قبول دخول غير المعروفين . فافترقنا على أن يعود المسيو يانج بعد الظهر وركبنا سيارة للذهاب الى الأماكن التى ذكرها لنا وفى الطريق صادفنا زحاما شديدا ولا يمكن الانسان أن يتصور عدد الماشين وعدد العربات المختلفة الأنواع وإنى لا أذكر زحاما يشابه هذا الازدحام إلا فى بعض الأحياء الكبيرة بلوندره .

مررنا فى الطريق على المكتبة التى أهدى أرضها المستر استور أحد أصحاب المليارات وقد قدر ثمن تلك الأرض بمبلغ ٢٠٠٠٠٠ جنيه

أما بنـاؤها العظيم فقد تكفل به المستر كاريجى من أكابر المـاليين فتركناها واستمررنا فى طريقنـا الى أن وصلنا الى المبـانى العظيمة (كالماديسون سكوير) و (ساحة الاتحاد Place de l'Union) وقوس النصر لجورج واشنجتون و برودوى (Broadway) وقربنـا من البورصة وما كنا نرى على يميننا وشمالنا وأمامنا الا مبانى هائلة مركبـة من ٤٠ الى ٥٠ طبقة وأغلبها فيه شركات التأمين وأكبر المحال التجارية وأعظم المصارف . ومن دلائل الحيـل التى برع فيها أهل تلك البـلاد أن أصحاب البيوت ذات الأدوار الكثيرة يجتهدون فى اختيار أشهر موقع و يبنون منازلهم فيـه بجوار المنازل الصغيرة حتى يظهر الفرق بينهم و بين الآخرين فوقفنا أمام أحد المصارف وذهب الدليل لاستحضار من سـيدخلنا البورصة ولم يغب عنـا الا قليلا وحضر ومعه رجل فى سن الشيخوخة فعرفنا بنفسه وأخبرنا أنه صديق المستر لونج الذى كان قاضيا عندنا فى المحاكم المختلطة بمصر وركب معنا الى وُل استريت (Woll Street) فوقفنا أمام البورصة و رأينا على بعد بضعة أمتـار منها زحاما شديدا فاذا هو مجمع السماسرة الفقراء الذين يبيعون بعض أوراق على قدر حالهم وقد علمنا أنه لايمكن أن يعدّ سمسارا فى البورصة الا من كان مساهما فيها بمبلغ لا يقلّ عن ألفى جنيه

فدخلنا فيها وصعدنا بالمصعد الى الدور الثانى فاخترقنا طرقة ودخلنا من باب أوصلنا الى طنف (بلكون) يُطِلُّ على ساحة عظيمة الاتساع مملوءة من المخلوقات فلا يرى الانسان الا رجالا تموج فى هذه الساحة وأوراقا صغيرة كاسية وجه الأرض وغلمانا مرتدية ملابس مخصوصة للبورصة تجرى و بيدها أوراق لتوصلها الى أشخاص ومكتبا كبيرا للتلغرافات ولوحتين كبيرتين احداهما على اليمين والأخرى على الشمال تظهر منهما نمر السماسرة المطلوبين والذين أعطوا عطاءً و بالجملة ان هذه البورصة تشبه خلايا النحل من كثرة العالم والجلبة التى فيها وفى أثناء ذلك حضر شريك الذى كان معنا وسلم علينا و بعد ذلك خرجنا وكلنا يعجب من هذه الحالة وشكرنا من أدخلنا .

ذهبنا بعد ذلك إلى محل ماكينات سنجر وإذا هو بناء مرتفع جدًّا عدد طبقاته ٤٢ فدفعنا أجرة الدخول وقدرها ٥٠ سنس (١٠ قروش) عن كل شخص وصعدنا الى أعلى دور فى هذا البناء فانكشفَ أمامنا المنظَر العام لمدينة نيو يورك لكن مما أسفنا له أن الجو كان عابسا مكفهرًا والأمطار تهطل مدرارا ولولا ذلك لملأنا أعيننا من ذلك المنظَر البديع والشمس تسطع على رءُوس هذه الجبال التى ابتناها الانسان ليسكن فيها ويجعلها لنفسه مأوًى ومع ذلك لم نحرم

من رؤية جسر (بروكليس) ولا جزيرة المهاجرين ولا الثكنات الحربية ولا العدد العظيم من الأرصفة التى من ضمنها الرصيف الذى رست عليه باخرتنا . و بالجملة أمكننا أن نرى المدينة وأطرافها المتسعة وشوارعها المتوازية التى يقطع بعضها بعضا فرسمت تلك الرؤية فى خيالنا منْظَرا بديعاً جدًّا . ربمــا يظن القارئ أن الاثنتين والأربعين طبقة مملوءة مكينات ولكن لا . ان هذه العمارة ملك للمسيو سنجر له فيها محالّ على قدر احتياجه والباقى مؤجر ليكون مكاتب لأشخاص آخرين .

وقد سبق أن شرحت للقراء كثرة افتنان الأميريكيين فى طرق الاعلان والنشر . وما بنى المسيو سنجر هذا البناء العظيم المرتفع إلا ليوجه الأنظار اليــه وإلى تجارته ـ وعند نزولنا أعطيت لنا رســوم نيويورك على سبيل التذكار .

وصــلنا إلى الفندق قُبَيل الظهر فأسرعنا لتناول الغداء لأننــا كنا حدّدنا ميعاداً للخواجه قيصر صباغ الساعة ٢ و ٣٠ دقيقة بعــد الظهر وميعادا آخر لبعض أعضاء نادى الاتحــاد السورىّ الساعة ٣ فعند الســاعة الثانيــة وربع حضر الأول فوجدته لطيفــا وهنأته لنجاحه فى أعماله حيث إنه يملك ويدير محلا تجاريا للتفصــيل والخياطة من أكبر المحلات بنيويورك ولا شك أن شرقيا يصل الى درجته وينجح

بين ثلاثة ملايين من الأنفس فى بلاد هو غريب عنها يستحق المدح والثناء والفخر . فجلسنا نتجاذب أطراف الحديث عن مدينة نيويورك ولكنا لم ننس أثناء الكلام أن نذكر بلادنا الشرقية العزيزة — لم يمض علينا وقت كبير حتى حضر أحد الخدم ومعه بطاقة أحد تجار اليونان بالإسكندرية فالآداب تقضى علىّ بمقابلته خصوصا لاهتمامه وإظهار ميله إلىّ فقابلته وجلس معى قليلا وانصرف بعد ماعلمت منه أنه يتاجر فى أمريكا فى بذر القطن المصرىّ الذى يسمى نوباريًا فشجعته على ذلك وقلت له إننا نشترى جملة أشياء من الخارج فيلزمنا أن نبيع للبلاد الأخرى بعض حاصلاتنا حتى لا نحرم من المكسب ولو كان قليلا . إن البلاد العظيمة ما وصلت إلى درجتها إلا باجتهاد سكانها ولا تعدّ غنية الا بثروة أفرادها . فياحبذا لو ألهم الله الأمم الشرقية الالتفات الى موارد الثروة ومزاحمة الأمم الغربية فى كل مايعود عليها بالسعادة والهناء هذا ما أتمناه للشرق وفقنا الله الى ما فيه صلاحنا وفلاحنا .

أتت الساعة الثالثة وحضر ستة من السوريين من أعضاء الاتحاد السورىّ بينهم طبيب وصحافىّ والأربعة الباقون تجار فكونّا حلقة عربية وأطلقنا لأنفسنا عنان النطق بلغتنا الشريفة مظهرا لهم سرورى

من إهـدائهم لى باقة الأزهار الجميلة ثم دار بيننا الحديث فى جملة موضوعات مختلفة وقد علمت منهــم أن لهم ست جرائد تطبع باللغة العربية فزادنى هذا الخبر سرورا لانتشار هذه الجرائد فى أمريكا لعلمى أنها واســطة التعارف والارتباط بين أبناء العرب الكرام ولا بد أنها تأتى بحوادث وأخبار الشرق فلا ينسى المهاجرون أوطانهم ويكونون دائمـا على علم بما وصلت اليه بلادهم من السـعادة أو الشقاء وبهذه المناسـبة رجوتهم أن يحافظوا على جنسيتهم وأن لايغتروا بمدنية وارتقاء وثروة أمريكا فيميلوا اليها ويتجنسوا بجنســيتها فبلادنا محتاجة الى أبنائها الأعزاء ومهما بلغت البلاد الأخرى فان الشرق هو مهد العلوم والمعارف وأصل المدنية ومنبع النور .

إن هــذه المقابلة جعلت الرابطة بيننا وبينهم قوية حتى إننا افترقنا أصدقاء فودّعتهم شاكرا لهم شريف شـعورهم داعيا لهم بالتوفيق .

دعانى الخواجه قيصر صباغ لأن أتناول العشاء معه فى مطعم فرنسى شهير للسيو (مارتن) فقبلت دعوته وانصرف مع إخوانه على أن يعود إلينا قبل العشاء وبعد خروجهم حضر المســتر (يانج) ومعــه تذاكر السـفر وقد فهمنى السبب فى تعديل خطة السياحة فتسـلمتها منه وانصرف أيضا لأشـغاله ولمـا صعدت إلى غرفتى وجدت بها باقة

من الزهور مرسلة من الخواجه قيصر صباغ وعددا عظيما من بطاقات مخبرى الجرائد وقطعا من الجرائد اليومية التى بها ذكر قدومنا إلى نيو يورك فصممت على الخروج ماشيا لأجل الرياضة والراحة والابتعاد عن الفندق ولو قليلا حتى أتجنب مقابلة هذا الجيش العرمرم .

خرجنا ومشينا فى شارع نمرة ٥ وإذا بالأمطار تتساقط علينا فعدنا على أعقابنا مسرعين إلى الفندق وعند الساعة السادسة ونصف حضر الخواجه قيصر صباغ فذهبنا معه ماشين إلى المطعم فوجدت أنه فى أحسن المواقع وأن الاقبال عليه عظيم فلم أستغرب لكثرة الواردين عليه حيث ان الطعام فى باقى المطاعم الأميريكية ليس جيدا وقد علمت أن المسيو مارتن يدفع كل سنة عشرين ألف جنيه إيجارا ويصل فى بعض الأيام دخله إلى ٢٠٠٠ جنيه بجلسنا حول السفرة التى أعدّت لنا بين زهور جميلة منضودة على المائدة وشجيرات خضراء متفرّقة فى مواضع مختلفة . ومن حسن الاتفاق أن الذى كان قائما بخدمتنا وقت الأكل تونسى يتكلم باللغة العربية فهذه المصادفة الجميلة جعلتنى مسرورا .

انتهينا من العشاء وافترقنا للراحة والنوم لأننا سنسافر غدا صباحا

الساعة ٨ و ٣٠ دقيقة بعـد أن أرسلنا الى المحطة ـ وكانت أمام الفندق ـ حقائبنا الكبيرة لترسل الى شيكاجو .

أصبحنا فى يوم الجمعة ١٠ مايو مبكرين وبعد أن تناولنا طعام الإفطار ذهبنا مع باقى متاعنا إلى المحطة نحو الســاعة ٧ و ٣٠ دقيقة فاخترقنا الطريق الفاصـل بين الفندق والمحطة التى يشـتغلون لتتميم بنائها وهى تسمى (المحطة المركزية الكبرى) والظاهر أن أكبر مساهم فيها هو المســتر ويندربلت وقد نزلنا الى نفق تحت الارض للوصول الى الرصيف الواقف عليه قطارنا أما تذاكرنا فكانت معنـا وبمـا أنها تذاكر جمـلة محطات سـنترل فيها فكانت طويلة كالحبل يفصل منها كلما اقتضى الحال التذكرة اللازمة (Billet circulaire) . رتبنا أمتعتنا فى الصالون الصغير المعد لنا فى العربة (Compartiment) واذا بالمستر يانج قـد حضر لوداعنا وللسؤال عمـا اذا كنا فى احتياج لأى شئ ليؤديه لنا فرجوته أن يبعث بشكرى للمستر ف . كوك ويقول له انى لا أنسى الخدمات الجليلة التى قام بها مستخدموه فانهم جميعا اجتهدوا فى عمل كل مايسرنى .

أتت الساعة ٨ و ٣٠ دقيقة فودعنا المسـتر يانج فتحرك القطار وقد لاحظنا أن الفراشين الذين كانوا سودانيين مرتدون ملابس بيضاء نظيفة .

تركنا المحطة وسار بنا القطار مخترقا نيو يورك فكنا أشبه براكبى قطار النفق (المترو Metro) نمر بين أبنية وعلى جسور (كبارى) الى أن وصلنا الى منازل العمال التى بعضها بجانب بعض على الجهتين وكنا نلاحظ أنهم ينشرون ثيابهم المغسولة على حبال سوداء فوق السطوح أو بين البيوت كالطريقة المتبعة فى ايطاليا ولا عجب فانهم ايطاليون . وفى نيويورك ٣٠٠٠٠٠ عامل ايطالى . ووقف بنا القطار خارج نيويورك والى هنا كان قائد عرباتنا قاطرة تمشى بالكهرباء ففصلت عنا وأتى بقاطرة بخارية عظيمة بدلها وهذه ستمشى بنا ساعتين وثلاثة أرباع الساعة بدون أن تقف على محطة .

ابتدأنا نشاهد المناظر الجميلة فكان طريقنا على شاطئ الهدسون (Hudson) وهو نهر جميل واسع به ألوف من الزوارق والبواخر فكم مررنا على جسور وكم رأينا معامل عددها لا يحصى . وقد ذكرتنى هذه المناظر بمناظر البوسفور الجميل لأنها تشبهها فى وجوه كثيرة حتى إن الاتساع فى بعض الجهات يكاد يكون واحدا . كان قطارنا يطوى الأرض طيا وكنا نمر على بلاد كثيرة ولكن ليس فى ذلك شئ خارق للعادة فانه كقطاراتنا السريعة التى تسير بين مصر والأسكندرية . تركنا محلنا وذهبنا إلى آخر عربة فى منتهاها جزء مكشوف

كالطنف (Observation car) به كرسيان مخصصان لمن يريد الاشراف على المناظر ولكن كثرة الدخان والقتام المتصاعد من السرعة تجعل الجلوس فى هذا المحل غير مستطاع . وصلنا الى البانى (Albany) عاصمة مقاطعة نيويورك وعدد سكانها ٩٥٠٠٠ وهى واقعـة على الشاطئ الغربى لنهر (الهدسون) فى ملتقى مصب النهرين ايرى (Erie) وشامپلان (Champlan) وهى بلدة قديمة هولاندية وتجارتها البيرة والأخشاب . والى هنا كان المنظر بديعا حيث كنا دائما على شاطئ نهر الهـدسون وقد مررنا على جملة معامل بعضها متروك والبعض الآخر يشتغل وألفت نظرنا معامل الآجر الكبيرة التى تصنع للبنايات الهائلة بنيويورك وبعد هـذه البلاد أخذنا ننظر بعض روابى وأخذ القطار يتبع طريقـا به منحنيات فتغير المنظر وصار يشـبه مناظر شمال ألمانيا أو بوهيميا . أما منازل الفلاحين التى مررنا عليها فانها مصنوعة من الخشب وملونة بألوان مختلفة ولكن اللون الأحمر والاخضر هما اللونان السائدان المختاران عندهم والمنظر العام لهذه المنازل من بعد يشبه المنازل النورفيجيـة أو السويسرية ولكن لا يوجد بينها ما يسمونه باللغـة الفرنساوية (شاليه Chalets) هـذا وهؤلاء الفلاحون يشبهون

الهولانديين والالمانيين والسويسريين والنمساويين ولم أر فرقا بينهم يميزهم عن هذه الأجناس .

إن الانسان يشعر وقت السفر والتنقل بين أرجاء تلك البلاد بمقدار اتساع الولايات المتحدة ويرى أن صدرها يتسع لكثير من المهاجرين غير من نزحوا إليها لملء فضائها العظيم وزرع أراضيها الواسعة التى لم تمسها الى اليوم يد الزرّاع .

قربنا من بلدة أوتيكا (Utica) فرأينا كثيرا من قطعان البقر ولكنه صغير الجسم ضئيله لايماثل بقرنا أو بقر أوربا فى جمال الهيئة وامتلاء الجسم أما هذه البلدة فعدد سكانها ٦٠٠٠٠ وهى مركز تجارة الجبن الأمريكى . وأثناء سيرنا كنا نرى من جهة اليمين والشمال كثيرا من المستنقعات وبعض أراضى مزروعة ولكن يظهر عليها أنها ليست جيدة التربة ولم نشاهد مقاطعات زراعية كبيرة ولا طرقا منتظمة بل كلها غامرة من هطل الأمطار فالفقر اذاً ضارب أطنابه فى هذه الجهة وأظن أن الاعتناء بالطرق الزراعية فى أمريكا مهمل جدا ولا يرى الانسان بها أمثال طرق فرنسا مثلا المعتنى بها تمام الاعتناء .

وصلنا بعد ذلك إلى سيراكوز (Syracuse) التى يبلغ عدد سكانها ١٠٠٠٠٠ نسمة وهى واقعة على شاطئ بحيرة أونونداجا (Onondaga)

ويخترقها قنال ايرى (Erie) وقريب منها جملة ملاحات يراها الانسان بعد خروجه من المحطة

أما هذه البحيرة فيبلغ طولها عشرة كيلو مترات ويستخرج منها كل سنة ما قيمته مليون دولار من الملح وقد رأينا بها جملة معامل للفخار ومجموع تجارتها يقدّر بثلاثة ملايين دولار كل سنة .

بعدنا عن هذه المدينة بقليل واذا نحن فى وسط مزارع وكنا نرى بين وقت وآخر طيورا ذات ألوان بديعة تسر الناظرين .

قربنا من روشستر (Rochester) البلدة الكبيرة الشهيرة بمصنوعاتها وكنت أسمع عنها لشهرتها بصناعة آلة التصوير الشمسىّ المعروفة بالكوداك وعدد سكانها يبلغ مائة وتسعين ألف نسمة وهى واقعة بالقرب من بحيرة أونتاريو (Ontario) وبها معامل للجعة والأقمشة والأحذية وآلات التصوير الشمسى وغير ذلك ويخترق وسطها نهر يسمى جنيزى (Genesu) فيكون بها شلالا ارتفاعه ٢٩ مترا .

أما تجارتها فتبلغ خمسة وسبعين مليون دولار كل سنة وشركة آلة التصوير (الكوداك) رأس مالها ٣٥ مليون دولار . هنا لم يبق لنا الا محطة بفالو (Buffalo) التى يقف عليها قطارنا فلما قربنا منها تغير الجو وصار مائلا إلى السواد من كثرة الدخان المتصاعد من مداخن

المصانع الكثيرة فلما دخلنا محطتها وجدناها كبيرة وبها مئات من الخطوط الحديدية وهنا يجدر بى أن أذكر شيئا عن الطرق الحديدية الأمريكية :

ان لكل قاطرة بخارية جرسا عظيما يدقه أحد السواقين عند الدخول أو الخروج من محطة أو عند مايقطع الخط الحديدى ممرا .
والسكك الحديدية تخترق شوارع بعض المدن كمدينة روشتستر وبوفالو فيسمع فيها الانسان دق الجرس الآذن بالمسير . وقد لاحظنا أن قطارات البضاعة طويلة جدا أما المحطات فجلها لم يعتن ببنائه وليس به زخرفة — مثلا محطة بوفالو الكبيرة ليست إلا مظلة تشغل مسطحا عظيما من الأرض ولا يوجد بها أرصفة ولا محالّ للاستراحة والانتظار — وللخروج منها يمرّ الانسان على جملة خطوط فاذا كانت هذه حال تلك المحطة الكبيرة فكيف اذًا تكون بقية المحطات

ان اسم مدينة بوفالو آت من اسم بوفل وهو حيوان كان يأتى الى بحيرة (أيرى Erie) ليشرب منها ولما كان هذا النوع من الحيوان كثيرا جدًا فى هذه البقعة سميت البلدة باسمه وهى ثانى بلدة كبيرة فى مقاطعة نيويورك يبلغ عدد سكانها ٤٠٠,٠٠٠ نسمة وهى واقعة على بحيرة (أيرى Erie) على بعد ٣٢ كيلو مترا من جنادل نياجارا وفيها قتل

الرئيس ما كينزى بيد أحد الفوضويين لما كان بها معرض سنة ١٩٠١ وبحيرة (أيرى Erie) هى الفاصل بين حكومة كنادا والولايات المتحدة وطولها ٤٠٢ كيلومترا وعرضها يختلف مابين ٥٠ و ١٠٠ كيلو وأكبر عمق لها ٣٧ مترا وهى متصلة ببحيرة (هورون Huron) ببوغاز (Détroit) ريڤير (River) وبحيرة أونتـــاريو بجنادل نياجارا وما أكثر الكهرباء بها المتولدة من تيار تلك الجنادل ومع ذلك لايستغنى فيها عن الوقود فان عدد المداخن التى بها لايحصى والدخان المتصاعد منها ينعقد فى الجو فيكون سحبا مظلمة فوقها .

تركنا قطارنا لنأخذ قطارا صـغيرا آخر (أو منيبوس) يوصـلنا الى نياجارا بعـد ساعة وبعد ركوبنا وجدناه مشحونا بالركاب وبعد قليل تحرك بنا ببطء فرأينا على شمالنا البحيرة العظيمة التى لايمكن للناظر أن يرى شاطئها الآخر ثم وصلنا الى نياجارا فُولس (Niagara Falls) ونزلنا بمحطتها وفى الحقيقة لايقدر الغريب أن يعرف أهو فى المحطة أو خارجها لأن القطار أحيانا يقف فى الداخل وأحيانا فى الخارج وعلى أىّ حال قد تركناه ولـما كنا لم نتحرك عشرة ساعات متوالية أثناء هـذا السفر فضلنا المشى قليـلا على الأقدام حتى الفندق الذى سـننزل به حيث هو قريب جدًا منا . وأوّل خاطر يطرأ على القـادم على هذه

البلدة الصغيرة أن يخيل إليه أنه فى إحدى بلدان أوروبا الشهيرة بمنابع المياه لأنها خالية من الزخرفة والسكون مخيم عليها فداخلنا السرور العظيم وشعرنا بالفرق الجلىّ بينها وبين مدينة نيويورك الكثيرة الحركة والضوضاء — وصلنا الى الفندق فاذا هو من نوع البانجالت الهندى (Bangalt indien) ومحاط بطنف (ڤيراندا) ومشرف على شوارع متسعة كلها مرصوفة بالاسفلت وأمامها كنيسة كبيرة وبجانبها جملة من المنازل الصغيرة الجميلة المصنوعة من الخشب أو من الآجرّ مرتبة ترتيبا أنيقا تشبه المنازل الصغيرة الجميلة المصنوعة أيضا من الخشب التى على شاطئ البسفور

صعدنا لنرى غرفنا التى أعدّت لنا ولما كان باقيا على غروب الشمس نحو ساعتين ونحن نريد الحركة نزلنا ثانيا لنمشى الهُوَينا فى الشوارع القريبة من الفندق فصادفنا فى الطريق مؤجر عربات فعرض علينا سيارته لزيارة الجنادل وكل المناظر التى تستحق أن يراها السائح على أن تكون الأجرة خمسة دولارات فى الساعة وقد عاهدنا على أن زيارة كل هذه المزارات تستغرق ثلاث ساعات فقبلنا شروطه على أن يحضر صباح غد الساعة ٩ و ٣٠ دقيقة الى الفندق واستمررنا فى طريقنا فى الشارع الذى على شمال مسكننا وصرنا نسمع خرير مياه الجنادل

المتساقطة الى أن وصلنا الى حديقة صـغيرة بديعة على شاطئ النهـر ونحن مُعجَبون بانحدار المياه الصافية فصرنا ننتقل من مكان الى مكان ويستوقفنا كل منظَر جميل فتمتلئ قلوبنـا يقينا بجلال قدرة الخـالق وبديع صنعه فلم نشعر الَّا ونحن بالقرب من جنادل (شلالات) نياجارا الهائلة

هنا وقفنا خاشعين أمام القدرة الالهيـة نعجَب من جمـال المنظَر وقدطال بنا الوقوف ولانعلم لذلك سببا الاأننا سُحِرنا من عجيب مارأينا وذهبت أفكارنا فى عالم آخر لم نعهده من قبل حتى خُيل الينـا أن مانراه إن هو الا أضـغاث أحلام كأن الطبيعة أرادت أن نتصورها بجلالها وعظمتها ولم ننتبه من ذلك الخيال الذى ملك أفئدتنا الاوقد أرخى الظلام سدوله وتوارت الغزالة بالحجاب عن أعيننا فالتفتنا بعضنا الى بعض قائلين ماذا جرى لنا وقد طال بنا الوقوف ونحن عن ذلك غافلون فصممنا على العودة بالرغم منا وقلوبنا متعلقة بذلك المنظَر الذى ملأها عجبا ولكن ما الحيلة وكل شئ له نهاية وتلك سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا

ان المكان الذى نحن فيـه الآن تابع لحكومـة الولايات المتحدة ولأجل أن نعود من غير طريقنا ذهبنا الى شـارع آخر يدعى الشارع

الكبير (Grande Rue) وعلى جانبيه يرى الإنسان جملة من الدكاكين الكبيرة يعرض فيها بطاقات البريد (الكرت بستال) وصور مناظر الجنادل و بعض مصنوعات جلدية من صناعة الهنود الأمريكان ذوى اللون الأحمر مرسوم عليها صورة إحدى نسائهم أو أحد رجالهم بالزى الوطنى ومن معروضاتها أيضا ملابس مختلفة وحراب وآلات أخرى مستعملة عندهم وكذا يجد الانسان فيها عدة أشياء مصنوعة من الحجارة التى يعثرون عليها فى تلك الجنادل وقد أتقن صنعها (كأساور وعقود ومشابك وأزرار وغير ذلك) ولون هذه الحجارة أبيض ناصع وهذا الشارع مخصوص لزائرى نياجارا

وصلنا الى الفندق وقصدنا المطعم الذى ليس به ما يستحق الذكر غير أن خدّامه من السود فاخترنا من الطعام مااستحسناه و بعد ذلك صعدنا الى غرفنا للنوم مبكرين حتى تنال أنفسنا حظها من الراحة فتقوى على احتمال متاعب الغد

أصبحنا فى يوم السبت ١١ مايو سنة ١٩١٢ وكانت الساعة التاسعة صباحا واذا بالسيارة حضرت أمام الفندق فلم ننتظر نصف الساعة الباقى على موعد الاتفاق حتى لا نعود متأخرين وتوكلنا على خالقنا و ركبنا فيها فسارت باسم الله بسرعتها العادية فمررنا على شارع

(بفالو (Buffalo)) الذى به مصنع بسكويت كبير ثم على الحديقة التى زرناها البارحة متبعين انحدار الميـاه فرأينا جزيرة المعز التى يصلهـا بالحديقة الصغيرة جسر وقد سميت بهذا الأسم لأن مالكها كان يربى فيها معزا وقد اشـترتها الحكومة الأمريكية بمليون دولار لتجعلها مسـتراضا عاما ومساحتها ٣٢ هكتارا وبها كثير من الأشجار والنباتات ومنها خرجنا الى اليمين لنذهب الى جزيرة القمر (Luna Island) وهى جزيرة صخرية صغيرة واقعة بين جندل أمريكا وجندل كندا

ومن هنا يرى الانسان جندل أمريكا بكل عظمته وجلاله . ولما كان الجو صحوًا والشمس زاهية رأينا تحت هذا الشلال قوس قزح بألوانه المختلفة الجميلة ثم ذهبنا لرؤية ثلاث الجزر التى فى وسط النهر المرتبطة بعضها ببعض بجسور من حديد وهذه الجزائر تسمى (Les Trois Sœurs) ومن مكاننا يشاهـد السائح عظمة واتساع البحيرة ويرى كندا ثم من بعد هـذه الجزائر الثلاث ينقسم النهر الى فرعين ثلاثة أعشـار مائه تسقط من جندل أمريكا وسـبعة الأعشار الأخرى تسقط من جندل كندا . ولحسن الحظ استمر نور الشمس فرأينا مثالين آخرين لقوس قزح وقد علمنا أن هـــذا المنظر الجميل لايبدو إلا فى الصباح عند ما تبزغ الشمس ويكون الجو رائقا فالواقف على الجهة التى نحن

بها الآن تكون الشمس وراءه من العجب أن هبوط المـاء من علو إلى أسفل يحدث عنه فيما بين الشـاطئين أشـبه شئ بالبخار أو الضباب الرائق تتخلله أشعة الشمس فيبدو من ذلك نصف دائرة ذات ألوان مختلفة من بنفسجي وأزرق وبرتقالى وأحمر وغيرها كأنها قوس قزح .

تركنا مكاننا وذهبنا الى الجسر المعلق هنـاك لنمر على أراضى كندا وهذا الجسر هو الفاصل بين حكومة الولايات المتحدة وحكومة كندا .

وقفنا أمام خُصَّـين (كشكين) صـغيرين تابعين لحكومة انجلترا ودفعنا رسم المرور وبعد ذلك اتخذنا طريقنا الى أن عبرنا هـذا الجسر ولا يلبث عابر هـــذا الجسر أن يصل إلى نهايته الأخرى حتى يشعر بوجوده فى حكومة أخرى أكثر نظاما وأحسن ترتيبا وأول مايصادف متنزه الملكة فيكتوريا الواقع على شاطئ الجندل وهو متنزه قد بلغ من حسن النظام غايته وبه للملكة تمثال محكَم الصُّنع ومن عجيب مارأينـا أن أشجار هـذا المتنزه لم تكن مُورِقة مع أن أشجار سائر الجهات كانت مورقة وهذا ناشئ من كثرة الرطوبة وشدّة البرد وقد علمنا أن أشجار ذلك المتنزه إنما تورق بعد أشجار سائر الجهات الأخرى بنحو أربعة أسابيع .
أما طول هذا المتنزه فيبلغ أربعة كيلومترات ورأينا جندل كندا الذى يطلق عليه اسم نعل الحصان لأنه يشبهه تمام المشابهة (Fer à cheval) .

أما رشاش المياه الناشئ من سقوطها فانه يصعد حتى يوازى قمة الجندل وقد قدر ارتفاعه بمـائة متر ثم تقذفه الرياح على الشاطئ ولذا أخضل الرشاش سرابيلنا ونحن فى السيارة فاضطررنا أن نبتعد عنه ووقفنا أمام خص (كشك) معد للنزول منـــه إلى حيث يرى السائح الجنـدل عن كثب ودخلنا فيه فاذا هو كدكان بيع وشراء فتسابق الينا جماعة من طلاب الربح فمنهم من يريد أن يبيعنا من معروضـاته ومنهم من يريد أن يصورنا كل ذلك لابتزاز دولارات السائحين ولكنا تركناهم وشأنهم ولم نُعِرهم التفاتا و بعد أن دفعنا الرسوم المقـررة أُدخلنا الى غرفة معلق بها سرابيل من القماش المشمع للوقاية من المـاء وتحتها صندوق كبير مقسم إلى جملة عيون به أحذية مختلفة وهى أيضا متخذة من الجلد المشمع ليختار منها الزائر مايوافقه فشرع كل منا يختار حذاءين على قدر رجليـه ثم تقدم الينا شخص وأعطى لكل واحد منا (بنطلونا) فلبسناه و بعد ذلك صار يلبسنا (سترة بزنط) لتغطية رؤوسنا فما أغرب أشكالنا حينما تبدلنا بزينا هـذا الزى الجديد . ان هيئتنا التى تبدلت كانت تضحكنا كثيرا فاننا صرنا نشبه الملاحين وقد لبسوا أمثال تلك الأردية وقت هطل الأمطار وكان معنا بعض السـائحين والسائحات الذين ارتدوا مثلنا هذه الملابس و بعد ذلك ذُهب بنا الى المصـــعد

(الأسانسور) الذى هوى بنا مسافة ٥٠ مترا تحت الأرض فوصلنا الى نفق مضاء بالأنوار الكهربائية كالنفق الذى يتخذ لاستخراج المعادن ومشينا فيه الى أن وصلنا الى فرجة يشاهد منها الانسان الجندل من جانبه فأعجبنا منظره وهالنا أمره ثم ذهب بنا الى مكان آخر أبعد من السابق فاذا نحن تحت مسقط الماء فما أشد تأثر الانسان فى هذا المكان .

إن المقادير العظيمة من المياه التى تسقط من ارتفاع هائل بسرعة مدهشة تحدث أصواتا مزعجة تخفق لهولها القلوب فسبحان القادر على كل شئ .

إننا لم نجرأ على الاقتراب من المياه المتساقطة مخافة البلل والذين دفعهم حب الاستطلاع الى الاقتراب منها ما كان نصيبهم إلا أنهم غمروا بها فارتدوا على أعقابهم نادمين ـ وهنا يجدر بى أن أذكر ما حكى لنا : أن سيدة تدعى تيلور (Tylor) صنعت لنفسها تابوتا على هيئة أسطوانة جوفاء فدخلت فيه بعد ما اتخذت فيه وسائل الحيطة حتى لا تموت من عدم الهواء ثم ألقى بها فى اليم لتسقط من أعلى هذا الجندل العظيم الارتفاع الذى يسمى (نعل الحصان) وقد كانت الجماهير المحتشدة على شاطئى النهر وعلى مقربة من الجندل لا يحصى عددها وكلهم موقن بأنها لا بد أن تفقد حياتها ان لم يكن بسبب

اصطدامها بجوائط تابوتها لسقوطها من علو هائل فوق الصخور المنتشرة أسفل الجنـدل كان هـذا الموت محققا من كثرة الحركة ودوران التابوت بالسرعة العظيمة التى يرتج لهـا المخ فتذهب الحياة وبينما هم فى هَرْج ومَرْج وجدال فيما عسى أن تكون عاقبـة هـــذه المجازفة المهلكة رأوا على بعد من أسفل الجندل تابوتا يطفو تارة ويغمُره المياه أخرى وهو يسير متبعا سير الماء فصاحت هـذه الجموع ظهر التابوت فهل هى على قيــد الحياة ؟ وبعـد أن انتُشِل التابوت وفُتِح أمام الأطباء الذين كانوا على استعداد لإسعاف هـذه السيدة وقت الضرورة رأوها حيـة ولكن لاحراك بها فكانت جسدا هامدا وإن كمنت فيها الحياة فلا شعور ولا إدراك حُملت إلى ملجأ الإسعاف وما أفاقت ممـا غشيها إلا بعد ثمـانية أيام .

إن هـذه الجرأة مدهشة جدّا وأعدّها من باب الجنون وقد كتبت عنها الجرائد وتحدّث بحـادثتها كل رائح وغاد من أهل أمريكا فهى حادثة غريبة تتناقلها الألسن وتحكى لكل من يؤم الجنادل .

تمت زيارتنا وصعدنا الى حيث كنا لنخلع ما علينا ونعود الى هيأتنا الأصلية ولم نستغرق فى هذه الزيارة أكثر من عشر دقائق . تذكرت كل ماقيل لنـا مما يختص بهـذا المكان فقد ذكرلنا أن الوصول الى

ماتحت جندل (نعل الحصان) يستغرق ٢٠ دقيقة وقد هولوا لنا فى الكلام عن أصوات المياه وقالوا انها تؤثر فى الآذان أسوأ تأثير فلابد للذاهب من أخذ قطن معه ليضعه فى أذنه حتى لا يصاب بصمم فلم نُعِر أقوالهم التفاتا لعلمنا ماجبل عليه بعض الأميركيين من التهويل وقد قلنا فيما بيننا اذا كان الأمر يحتاج الى مثل ذلك فلا بد أن المتوكلين بحراسة هذا المكان عندهم كل مايلزم . أما ماسمعناه من صعوبة الوصول الى ماتحت (نعل الحصان) وأن الزائرين يلزمهم أن يتماسكوا بعضهم ببعض حتى لا تزلق الأرجل فشئ كثير والحقيقة أن كله كلام باطل لاصحة له .

ركبنا سيارتنا واستمررنا فى طريقنا فرأينا عمارة جديدة كبيرة أخبرنا أنها ستكون مطعما ثم مررنا بعد ذلك أمام بناء شاهق نظيف جدًا به الآلات المولدة للكهرباء التابعة لحكومة كندا الى أن وصلنا الى نبع ماء حار وهو أيضا أعجوبة من عجائب الدنيا الجديدة :

ان هذا النبع واقع بالقرب من الباب الجنوبى للمتنزه فأسرعنا بالنزول من مركبتنا للدخول فى الخص (الكشك) الصغير المحيط به وبعد ذلك أدخلنا الى غرفة صغيرة من الخشب فى هذا الخص فى وسطها حوض صغير به ماء يغلى وقد صحبنا أحد مستخدمى هذا المحل فابتدأ يشرح لنا باللغة الانجليزية مامعناه :

ان هـذا المنبع كشفه الهنود الأمريكيون (ذوو اللون الأحمر) من نحو مائة سـنة وماؤه كبريتى حار مفيد جدا لأمراض الروماتزم وقد يخرج منـه غاز قابل للالتهاب ولتحقيق ذلك أجرب أمامكم التجارب الآتية :

قبل أن يبتدئ تجاربه أقفل الباب حتى صارت الغرفة حالكة الظلام وأخذ أنبوبة دقيقة و وضعها وسـط الحوض فى ثقب فيـه ثم أدنى عودا ملتهبا من فم الأنبوبة فالتهب الغاز بشدة . ورأينـا اللهيب قسمين قسما أزرق وآخر أحمـر فقال لنـا ان الانسان يمكنه أن يضع يده أو منديله على هـذا القسم الأزرق دون أن تحترق يده أو منديله وقد حقق هاتين التجربتين أمامنا فلم يمس يده ولامنديله أدنى ضرر وقـد أردت أن أجرب بنفسى ذلك فوضعت يدى على هذا القسم الأزرق فلم أشعر بشئ مطلقا ولكن حذار من الاقتراب من اللهيب الآخر فانه شـديد الحرارة جدا و بعد ذلك رفع الأنبوبة من مكانها فصرنا نرى المـاء يغلى ثم أشعل مشعلا وقربه من سطح المـاء فالتهب وارتفعت النـار ارتفاعا عظيما وشـعرنا بالحرارة الزائدة ولما أراد اطفاءها أرجع الأنبوبة الى مكانها فاحتبس الغاز عن المـاء ولم يكن له مخرج الا فم الأنبوبة فانطفأت ثم قدم لنا فى قـدح قليلا

من ماء هذا النبع فذقته ولم أجد له طعما أو رائحة قوية كماء نبع حلوان ثم ألقى مافى القدح وأشعله بكبريت فهب الغاز من القدح كأنه كان به الكحول وقد ذكر لنا أن هذا الماء مفيد جدّا للمرضى بالروماتزم ولولا أن مقداره قليل لكان مورد ثروة عظيمة ولانتشر فى العالم للتطبب به وقد علمنا أن فى ضواحى هذه الجهة بعض منابع أخرى من هذا النوع .

ان سرورنا من رؤية هذا النبع ومن التجارب التى شاهدناها يعدل سرورنا من رؤية الجنادل فخرجنا معجبين مما شاهدناه واتخذنا طريق المزارع لنصل الى مجرى (Whirlpool) الشديد وعبرنا الجسر الثانى المعلق فلم يرُقْنا نظام هذه المزارع ولا شك فى أن من شاهد مزارع أوربا المنسقة تنسيقا بديعا لا يمكنه أن يشهد الا بما شهدنا . وقد صادفنا فى طريقنا كثيرا من أشجار الفواكه وقد قيل لنا ان الفلاح يكتسب من الفدّان الواحد المزروع فيه هذه الفاكهة من ١٠ الى ١٥ جنيها فى السنة . هذا ولا تسل عن الطرق الزراعية التى اخترقناها وحالتها فانها رديئة جدّا فكثرة الأمطار طمست معالمها وجعلتها غير صالحة للسير فيها بسهولة .

أما بلدة كليفتون (Clifton) التى مررنا عليها أيضا فانّ بطرقها آلافا

من المصابيح الكهربائية فيظن الناظر اليها أن تلك الطرق قد زينت بتلك المصابيح لأمر ما ثم لاتلبث أن تزول ولكن فى الحقيقة هذه الزينة البديعة دائمة الى ماشاء الله .

وصلنا الى المجرى السريع المذكور ولمشاهدته يلزم الدخول أيضا فى خص (كشك) يشبه بهوًا لأخذ مكان فى عربة تنزل الى الأسفل حتى شاطئ النهر وأجرة دخول كل شخص (٥٠ سنس) وقد أسرع الينا كالعادة من يريد أن يرسم صورنا فلم نقبل فأخذنا مكاننا فى هذه العربة ونزلنا الى الشاطئ فَدَهِشْنا من قوة المياه المنحدرة من هذا المجرى وسرعتها . وقد قيل لنا إنه الى الآن لم يُستَطَع تقدير قوتها والغريب أن ماء النهر ساكن بعد الجندل ويستمر هذا السكون الى مسافة كيلومترين ثم ينعطف النهر بجأة فيحدث من انعطافه هذا زاوية قائمة فيكون دوّامات هائلة سببها تلاطم المياه فى الصخور ومصادمتها للشاطئ الشمالى . وبما أن النهر من طبيعته منحدر فقوة الاندفاع وكثرة المصادمات هى المسببة لهيجان النهر الذى نراه من المكان الذى نحن فيه الآن وقد قدّر عمقه فى هذه الجهة بخمسة عشر مترا . وقد حكى لنا أن الكابتن ويب (Webb) الانجليزى أشهر شهير فى العالم فى السياحة وهو الذى عبر المانش سابحا أراد أن يعبر

من هـذا المكان متبعا مجرى المياه فألقى بنفسـه فى اليم ولكن قوته لم تساعده على المكافحة فابتلعته المياه وذهبت به الى حيث شاءت فما كان نصيبه إلا الموت . هذه عاقبة من يلقى بنفسه الى التهلكة ان هى إلا عظة لقوم يعقلون .

فى هـذا الموقف العظيم ألقيت نظرة عامة على كل ما رأيتـه من عجائب هذا النهر فتجلت أمامى قدرة الخالق بجلالها فسبحان القادر على كل شئ .

كيف لايدهش الانسان وتملكه الحيرة من هـذه المناظر التى بينما يراها بديعة جميـلة يملأ حسنها نظره فتقر بها عينه وينشرح لها صدره إذ يراها هائلة تخفق لرهبتها القلوب وترتاع من هولهـا النفوس . ان خرير المياه تطرب له الآذان وصفاءه تقر به العيون فاذا وجه الانسان سمعه الى هذه النغمة الطبيعية المستمرة ووجه نظره الى هذا الصفاء البلورى ينشرح قلبه ويرتاح ضميره ولكنه لما يتأمل كيف تنحدر المياه بشـدة الى هوة لا يقل عمقها عن مائة متر وهذه الهوة محصورة بين حائطين عظيمى الارتفاع يشعر بالمهابة فيستصغر نفسـه ويشهد أن الانسان مازال ولن يزال ضعيفا أمام هذه العظمة وهذا الجبروت .

ان مكاننا ورؤيتى هـذين الحائطين الهائلين جعلانى أذكر للقارئ

مثلا آخر من أمثلة الجسارة النــادرة التي ظهرت أثناء زيارة جلالة ملك انجلترا ادوارد السابع لكندا عند ما كان وليا للعهد . وقت زيارة جلالتـه لهذا المكان كان هناك أحدالمشهورين فى الألعاب الرياضية (Equilibriste) المدعو المسـيو بلوندين (Blondin) الفرنسى الجنس فوضع له من الشاطئ الى الشاطئ الآخر حبل على ارتفـاع مائة متر فوق هـذا المجرى السريع فمشى عليـه حاملا رجلا على أكتافه أمام جلالتـه من إحدى ضفتى النهر الى الأخرى وقد طلب من جلالته أن يركب فى عربة صـغيرة بعجلة واحدة من الأمام ثم توضـع على الحبل المعلق فيمشى بها ويدفعها أمامه بمن فيها فلم يجبه جلالتـه الى ما طلب لمـا فيه من الخطر العظيم ولكن المسيو بلوندين المذكور أبى إلا أن يُظهِر براعته فربط منديلا على عينه حتى لا يرى الحبل ووضع الرجل الذى مرّ به أوّلا وهو محمول على أكتافه فى هذه العربة ومشى به على هذا الحبل آمنا مطمئنا الى أن وصل الى الشاطئ الآخر للنهر ـ فما أجسره وما أبرعه فى صنعته إنه أعجب الحاضرين وأدهشهم حتى صار يومه يوما مشهودا يذكر لكل السائحين كتاريخ حادثة من أهم الحوادث ـ

أردنا العودة لتناول الغداء بالفندق فركبنا سيارتنا وأمرنا السائق أن يعود الى حيث أتى بنا وما نحن عن محـل إقامتنا ببعيدون ـ اننا ننظر

أراضى الولايات المتحدة أنها أمامنا على الشاطئ الآخر الذى رأينا به المحل الكبير المعدّ لتوليد الكهرباء التابع لهذه الحكومة وهو بناء لا يعجبك منظره ولكنه عظيم النفع حيث تنبعث منه الكهرباء الى بعد مائة وخمسين ميلا انجليزيا ـ

مررنا على الجسر الفاصل بين الحكومتين وبعد قليل وصلنا الى الفندق وأننا رأينا كل ما يستحق المشاهدة فى نياجارا ولم تبق لنا فائدة ننتظرها من البقاء بها أردنا الذهاب الى شيكاجو حتى لا يضيع وقتنا سُدًى ولكنا رجعنا فتذكرنا أن غدا يوم الأحد ومحل كوك سيكون فيه مقفلا فذهابنا لا يفيد ناشيأ كثيرا فرجعنا عن عزمنا متبعين الخطة المرسومة لنا من محل كوك وعلى حسبها يكون السفر غدا الى شيكاجو ـ

ابتدأت الأمطار تسقط بعد ظهر هذا اليوم فحمدنا الله اذ تممنا زيارتنا فى وقت صحو رأينا فيه كل المناظر على حالتها الطبيعية الجميلة ولما كانت الاقامة بالفندق مملة أردنا الاستراضة فمشينا فى وسط تلك البلدة الصغيرة العاطلة من الزخارف إلا أن الصدور فيها منشرحة فأخذنا نمشى الهوينا مخترقين شوارعها نقف تارة بعد أخرى أمام بعض الدكاكين لنرى ما فيه . كل ذلك لنقضى الوقت ـ الى المساء

فعدنا لتناول العشاء وبعـد ما أكلنا ما لذ لنا وطاب صعدنا إلى غرفنا ونمنا فى راحة إلى الصباح ـ

ابتدأنا يومنا (يوم الأحد ١٢ مايو) باســتراضة قليلة وكان الجو مظلما والسماء تهدّدنا بأمطارها ولم يمض علينا كثير من الزمن حتى أخذت السماء تبكى رذاذ دموعها فرجعنا على أعقابنا إلى الفندق لأكتب مـذكراتى عن سياحتى وجلسنا فى الطنف (الڤيراندا) أمام الكنيسة حيث نرى الغادين منها والرائحين إليها وبقينا على هذه الحالة إلى أن حان وقت الغداء وبعده أحضر لنا صاحب الفندق بواســطة دليلنا دفترا معـدًّا لتقييد أسمـاء الكبراء الذين يفدون على فندقه ولـما كنا مسرورين بمـا لقيناه من الراحة قبلنا طلبه خصوصا انه وامرأته بلغا من العمر أكمله وهما يؤدّيان واجبات الخدمة بكل ما فى وسعهما لكل قادم عليهما . خرجنا بعد ظهر هذا اليوم نقصد الاستراضة فسمعنا من بُعدٍ نغمات موسيقى فقصدنا نحوها حتى نرى لأىّ سبب تعزف ولما وصلنا اليها وجدناها كالموسيقى التى تعزف فى المواسم (الموالد) ولما سكتت نهض رجل وابتدأ يلقى خطابة فظن رفيقنا خيرى أن تلك الخطابة ربما كان موضوعها الانتخابات حيث إننا الآن فى ميعاد انتخاب رئيس الجمهورية وظن رفيقنا الآخر مصطفى أنها لإعلان عن

محل تجارى - كما يعمل فى بعض الأحيان فى مصر ولكن الحقيقة أن هذه الفئة تمثل جيش السلام (Armée de Salut) وقد شبهنا هذا الموكب بالصور الهزلية ومن رآه خصوصا بعد أن تمت الخطبة وتحرك للسير لايسعه إلا أن يشاركنا فى حكمنا فان على رأسه رجلا كان يحمل علما وقد بلغ من العمر أرذله يمشى الخَيزَلَى وهو محدودب الظهر تظهر عليه علامات الضعف الشديد وبين صفوفه أطفال لايبلغون الحول العاشر ينفخون فى أبواق كما شاءوا وشاءت لهم معارفهم القاصرة فى هذا الفن الجميل وو راءهم ست سيدات مرتديات ملابس مخصوصة لجيش السلام بينهم امرأة نَيَّفت على الستين ولا بد أن تكون زوجة هذا الشيخ الخَرِف الحامل لواء السلام -

قربت الساعة الخامسة فعدنا مسرعين إلى الفندق والسماء تمدّ إلى الأرض من الأمطار حبالا لنتناول عشاءنا فى منتصف الساعة السابعة حتى نكون على أهبة السفر بالقطار الذى يتحرك من نياجارا فى الساعة ٨ و ٥ دقائق - وفى منتصف الساعة الثامنة اعتمدنا على الله وخرجنا للسفر بعد أن ودَّعنا صاحب الفندق ووصلنا الى المحطة قبل الميعاد و بما أن ذلك اليوم كان يوم بطالة رأينا عدد الغادين والرائحين أكثر منهم فى باقى الأيام . أمّا الداخل إلى هذه المحطة فلا يرى إلا ساحة

كبيرة بها مقاعد للمسافرين وفى وسطها صنبور ماء للشرب بجانبه قدح واحد لعامة الناس وبهذه الساحة أيضا حجرة صغيرة للتلفون لمن يريد المكالمة به مجانا ـ

انتظرنا مقدار ربع ساعة ثم أخذنا نبحث عن قطارنا الذى سنسافر فيـــه فوجدناه مستعدا فركبناه وقد أخذت مكانى فى غرفة صــغيرة طلبتُ من قبلُ أن تكون خاصة بى أما رفيقاى فأخذوا مكانهم مع باقى المســافرين فى (البولمن كار) وما أتت الساعة الخامســة صــباحا من يوم الاثنين ١٣ مايو حتى كنا مرتدين ملابســنا ففتحنا احدى النوافذ لنرى ماتمرّ عليه فاذا نحن على شاطئ بحيرة (مشيجان) العظيمة الاتساع التى تشبه البحر بأمواجها المتلاطمة ـ استمر القطار فى السير بنا بجوار هذه البحيرة مدّة من الزمن ثم لمحنا دخانا متصاعدا من جملة مداخن مصانع على بعد عشرين دقيقة من مدينة شيكاجو فما أكثر الخطوطَ الحديدية فى هذا المكان إنها متشعبة الى شعب كثيرة تذهب الى جهات مختلفة . أما الحركة العامة للقطارات الغادية والرائحة إلى هذه المدينة فعظيمة ومدهشة . ومن غريب مارأينا أيضا ميناء كبيرة على هذه البحيرة بها جملة منارات كالتى توجد فى البحار العظيمة ـ

وصلنا والحمد لله إلى محطة شيكاجو فنزلنا من قطارنا وذُهب بنا إلى

عربة عامة (أمنيبوس) لتوصلنا الى الفندق الذى كنا نظن أننا منه على بعد شاسع ولكن لم يمض على سيرها أكثر من ثلاث دقائق حتى وصلنا اليه وهو واقع على أكبر شارع واسمه شارع مشيجان (Avenue Michigan) على مقربة من المستراض العام الكبير (Grand Park) فدخلناه فاذا هو أيضا ذو خمس عشرة طبقة ومن أكبر فنادق شيكاجو وأبدعها نظاما وإحدى جهاته تشرف على بحيرة مشيجان.

وقد تسمى مدينة شيكاجو بمدينة الأهوية لاشتدادها فيها وهى تأتى من جهة البحيرة وهى أكبر مدينة تجارية وصناعية بعد نيويورك فى الولايات المتحدة . وهى مركز تجارة الحبوب وقد بنيت على مستنقعات ومنازلها لاتزال صغيرة غير أنه ابتدئ فى جعلها كبيرة ذات أدوار عديدة وذلك للمنافسة بينها وبين نيويورك فكلما هدم بيت صغير أقيم على أنقاضه آخر ذو أربعين أو خمسين طبقة ومن العجب أن الامريكيين لايحبون أن يكون لهم منازل خاصة بهم حتى لا يدفعوا ضرائبها ولا أجرة الخفر ولا غيرهما مما يدفعه الملاك ويفضلون السكن بالايجار ولو فى الطابق الثلاثين أو الخمسين.

وقد كان ينتظرنا فى الفندق كالعادة أحد مخبرى الجرائد فرأيت أن أقابله أيضا وتحادثت معه قليلا ثم حضر مدير محل كوك وأظهر لنا أنه

على استعداد تام لخـــدمتنا فشكرناه . ولمـا كنا عازمين على ألّا نقيم في هذه المدينة أكثر من يوم واحد بادرنا لزيارة كل الأماكن اللازم زيارتها فصحبنا عامل كوك وجلنا فى الشوارع المهمة ومررنا على المحالّ التجارية الكبيرة مثل البونمارشـه (Bon Marché) واللوفر (Louvre) اللذين بباريس ومثل (الأرمى أند نافى Army and Navy) الذى بلوندره والذى استلفت نظرنا فى هـذه المحال التنسيق وحسن النظام وأن كل مايختص بالسيدات محصور فى أمكنة خاصة به واللاتى يبعنه سـيدات أيضا والذى يختص بالرجال فى أمكنة أخرى ويبيعه رجال وليس ذلك النظام متبعا فى المحال التجارية الكبيرة بفرنسـا التى يرى فيها الانسان البائعة بجوار البائع وربما تبيع السيدات مايختص به الرجال ويبيع الرجل ما تختص به السيدات وربمـا ترى بائعا يلبس سـيدة قفازا وهكذا . أما نظافة هـذه المحال فحدّث عنها ولا حرج فانهـا فى منتهى الـكمال وقـد لاحظنا أن الجزء المخصص للروائح العطرية فى هـذه المحال كبير جدّا وهـذا مادلنـا على أن الأمريكيين مغرمون بها كثيرا ولم أستغرب ذلك لأننا لمـا كنا فى الباخرة كانت معنا سـيدة من أسرة غنية فى صحبة زوجها والاثنان كانا مرتديين ملابس الحزن فرغما من ذلك كانت هذه السيدة تدهن بالعنبر العبق الرائحة الذى كان

يُلزم الانسان أن يهرب قبل أن تقترب منه خوفا من تأثيره الشديد . وقد ذكرنى ذلك صديقنا القديم زبير باشا ورائحته العطرية الشديدة وقد كنت مندهشا كيف يتيسر لزوجها أن يقيم معها فى غرفة واحدة دون أن يتأثر من هذه الرائحة الشديدة ـ وهذا أمر لم أفهم له علة الا أن العادة تصير الصعب سهلا بل قد تحوّل السم دواء ـ

ثم خرجنا من هذه المحال لزيارة دار المحافظة و باقى مراكز إدارة ولاية اليونى (Illionis) التابعة اليها (Chicago) شيكاجو فوجدناها جميلة وعظيمة وخرجنا منها إلى إدارة البريد الهائلة ثم ذهبنا إلى البورصة وهى مركز بيع جميع أصناف الحبوب : ولشهرتها يجدر بى هنا الاشارة إلى مجمل وصفها ليكون للقارئ إلمام بها ـ دخلناها وصعدنا إلى مكان مرتفع به كراسىّ معدّة للزائرين فأخذ كل منا مجلسا فرأينا مايستحق الذكر ـ انها تشبه بورصة نيو يورك حيث يجتمع فى بهوها أربعة أو خمسة جموع من التجار والسماسرة الذى يصيحون بكل قواهم ويشيرون إشارات مختلفة تدل على قبول البيع أو رفضه و وراء كل جمع كاتب سرّ يبدو عليه كمال المقدرة والنشاط المدهشين فانه يقيد فى لمح البصر أسماء الذين قبلوا البيع ومقدار ماباعوا وما اشتروا . وهنا تقتاد أعنة الفكر حالة المشترين والبائعين وصعود الأثمان وهبوطها

فى كل لحظة ومن الغريب أن آخر الأسعار ترســل بواسطة آلة كهربائية بها سـير متحرك يسير برقعة كتب فيها السـعر فيوصلها الى الطرف الآخر من البّهو المعدّ لذلك . وقد لاحظنا فى شمال هذا البهو ستين من عمــال التلغراف يرسلون الأسعار النهائية بالتلغرافات إلى جميع أنحاء أمريكا فاذاً بورصة شـيكاجو هى التى تضع وتحدّد أثمان الحبوب لسائر الولايات المتحدة ولا أغالى اذا قلت إنها ربمــا تحدّدها لجميع أنحاء الدنيا ـ

خرجنا من البورصة للذهاب إلى الفنـدق حيث آن ميعاد الغداء وبعده استأجرنا سيارة لزيارة المدينة وحدائقها والمحل الذى كان قد أقيم فيه المعرض وقد كان بودّى رؤية مذبح (سلخانة) شيكاجو الشهير لولا أن نصحنى أصـدقائى بعـدم الذهاب إليها لفظاعة المنظر ولكراهة الروائح التى تنبعث منها ـ خرجنا من الفنـدق نحو الساعة الثالثة بعـد الظهر متبعين شارع مشيجان (Michigan) لزيارة حدائق واشنجتون وقد لاحظنا أثناء سيرنا أن الشوارع المهمة نظيفة ومعتنًى بها أكثر من شوارع نيو يورك فمــررنا على المحطة التى أتينا منها وصرنا نبتعد عن منظر البحيرة أى اننا بعد هذه المحطة غادرنا الرصيف وسرنا مخترقين شارعا كبيراً لا يرى الانسان على جانبيه إلا محالّ تجارية

للسيارات وظنى أن هذا الشارع هو مركز تجارة السيارات فى الولايات المتحدة ـ

هذا والذى استغربته أنى رأيت كثيراً من السيدات راكبات عربات صغيرة مقفلة تمشى بقوة الكهرباء وهن اللاتى يحركنها بأنفسهن بدون سائق يقودها بلا خوف ولا وجل فقلت اذ ذاك ان الأمريكيين الذين أمهاتهم أمثال هؤلاء السيدات الممتلئات نشاطاً وثباتاً وقوة جنان جديرون بما نالوا من الصيت الطائر فى جميع أنحاء العالم فأكثر أخلاق الولد وعوائده مكتسب من أمه فالأمم ترتفع بارتفاع المرأة فيها وتنحط بانحطاطها

وصلنا إلى حديقة واشنجتون فرأينا فى مدخلها تمثال جورج واشنجتون واخترقناها فأعجبنا جمالها ونظامها ومنها ذهبنا إلى حديقة جاكسون (Jackson Park) وهى ثانى حديقة لا تقل عن الأولى فى نظافتها وترتيبها وقد رأينا بها ساحات عظيمة مقسمة إلى جملة ملاعب كملعب التنس (Tennis) وكرة القدم والجولف (Golf) وبها بحيرة للتجذيف فى فصل الصيف وفيها أقيم المعرض الكبير ـ

إن هاتين الحديقتين على مقربة من بحيرة مشيجان وفى الثانية رأينا حوضا به أربع سفن من الخشب يزعم الأمريكيون أنها تمثل

المراكب التى كشف بها كرستوف كولومب أمريكا وظنى أن هـذا زعم باطل ـ

إن استراضتنا هذه كانت فى جنوب المدينة والمنازل التى مررنا عليها رأيناها على أحسن حال من النظافـة غير أنا لم نمـرّ بمساكن الصناع والفَعَلة حتى يكون حكمنا عاما فشهادتنا هذه لما رأيناه بأعيننا ـ ذهبنا من هـذا الطرف إلى الطرف الآخر الشمالى للمدينة لرؤية حديقة لينكولن (Lincoln Park) ومررنا أثناء سيرنا على حديقة جرانت (Grant Park) التى بها تمثال هـــذا الجنرال وقد رأينا أيضا مدرسة الفنون الجميلة ثم عبرنا نهر شيكاجو (Chicago River) ومنه وصلنا إلى شمال المدينـــة فاقتاد نظرنا ما رأيناه من حسن النظام وبديع الترتيب فى شارع كبير أجمـل من الشوارع التى رأيناها واسمه شارع الميليارديرز وهو فى الحقيقة بالغ غاية النظافة ومعتنًى به جدّا وقـد علمنا أن هنـا منـازلَ أصحاب المليارات الفـاخرة المحكمة البناء التى بهـا المصابيح الكهربائية الكبيرة على اختلاف أشكالها البديعـة فلا يخلو منها هناك مكان حتى الطرق الفاصلة بين هذه القصور الأنيقة ـ

وصلنا إلى حديقة لينكولن (Lincoln Park) فاذا بهـا أيضا بحيرة متصلة ببحيرة مشيجان فرأينا فيها جملة زوارق تسير بالبنزين أو بدونه

وقد وجدنا بهذه الحديقة مكانا خاصا لنباتات البلاد الحارّة فنزلت من السيارة لالقاء نظرة على هذه النباتات وقد كان بجوارها حديقة للحيوانات فلم أتمكن من زيارة الأخيرة لانهمار الأمطار فعدت مسرعا إلى سيارتنا فركبت فيها وسارت بنا . ولما كانت هذه العربة ليست مقفلة فهى من ذوات الغطاء (الكبود) شعرنا بالبرد الشديد وخيل لنا أننا فى طريق الأهرام وقت اشتداد البرد فى فصل الشتاء حتى إن رفيقنا مصطفى بك استغرب من هذه الحالة خصوصا أن مدينة شيكاجو ليست على جبل واننا فى شهر مايو الذى لاينتظر فيه برد مثل مانشعر به الآن ـ اشتدّ المطر وزمجر الرعد فرأينا الصناع (من نساء ورجال) الذين يخرجون من مصانعهم يسرعون ويهرولون ليلحقوا الترامويات التى توصلهم إلى منازلهم وعلى رؤوس بعضهم مظلات والبعض الآخر لفّوا جرائد على قبعاتهم كل ذلك لاتقاء الماء أما نحن فأسرعنا فى السير حتى وصلنا إلى فندقنا . ولما كان باقيا على ميعاد العشاء نحو ساعة وكان ينتظرنا عامل كوك الذى كلفته باحضار تذاكر القطار المعد للنوم (Billet de nuit de Pullman) التى لم آخذها من نيويورك رأيت أن أقضى بعضها معه فحدّثته عن إعجابى بمدينة شيكاجو وكيف رأيت المتنزهات والشوارع بها فى غاية النظافة وجرى بنا الحديث إلى

ماراٴيته فى نياجارا خصوصا نبع المياه الحارّة القابل للالتهاب فقال لى إنه لا يؤمن بصحة هذه الأعجوبة و يظن أنها مصنوعة فلم أستغرب ذلك فى مثـل هـذه البلاد ـ أما فكرى الخـاص فى هـذه المسألة فمـا كنت أجرأ على التصريح به ضـدّ الرأى العام الذى يعتقد تمـام الاعتقاد بصحتها فلمـا وجدت لى شريكا فى اعتقادى صرحت أنا كذلك بأنى لا أعتقد بصحة هذه الأعجوبة لمخالفتها للحقائق العلمية ـ

إن مدينة شـيكاجو على ارتفاع ١٧٩ مترا عن سطح المحيط الاطلانطيق و ٤٥٠ مترا عن سطح بحيرة مشيجان ومساحتها ٥٢٠ كيلومترا مربعا وعدد سكانها يبلغ مليونى نسمة وقد قيل لنا إنه لا يوجد بين هذا العدد أكثر من ٣٥٠,٠٠٠ من الأمريكيين القدماء أعنى الذين أصلهم إرلانديون أو هولانديون أو سويديون(Suédois) أو دينمـارقيون (Danois) وهؤلاء السـكان ينقسـمون كما يأتى : ـ ٧٠٠,٠٠٠ ألمانى و ٢٠٠,٠٠٠ إرلاندى و ٨٠,٠٠٠ اسكانديناوى (Scandinévois) و ١٠٠,٠٠٠ بولونى و ٩٠,٠٠٠ بوهيـمى (Bohémiens) و ١٠,٠٠٠ انجليزى ايقوسى (Anglais Ecossais) و ٤٠,٠٠٠ من العبيد والبـاقى من أجناس مختلفة وقد يتكلم فيها بأربعين لغة وبها جرائد كثيرة تطبع بلغتين وتؤدّى الفرائض الدينيـة

هناك بثلاثين لغة فهى إذاً بلدة يسكنها خليط من أجناس شتّى وقد لاحظت بها كنيسة روسية . هذا وقد رأيت بها كثيرا من التماثيل ففى حديقة البحيرة تمثال الجنرال جوهن لولوجان (John le Logan) وفى حديقة لنكولن (Lincoln Park) تمثال الرئيس لينكولن (Lincoln) وبها أيضا جامعة كبيرة رأس مالها ١٠ ملايين دولار تبرع من هذا المبلغ المثرى الشهير المستر روكفلر (Rockfiller) بسبعة ملايين دولار وليس هذا عليه بكثير فانه أكبر غنىّ فى العالم ومعظم ثروته آتية من استخراج زيت البترول أما عدد تلاميذ هذه الجامعة فيبلغ خمسة آلاف طالب — وبهذه المدينة مكتبة عظيمة تسمى باسم من أسسها المستر نيوبرى (Newberry) بها ٣٠٠,٠٠٠ مجلد وقد ذكرت قبلا أنى لم أزر مذبحها ولكن هذا لا يمنع من أن أذكر عنه شيئا مما علمته لأهميته فان مساحته ٢٠٠ هكتار وبه ٤٠ كيلومترا مربعا قد زرعت فيها النباتات الصالحة لتربية الماشية (Pature) و ٣٠ كيلو مترا تغمرها مياه للشرب — وقد يحتوى على ٧٥ ألفا من البقر و ٣٠ ألفا من الخنازير و ٥٠ ألفا من الضأن و ٥٠٠٠ حصان ولا يستغرب القارئ ذبح هذا النوع الأخير من الحيوانات فان فى أوروبا كثيرا من الفقراء يأكلون منه فمثلا فى النمسا بعض جزارين لا يبيعون إلا لحوم

الخيل وقـد يعلنون عن ذلك فى إعلاناتهم التجارية فالأمريكيون أولى من أولئك بأكل تلك اللحوم لأنهـم أكثر الناس تهافتا على جمع الثروة والبحث عن الدرهم بأىّ وسيلة فأىّ مانع يمنعهم من التجارة فى هذه اللحوم ؟ ربما يدهش القارئ أكثر اذا قلت له ان لحوم هذه الحيوانات تخلط أحيـانا مع باقى لحوم الحيوانات الأخرى ومن ذلك الخليط تكون اللحوم المحفوظة وهل يعرف أىّ خيول تذبح ؟ الخيول المســنة التى طال عليها القدم ولم تعد تصلح للاشــتغال ـ إن الأمريكيين لايحبون أن يتركوها تموت أو تعدم بدون أن ينتفعوا بها ففى شبابها يسخرونها حتى تفقد قواها ثم يذبحونها ويتاجرون بلحومها ـ

وقد يرد على هذه المذابح كل سـنة من ٣ الى ٤ ملايين من البقر ومن ٧ الى ٨ ملايين من الخنازير ومن ٣ الى ٤ ملايين من الضأن و ١٠٠,٠٠٠ حصان ويقدرون ثمن هذه الحيوانات التى تذبح بتلك المذابح بمبلغ ٣٠٠ مليون دولار ـ

أكتفى الآن بما ذكرت عن مدينة شيكاجو بما أن ميعاد العشاء أزف ـ

بعد أن تعشينا بادرنا إلى النوم وقد عزمنا على ترك هذه المدينة غدا ان شاء الله فى منتصف الساعة العاشرة صباحا ولكني بعد أن أبدلت

ملابسى خطر لى أن أكتب قليلا فى رحلتى عن حالة المدينـة ليلا وعن أمور رأيناها ولا بد من ذكرها ـ أما حالة هذه المدينة ليلا فانها تسر الناظرين بأنوارها الساطعة المتلألئة اذ ليس بها كثير من أمثـال المنـازل الشامخة ذات الطبقات الكثيرة التى شـاهدناها فى مـدينة نيويورك ولاتساع شوارعها العظيمة

تلك الأمور التى لاحظتها هى :ـ

ان نساء مدينة شيكاجو وبناتهـا يظهر عليهن الجمـال ولكنى أنكر عليهن كل الانكار تمثلهن بالرجال فانهن يركبن الدراجات التى تسـير بالبترول (الموتوسيكلات) وكنا نرى أحيانا سيدة ورجلا أو فتى وفتاة راكبين على دراجة واحدة من هذا النوع أما اللاتى يتنزهن بالعربات الكهربائية أو السـيارات على اختلافها ويقدنها بأنفسهن فعددهن لايحصى والذى ألفت نظرى أكثر من كل ذلك أن الصبية منهن تخرج فى الشوارع والرياض والطرق إلى أن تبلغ الخامسة والعشرين من عمرها وهى لابسة حلة قصيرة (Jupe courte) عارية الساقين حتى يظهر لهـا زوج فتغير زيها هـذا ـ ان هذا فى نظرى ونظر كل شرقى لا يزال محافظا على آدابنـا الشرقية العالية تبرج ممقوت له من سيئ العواقب مالا أريد أن أجاهر به ـ أما اختلاط الطالبين والطالبات

فى مدرسـة واحدة فأظنه أيضا لايلائم الطبيعة البشرية التى لا تسلم مما يشينها إلا اذا جعلت لها دائرة من الحـدود لا تتعداها فالحرية الانسانية يجب أن يكون لها حدّ تقف عنده و إلا استحالت إلى حرية العجماوات السائمة فى بواديها ـ و إلى هنا أترك الحكم فى ذلك للقارئ فليحكم بمـا يشاء ـ هذه ملحوظاتى أبديتها وأختمها بكلمة أنصح بها اخوانى الشرقيين : حافظوا على عوائدنا وتقاليدنا وعلموا المرأة مايؤهلها للقيـام بشؤون منزلها وواجبات زوجها وتربيـة أطفالها فان فى ذلك فخرنا وسعادتنا وراحة ضميرنا والله يهدينا الصراط المستقيم ـ

أصبحنا والشكر لله فى الرابع عشر من شهر مايو وما أتت الساعة السـابعة حتى كنا على أهبة السفر فتركنا غرفنا ونزلنا لندفع الأجور ثم خرجنا من الفندق الساعة الثامنة وركبنا سيارة إلى المحطة التى سنسافر منها ولم تكن قريبة من الفنـدق كالتى وفدنا منها وعند وصولنا اليهـا وجدنا القطار حاضرا فصعدنا إلى عربتنا ووصـلنا إلى المحـالّ التى جعلت خاصة لنا وهى أيضا عربة (Pulliman) غير أنه كان فى هـذه المرة بقطارنا عربة للأكل فاخرة ومحلّ للتدخين وآخر للمطالعـة به جملة جرائد ومحل للحلاقة به حلاق سودانىّ ومحل لمسح الأحذية وفى قطارنا آلة للتلفون يمكن اتصالهـا بآلة تلفون أىّ محطـة يقف

عليها القطار بحبل دقيق يحفظه خادم العربة الذى يقوم بذلك العمل كلما طلب منه وعلى شريطة الاسراع قبل أن يتحرك القطار .

ما أخذنا مكاننا حتى مر علينا مفتش القطار وهو يتبسم إلىّ كأنه يعرفنى وقد رأيت من سائر مستخدمى هذا القطار كل لطف وأدب وهذا الذى سرنى كثيرا وبعد أن تحركنا حضر المفتش ومعه مساعده وطلب تذاكرنا بعد أن قدم لنا واجبات الترحيب ثم أتى لى بدليل الطرق الحديدية فعلمت من كل ذلك أنى معروف عندهم وقد وصلتهم أوامر خصوصية فى شأنى . بعد قليل أحضر إلىّ سودانى بعض جرائد بها رسوم فأخذتها مع الشكر . وهنا أذكر للقارئ أن المشتغلين بالخدمة فى الخطوط الأمريكية الشرقية كلهم عبيد سودانيون ما عدا رئيس السفريين فهو من الجنس الأبيض وكذا السواقون والمفتشون والمعاونون فانهم من الجنس الأبيض أيضا وقد لاحظنا ذلك أيضا فى سائر فنادق نياجارا وشيكاجو حتى إن فى بعضها رئيسهم أسود مثلهم وإنى أفضل البرابرة الذين عندنا على هؤلاء العبيد لخفتهم وسرعتهم وتأديتهم حق الخدمة بكمال الآداب مع الدقة . بعد قليل حضر إلينا رئيس السفريين ليسألنا أنريد شيئا غير الذى عندهم ليحضره من إحدى المحطات الآتية ويعده لنا

فزادنى سرورا كل هذه الآداب وحسن العناية خصوصا بعد ماقرأته عن أمريكا فى المؤلفات التى يذكر فيها أن الامريكيين لايرعون للأجانب حقوقا وأنهم فى الجملة غليظو المعاملة لايهتمون براحة السائحين فما رأيته ولقيته من سائر العمال والخدم جعلنى أحكم بعكس ذلك .

إن الخط الذى نسير فيه الآن يسمى خط (روك ايسلاند) (Rock Island) وعند خروجنا من شيكاجو إلى ضواحيها لم ترقنا مناظرها بل هى كضواحى أكثر البلاد الكبيرة حيث منازل العملة والطبقة الفقيرة تكون عادة فيها .

وبعد أن تركناها ودخلنا مزارعها رأيناها جميلة فجعلنا ننعم أنظارنا فيها الى أن أتينا بلدة جوليت التى عدد سكانها ٣٥٠٠٠ نسمة وقد سميت باسم رحّالة فرنسى وبها معامل كبيرة لعمل الجعة ولصناعة الصُّلب وتنانير كبيرة لعمل الفحم الذى يسمى فحم كوك . هنا الأراضى الزراعية التابعة لهذه البلدة عظيمة الاتساع وعدد سكانها بالنسبة لأرضها الزراعية قليل بخلاف الجهات التى سبق مرورنا عليها وقد رأينا بها جملة مزارع كبيرة للفلاحة ولتربية الحيوانات .

وصلنا بعد هذه البلدة إلى أتاڤا (Ottava) وعدد سكانها ١٠٠٠٠ نفس وبها معمل للزجاج وهى واقعة على نهر فوكس (Fox River)

ومنها الى بلدة لاسال (La Salle) وسكانها ١٢٠٠٠ ودعيت باسم رحالة فرنسى آخر وبها مصانع للزنك والسيانتو وفى ضواحيها خمسة مناجم لاستخراج الفحم الحجرى وأراضيها خصبة ومبسوطة وتزرع فيها الحبوب وقد مررنا على بعض مستنقعات وبعض مراع لتربية المواشى .

هذا وقد لاحظنا أن فلاحى أمريكا يستعملون الخيول لا الثيران وربما كان ذلك لأن الأولى أسرع من الثانية . ولا عجب فان طبيعة الامريكيين السرعة والحرص على الزمن . أما حالة البقر والثيران فليست جيدة .

وصلنا الى بلدة مولين (Moline) وعدد سكانها ٢٥ ألفا وبها جملة معامل لقضبان الطرق الحديدية ولصناعة السلوك من الحديد ـ إن الوافد على هذه البلدة حالما يرى بيوت العملة يحكم بأنهم ليسوا على شئ من الثروة . أما من جهة أراضيها فانها تشبه الأراضى التى سبق وصفها .

الساعة الآن واحدة ونصف بعد الظهر وقد كنا ذهبنا قبل هذا الميعاد إلى عربة الأكل فوجدناه طيبا فأخذنا ما لذ لنا وطاب وعندما قربنا أن ننتهى منه وقف بنا القطار فى محطة روك إيسلاند (Rock Island)

التى بهـا ٢٦ ألفا من السكان ومصنع للسفن تابع للحكومة ثم وصلنا الى دافمبور (Davemport) وسكانهـا ٤٥٠٠٠ وهى فى مقاطعـة يوفا (Iowa) واقعـة فى غرب المسيسبى وشهرتها أنها مركز الخطوط الحديدية المتشعبة الذاهبة إلى الشمال والجنوب والشرق والغرب ـ وفى نحو الساعة الثالثة وصلنا إلى بلدة يوفاسيتى (Iowa City) وسكانها عشرة آلاف نسمة وبها جامعة عظيمة تسمى باسمها .

وفى الساعة السادسة و ٢٥ دقيقة وقف بنا القطار فى محطة موان (Moines) وعدد سكانها ٨٦٠٠٠ وهى عاصمة مقاطعة يوفا (Iowa) وواقعة على نهر الموان أيضا (Moines Rivers) أما منازلها فبديعة الشكل محكمة البناء وموقعها جميل .

أتت الساعة السابعة فذهبنا إلى المطعم للعشاء وفى أثناء ذلك كانت أسرتنـا تعدّ ومن الغريب أنه قيل لى قبلُ إن هذه الجهات لايسرك مناظرها ولا حالة مزارعها وفلاحتها ولكنى رأيت الأمر على عكس ماقيل لى فالمزارع أراها سارّة فيها جملة ضياع كبيرة مزروعة وقد أنبتت نباتا حسنا ويظهر على سكانها آثار النعمة بمـا لهم من المنازل الكبيرة الجميلة التى بها اصطبلات لمواشيهم ومخازن لحاصلات أرضهم .

انتهينا من العشاء ولما قربت الساعة التاسعة افترقنا للنوم تاركين

قطارنا يخترق هذه المقاطعة والمقــاطعة الأخرى التى تسمى نيبراسكا (Nibraska) هــذا ولله الحمد طوينـــا ليلتنا فى راحة ولم نشعر بهزات القطار خصوصا وقت وقوفه وقيامه من المحطات كما كنا نشــعر بها ونتنبه مذعورين عنــد حضورنا الى شيكاجو فكأن الله أراد أن يتم نعمته علينا فألهم أيضا السوّاق أن يتقى كل مايزعجنا وجعــله لا يقف ولا يقوم دفعة واحدة فصرنا راضين عن كافة المستخدمين حتى سوّاق القطار .

قمنا من مضاجعنا نحو الساعة خمســة ونصف صباحا من يوم ١٥ مايو واذا نحن فى خلاء عظيم الاتساع فقرّرنا أن عدد سكان تلك البقاع قليل بالنســبة الى أرضها الواسعة وذلك لبعد المنازل بعضها عن بعض وللمسافات الشاسعة بين كل قــرية وأخرى . وفى نحو الساعة السابعة و ٤٥ دقيقة وصلنا الى محطة جودلاند (Goodland) وهى قرية صغيرة يبلغ عدد سكانها ١٥٠٠ نسمة ولكنها على صغرها مشهورة بتجارة الحبوب وتربية الطيور الداجنة ففى أراضــيها الواســعة يزرع القمح والشعير وغيرهما .

من بعد هذه القرية ابتدأنا نرى أرضا مقفرة فكنا لا نرى إلا فضاء واسعا وقليلا من البقر والخيل ترعى الكلأ الطبيعى .

وقف بنـا القطار فى محطة ليمون (Limon) الصغيرة التى سكانهـا لايتجاوز عددهم خمسمائة نسمة ولكن منها يتفرع الخط الحديدى الى فرعين : فرع يذهب الى جهة دينفرسيتى(Denver City) وفـرع آخر الى كولورادو و پوييلو (Colorado et Pueblo) وهذا لأخير هو الذى سنتبعه ونسير فيه فبقينا فى عربتنا وفصلت باقى العربات الذاهبة الى الفرع الثـانى وقبل تحرك قطارنا أقبل علينا جميـع المستخدمين الذين لايذهبون معنا ليحيونا تحية الوداع و بعد لحظة التوديع بخمس دقائق تحرك بنا القطار الى حيث وجهتنا .

نحن الآن فى مقاطعة كولورادو وكنا نرى القطار الآخر الذى افترق عنا يسير على بعد منا ولم يغب عن نظرنا مدّة ربع ساعة . وبعد مدّة من الزمن ابتدأنا نرى بعض مرتفعات فى هذا الخلاء وعليها الثلج الناصع البياض والمواشى تخرج فى هذه الأراضى التى بها أيضا بعض نقط بيضاء من هذا الثلج فتمشى بينها ترتع كيفما شاءت وحيث طاب لها المرعى .

فى جهـة الكنزاس (Kenzas) قبـل كولورادو كنا نرى على جانبى خط الطريق الحديدى كثيرا من عظام وهيا كل الخيول وقد عددنا أكثر من اثنى عشر هيكلا فى مسافة قصـيرة فعرفنا أن هناك أيضـا تترك الجثث الى أن يفنيها الزمن .

ابتـدأ الجو يعتدل والحالة تحسن فان الجبال الصخرية ظهرت لنا من بعد ونحن فى هذا المكان فى مستو مرتفع عن سطح البحر بثلاثة آلاف قدم أما مناظر الثلوج فانها بديعة لاسـيما و إن خلوها من الأوساخ والغبار أكسبها رُواءً و زادها بيـاضا وقد أخذت الشمس ترسل على تلك الثلوج أشعة نظرها الحارة فتذيب فؤادها فتبكى دموعا كاللآلئ تساقط فتجتمع فتكون مجرى صغيرا ينحدر فى تهائم الأرض فيرسم على وجه البسيطة أشكالا مختلفة فسبحانك مبدع كل شئ .

إن رءوس هـذه الجبال معممة أيضا بالبياض الذى أكسبها وقارا وكنا نقـرب منهـا رويداً رويداً وما مضى ساعة وعشر دقائق حتى وقف بنا القطار فى محطـة كولورادو اسـبرينج (Colorado Spring) وقد كانـ فى انتظارنا بواب الفنـدق الذى أسرع الينا فسألناه عن مكان الفندق فأجابنـا انه لا يبعد عنا أكثر من مسافة خمس دقائق وهو أمامنا نستطيع أن نراه فلا داعى لعربة تذهب بنـا إليه .

هنا أذكر للقارئ أن كولورادو تطلق على بلدتين متجاورتين احداهما تسمى كولورادو سيتى (Colorado City) وعدد سكانهـا ٥٠٠٠ نسـمة وهى العاصمة القـديمة لمقاطعـة كولورادو والأخرى تسمى كولورادو اسبرنج (Colorado Spring) وعدد سكانها ٣٠٠٠٠ نسمة .

مشينا على أقدامنا فمررنا على فضاء صغير به بعض أشجار غير مورقة وبعده ظهر أمامنا بناء مشيد ذو ست طبقات فاذا هو محط رحالنا . وصلنـا الى الفندق الذى يسمى أنتلر (Antler) فدخلنـاه واخترنا غرفنا فى موقع حسن يشرف على الجبال وقد كنا أعطينا وثائق حقائبنا للبواب المذكور ليأتى بهـا الينا فلم ننتظره وصـعدنا لننفض عنا غبار السفر ولم نستغرق فى ذلك من الزمن إلا قليلا لاشتداد جوعنا ونزلنا مسرعين الى المطعم حيث كانت السـاعة اثنتين الا ربعا فأخذنا مكاننا وانتظرنا رحمـة السفريين فان هؤلاء الخدم على خلاف عادة أرباب الأعمال الأمريكانيين فى غاية البلادة والكسل .

انتظرنا نصف ساعة حتى أتى لنا بالطعام فأكلنا وحمـدنا الله وبعد ذلك خرجنا ومشينا فى طرقات وأبهاء الفندق فأعجبنا حسن النظام ثم أردنا الصعود الى غرفنا لنغير ماعلينا من الملابس فبدا لى أن أقصر أولا شعرى الطويل فذهبت الى حلاق الفندق وفرغت من ذلك أيضا ثم صعدت الى غرفتى للاغتسال ولتبديل ملابسى فأخذنا كلنا أولا نقدم ملابسنا غير النظيفة التى غيرناها أثناء سفرنا لتغسـل حيث انا على حسب برنامج رحلتنا سنمكث فى هذه البلدة خمسة أيام فعندنا اذًا من الوقت ماىسع ذلك . هذا وقد أخذتُ ملابسى الخارجيـة

جميعها تكون غير لائقـة لكثرة التنقل ولو ضعها فى العياب ولا يخفى مايحصل عادة أثناء هذه الرحلات للحقائب الكبيرة فان الحمالين يلقونها كيفما شاؤا فحينما يفتحها صاحبها يرى عاليها سافلها فأعطيتها كلها لمن يكويها ثم دخلت الحمام وما ابتدأت فى فتح صنبور المياه حتى سمعت جرس التليفون يدق فأسرعت لأرى مايراد منى فأخبرت أن أحـد مخبرى (غازيت دى كولورادو) يريد مقـابلتى فقلت لمن يكلمنى لا أستطيع ذلك الآن لأنى قـد أعددت نفسى للحمام . وما انتهيت من عملى هذا حتى سمعت الباب يدق فذهبت لأرى ماذا جدّ أيضا فاذا هو نفس مخـبر الجريدة فاعتذرت له حيث انى لم أكن بملابس تليق بالمقابلة فذهب عنى وتخلصت منه ولله الحمد .

ألقيت نفسى قليلا على سريرى طلبا للراحة وفى نحو الساعة الخامسة والنصف طلبت بالتلفون أن يؤتى الىّ بملابسى (الأسموكين) فأجابنى من يكلمنى : حالا ياسـيدى ـ ولم يمض على ذلك برهـة من الزمن حتى دق الباب فقلت من بالباب فأجابنى صوت أتريد ياسيدى لفائف تبغ كبيرة أو صغيرة فاستغربت وقلت إنى لاأدخن ولم أطلب أبدا بائع التبغ ـ انى طلبت (الاسموكين) للبسها ـ

والحقيقة أنه قد التبس عليهم الأمر فان كلمة (أسموكين) بالانجليزية

معناها تدخين وبمـا أنه فى كل ساحة فنـدق يوجد بائع دخان فبمجرد سماعه هذه الكلمة من أى سائح يسرع اليه ليقدّم له من تجارته أعلاها ولكنه رجع خائبا ولم يكتسب منى فلسا واحدا .

بعـد ذلك صرت أعلل نفسى الى أن دق الباب ثالث دقة فقلت لابد أنهم فى هذه المرّة قد أتوالى بما أريد ففتحت الباب فماذا رأيت ؟ رأيت سيدة تقول انى أصلح الأظافر فهل تريد أن تشرفنى بأن أؤدّى هذه الخدمة فشكرتها على تلطفها معتذرا لهـا عما تكبدته من التعب ذاكرا لها أنى أصلحتها بنفسى الآن فذهبت الى حالها وأخيرا أحضروا لى ملابسى فارتديتها وكان فى أثنـاء ذلك رفيقاى على استعداد أيضا فنزلنـا وذهبنا الى مكتب الاسـتعلامات لنستفهم عمـا يلزم زيارته فأرشـدنا أن نذهب الى الكريسـتال پارك (Cristal Park) مع باقى السـائحين وهو مكان فى أعلى الجبل يُصعَد اليـه بسيارة معدّة لذلك فقرّ رأينا على اتباع هذه المشورة لمشاهدة هذا المكان .

ان كولورادو اسپرنج أطلق عليهـا الأمريكيون اسم مدينة الشمس وقالوا ذلك لأن الشمس لا تغيب عنها أكثر من ٤٠ يوما فى السنة أى إن جوّها دائمـا صحو والمطر فيها قليل ولكنى لست على يقين من صدق ماقالوا وقد ذكرت هذا برحلتى بناء على أقوالهم . وأرى أن

الأولى بهذا الاسم هى عاصمتنا فيمكننا اذاً أن نسميها مدينة الشمس الحقيقية .

إن المدينة التى نحن فيها الآن مرتفعة عن سطح البحر بستة آلاف قدم وهى مبنيـة تحت الجبال الصخرية وبهـا شوارع كثيرة مغروس على جوانبها أشجار لم تورق الى الآن وقد سمعنا أن السماء أمطرت قبل حضورنا بيوم واحد بَرَدًا تراكم بعضـه على بعض حتى بلغ ارتفاعه فوق سطح الأرض أربعين سنتى مترا . أما أشجارها على اختلاف أجناسها فانهـا تتأخر فى الإيراق ولكن هواءها جاف ومفيـد جدّا للمصابين بأمراض السل والصـدر فهى لذلك مورد هؤلاء اليائسين الذين يحضرون للسكنى فيها ويؤجرون منازل صغيرة معدّة لهم فى حىّ معلوم . ولقد كان حضورنا بهذه البلدة قبل ميعاد موسمها الذى يكون عادة فى الخامس عشر من شهر يونيه وطالما سمعنا عنها كثيرا حتى قيل لنا إنه ممنوع كلية البصق فى الطرق للمحافظة على الصحة ومن يخالف ذلك يعاقب بغرامة قدرها دولار ولكنا رأينا كثيرا من الناس ينتهزون فرصة عدم وجود الشرطة فيبصقون فى الأرض تاركين آثارهم تدل عليهم مخالفين الأوامر والتنبيهات وأما الألواح الصغيرة المعلقة فى كل مكان ومكتوب عليها (ممنوع البصق) فلم تفد أيضا ولم تبطل من الناس

هــذه العادة القبيحة التي تكون أحيانا سببا فى انتشار الأمراض الشديدة التي تذهب بحياة الانسان . ختمنا يومنا وبعد العشاء افترقنا للنوم وفى اليوم الثــانى (الخميس ١٦ مايو) فى الساعة العاشرة صباحا ركبنا السيارة مع باقى السائحين وعددنا نحو عشرين شخصا للصعود على قمة الجبــل لرؤية الكريستال پارك وسرنا فى طريق خاص للسيارات التابعة للشركة التى احتكرت هذا الطريق ولا يمكن لأحد أن يصعد ويسير فيه الا بواسطتها وعلى سياراتها التى أعدتها لذلك . دفعنا أجرة هذه الزيارة دولارين عن كل فرد وصرنا كسائحى كوك كلنا فى سيارة واحدة ومعنا دليــل شاب صغير واقف على سلمها وظيفته أن يشرح لنــا مايقتضى شرحا فاخترقنا البلدة ووصلنا الى كولورادو سيتى فألفت الدليل نظرنا الى كوخ قديم وقال لنا إنه أقدم منزل فى هذه البلدة كان يسكن فيه القومندان المعين من قبل الحكومة لمــا كانت هذه الجهة خالية من العمار . هذا وقد كانت كولورادو تابعة للكنزاس (Kensas) التى كانت تحت أيدى الهنود أولى اللون الأحمر وبها معابدهم وآلهتهم وقد رأت الحكومة الشدائد والأهوال فى إخضاعها لاعتقاد هؤلاء الهنود بأن أراضيها مقدّسة .

استمر رنا فى طريقنا مدّة من الزمن ثم أشار دليلنا الى صخور عالية

حمراء واقعة على مسافة من يمين الطريق وقال : ان هذا المكان يدعى حدائق الآلهة و بعد ذلك مشت بنا السيارة الى جهة الشمال ثم وقفت أمام باب كبير كان مغلقا يسدّ الطريق ففتحه الدليل ومررنا منه ووراء هذا الباب الأرض التى فيها طريقنا وهى مملوكة لأحد الأمريكيين — وقد قيل لنا ان المدّة التى أنشئت فيها هذه الطريق استغرقت سنة وعشرين يوما وذلك لصعوبتها لأنها حجرية — هذا وقد مررنا على كثير من الصخور التى لها أشكال مختلفة تمثل هيئة حيوانات أو طيور أو غيرها ولأجل أن يشغلوا السائح فلا يشعر بملل سموا كل شكل اسما يوافق هيئته فصار الدليل بين وقت وآخر يشير الى صخرة قائلا انظروا هذه فانها تشبه الأسد تمام المشابهة وهذه تشبه (الضفدع) والأخرى تحاكى (الرينوسيروس) وهكذا — فتتجه الأنظار الى هذه الصخور وصرنا نلاحظ مايقوله رفقاؤنا الراكبون معنا فنهم من تظهر عليه علامات الاستغراب والدهشة من انطباق الشكل على الاسم ومنهم من يرى بعض النقص فى انطباق الشكل على اسمه . أما نحن فكان همنا أن نسمع ما يقال ونرى ما يشار اليه فنتعقب أقوالهم ونحكم بعد المداولة بيننا ذاكرين أيهم أحق وأصدق قولا وأقرب الى العقل .

استمر بنا السير فى هـذا الطريق الذى يرتفع تدريجا الى أن وصلنا الى عقبة كؤود وهى إحدى تلك الأشكال فوجدنا المرور منها صعبا فاضطر سائق السيارة أن يرجع قليلا الى الوراء منحدرا ثم يتقدم الى الأمام محركا السيارة الى الاتجاه المراد السير فيه وهكذا الى أن مر من هذا المضيق الذى أزعج المرور منه بعض السائحين وذهب بالطمأنينة من نفسه خصوصا مصطفى بك الذى لم يسبق له الصعود الى أعالى الجبال فكان يرى الصعوبة أمام عينيـه مجسمة وقد قرأنا ذلك على هيئته وشف عنه كلامه وحركاته الدالة على عدم الاطمئنان .

هنـا رأينـا حفرة عملت لتكشيف معدن الذهب ولمـا وجدت النتيجة لاتفى بالغرض تركت .

استمر بنا الصعود الى أن وصلنا الى مكان آخر أصعب من الأول ولإدارة السيارة لتسلك الطريق المنعطف دفعة واحدة عمل لذلك (پلات فورم) يشـبه الذى فى بعض المحطات المعد لتحول اتجـاه القاطرات (صينية تغيير اتجاه القاطرات) فتمت هذه العملية الصعبة ونحن لم نترك مكاننا ــ هنا ظهر لنا مناظر مدينة مانيتو (Manito) الجميلة التى يبلغ عدد سكانها الألفين وبهـا كثير من منابع الميـاه المعدنيـة والغازية .

وفى أثناء سيرنا وجدنا بعض العملة يشتغلون فى إصلاح الطريق وازالة الثلج المتراكم عليها وفى منعطف منه قيل لنا : هنا (الجلالة والعظمة) حقيقة المنظر جميل ولكن لا أراه يستحق هذا الوصف .

وقفت بنا السيارة فلم تستطع السير فان كثرة الثلج على الطريق منعتها وفى أثناء ذلك نزل منها رجل ومعه آلة التصوير وصعد على ربوة فى منعطف لتصويرنا فأُخذ فى إزالة ما يعوق السيارة وبعد جهد وعناء وُفقنا الى الاستمرار فى السير وتركنا هذا المصور فى مكانه وقد صادفنا هذه العوائق ثلاث مرات وفى كل مرة نلاقى مشقة فى إزالة ماعلى الطريق من الثلج .

وصلنا بعد عناء شديد الى ما يقرب من آخر قمة الجبل ولم يبق بيننا وبين آخر الطريق أى أعلى مكان فيه الا نحو ٤٠ مترا ولكننا أيضا فى هذه المرة وقفت بنا العربة وقوفا تاما رغما من قوة آلاتها لتراكم الثلج أكثر مما صادفناه قبل فاضطر السائق أن يترك السيارة ويذهب للبحث عن فأس وغاب عنا وقد كانت أمامى سيدة عجوز فسمعتها تقول : إنى لا أشعر بجمال هذه المناظر فأتحدث به الا من بعد نزولنا ووصولنا الى أسفل الجبل سالمين . فعلمت أن ليس مصطفى بك هو الوحيد فى شعوره وذهاب الطمأنينة من نفسه فقد شاركته هذه

السيدة فيا يجد وطالمـا سمعناه يردّد هذه الجمل بين شفتيه : الى متى نصـعد الى قمم الجبال ؟ وهل من فائدة تنـال من وراء ذلك ؟ إنى أرى فى عملنا هذا مخاطرة .

حضر السائق ومعه الفأس وأخذ يشـتغل فى فتح طريق للسيارة حتى نصـل الى غايتنـا ففتحت الطريق وصـعدنا الى اعلى قمة فى الكريسـتال بارك (Cristal Park) ـ هنا المنظر يسـتحق الإعجاب لجماله الرائع فبالرغم من ذلك الارتفاع الهائل نحن فى متسع من الأرض لا يصعب على سيارتنا أن تدور فيه فليتصوّر القارئ هذا المكان المستوى على قمة الجبل وكيف يكون حال السائح بعد تكبده الصعاب للوصول الى هذه القمة الشاهقة خصوصا حينما يرى نفسـه فى مكان آمن يرى آثار قدرة الله وجلال صـنعه وأينما يوجه نظره يشاهد من المناظر المختلفة ما تقرّ به عينه فينشرح به صدره .

بعـد أن مكثنا قليلا من الزمن فى هـذا المكان الرفيع أدار السائق سيارته للنزول بنا وقد تغير الحال وسهل الأمر بزوال عقبات الصعود وقد وجه دليلنا أنظارنا الى صخرة سماها (فيدى Fedie) ويعنى بهـذا الاسم المستر روزفلت ونظن أن سبب هذه التسمية مشابهة بينهما .
وفى أثناء نزولنـا صاح الدليـل النسر النسر فسَرْعَانَ ما تحوّلت أنظار

السائحين الى الجهة التى أشار اليها باحثة عن هذا الطائر الشهير لرؤيته عن قرب ولكن ماذا رأوا ؟ رأوا طرف غصن شجرة يابس يشبه النسر قليلا فما أكبر مغالاتهم وما أوسع دائرة خيالهم .

لم يمض على مفارقتنا المصور أكثر من عشرين دقيقة حتى رأيناه ينتظرنا فى الطريق فصعد الى السيارة وبيده صورتان فى غلاف لطيف وشرع يعرضهما على السائحين وهما اللتان صورهما عند صعودنا وفيها زميلنا مصطفى واقف وبيده كرة من الثلج . فما أسرعه فى عمل الصورة انه أدهش الحاضرين .

وقد كان مع هذا المصور دفتر لكتابة أسماء من يريد شراء عدد من صوره وكان يأخذ ثمن الصورتين نصف دولار ويعطى المشترى وثيقة تشهد بأنه تسلم الثمن ويقيد فى دفتره العنوان الذى يسهل معه أن يرسل الصور اليه وقد فعل وأرسلها اليوم التالى لهذه النزهة .

استمر بنا النزول الى أن وصلنا الى سطح الأرض ومنه ذهبنا الى الفندق نحو الساعة ١ و ٣٠ دقيقة بعد الظهر وقد مررنا فى طريقنا على ثلاثة محال لتطهير الذهب المستخرج من بطون الأرض ولم تستغرق رياضتنا هذه أكثر من ثلاث ساعات ونصف فى الذهاب والإياب مع أننا ارتفعنا ألفى قدم عن مدينة كولورادو اسبرنج فباضافة

هذا الارتفاع الى ارتفاع هذه المدينة نجد أننا كنا على علو . . . ٨ قدم عن سطح البحر والغريب أننا لم نشعر وقتئذ بشدة البرد وهذا ماجعلنا مسرورين من استراضتنا هذه .

لست ممن يبخسون الأشياء حقها ولا ممن ينكرون على الطبيعة جمالها ولكن كثرة سياحاتى فى أنحاء العالم جعلت لى بعض القدرة على التمييز بين المناظر فتربت عندى ملكة ترشـدنى الى مواضع النقص فى كل مكان . انى أعرف أن كل جهة خصها الله بمزايا توافق حالها وموقعها ولم يكن عزيزا عليـه سبحانه وتعالى أن يجعل الكون جميعه على حالة واحدة فلحكمة يعلمها خلق جمـال الطبيعة وفرقه بارادته على البقاع فهو رب الكون يفعل به مايشاء جلت قدرته وتنزه عن أن ينقد عمله ناقد غير أنه لما كان لكل سائح أن يكتب مارآه فى رحلته وما استحسنه فلا أريد أن أحرم نفسى من إبداء مايناجينى به شعورى أمام منظر . إنى وفيت هـذا المكان حقه من الوصف فلم أحط من قيمته وما أبديت ملحوظاتى الآتية إلا مضطرا لذكرها بحكم تأدية الواجب على سائح وضع نفسه موضع الحَكَم العادل فأستميح القارئ فى بيانها :

إن جبال هذه الجهة كثيرة وما أضاع بهجتها إلا أنها متقاربة بعضها من بعض لا تزينها الأشجار الكثيرة ولا تكسوها النباتات المختلفة تلك

الحلة الخضراء . والناظر اليها لا يشعر بعظمة ارتفاعها لأنها مرتفعة في انحدار فذهب ذلك بكثير من عظمتها أمام الرائى فلم يترك منظرها في نفسي أثرا للعجب والاستحسان فأين السكان ومنازلهم الجميلة وأين الحيوانات التي ترتع وتسرح في مراعى الكلإ انها خاوية قاحلة مجدبة أينما سرح السائح نظره فيها لا يرى إلا فضاءً واسعا وسكونا موحشا وإني ممن يفضلون رؤية النسر يُحلق في هواء هذه الجبال عن رؤية غصن يابس لا يشابهه إلا في خيال الأميركيين الذى يخيل اليهم من العدم وجودا ومن المباينة مشابهة .

هذا وقد كان بودّى أن أرى في ربوع هذه الجبال سكان أميركا القدماء ببيوتهم القديمة وملابسهم المختلفة الألوان يسرحون ويمرحون في بداوتهم الأولى .

بعد وصولنا إلى الفندق ذهبنا توًا لتناول الغداء فلم يؤت إلينا به قبل الساعة الثانية والنصف فأكلنا وصعدنا الى غرفنا للراحة قليلا ولما كانت الاقامة في كولورادو اسبرنج لم ترقني كثيرا خصوصا مدير محل كوك بشيكاجو أخبرني من قبل بأن اقامة أربعة أو خمسة أيام بها داعية إلى الملل فأسرعت إلى مكان يقصده طلاب السفر (Agent de voyage) وهو على الطريق أمام الفندق وسألت هل

يستطاع تغيير ميعاد سفرنا وتقديمه إلى اليوم الثامن عشر من مايو بدل العشرين منه حتى نكتسب من الوقت يومين نقضيهما بكاليفورنيا على شاطئ البحر بين بساتينها النضرة وزهورها الشهيرة فأخبرني أحد العمال أن القطار السريع (الاكسبريس) الذى أخذنا تذاكرنا للسفر فيه الى (الجران كانيون) لا يسافر من هنا الا مرة واحدة فى الأسبوع فيلزمنا الانتظار الى يوم ٢٠ مايو فاذا لم يكن بد من تعجيل السفر فليس أمامنا الا القطار العادى الذى يقطع هذه المسافة (أى بين كولورادو اسبرنج والجران كانيون) فى ٣٨ ساعة وليس به عربة أكل و يلزم المسافر فيه أن ينتقل من قطار الى آخر مرات ففضلت التعب على أن أمكث هنا بدون فائدة خصوصا اننا لو أردنا الاستراضة فى متنزهاتها للزمنا للذهاب اليها قطع مسافة لا تقل عن ١٠ كيلومترات . فوعدنى أن يرسل إشارة برقية الى شيكاجو ودانفر (Chicago et Danver) ليكون على علم من وجود محال خالية بالقطار فافترقنا على ذلك وذهبت الى الفندق لكتابة رحلتى فى غرفتى واذا بأحد الخدم حضر و بيده بطاقة زيارة أحد السوريين فكلفت مصطفى بك أن يذهب إلى هذا الزائر و يقابله و يعلمه بكل لطف أنى الآن متعب وفى فرصة أخرى ان شاء الله أقابله . ولما اطلع خيرى بك على هذه البطاقة أخبرنى أنه

يعرف أخاه وهو أحد ضباط القسم الطبي بالجيش المصرى و يظن أن صاحب هـذا الاسم يكاتب أحيانا جريدة المقطم بمصر فقلت له لك أن تذهب اليه لتعرف الحقيقة و بعد ربع ساعة نزلت من غرفتى فوجدت رفيقىَّ جالسين مع هذا الزائر فرأيت أن أقابله لاسيما أنه أتعب نفسـه بالحضور للسلام علىّ والسؤال عنى فأشرت إلى زميلىّ أنى مسـتعدّ لمقابلته فحضرا به وقدّماه إلىّ فعلمت منه أنه الآن موظف حكومة بكولورادو اسپرنج وقد رأيت منه ضعفا شديدا وعجزا عن أداء مايريده باللغة العربية فكأنه نسى لغته الشريفة وقد صار يكلمنى باللغة الانجليزية أما معرفته اللغـة الفرنساوية فقليـلة وقد حكى لى أنه كان موظفا بمصلحة الطرق الحديدية المصرية قبل بضع سنوات والآن أجلّ أمانيّه العودة إلى بلاد الشرق التى يحنّ إليها فتكلمت معـه مدّة عشر دقائق خصوصا عن المعيشـة الأمريكية وغلائها وعما نجده فى بلادنا من أن قليـلا من الكسب يكفى لمعيشة أهنأ وأطيب من المعيشة فى مثل هـذه البلاد التى تحتاج إلى نفقات فادحة ــ و بعـد ذلك انصرفت وتركت صديقىّ معـه ولمـا أتى ميعاد العشاء تناولنـاه و بعد أن استرضـنا عشرين دقيقة بجوار الفنـدق صـعدنا وافترقنا للنوم .

وفى صباح يوم الجمعـة (١٧ مايو) حضر مخبر الجريدة الذى يريد بأىّ وسيلة مقابلتى فقابلته وسألته عما يرغبه فقال لى انه قرأ فى جرائد نيويورك وشيكاجو كثيرا عنى وبمـا أن للأمريكيين مصالح كثيرة فى مصر فيودّ أن يعرف من أخبارها شيئا حتى يكتبه فى جريدته ليفيد قراءها فاعتذرت له ببعدى عن المسائل السياسـية وفهمته أنى لم أحضر الى أمريكا لأىّ غرض سياسى بل كل ما أقصد السياحة فلم أرد الكلام معه فى هـذا الموضوع لقبوله التفسيرات الكثيرة التى تتوسع فيهـا الجرائد على حسب ماتهوى ولمـا فى ذلك من التعرّض لعـدم استحسان بعض المشتغلين بهذه المسائل فيكثر القيل والقال والأخذ والردّ وربمـا ينسب الى حديثى مالم أقله فالى ولهذه الشؤون المقلقة التى ليس وراءها جدوى .

انتقلنا من هـذا الحديث الى موضوع رىّ الأرض ولما أراد معرفة أىّ الطرق أوفى بالغرض وأنفع للزراعة أخبرته أنى أبلغ من العـمر نحو الست والثلاثين سـنة وفى خلالها سمعت كثيرا عن أحوال الرىّ ولا أعلم أىّ الطرائق المصرية أم الهولاندية أم الأميريكية كانت أحسن نتيجة من غيرها وظنى أن كل بلدة ترى أن طريقتها أتم وأكثر اتقانا من طرق البـلاد الأخرى وقـد ضربت له مثلا اختلاف

افكار المهندسين في هذا الموضوع وقلت له كيف لى أن أحكم في هذا الموضوع والخصيصون به إلى الآن لم يهتدوا ويتفقوا على طريقة واحدة فان كل مهندس يرى أفكاره وطرائقه في الرى أحسن من أفكار الآخرين ولو أنهم في بلدة واحدة فما بال الطرائق المتعددة التي تتبعها البلاد المختلفة . وبعد ذلك رجوته ألَّا يكتب في جريدته مادار بيني وبينه من الحديث ثم تكلمت معه عن سياحتى وعما لقيت من حسن مقابلة الأمريكيين ولطفهم الذى جعلني أمحو ما علق بفكرى من كل ماقرأته في الجرائد والمؤلفات الكثيرة التي طالما كتبتْ عما يلاقيه السائح من الصعوبات في أمريكا وغيرها وقد أخبرته أنى أفضل الأمريكى الساذج بأخلاقه السهلة على الأمريكى المثرى صاحب المليارات الذى يتغلب عليه الكبر فيتيه عجبا . وقد أظهرت له ما أخذته على أمثال هؤلاء الأغنياء الذين يذهبون كثيرا إلى أوربا للاقامة فيها رغبة في الظهور فان أموالهم الطائلة تجعلهم هناك من أصحاب المنازل الرفيعة حتى يشار اليهم بالبنان فيلاقون من الاحترام والاكرام ما لم يحلموا به في بلادهم الواسعة التي بها كثير من أمثالهم ممن يفوقونهم في الثروة وان كان لهم شئ من الشهرة في بلادهم فهي محصورة في دائرة أشغالهم بين من لهم ارتباط بأعمالهم فلا يعرفون بين

الأمريكيين مواطنيهم الا باسم (المستر فلان صاحب معامل كذا أو المستر فلان مالك أراضى كذا) وبما أن الأغنياء فى أمريكا كثيرون فوجودهم فى بلادهم لا يوجه الأنظار إليهم . كذلك السيدات المثريات الشهيرات بجمالهن يذهبن أيضا الى أوربا فتكتب عنهن الجرائد وتفتح أمامهن الأبواب وتتسابق الى معرفتهن أصحاب الألقاب الضخمة فتنشرح صدورهن وتحلو لهن الاقامة بتلك الديار التى يجدن فيها كل أسباب السعادة والهناء فالفرق اذاً عظيم بين وجودهن فى أمريكا الواسعة التى لا تشعر بمقدارهن لكثرة أمثالهن وبين وجودهن فى أوربا موضع الإجلال والاحترام التى تسطع أنوارهن فيها ويظهرن فى سمائها كأنهن الأقمار .

انتقل بنا الحديث الى أحوال الجو وتغير الطقس ثم الى أنواع الفواكه والخضر فقلت له فى ذلك إن كل شئ فى أمريكا كبير مجسم حتى فواكهها فانها أكبر من فواكه البلاد الأخرى فكأن الطبيعة أرادت أيضا أن تخرج من نباتها أثمارا تشبه أخلاق الأمريكيين المغرمين بكل شئ كبير ولكن مع الأسف أراها حسنة المنظر قليلة الحلاوة ولذاذة الطعم . افترقنا بعد هذه المحادثة وذهب الى حال سبيله مسرورا . أما نحن فعوّلنا على زيارة حديقة الآلهة Jardin des Dieux

التى تبعد بمقدار اثنى عشر كيلومترا فاستأجرنا سيارة وسرنا إليها مخترقين شوارع المدينة مارّين على كولورادو سيتى وفى ابتداء الطريق الموصل إلى الكريستال پارك الذى سبق الكلام عليه سرنا الى جهة اليمين وهناك أيضا المدخل ملك خاص لأحد الألمان فوصلنا إلى حديقة غريبة الشكل صخورها منتشرة ومتفرقة وكلها ذات لون أحمر قانئ كلون القرميد فكان لون السماء الأزرق الصافى وأشعة الشمس الذهبية المنبعثة على هذه الصخور تجعل المنظر بديعا رائعا وقد أخذ سائق سيارتنا يقول لنا انظروا الى هذه الصخرة إنها تشبه الجاموس الوحشى والى هذه فانها تشبه السلحفاة والى الثالثة التى أمامنا انها كجملين يتعانقان والى الرابعة البعيدة عنها قليلا انها تمثل امرأة إيرلاندية وهى تغسل وقد وصل به خياله أن نظر الى صخرة وقال ما أقرب الشبه بينها وبين أبى الهول إنها تشبهه من كل وجه . وأخيرا وصلنا الى صخرتين قائمتين كهيئة باب يسمونه باب حديقة الآلهة فقربنا من خص (كشك) هناك خرج منه شيخ أراد أن يبيعنا صورا (فتوغرافية) فسألته هل أنت ألمانى ؟ فأجابنى بالطبع ولم أعرف سببا لجوابه الا افتخاره بعظمة ومجد أمته وبالشرف الذى يلحقه بالانتساب اليها وقد سألنى هو أيضا هل أنتم فرنسيون فأجبته إننا مصريون فظهر لى من هيئته أنه قد لا يعرف

بلادنا وموقعها فى الدنيـا فاشتريت منه مجموعتين بهما مناظر حديقة الآلهة وقد قال لى سائق الســيارة ان لهذا الألمـانى ٤٠ هكارا من حديقة الآلهة و باقيها ملك لكولورادوا سپرنج وهو يكتسب من الصور التى يبيعها للسائحين و بعد ذلك استمررنا فى طريقنـا وعاد السائق الى ديدنه فأخذ يلفت أنظارنا الى الصخور التى تشــبه الأسد وغيره من الحيوانات الى أن صرنا قريبين من بعض صخور غبراء اللون بجعل موقعها بين باقى الصخور الحمراء المنظر بديعا فلاختلاف أشكال هذه الصخور وألوانهـا اعتبرتهـا الهنود القـدماء (ذات الجلد الأحمر) حديقة الآلهة - هـذا وقد ألفت نظرنا فى هذا المكان صخرة هـائلة قائمة على طـرف صخرة أخرى وهى مائلة إلى جهة الأرض فيخيل إلى الناظـر إليهـا أنها على وشك السقوط لضعف مركزها وظنى أنه إن حصلت زلزلة بهذه الجهة فلا بد أن تذهب بهذه الصخور -

خرجنا من زيارة هـذه الحديقة وسرنا شمالاً فوصلنا إلى حديقـة طبيعية ملك للجنرال پالمر (General Palmer) ففى مدخلها وجدنا خصا (كشكا) للبوّاب وهى تستحق الزيارة لشـدّة الاعتناء بها وقد نظمها هذا الجنرال وأحكم تنظيمها لما كان قومندانا لهذا الموقع وقد توصل إلى اقتناء ثروة عظيمة تقدّر بالملايين . هذا وقد فاتنى أن أذكر

أننا قبل مدخل هذه الحديقة رأينا بناء صغيرا جعله الجنرال مدرسة لتربية أبناء مستخدميه .

إن هذه الحديقة تشبه باقى الأمكنة المجاورة لها فان بها صخورا قائمة مكوّنة لأشكال مختلفة بعضها أحمر وبعضها الآخر أغبر غير أنها تزيد عن غيرها بوجود أشجار بين هذه الصخور ونبع صغير يجرى ماؤه فاكتسبت جمالا وزادت حسنا وقد تصوّرناها بعد أن تورق أشجارها وحكمنا أنها لابدّ من أن تكون آية فى البهاء لاسيما ان القصر المشيد بها المتخذة أحجاره من صخور رصاصية اللون أبعد عنها وحشة العزلة والانفراد .

ان هذا القصر كان يسكنه الجنرال پالمر وقد توفى منذ سنتين ولم تفتح أبواب هذه الحديقة لعامة الزائرين إلا من ابتداء السنة الماضية هذا وقد رأينا غير ماذكر مصابيح كهربائية منتشرة بين الأشجار محكمة الوضع وأظن أنها اذا أضيئت ليلا تكون ذات بهجة فتسرّ الناظرين . وقد ترك الجنرال ثلاث بنات اثنتان منهن متزوجتان بأمريكا والثالثة تقيم الآن بمدينة لوندره .

بعد أن أتممنا زيارتنا بهذه الحديقة عدنا من طريق آخر مستو يرى منه منظر المدينة ووصلنا إلى الفندق نحو الساعة الحادية عشرة والنصف

فصعدنا إلى غرفنا لازالة ماعلانا من التراب ولنهيئ أنفســـنا لتناول الغداء .

ولمـا كنا ننتظر مساء ماذا تم فى شأن السـفر فبعد الظهر لم نرد الابتعاد كثيرا عن الفندق واكتفينا بركوب عربة للرياضـــة داخل البلد التى وجدناها مستطيلة قليلة العرض وقد مررنا فى وسط شارع عظيم على جانبـه منازل (فيلا) صغيرة محكمة التشييد والتنظيم وهـذا الحى هو مسكن بعض الأغنياء أصحاب القناطير من الذهب التى اكتسبوها من استخراج المعادن وقـد علمنا أن أعظمهم ثروة يدعى المستر بورنس وقد كان فى الزمن السابق (لمجى) مشهورا بإدمانه الخمر وإفراطه فى سكره فساق اليه حظه تكشيف منجم أكسبه هذه الملايين الكثيرة ـ نعم إن أغلب المعـادن تمتلكها الشركات ولكن أكبر المساهمين فيها هم الأغنياء . ـ والطريقـة المتبعة فى أمريكا أن أى شخص يثبت للحكومة أنه صرف مبلغ ٥٠٠ دولار أى مائة جنيـه فى البحث عن معـادن أو غيرها وأتت هـذه المباحث بفائدة تعطيه الحكومة فى بقـعة بحثه ما مقـــداره عشرة هكتارات ولا شك أن الباحث اذا رأى فائدة من امتلاكه مايجاور مامنحته الحكومة لايلبث أن يشترى مايراه نافعا له منها بدون صعوبة ـ ان مدينة كولورادو إسبرنج

مشهورة بمناجمها الغنية وقد كانت سببا فى إثراء كثير من المشهورين بالثروة فى أمريكا ولكنهم رغما من ذلك لا يصرفون فى إصلاحها شيئا وإن هم الا رجال أعمال فكلما زادت أموالهم اتسع مجال أطماعهم ولا همّ لهم الا مضاعفة ثروتهم فلا يشتغلون الا للجمع والادّخار كأنهم خُلقوا ليملكوا زمام الأموال . وقد بنى هنا المستر بورنس ملهى صغيرا جميلا لا للمنفعة العامة بل لما سيدرّه عليه من الأموال عند افتتاحه .

هذا وقد رأينا بكولورادو اسبرنج طريقة غريبة لرش الشوارع وهى أن تمر عربة من عربات الترامواى وبها صهريج كبير مملوء ماء فترش الشارع على عظيم سعته وقد لاحظنا أيضا طريقة أخرى لتنظيم الشوارع وجعلها فى مستوٍ واحد بسرعة عظيمة وهى : عربة كبيرة تجرّها عشرة أفراس وفى آخرها من الخلف محراثان من الحديد لقلب الأرض وهما موضوعان بميل حتى اذا مشت العربة زادت طبقة الأرض المزالة فتسقط على بساط دائر أيضا يحمل الأتربة ويسير بها الى الأمام فتجتمع فى مقدّمة العربة وهناك مجرى بارز على جانبها الأيمن تمج منه الأتربة المتراكمة فتأتى عربة صندوق تمشى تحت مصب هذا المجرى وتتبعها عربات أخرى مثلها وكلما امتلأت الأولى

أسرعت لتفريغ حمولتها وأخذت مكانها عربة أخرى وهكذا فتحرث الأرض وتزال طبقة من وجهها وتحمـل الأتربة كل ذلك يتم فى آن واحد وقد ربط فى مؤخر هــذه الآلة أربعة أفراس لحفظ الموازنة وجعلها تمشى على خط مستقيم . فتأمل الى أىّ غاية وصل استعمال الالات المسهلة للأعمال حتى استخدمت فى تنظيم شوارع المدن .

لازلنا فى رياضتنا هــذه داخل المدينة الى أن أخذ المطر ينهمر ولمـا كانت عربتنا مكشوفة ولم يكن معنا مطريات (شمسيات) نتقى بهـا المطر ولا (ماكينتوشات) اضطررنا أن نضع أحلاس الخيل (أشلال) القذرة على رؤسنا نتقى بها الأمطار وكان منظر رفيقنا مصطفى مضحكا جدّا فانه قبع فى حلس (شل) كما يقبع القنفذ فى إهـابه حتى اختفى فلم يبد منه الا عيناه فتذكرت حالتنا وشبهتها بحالة الفقراء بمصر عنـد هطل الأمطار وهم يضـعون ثيابهم (جلاليبهم) على رؤسهم وكان بودّى أن تُرسم صورنا ونحن على هذه الحالة حتى يكون عندنا أثر وتذكار لهذه الاستراضة وعدنا مسرعين الى الفندق على آخر سرعة الخيل .

ولمـا جاءت الساعة السادسة ذهبنا الى مركز أسفار السائحين للسؤال عمّا تم فى شأن تقديم ميعاد سفرنا فأخبرنا أنهـم لم يجدوا محالّ خالية تكفينا ومن عجيب أمرهم أنهم قبل أن يصلهم أخبار عن امكان

سفرنا وقبل أن يعلموا هل كنا نقبل السفر بهذه الطريقة الصعبة أرسلوا إشارة برقية الى شيكاجو أعلنوا فيها أننا استغنينا عن محالنا القديمة فساءنى هذا التصرف المدهش وسألتهم كيف رأيتم أنه يتيسر لنا السفر مادمنا ثلاثة ولم تجدوا الا محلين مع مافيه من كثرة الانتقال من قطار الى آخر فطلبت إعادة محالنا القديمة الينا فأخبرونى بأنهم مضطرون إذاً إلى إرسال إشارة برقية أخرى الى شيكاجو حالا لإعادة محالنا القديمة فتكدرت من هذه الحالة اذ يجوز معها أن لا يتيسر لنا السفر فى يوم ٢٠ فنضطر الى الاقامة بهذه البلدة الى الأسبوع التالى فأين نقضى أوقاتنا اذا قدر ذلك ونحن من الآن أخذنا نشعر بالسآمة من الاقامة فيها ولما رأوا استيائى من تصرفهم قالوا انهم سيبذلون كل مافى وسعهم لاعادة محالنا الينا ورغماً مما بدا لى من اهتمامهم وتأكيدهم لم أطمئن ولم أثق باستطاعتهم إرجاع هذه المحال فعدت الى الفندق مغموما وجلست مع رفيقى فى طنفها (ڤيراندتها) واذا بسيدة صارت تقترب منا فرأيت من هيئتها أنها ليست أمريكية وذلك لسواد عينيها وشعرها وميل لونها الى السمرة وقد أصاب ظنى فانها لما سمعتنا نتكلم بلغتنا العربية جاءت الينا مسرعة تخاطبنا بهذه اللغة الشريفة فعلمت من ألفاظها ولهجتها أنها سورية وكنت لا أتوقع أن أجد فى كولورادواسپرنج

سـيدات سوريات فعلمت منها أنها تاجرة ولهـا محل تجارى فى البلد وآخر فى الفندق فسألتها عن حالتها وهل تجارتها رابحة فأخبرتنى أنهـا تبيع فى السنة بما يزيد عن الألف والخمسمائة جنيه ولكنها تشكو كثيرا من غلاء مطالب المعيشة فكل ما تكتسبه أو جله يذهب فى نفقات معيشتها وقد قالت إنها وفدت مع أسْرتها الى هذه البلدة حين بلغت الثانية عشرة من عمرها ولم يُنسها طول غيبتها عن وطنها هذه المدّة لغتها الأصلية ولم تزل تحنّ شوقا الى بلادها أما والدها الذى يبلغ من العـمر عتياً فانه لازال يتذكر وطنه و يترقب الفرص التى تمكنه من العودة اليه . وقد رجتنا أن نزور دكانها الذى بالفندق فأجبناها الى ما طلبت فدخلنـاه ومكثنا به قليلا فرأينا فيه ما تبيعه فشجعناها على عملها واستحسنا فكرة والدها و رغبناها فى تحقيق أمنيته بعد أن تجمع من المـال مايكفيها للاقامة فى سوريا و بعـد ذلك عدنا الى مكاننا .

ومن باب الفكاهة أذكر هنـا حادثة يعلم منها القارئ أن فى أمريكا كثيرا من الناس يعيشون و باب الأمل فى الحصول على الثروة مفتوح أمامهم ولو كانوا من الإملاق بمكان عظيم : قرب منا بوّاب الفندق وهو انجليزى الأصل ينطق وجهه بمـا هو فيه من الفقر المدقع وسوء الحال فأخبرنا أنه كان مسـتخدما فى الجندية ببلاد الهنـد ووفد على

أمريكا من منذ أربع وعشرين سنة فسألته ألم يحصل الى الآن على الثروة الكافية ولما ذا ترك بلاده وفضل هذه الحرفة على غيرها وهلّا يمكنه أن يشتغل بهذه المهنة فى انجلترا فقال لى عفوا ياسيدى انى مع مائة من أصحابى مشتركون فى منجم ذهب وستسمع ان شاء الله فى أوّل يناير سنة ١٩١٣ أن هذا البوّاب الحقير الذى يقف أمامك الان له دخل سنوى يبلغ ستة آلاف جنيه وحينذاك ياسيدى أترك هذه البلاد وأذهب الى وطنى رجلا من ذوى اليسار وأنسى كل مارأيته فى خلال السنين الطويلة التى مضت علىّ وأنا أتقلب على ثرى الفقر . فقلت اذا كنت واثقا من بلوغ تلك الأمنية العظيمة وذلك المستقبل الباسم فى وجهك خصوصا بعد هذه المدّة القليلة جدّا فلمَ اذًا تبقى هنا بوّابا مع أن فى إمكانك أن تقترض من الآن مايكفيك لمصروفك وتذهب إن أردت إلى بلادك حتى يأتيك دخلك العظيم فتسدّد مااقترضته وتعيش من الآن متلذذا بثروتك . فأجابنى انى لا أودّ ترك مهنتى لأنى أحبها وأعشقها ولولا أنى فى يناير سنة ١٩١٣ سأكون ذا ثروة طائلة ومن العار على الأغنياء أمثالى أن يحترفوا بحرفة البوابة لما تركتها أبدا فعجبنا من شعوره الغريب ومن تلك الأمانىّ الباطلة التى جسمها له الوهم حتى جعلها فى نظره حقيقة ثابتة لاريب فيها

فبنى عليها مابنى من سعادة مستقبله . فتأمل فى الأمل وكيف يسهل المعيشـة ولولاه لما كان كثير من أمثال هذا التعس فى أمريكا يطيقون الحياة التى كلها شقاء .

أعلـــل النفس بالآمال أرقبهـا ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

أتى ميعاد العشاء فذهبنا الى المطعم و بعده صعدنا إلى مضاجعنا .

وفى صباح يوم الجمعة (١٨ مايو) سألنا من مكتب الاستعلامات هل بقى لنا شئ يهمنا زيارته فأشار علينا العامل الذى كان بهذا المكتب أن نذهب إلى (Sud Canion, Nord Canion et les 7 cascades) فى ضواحى البلدة ولما كان الذهاب إلى هذه الأمكنة وزيارتها يستغرقان أربع ساعات قررنا أن نغادر الفندق الساعة الثانية بعد الظهر للذهاب إليها وقضينا الوقت الذى كان باقيا على الميعاد فى شراء بطاقات البريد (كارت پوستال) و بعض جرائد أمريكية . ولما قربت الساعة الثانية عشرة ذهبنا لتناول غدائنا وفى الساعة الثانية أعدّ لنا عربة أمريكية ذات ثلاثة مقاعد يتلو بعضها بعضا وكل مقعد يسع اثنين فهى اذًا تسـع ستة أشخاص من بينهم السائق وقد كانت تشبه الشربان (Charaban) غير أن عجلاتها دقيقـة كالطراز الأمريكى يجرها فرسان ذهب الكبر بلونهما الأزرق الأصلىّ واستحال الى أبيض ذى نقط حمراء فتوكلنا

على الله وركبنا هذه العربة وسارت بنا . وقبل الوصول الى الأماكن المهمة كان يلزمنا أن نقطع ثلاثة أميال انجليزية لنصل إلى مكان يسمى شيين (Cheyenne) به جملة من الأكواخ الصغيرة متجاورة كأنها الخيام وبها يقيم المصابون بداء السل وقد علمت أن بعض أشخاص أصحاء يسكنون أيضا هذه الجهة فلم أدر كيف يأمنون على أنفسهم من الاقامة فى هذا المكان المملوء بالجراثيم الفتاكة أفلا يخافون العدوى خصوصا على أولادهم الصغار الذين لا يميزون بين النفع والضرر ولا يعرفون هذا المرض القاتل حتى يتقوا شره ؟

مررنا بعد ذلك على متنزه جميل به أراجيح وألعاب أخرى للتسلية كالجبال الروسية (Montagnes Russes) وغيرها ويقصده سكان المدينة أيام الآحاد للرياضة وقضاء الوقت فى لهو ولعب . ولما قربنا من مدخل المضيق (Entrée des deux Gorges) رأينا اصطبلا كبيرا به عربات كثيرة وخيل وحمير أعدت ليستأجرها الذين يريدون الرياضة فى هذا المكان . وقد لاحظنا أن هذه الحمير لها وبر طويل كأمثالها فى أوروبا وليست سريعة السير وما الغرض من ركوبها أيضا إلا التمتع . هذا وقد صادفنا أثناء مرورنا ثلاث فتيات راكبات حميرا وهنا لا يليق بى أن أصف حالتهن وكيف كن على هذه الحمير .

وصلنا إلى المضيق الجنوبيّ (Sud Canion) فوجدناه جميلا وأخذنا نسـير بجانب مجرًى صغير ونمرّ على أشجار شتًّى وصخور كثيرة وقد كان الطريق يضيق بنا تارة وينفرج أخرى إلى أن وقفنا أمام باب بجانبه خص (كشك) فسألت عن سبب وقوفنا فأخبرنى سائق العربة أنه يلزم دفع ٥٠ سنس (نصف ريال) عن كل شخص لأننا من بعـد هذا الباب سنسلك طريقا مملوكا لبعض الأهلين لا للحكومة . وقد حكى لى أن المجلس البلدىّ لكولورادو أراد أن يشترى هـذا الطريق وما يجاوره من الأراضى من أصحابها ليجعله متنزها عاما ولكنهم لما طلبوا ٢٠٠٠٠٠ ريال ثمنا رأى المجلس ذلك الثمن كثيرا جدّا فعدل عن الشراء . وقد علمنا أن عدد الزائرين كل سنة الذين يدفعون كل شخص نصف الريال يبلغون خمسة وسبعين ألفا فهذا الدخل ولا شك عظيم جدّا . بعـد أن مررنا من الباب تجلى أمامنا جمـال هذا الموقع وبهاؤه ولو كنت مكان هؤلاء الملاك لمـا فرطت فى هذا الكنز الثمين ولو دفع إلىّ فيه ثمن عظيم . وبعد مسير خمس عشرة دقيقة وصلنا الى جندل (شلال) على مقربة منه خص (كشك) يباع فيه بطاقات البريد (كارت پوستال) وأشياء أخرى ولا يرى الانسان هناك منظرا جميلا إلا إذا رَقِىَ ١٠٠ درجة من سلم خشبىّ ثابت يصل الى قمة الجندل

لا يقـل عدد درجاته عن ثلثمائة . فنزلنا من عربتنا وذهبنا الى هـذا السلم الذى كان فى فضاء تحته رجل معه آلة تصوير وبجانبه حماران أحدهما أبيض والآخر أسود فلم نلتفت إليه ولا إلى حماريه لأن هذا لايهمنا وأخذنا أن نصعد فكنت أنا الأوّل ويتبعنى خيرى ثم زميلنا مصطفى بك فأسرعت فى الرقىّ ولصعوبة الصعود فى هذا السلم لقلة انحـداره رأينا آخرنا يلهث تعبا يعانى فى رفع قدميـه كأنهما مثقلتان برصاص إلى أن وقفت مفاصله وخارت قواه فلم تساعده على الاستمرار فجلس على احدى درجات السلم خائرا هامدا مصفرّا وصار صـدره يصـعد ويهبط بسرعة من كثرة التنفس بخلاف خيرى الرجل العسكرىّ فانه لقوة جسمه لم تؤثر فيه صعوبة الرقىّ أما أنا فحالة رفيقنا مصطفى أضحكتنى كثيرا حتى ذهب الضحك بقوّتى فلم أقـدر أن أستمر . وعلى ذلك قعدنا قليلا على دكة من خشب موضوعة للاستراحة ثم عاودنا الصعود إلى أن وصلنا إلى نهاية السـلم فرأينا حقيقة منظرا يستحق هذا التعب الشديد فان المـاء كان صافيا والمكان كان محاطا بالثلوج وأينما وجه الانسان نظره لا يرى الا جمال الطبيعة وقد وجدنا قريبا من الجنـدل شجرة مرشوقة بعـدد عظيم من بطاقات الزيارة لأولئك الذين وصـلوا إلى هذا المكان فتركوها هنـاك تذكارا وأثرا

لتحملهم مشاق الصعود ووصولهم إلى منتهى السلم . وبعد أن ملأنا أعيننا من مشاهدة هـذه المناظر نزلنا إلى حيث أتينـا ولكن النزول أيضا كان صعبا لوضع السـلم عموديا فبعد الجهد الجهيد وصلنا الى أسفله وركبنا عربتنا للذهاب الى المضـيق الشمالى وفى الطريق كان يروقنا أيضا المناظر الطبيعية اللطيفة .

ابتدأنا فى دخول المضـيق الشمالى (N. Canion) وقد لاحظنا أنه ليس ضيقا كثيرا وصرنا نصعد تدريجا ولكن ذلك المضيق على ما فيه من بعض السعة لا تسلكه سيارة وهى آمنة من الخطر ولذا لم تأذن الحكومة لسيارة أن تسلكه بل جعلته خاصا للعربات التى تجرها الخيل . هذا ــ ولشدة الاحتراس ولئلا تحدث حوادث مكدرة جعل طريق للصعود وآخر للنزول وهذان الطريقان معلومان لكل الحوذيين يتبعونهما بنظام مطرد حتى لا تتصادم عربتان أثناء السـير . وقد أنصفت الحكومة فى ذلك إذ كيف يتسـنى لعربتين أن تسيرا متضادتين فى طريق ضيق حتى لو أراد أحد الحوذيين أن يدير عربته لما أمكنه ذلك . وقد استمررنا فى طريقنا هذا صاعدين وكلما توغلنا فيه حلا لنا المنظر وازداد جمالا وقد رأينا أيضا جملة فُرَج فى الطريق فتحها أولئك الذين يبحثون عن منـاجم الذهب ولمـا قربنا من أعلى مكان

وقف بنا سائق العربة ووجه نظرنا إلى أسفل فرأينا سهلا عظيم الاتساع فأعجبنا رؤيته من مكاننا لاسيما أن ظل السحاب يجعله يشبه البحر الزاخر فمكثنا قليلا نمتع نظرنا بهذا المنظر الحسن ثم استمررنا فى طريقنا إلى أن وصلنا إلى خص (كشك) من خشب تسكنه امرأة عجوز تبلغ من العمر السبعين ويسمونها الكبتن جاك (Capt. Jacques) وقد قيل لنا إنها فى هذا المكان من مدة ثلاثين سنة وهى تبحث عن الذهب والغريب أنها تعيش وحيدة فى فصل الشتاء ويقيم معها خادمة أو اثنتان على حسب الضرورة فى فصل الصيف لمساعدتها على خدمة الزائرين الذين يصعدون عادة على أرجلهم إلى هذا المكان ولبعد المسافة يضطرون إلى قضاء نهار كامل فى الصعود والنزول فيعرجون على كوخ تلك العجوز ليشربوا قهوة أو يطعموا طعاما مما أعدته هى وخادمتاها لبيعه لهؤلاء الزائرين . من هنا يبتدئ طريق النزول ولانحداره أسرعت الخيل بعض الاسراع ومصطفى أخذ يصيح أى رب ماهذا الشقاء ألم نكن فى غنًى عن كل هذه المخاطرات التى تروعنى وتملأ قلبى رعبا واضطرابا ولقد كنا نصادف مجارى ماء مختلفة بين كبير وصغير فكانت العربة تندفع فيها عابرة لها وهناك يحدث ارتجاج شديد يزيد اصفرار وجه زميلنا الذى

كلما حدث ذلك ونظر إلى أسفل فرأى الهوّة الهائلة التى لاتبعد عن طريقنا بعض سنتيمترات يصرخ قائلا يارب سلم ونجنا من الخطر . لا شك أن خوفه هذا لم يكن إلا لأنه لم ير من قبل مثل هذه المناظر الرهيبة فصرنا نكلمه حتى نشغله ونبعد عنـه الخوف إلى أن نزلنا بحمد الله سالمين . وطريق النزول لم يكن به شئ يستحق الذكر لخلوه من كل جمال ورونق وبعد نصف ساعة وصلنا إلى الفندق وقد استغرقت هذه الاستراضة أربع ساعات ونصفا .

وفى مساء هـذا اليوم ذهبنا لنستعلم عن أما كنتنا فى عربة النوم لعلنا نقف على ما يريح أفئـدتنا ولكن عدنا مع الأسف بدون جدوى فلم يصل خبر عن ذلك . عدنا إلى الفندق وتعشينا وصعدنا إلى غرفتنا للنوم والراحة .

وفى يوم السبت (١٩ مايو) ذهبنا صباحا إلى مكتب الاستعلام للسؤال عما تم فيما كلفناه به فأخبرنا أنه إلى الآن لم يصلهـم الجواب فتكدّرنا من ذلك وقلت لرئيس هـذا المحل ما العـمل اذًا ونحن مصممون بعـد الظهر على الذهاب إلى مزار وأنتم ربمـا تغادرون مكتبكم فمن الذى يعلمنـا اذا جاءكم خبر فأجابنى إن مكتبهم مفتوح الى الساعة السادسة وبمجرد وصول خبر يكتب به ويتركه لى فى الفندق

فتركناه على هذا الوعد وذهبنا لنستأجر العربة التى كانت معنا بعد ظهر البارحة وقابلنا السائق وأخبرناه أن غرضنا رؤية المانيتو (Manitou) وويليام كانيون (Williams Canion) ومغارة الأهوية التى يطلق عليها اسم (Wends Cave) واتفقنا معه أن يحضر الينا نحو الساعة الثانية من بعد ظهر هذا اليوم ثم عدنا إلى الفندق وجلست فى مكان للكتابة فى رحلتى إلى أن أتى ميعاد الغداء . وفى منتهى الساعة الثانية ركبنا عربتنا لهذه الاستراحة التى تستغرق ثلاث ساعات فأخذنا أولا الطريق التى أوصلتنا إلى حديقة الآلهة بعد أن تركنا كولورادو سيتى ولم ننعطف الى اليمين أو الشمال بل سرنا الى الأمام متبعين الطريق الذى به ترام الى أن وصلنا الى قرية مانيتو (Manitou) ومن العجيب أن هذه القرية يطلق عليها هناك اسم مدينة مع أن عدد سكانها لا يتجاوز سبعمائة نسمة . نعم إنه فى فصل الصيف يأتى اليها كثير من السائحين والمرضى للاقامة فيها والاستشفاء بمياهها الغازية أو الحديدية ومع ذلك لا أرى أنها تستحق اسم مدينة لصغرها . هذا وقد رأينا فيها كثيرا من الفنادق . وكلها بمقتضى الحال منظمة لورود عدد عظيم من السائحين إليها . تركنا هذه المدينة أو القرية وذهبنا إلى مضيق ويليامس الذى به بعض أمكنة ضيقة جدا لا تمر منها العربة إلا بعد

عناء شـديد بين الصخور . وقد رأينا فيه كما فى بقية المضايق بعض مجارى مياه صـغيرة واستمررنا فى طريقنا إلى أن وقفت أمامنا عقبـة كأداء لقيت الخيل الشدائد حتى اجتازتها فوصلنا الى خص فوقفت بنا العربة وقال لنا السائق هنا المغارة فان أردتم فزوروها ولما كنت قد رأيت كثيرا من أمثال هـذه المغارة بل أجمل منها فى بلاد النمسا وسويسرا لم أرد أن أضيع الوقت فى شئ لايسـتحق قيمة رسم الدخول التى هى خمسةفرنكات عن كل شخص وذكرت ذلك للحوذى وسألتـه عن مقـدار علمه بها فأجابنى إنه لا يعـرف أهى أجمل من المغارات التى رأيتها أم تلك ولكن كل سائح يزورها كان يخـرج منها مسرورا فاشـتقت إلى رؤيتها وأخذنا تذاكر الدخول وقيمة التذكرة الواحدة دولار . وهذه المغارة أيضـا ملك خصوصىّ وقد رأيت الاقبال على زيارتها كثيرا فهى اذًا مورد ثروة عظيمة .

ولمـا دخلناها استصحبنا دليلا ليرشـــدنا و يشرح لنا ما يحتاج إلى شرح فقادنا إلى رحبة عظيمة مضاءة بالأنوار الكهربائية ومنهـا سرنا فى دهاليز بعضها مرتفع وبعضها منخفض وقد رأينا فيهـا أشكالا كثيرة كما شـاهدنا آثار المياه التى أظن أنها بشـــدة تأثيرها أحدثت هـــذه الفتحات ورسمت أشكالا مختلفة منها مايشـبه الخفاش وغيره

والذى جذب نظرنا كثيرا وأعجبنا هى أشكال المرجان المتجمعة بكثرة والمنظمة تنظيما بديعا يجعل الانسان يعظم قدرة الخالق . هـذا عدا أشكال أثمـار البحار المختلفة الدقيقـة الصنعة المنتشرة فى كل مكان فراقت لى هـذه المناظر البديعة التى لم أرها من قبـل فى مكان آخر وبعد أن أمضينا زمنا فى التمتع برؤية هـذه الأشكال الجميلة صعد بنا الدليل إلى سـلم فزرنا باقى المغـارة المكونة من ثلاث طبقات بعضها فوق بعض وبها جملة غرف بين صغيرة وكبيرة وقد كنا فى بعض مماشى نضطر للانحناء حتى نستطيع المرور وقد وجدنا فى ركن من أركان هذه المغارة عددا عظيما من بطاقات الزائرين (كارتات) مرشوقة فى حائطها تذكارا لشدة إعجابهم بخلقة الاله . كذلك رأينا فى حائط آخر جملة من مشابك السـيدات التى ينظمن بها شعورهن مرشوقة أيضا على زعم أن ذلك يجلب السعادة لهن . وقد استخلصنا من ذلك أن العالم مهما وصل من الرقى فلا يخلو من المعتقدات التى لا أصل لها وهى مختلفة باختـلاف الأمكنة والأجناس فاذًا لا محـل للانتقاد على المصريين والمصريات الذين لهم بعض معتقدات تشبه ما رأينا آثاره فى هـــذه المغارة . استـغرقت زيارة هذه المغارة ومشاهدة كل ما فيها ثلاثين دقيقة وإنى أعتقد أنه لابد أن توجد فى تلك الجهة بعض مغارات

أخرى تشابهها وقد استدللت على ذلك من الفتحات الكثيرة التى رأيناها فى جبل هذه الجهة .

أما فكرى الخصوصىّ فى هذه المغارة فانى مع مارأيت فيها ممـا لم أره فى غيرها أفضل عليها المغارة القريبة من (Interlaken) بسويسرا لاتساعها فان طولها يبلغ نحو ثلاثة كيلو مترات وتجرى المياه فى جوفها وتكون بعض بحيرات تسرّ الناظرين .

خرجنا من هذه المغارة وألقينا نظرنا من مكاننا المرتفع إلى ما حولنا فأعجبنا المنظر وبعد ذلك توكلنا على الله وابتدأنا فى النزول إلى مانيتو (Manitou) فأمضينا عشرين دقيقة للوصول اليهـا وفى نحو الساعة الخامسة وصلنا إلى الفندق فأسرعت إلى مكتب الأسفار مع مصطفى بك فعلمت ماسرنى وهو أن محالنـا فى القطار خالية وقد أعدّت لنـا فحمدت الله على ذلك وعدت إلى الفندق للاستراحة بعد مااشتريت الجرائد لأقف منهـا على الأحوال والأخبار . هنـا أستميح القارئ أن أذكر له حادثة بسيطة مضحكة جرت وقت ذهابنا إلى مكتب الأسفار . عند ما وصلنا الفندق تركنا العربة وأحببنا أن نذهب إلى هذا المكتب راجلين وقد كانت بيدى عصاى التى أتوكأ عليها وما كنت أعلم أن الأمريكيين لايستعملون العِصىّ فصرنا كلما مررنا على

جماعة تراهم ينظرون الينا بعين الاستغراب ويشيرون إلينا ضاحكين مقهقهين فأخذتنا الدهشة من ذلك ونحن لا نعلم أسباب هذا الاستغراب اللهم الا إن كانت أشكالنا تخالف ماألفوا أو هيآتنا غير منتظمة فى نظرهم فصرنا نتساءل بيننا هل فينا مايوجب هذا الضحك وأخيرا دققت النظر لعلى أجد السبب فأزيله حتى لا نكون موضع التفاتهم ونظرهم وضحكهم فرأيت جميعهم لايمسكون العصىّ فبعضهم أيديهم فى جيوبهم والآخرون قابضون على لفائف التبغ وليس بين جميع من فى هذا الشارع أحد بيده عصًا الا أنا فعلمت السبب ولكن كيف يتسنّى لى إزالته وأنا بعيد عن محل اقامتى فتركتهم وشأنهم غير ناظر إلى ضحكهم حامدًا الاله أن السبب تافه لايوجب هذا الالتفات الغريب فماذا يضرنا لو أنا فى هيئة تخالف هيآتهم أو على شكل لم يرد عليهم .

نحن فى بلادنا لا ننظر إلى هذه الأشياء التافهة فكم يمر أمامنا غرباء بأزياء غريبة قلما ننظر إليها أو نضحك منها وأخيرا وجدت طريقة أخرجتنى من هذا الموقف بأن جعلت عصاى وراء ظهرى حتى تغيب عن أنظارهم فما أشدّ استغرابهم لأدنى شئ . بعد أن واريت عن أعينهم ما أضحكهم أخذت أنا أيضا أضحك من حالهم الغريبة .

أصبحنا فى (يوم الاثنين ٢٠ مايو) وهو يوم الراحة فأحضر لنـا أحد خدّام الفندق رسائلنـا الواردة إلينا من مصر وقد أخذت من بينها كتابا مطوّلا كتبه إلىّ من طرابلس صديقى طاهر بك ففضضناها وأمضينا وقتا فى قراءتها والردّ عليها وقبل الغداء مشينا قليلا أمام الفندق ثم عدنا إليه وأخذنا ماطاب لنـا من الطعام و بعد ذلك عدنا إلى تتميم الإجابة على هذه الرسائل وفى نحو الساعة الثـالثة طلبنا عربة فركبناها للاستراضة وأمرنا سائقها أن يقودنا إلى جهة المضيق الجنوبىّ وإلى الشايين حيث يوجد أجمل متنزهات البلدة . ولما وصلنا إلى المتنزه العامّ وجدناه مملوءا بالمتنزهين الذين كانوا يروضون أنفسهم بألاعيب مختلفة كركوبهم الأراجيح ولعبهم كرة القدم وغيرهما . وقد شاهدنا مسابقة بين مشهورى كولورادواسبرنج (Colorado Spring) و دنفر (Denver) فى لعب الكريكيت وكان المشاهدون كثيرين جدّا ينتظرون وقد نفد صبرهم ليعلموا أىّ الفريقين يتغلب على الآخر . وقد كان الحماس ظاهرا على الجميع وإنى ممن يشجعون جميع الألعاب الرياضـية لأنها فى اعتقادى تؤدّى إلى تقوية الجسم وما دام الجسم سليما فالعقل أيضا سليم . خصوصا وأن هذه الألعاب توصل إلى نتيجة ساميـة وهى أن الانســان متى شعر بقوّة بدنه فانه يعتمد على نفسه و يتربى عنده

الإقدام وهو أساس الفلاح . إننا معشرَ الشرقيين فى بادئ أمرنا كنا مهتمين فى أوقات فراغنا بجميع فنون الألعاب الرياضية وليس كل ضروب الألعاب الرياضية التى تشتغل بها الآن الفرنجة وغيرهم من مخترعاتهم فان جلها إن لم أقل كلها قد سبقهم اليها العرب وقد كان من زمن ليس ببعيد تخرج الشبان فى متنزهات مصر ممتطين جيادهم يلعبون على ظهورها فاندثر أيضا هذا اللعب وأصبحنا لانرى خيولنا العربية الجميلة منتشرة فى متنزهاتنا فيالله كم نترك من عوائدنا المفيدة . إننا تهاونا فى كل شئ حتى فى مسائل تسليتنا النافعة إنى لاأقصد بذلك أن نهتم بالألعاب ونترك أشغالنا الجدّية ولكنى أنصح لأبناء وطنى الأعزاء أن يعتنوا بأعمالهم النافعة كثيرا وأن يجدّدوا أوقات الفراغ ما فقدوه من إتعاب الفكر بالرياضة البدنية المؤدّية إلى الصحة وتمام العافية ـ فنعم لهو البال المكدود . قبل أن نصل إلى هذه المتنزهات مررنا فى طريقنا على مايسمونه وادى القمر لوناپارك (Luna Park) وقد كان الجمع هناك أيضا عظيما وحول كل لعبة عدد كبير من المشاهدين فالأمريكيون على شدّة حرصهم على أوقاتهم الثمينة لايبخلون على أنفسهم بما ينسيهم أتعاب الحياة فى أيام البطالة . والحمدلله لم تحرم مصر أيضا من وجود مثل هذا المكان وإنى لاأنتقد

على الذين يذهبون إليه على شريطة المحافظة على آدابنا الشرقية العالية .
عدنا بعد ذلك من طريق آخر غير الذى أتينا منــه ويسمى برودمور (Broad moor) وعلى مرتفع منه فندق به كازينو لا يفتح إلا فى فصل الصيف . وقد رأينا فيه بحيرة صناعية جميــلة والحق يقال إن موقع هذا الفندق صحىٌّ لجودة الهواء وقد رأينا قريبا من هذا المكان منازل مشهورى الأغنيــاء وأخص بالذكر أحدهم المدعو المســتر بالدوين (Baldwen) فانه صرف مليون دولار فى بنــاء تريانون تشبها بملوك فرنسا العظماء ولكن أنَّى له أن يصل إلى أمنيته وغابات فرساليا العظيمة الجميلة ومتنزهاتها البديعة لا تحيط ببنائه الشائق الذى يشبه حقيقة من الخارج بنــاء فرساليا . إن مقدرته لم تمكنه من الإحكام فى محاكاة مافعله أولئك الملوك بالرغم مما صرفه من القناطير المقنطرة من الذهب فى تشييد قصره الخالى من مناظر فرساليا الفريدة . وقد رأينا أيضا قصرا كبيرا لأحد مشهورى الأغنياء الذى لابد أن يكون قد صرف فى بنائه مبلغا جسيما ولكنه لم يفكر فى حلية القصور وهى المتنزهات والحدائق وفى نظرى أن القصور العالية مهما وصلت من الاتقان فانها لا تكمل إلا إذا كانت محاطة بهذه الحلى التى أراها متممة لجمالها .

هذا ما رأيناه فى يومنا ولا تسل عن عدد الكائس فى هذه المدينة

فانه لايحصى وقد ألفت نظرنا حين عودتنا إلى الفندق بناء محفل ماسونىّ جميل الشكل .

وصلنا إلى الفندق نحو الساعة الخامسة وأمضينا باقى نهارنا فى الأخذ بأطراف الأحاديث بيننا

أصبحنا فى يوم الثلاثاء (٢١ مايو) فبا كرنا بالذهاب إلى مكتب الأسفار لأعلم هل حدث تبديل فى نمر أسرّتنا والغرفة المخصصة لى ولكن ولله الحمد لم يحصل تغيير كبير الا فى سرير واحد أعطى لنا بدله وبعد ذلك جلنا جولة فى المدينة ثم عدنا الى الفندق وأخذنا مكاننا فى طُنُفِها (ڤيرانده) فأتت إلينا التاجرة السورية التى تكلمت عنها قبل وقدمت لنا عددا عظيما من جرائد سوريا التى وصلتها فى البريد الأخير وبينها جريدة من جبل لبنان فشكرتها كثيرا وحمدت لها تمسكها بحب بلادها وتعلقها بشؤون وطنها مشجعا اياها أن تستمر على قراءة هذه الجرائد العربية حتى لاتنسى لغتها الشريفة المحبوبة

بعد الغداء شرعنا نرتب أمتعتنا وبعد أن أتممنا ترتيبها سلمنا الكبير من حقائبنا إلى بوّاب الفندق لتسفيره إلى لوس انجلوس (Los Anglos) ولما كان قطارنا يقوم فى نحو الساعة السابعة والنصف مساء سألنا هل يوجد به عربة أكل فأخبرنا بعدم وجودها فأوصينا أن تُهيأ لنا سفرتنا

الساعة الخامسة والنصف وقد بادرنا الى محل العشاء اذ فى مطاعم هذه البلاد لا يقدّم للانسان مطلوبه الا بعد نصف ســاعة على الأقل من وقت جلوســه على المــائدة فاحتطنا لأنفســنا حتى لا يضيع الوقت علينا ولكن بعد ذلك حضر الينا بوّاب الفنــدق ونصحنا أن نتنــاول عشاءنا فى مطعم المحطة (البوفيه) فقبلنا نصيحته لاسيما وأن فى ذلك تغييرا فى الحالة ربمــا نقف منه على شئ جديد من العوائد التى لم نرها الى الآن فألغينا أمرنا الأوّل . وفى الساعة الخامسة والنصف خرجنا من الفندق الى المحطة راجلين بعد أن أوصينا بارسال باقى أمتعتنا الخفيفة اليها قبل ميعاد السفر فوصلنا اليها بعد خمس عشرة دقيقة وهذه المحطة تابعة لخطوط (ســنتافيه) الموصــلة الى جنوب كاليفورنيا وهى غير المحطة التى أتينا منها . وقد وجدناها أنظف قليلا من باقى المحطات الأخرى فدخلنا المطعم فراقتنا نظافته أيضا وقد رأينا من يقوم بشأن الخدمة فيه خادمات مرتديات ملابس ذات رُواء وأوّل ماوقع نظرنا عليه ترتيب ووضع أنواع الفطير والحلوى المختلفة الأشكال فطــاب لنا النظر اليها ووددنا أن نتناول شيأ من كل نوع فجلسنا بعضنا بجانب بعض وكلٌّ طلب ماashتهاه ظانا أنه سيتمتع بأحسن ما عملتــه أيدى طبــاخى أمريكا ولكن منظر هذه الأشياء كان أجمل من طعمها .

وبالاختصار فرغنا من عشائنا ولم يبق على ميعاد سفرنا الا عشرون دقيقة ولما حضر القطار أسرعنا لأخذ محالنا بعد أن رتبنا حقائبنا وصرفنا الحمالين بعد أن أعطيناهم أجورهم . تحرك القطار فى ميعاده وكان ذلك فى وقت الغروب فلم أر شيأ يستحق أن يذكر فى رحلتى وأوّل محطة وقفنا عليها كانت محطة پوييلو (Pueblo) وهى مدينة عظيمة بها ٤٠٠٠٠ نسمة وبها معامل عظيمة لأنواع الحديد الصلب والزهر وبها أيضا بناء شاهق (Mineral Palace) سطحه مكوّن من ٢٨ قبة كلها مرصعة بأحجار كولورادو اسپرنج الجميلة الخاصة بهذه الجهة . أما ضواحى هذه المدينة فانها غنية بمناجم الفحم وغيره من باقى المعادن وقد رأينا (Pueblo) پوييلو ليلا وهى مضاءة بالأنوار الكهربائية الساطعة تخترقها الشوارع المتسعة المنظمة التى تكثر فيها حركة المركبات الكهربائية فشعرنا بكبرها وشهرتها .

وبعد أن غادرنا هذه المدينة أردنا النوم ولكن من أين تأتينا الراحة وكلما يقف القطار أو يتحرك نشعر برجة شديدة وصدمات يتلو بعضها بعضا حتى يكاد الانسان أن يقع من سريره فما أصعب هذه الحالة خصوصا إذا أغمض المسافر عينه ونام فانه يقوم مذعورا خائفا وقد خيل إليه أن مصادمة حدثت وأرى أن من حق المسافر على هذا

القطار ألّا يدفع أجرة سريره لأنه لايجد من الراحة ما يستحق هذه الأجرة .

وقد أيقنت وقت حدوث إحدى هذه الرجات الهائلة ان قطارنا مال عن طريقه ولم يذهب ذلك عن فكرى وتطمئنّ نفسى الا بعد أن رأيت أن قطارنا لم يزل مستمرا فى سيره وقد كنا نتبع فى طريقنا منحنيات كثيرة ففوق تلك الرجات المتوالية كنا نهتز كأننا فى باخرة تلعب بها أمواج البحر المتلاطم وعربتنا كانت الأخيرة فكان اهتزازها أشدّ من اهتزاز سائر العربات فتصوّر أيها القارئ حالتنا هذه فهل ترى فيها قليلا من الراحة

قمت يوم الأربعاء (٢٢ مايو) مبكرا ولم تأت الساعة السادسة حتى كنت مرتديا ملابسى وخرجت فوجدت صاحبيَّ جالسين على استعداد فى مكانهما فسألتهما عما تم لهما فى هذه الليلة فأخبرانى أنهما لم يذوقا طعم النوم وقد تسبب عن ذلك مرض مصطفى بك . وفى الساعة السابعة أعدّ الأكل فى عربته فذهبنا إليها لتناول القهوة وصرنا نرى أننا نسير فى أراضى مستوية يظهر على سكانها الفقر فان منازلهم حقيرة مبنية بالطين تشبه منازل فقراء فلاحى مصر فسألت عن أحوالهم فقيل لى إن أغلب سكان هذه الجهة من الفقراء

وصل بنا القطار الى البوكيرك (Albuquerque) وهى المحطة التى يتفرع منها خطان خط يوصل إلى تخوم مكسيكا والآخر إلى الپازو (El Paso) وهناك تفصل العربات الذاهبة إلى هاتين الجهتين وليس بهذه المدينة مايستحق الذكر إلا أن السائحين ينتهزون فرصة وقوف القطار مدّة نصف ساعة فيذهبون إلى دكان بجوار المحطة به معروضات سكان أمريكا القدماء ويسمى المتحف الهندىّ والذى يدل على أن هذه المدينة ليست كبيرة أن عددسكانها لايبلغ ثمانية آلاف نسمة فنزلنا نحن أيضا كسائر السائحين ورأينا نساء هؤلاء الأمريكيين (الهنود) جالسات على الأرض وأمامهن مصنوعات أيديهن معروضة للبيع وقد كانت وجوههن الحمراء التى لا أثر عليها من الجمال مكشوفة وعلى رؤسهن الخمر (الشيلان) وفى أرجلهن الأحذية ذات الساق فألقينا نظرة الى هذه المعروضات ثم ذهبنا الى المتحف الهندىّ فوجدنا أنه يباع فيه أنواع كثيرة من السجاجيد التى هى من عمل هؤلاء الهنود والأساور والأقراط المختلفة الأنواع بعضها مصوغ من نقود مكسيكا القديمة وهذا غير أحجار هذه الجهات المرصع بها الخواتم والدبابيس وغيرهما يشتريها الذين يريدون أن يقدّموا هدايا لأصحابهم وأقاربهم بعد عودتهم من سياحتهم لتكون تذكارا فنظرنا كل هذه الأشياء ولم

نأخذ منها شيئا وقد استحسنا بعض بطاقات البريد (كارت پوستال) فاشـتريناها ثم عدنا إلى عربتنا وما استقر بنا الجلوس حتى حضر إلىّ أحد مخبرى الجرائد وسألنى أيكم الأمير (البرنس) فأخبرته أنى أدعى خيرى بك الياور المعيـن فى خدمته أما دولته فقد ذهب ليستريح الآن ولا يريد أن يقابل أحدا من مخـبرى الجرائد حيث إنه تعب كثيرا من كثرة هذه المقابلات خصوصا وقد قرأ مايكتبونه عنه فوجد كثيرا منه مخالفا لمـا صرح به فصار يسألنى عما استحسناه إلى الآن فى أمريكا وصرت أجاوبه مع تمام الاحتياط وأقول له إن هذه البلاد كبيرة جدا فأخبرنى أنه يعرف فى هذه البلدة أحد السوريين ويدعى المسيو خورى وآخر تركيا اسمه سلمون (Salamon) يسكن (الپازو) وهو ذو ثروة عظيمة ولابد أن يكون هـذا الأخير اسرائيليا ثم انصرف من عندى شاكرا حسن مقابلتى له معجبا بقوتى فى اللغة الانكليزية حتى إنه ظن أنى درستها فى انجلترا فوافقته على ظنه وبعد أن تخلصت منه أسرعت إلى خيرى بك وطلبت منـه ألَّا يترك مكانه حتى يقوم بنـا القطار وقصصت عليه ما دار بينى وبين هذا المخبر ذاكرا أنى استعرت اسمه ووظيفته وتكلمت مع ذلك المخبر كأنى خيرى . ولأجل أن يتم فصل التنكر هـذا ولا ينكشف أمره طلبت من خيرى ألَّا يخرج بل يبقى

مستريحا اذ لو خرج فلقيه المخبر لوجب عليه أن يحاكيني أمام ذلك المخبر كما حاكيته أنا من قبل وفي ذلك مافيه من تكلف الظهور بغير الحقيقة . أما قطارنا فقد ملئ ببائعي البضائع الهندية وغيرهم من الذين وظيفتهم الإعلان وتشويق السائحين إلى زيارة الجراند كانيون (Grand Canôn) وقد كنا رأينا قبل أن نصل إلى هذه البلدة بمحطتين هؤلاء الهنود وعرفناهم من سيماهم بالرغم من تغيير ملابسهم واستبدالها بالملابس الأوربية فان ألوانهم وسحنتهم كانت ناطقة بجنسهم وأصلهم أما نساؤهم فوضعهن الخمر على رؤسهن كان سبب تمييزهن والالتفات إليهن . هذا وقد لاحظنا أن الجهة التي يسكن فيها هؤلاء الهنود التعسون رطبة وبها كثير من المستنقعات المسببة للأمراض التي تفتك بهم وتقلل من عددهم عاما بعد عام . أما أراضيهم فليست مزروعة كما يرام وهم يستعملون من فقرهم أدوات الزراعة القديمة فلا يجنون ثمرة أتعابهم إلا بكل مشقة وقد رأينا لهم بعض مراعي لتربية الخيول ولكن جلّ المراعي هناك لتربية الماشية . وقد علمنا أن هذه الحيوانات ملك لكثير من التجار وليس هنود الأمريكيين إلا خداما يحافظون عليها ويرعونها فى الحقيقة المكسب العظيم هو لأرباب الأموال من الأوربيين والأمريكيين وأما هؤلاء الهنود

فلا يكتسبون الا أجرتهم الضعيفة . واذا أراد الانسان أن يستفهم عن مقـدار ثروتهم فانها تقـدّر بما يمتلكه الشخص من رؤس الغنم والخيل كالعرب . أما وصف مراعيهـم فانها من النباتات الطبيعية التى أنبتتها الأرض وقد رأينا خيولهم ترعى الكلأ النـابت فى وسط هـذه المستنقعات وقد ظهر على وجه المـاء أو القريب من تلك المستنقعات

قام بنا القطار ونحن نسير الآن بجوار نهر الريو جراندى (Rio Grande) وهو نهر عظيم متسع يصل إلى مكسيكا جميل المنظر على شاطئيه كثير من أنواع الشجر المخضرّة و بين وقت وآخر كنا نرى فى وسـطه جزائر صغيرة لطيفة بها أيضا نباتات وأشجار . وقد مررنا على جملة قرى صغيرة هنـدية كانت ظواهر أحوالها ناطقة بفقر أهلها وسوء حالهم . هنـا أصف للقارئ حالة بيوت هـذه القرى ـ إن أغلبها دور واحد ومن مميزاتها أن ليس لها أبواب للدخول فيها على سطح الأرض بل أبوابها فى سقفها ولكل منزل سلم يصعد فيه صاحبه ليصـل به إلى جوف منزله نهارا و يرفعه مساء خوفا على أنفسهم من أعدائهم ولكن ما ذا يفيدهم ذلك وهذه البيوت ليست مرتفعة فالفارس يمكنه أن ينزل بسهولة فوق سطحها .

إن هؤلاء الهنود لهم قبائل مختلفة فى هذه الجهة التى نمرّ عليها قبائل الموكيس (Mokis) والزونيس (Zunis) والنڤاجوس (Navajos) والاپاش (Apaches) والپيماس (Pimas) ولا يتصوّر القارئ أن هذه القبائل تكوّن مدنا عظيمة كبيرة فانها تسكن متفرقة فى قرى صغيرة لا يكاد سكان كل قرية يبلغ مائة أسرة وليس كما كنا نسمع أن كل قبيلة لها رئيس يحكمها ويتصرف فى أتباعه تصرف الحاكم المطلق فقد ذهب كل شئ مما كانوا عليه قديما حتى الكثير من عوائدهم وزيهم وأصبح السائح لا يرى الهنود بملابسهم الغريبة ذات الألوان المختلفة ولا قبعاتهم المنظمة المزدانة بريش الطيور الملونة أو المصبوغة بالألوان التى يستحسنونها فقد ذهب كل ذلك وتغلب الزىّ الأوربى على كل هذه الأزياء والسائح إن أراد أن يرى شيئا من ذلك فلا يراه إلا بالطلب كحادثة تاريخية تمثل فقط أمامه فلله الملك وكل شئ زائل الا هو سبحانه وتعالى .

إننا فى طريقنا نمرّ على كثير من القرى بعضها عامر بهؤلاء الهنود وبعضها بالمكسيكيين أو المهاجرين من البلاد الأوربية وغيرها ولا يجد السائح صعوبة فى تمييز هذه القرى بعضها من بعض فكفاه أن ينظر إلى أبوابها حتى يعلم ان كانت للهنود أو لغيرهم وكفاه أن يقرأ

آيات الفقر على حال بعضها حتى يعرف ان كانت للمكسيكيين أو المهاجرين الأوربيين فان الأخيرين أرقى بكثير وأنظف فى أحوالهم ومعيشتهم ممن عداهم أما اذا أراد التمييز بينهم فى الجنسية فلاصعوبة فى ذلك فان الهندى الامريكى لونه أحمر ورأسه كبير وشعره أسود وقوى البنية ومتوسط القامة أما المكسيكى فانه يشبه سكان صعيد مصر وان كان أكثر منهم سمرة وأضعف جسما ولا تظهر عليه القوة مثلهم .

مررنا على بلدتى ايسليتا ولاجونا (Islita, Laguna) المسكونتين بالهنود الامريكيين وليس بهما ما يستحق الوصف ولأوضح للقارئ بعبارة أفصح أى جهة يسكنها عادة الأوربى المهاجر أو الأمريكى الفاتح أقول . إن الجهات التى بها معادن أو التى أرضها خصبة هى من حقوق أولى اللون الأبيض أما الأراضى المجدبة أو التى بها مستنقعات فهى من نصيب الهنود أو المكسيكيين وكفى بهذا دليلا على أن الانسان مهما وصل من الرقى فان الظلم لايجتث من طبيعته

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

وصلنا إلى ولاية النوفيل مكسيك (Nouvelle Mexique) التابعة أيضا للولايات المتحدة وهى على حدود مكسيكا وأغلب البلدان التى

مررنا عليها لها أسماء اسبانية وليس ذلك بعجيب لأن الاسبانيين هم الذين كشفوا الدنيا الجديدة ونزحوا اليها لاستعمارها واستخراج معادنها المكنوزة فى أراضيها

أتى ميعاد الغداء فذهبنا إلى عربة الأكل فوجدنا رئيس الخدم وكذلك الطباخ ألمانيين ولما كنا لم نتلذذ من ابتداء حضورنا إلى يومنا هذا من أطعمة الأمريكيين وجدنا أن الغداء الذى قدم الينا على قلة ألوانه كان مصنوعا جيدا فأكلناه مع اشتهاء فأثنيت على رئيس السفرجيين وقبل أن نقوم من مكاننا شعرنا بشدة الحر حيث كانت الشمس تلقى أشعتها الذهبية على الصحارى والأودية التى تمر عليها. فشبه لنا أننا فى صيف مصر وكانت المراوح الكهربائية تدور ولكنها لاتتغلب على هذا الحر

أتت الساعة الخامسة فرأينا على بعد مدينة تظهر عليها الثروة لكثرة المصانع بها فان عدد مداخنها كان كثيرا جدا وهذه المدينة تدعى جالوب (Gallup) وهى شهيرة بمناجم الفحم الحجرى ومعتبرة مركزا لمهاتم الحصن العسكرى المعد للمدافعة ضد الهنود والمكسيكيين وهى على بعد ٤٠ كيلومترا من هذا الحصن فهى إذا متممة للموقع الحربى ولما وصلنا الى مانو يليتو (Manuelito) دخلنا فى أراضى الاريزونا (Arizona)

التى بها الجراندكانيون(Grand Canôn)وهى عبارة عن صحراء بها كثيرمن الصخور ذات الألوان المختلفة و بعدذلك مررنا على اداماناAdamana) وأرضها رملية لونها أحمر وبها أيضا كثير من الصخور الحمراء والسوداء التى تشبه الفحم الحجرىّ وبما أن هذه الأراضى قاحلة فلا أثر للزروع بها . وكنا نشاهد حيث يوجد نبع صغير من المـاء منزل أسرة هندية واحدة فلم نصــادف إذًا ما يستحق الذكر الا كلب الوادى المنتشر انتشارا هائلا .

قربنا من بلدة وينسلو (Winslow) المعروفة بحصول واقعـة حربية هــائلة بهــا بين الامريكيين والهنود الاپاش (Apaches) وفى هـذه الواقعة الشـــهيرة أوشك الأمريكيون يبيدون الهنود عن آخرهم . وقف قطارنا وألحقت به عربة للذين يذهبون توًّا الى الجراندكانيون . ولما أتى ميعاد العشاء ذهبنا لعربة الأكل وفى أثناء العشاء نقــل خادم عربتنــا الزنجىّ الذى صحبنا من كولورادو اسبرنج أمتعتنا إلى العــربة الجديدة وما أتممنا العشاء حتى كان كل شئ مرتبا فى محلنا الجديد فلم نتعب إذًا فى النقل ولا غيره بل ذهبنا الى محالنا هادئين مطمئنين . وصلنا الى ويليامس(Williams)نحو الســاعة الحــادية عشرة وقد كنا متأخرين عن الميعاد الأصلىّ بنحو نصف ساعة وهى بلدة صغيرة جدّا

شهيرة بقطعان البقر الذى صار وحشيا لبعد عهده برؤية الانسان .
هنا انفصل قطارنا عن عربتنا واستمر فى مسيره الى لوس انجيلوس فى كاليفورنيا أما نحن فأمضينا ليلتنا فى هذه العربة أمام محطة ويليامس لغاية الساعة الخامسة صباحا من يوم الخميس (٢٣ مايو) ثم ألحقت عربتنا بقطار صغير ليقودنا إلى الجراندكانيون

فشعرنا فى هذه الساعة بابتداء تحركنا وفى الساعة السابعة صباحا من هذا اليوم ارتدينا ملابسنا وقد كان الجو صحوًا والطقس معتدلا حيث كنا على ارتفاع ٤٥٠٠ قدم فوق سطح البحر فصرنا نرى أننا نخترق واديا عظيما متسعا به كثير من الشجيرات ترتع فيه الألوف من الأرانب البرية . وبعد قليل من الزمن وقف بنا القطار فى محطة صغيرة جدًا لم يكن بها الا زرائب من الخشب بها كثير من الغنم فكان منظرها وهى مجتمعة فى مكانها جميلا وبعد بضع دقائق قام بنا القطار فأخذنا ندخل فى غابة كثيفة وبعد عشر دقائق من الساعة التاسعة وصلنا إلى الجراندكانيون

فكأننا قطعنا المسافة بين محطة ويليامس والجراندكانيون فى ثلاث ساعات وعشر دقائق .

إن الفندق الذى كنا نريد أن ننزل به على بعد خطوات من المحطة

فنزلنا من عربتنا وقصدناه راجلين ولكن قبل أن يصل الانسان إلى هذا الفندق لابد أن يصعد على سلم عال متعب جدا وذلك لوضعه رأسيا فتسلقناه واجتزنا هذه العقبة أيضا وبعد ذلك وصلنا إلى الفندق وهو منزل كبير مبنيّ بالأخشاب يحيط به من كل جهة طنوف (ڤيراندا) فذهبنا توًّا إلى حجرة الأكل لنشرب قهوتنا وفى أثناء ذلك حضر أحد رؤساء الفندق وأثبت أسماءنا فى مذكرته وبعد أن انتهينا من الأكل أردنا رؤية غرفنا فقادونا إليها فاذا هى قليـلة الزخرف ولكنها نظيفة ومرتبة وقد أعجبنا حسن موقعها وجودة هوائها خصوصا أننا لانسمع فيها أىّ حركة تقلق راحتنا ولا عجب فى ذلك فاننـا فى خلاء واسع تحيط بنا الغابات الكثيفة الجميلة ولا بد أن السكون والهدوء ملازمان لهذا الموقع الخالى من المنازل وبنى الانسان الا السائحين النازلين بهذا الفندق

بعد أن استرحنا قليلا من عناء السفر وتخلصنا مما لحقنا من غبـار الطريق وأبدلنا ما علينا من الملابس خرجنا لنمتع نظرنا بأكبر وأعظم أعجوبة فى العالم على حسب قول الأمريكيين وقـد يقولون عنها إنها الدليـل القطعى على إثبات قدرة الخـالق العظيم ولكنى ولله الحمـد لم أحضر إلى هذا المكان لأقف على هـذا الدليل حتى يزداد يقينى

فى الخالق جل وعلا فانى أعترف بهذه القدرة من ابتداء نشأتى الأولى اذاً فلا محل عندى لزيادة إيمانى برؤيتى هذه المناظر وما كنت لأنتظر هذا اليوم حتى تتشبع روحى بعظمة وجلال رب السموات والأرض

إن موقع الفندق على ارتفاع ٢٠٠٠ متر من سطح الماء ومعنى جراندكانيون (Grand Canôn) الحلق الكبير أو المضيق العظيم ويبلغ طوله تسعة وأربعين وثلثمائة كيلو متر وعرضه من ١٣ الى ١٦ كيلو متر وعمقه من ٣٠٠ الى ١٥٠٠ متر ويمر بقاعه نهر يدعى كولورادو (Colorado) لاتزيد أعظم سعة له عن الستين مترا وفى أوقات فيضانه لايزيد عمقه عن السبعين مترا .

إن الناظر إلى الصخور فى ذلك المكان يجدها مكونة من عدة طبقات مختلفة الألوان والأشكال فيرشده ذلك الى أن كل طبقة من هذه الطبقات قد كانت فى أحد العصور السالفة هى وجها للارض فتوارت بتراكم الثرى وخلفتها طبقة أخرى صارت بعدها وجهاً للأرض وهكذا الى أن وصلت الى الحالة التى هى عليها الآن ومن ذلك يعلم المطلع على تلك الصخور أن الارض قد تكونت منذ عهد بعيد جدًا والذى كشف للانسان عن هذا السرّ هو ما حدث من حوادث الثوران الأرضية فهى التى ساعدته على الوقوف على هذه

الحقيقـة ولولاها لبقيت تلك الحقيقة فى ظلمة اسـتتارهـا اذ ليس للانسان قوة فى الحفر توصله إلى تلك الأعماق السحيقة فذلك الانفجار الطبيعى هو الذى أحدث ما نراه من تلك الاشكال المختلفـة . أما تلك الألوان المختلفة فوصفها على حسب ترتيبها الطبيعى من أعلى الى آسفل هو ما يأتى :ـ

الطبقة العليا لونها أغبر يليها طبقـة ثانيـة لونها كلون سابقتها الا أنه يتخللها قطع بعضها أحمر وبعضها أبيض

وهنـاك طبقات أخرى مختلفـة الألوان بين أحمـر قانئ وأخضر ضارب إلى الصفرة وأحمر مشوب بسواد ويتخلل كل طبقة من هـذه الطبقات قطع من الصخر حمراء صافية

هذا وأول رحالة كشف هـذا المكان هو الماجور باول (Pawell) فانه مشى بقـارب صـغير فى نهر كولورادو الذى يجرى فى قاع هـذا المضيق كما ذكرنا ذلك قبلا إلى أن وصل إلى هذا المكان العظيم

وقد رأينا طرقا ضيقة جدًّا تصلح فقط لمشى البغال والخيول لتنزل من هذه المرتفعات إلى عمق المضيق وهى فى الحقيقة متعبة جدًّا ولكنها ليست خطرة . أما نحن فألقينا نظرة عامة على هـذا الموقع فاستكبرناه وأعجبنا به كثيراً وهو فى الحقيقة يستحق الاعجاب لكبره وعظم عمقه

ولكننا مع ذلك لم نر سببا لإجبار السائحين على قضاء يوم أو بعض أيام فى هذا المكان وكان يكفى أن يمر الطريق الحديدى عليه فمن أراد النزول فيه نزل والا اكتفى برؤيته ومشاهدة عجائبه أثناء سير القطار

ان الامريكيين النبهاء لا يتركون بابا للكسب بدون أن يلجوه فجعلوا الطريق ينتهى بهذا المكان حتى يكون للفندق مورد ثروة من السائحين الذين يضطرون بطبيعة الحالة إلى التعريج والنزول فيه يوما أو بعض أيام ولا تسل عن الاعلانات الكثيرة التى ينشرونها مشتملة على أساليب التشويق إلى رؤية هذا المكان لجلب الناس إليه أما طرق هذه الإعلانات فنحن فى غنى عن بيانها لأن شهرتهم فى ذلك تفوق كل شهرة ـ ولكى أصوّر لك أيها القارئ منظر هذا المكان أقول ألق نظرك على جبلنا الجيوشى وما فيه من المغارات والأشكال التى وراءه ولا فرق الا أن فى بلادنا جبلا واحدا (الجيوشى) وهناك من أمثاله مائة جبل وأيضا انك ترى حيث تكون فوق أعلى قمة فى الجيوشى أسفل الجبل على بعد ٣٠٠ متر وهناك ترى أسفل الجبل على بعد ١٥٠٠ متر . نعم هذا الوصف هائل ولكن من يدرى أنه لا يوجد أمثال هذا المنظر أو أجمل منه فى بلاد الشيلى (Chili) والبرازيل (Brésil) وپرو (Pérou) وبلاد اليمن وغيرها .

إنه لايزال الى اليوم فى قارة آسـيا أمكنة غير معلومة حق العلم والله أعلم بحقيقتها ووصفها . وربمـا كان بها من المناظر الغريبة مايزرى بعجائب أمريكا فلا أجد سببا قويا جذب السائحين لزيارة هـذا المكان الا تأثير الإعلانات والافتنان فى طرق النشر . تركنا مكاننـا وتوغلنا فى الغابة على شفير المضيق فاستدرجتنا رائحة الأشجار العطرية وأثر فى أنفسنا الهواء النقى فلم نشعر بالتعب مع أننـا اسـتغرقنا ساعة ونصفا فى المسـير للوصول إلى زاوية على طرف هـذا المضيق فصرنا نرى من هذا المكان نهر كولورادو من جهتين أى من جهة كل ضلع زاوية وقد خيل إلينا أن ماءه عكر وبعـد أن مكثنا قليلا بهـذا المكان عدنا إلى الفندق وبالطبع هذه الرياضة جعلتنا نشتهى الأكل فذهبنا توًّا إلى حجرة السفرة حيث كانت الساعة الثانية عشرة والنصف وهنا لايختار الانسان مايريده من كشف المأكولات بل أنواع الأكل عامة لكل السائحين فأكلنا باشـتهاء عظيم ولم نشعر برداءة الطعام بل على العكس اتفقنا أنا ورفيقاى على أنه أحسن قليلا من غيره وبعد ذلك ذهبنا إلى غرفنا فأقمنا بها قليـلا من الزمن طلبا للراحة وفى نحو الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر خرجنا ثانية من الفندق لرؤية باقى المناظر وقد قيل لنا قبل حضورنا إلى هـذا المكان حَسْبُ السائح

أن يرى فندق التوفار (El Towar الذى نحن به الآن وما حوله فان ذلك يترك فى نفسه صورة عامة لمناظر الجراند كانيون ولكننا بالرغم من ذلك أردنا أن نتوسع ونقف على كل دقيقة يهم الوقوف عليها فاستفهمنا عن الأمكنة التى يذهب إليها السائحون فعلمنا أنهم يذهبون على عربة إلى المكان الذى كنا فيه صباح هذا اليوم ويبعدون عنه قليلا ولأجل ذلك يلزمنا دفع ستة عشر دولارا عن أنفسنا أى ماقيمته ٨٠ فرنكا فرأينا أن هذه القيمة باهظة خصوصا وأننا مشينا تلك المسافة على أرجلنا بدون تكبد تعب يذكر فعدلنا عن هذا الإسراف ثم علمنا أن هناك استراضة أخرى على ظهور البغال والخيل للنزول إلى أسفل المضيق وتستغرق يوما كاملا ولما كنا رأينا العائدين منها وجوههم حمراء محروقة من الشمس ظننا أن لون الصخور الحمراء ناشئ أيضا من قوة تأثير أشعتها المستمرة وقد كانت حالتهم الجسمية يرثى لها فان التعب الشديد كان باديا عليهم فوفرنا على أنفسنا هذا التعب خصوصا وأمامنا صعوبات أخرى كبيرة لابد من اقتحامها فقررنا أيضا العدول عن هذه الرياضة الشاقة استبقاء لقوتنا .

بعد أن وقفنا على حقيقة الحال من جهة تلك المزارة وقررنا ماقررنا رأينا أمام الفندق على بعد بعض أمتار منزلا يمثل منازل هنود

الأمريكيين والسلم الخشبي موضوع على إحدى حيطانه للذين يريدون الصعود عليـه والدخول فى هـذا المنزل من بابه الذى فى سقفه وقد رأينا أيضا بابا آخر اعتياديا عمل تسهيلا للذين لايستطيعون الصعود على السلم حتى لايحرم الشيخ أو الضعيف من الدخول فيه وقد عرفنا أن هذا المنزل محل تجارى تديره شركة الفندق لمبيع مصنوعات الهنود والدخول فيه مباح لعامة الناس بدون مقابل فدخلناه ورأينا فيه أنواعا كثيرة من الأحجار الثمينة كالفيروز وغيره وعددا عظيما من السجاجيد الهندية الأمريكية وكثيرا من الأساور والأقراط من الفضة وسلات مختلفة الشكل والحجم وملابس الهنود وقبعاتهم وسروج خيولهم وأقواسهم وسهومهم وحرابهم وتروسهم وغير ذلك .

أما مدير هذا المحل فقد كان يظهر عليـه النشاط وقد صحبنا وأخذ يشرح لنا مانريد معرفته وقد تبادلت الحديث معه إلى أن وصـلنا إلى أصل هؤلاء الهنود فسألته عن رأيه فى أصلهم وهـل يعتقد أنهـم خلقوا فى أمريكا أوهم مهاجرون من بلاد أخرى فأجابنى أنه يرى أنهم أتوا من قارة آسـيا فسررت من فكرته لأنهـا تطابق رأيى وقد صرحت بها قبل زيارتى لأمريكا ودونتها فى رحلتى اليابانية فإنى لمـا رأيت فى منشوريا اليورجوت وقارنتهم بصور الهنـود الامريكيين

التى رأيتها فى بطاقات البريد (كارت پوستال) التى اشتريتها من (مكدن) علمت وقتئــذ أنه لابد أن تكون هنود أمريكا من هؤلاء اليورجوت ومن سكان شمال آسيا وليس ببعيد أنهم هاجروا الى هذه البلاد فى الزمن القديم من طريق كامتشكا (Camtchatka) وعلى ذلك الرأى يكون الأسيويون هم البادئون فى تكشيف أمريكا قبل كريستوف كولومب ولكن لما كانت حالتهم وحشية ومعارفهم قاصرة واختلاطهم بباقى العــالم معدوما ولا توجد بينهم وبين الأوربيين مواصـلات ولا مكاتبات فان تكشيفهم لم يعلم به أحد . ومع ذلك لايمكن تأييد هــذا الرأى باقامة برهان عليه من معلومات هؤلاء الهنود أنفسهم لأنهم لا يعرفون هم أنفسهم أصـلهم ولا يدرون تاريخهم فاذًا لا يمكن الاتيان ببراهين قاطعة على صحة هذا الرأى إلا مثل هــذا الاستنتاج الذى وصلت إليه أثناء زيارتى منشوريا ومقارنتى سكانها بأولئك الهنود الامريكيين . والشيءالغريب الذى ألفت نظرى فى هذه المعروضات وجود (رأس لجام) مكسيكى به رسم الهلال (وحديدته عربية) فقلت إن ذلك من مخلفات وآثار العرب فاننــا نعلم أن الاسپانيين هم الذين أتوا أولا وحاربوا مكسيكا وبمـا أن إسپانيـا كانت ملكا للعرب وبعد نزعها من أيديهم لابد وأن تبقى فى أسپانيا

آثارهم الحربية والاسبانيون الذين حضروا لفتح مكسيكا ربما كان بينهم من أحفاد العرب أو من المعجبين بأدواتهم الحربية من أحضروا معهم هـذه المخلفات التاريخية وبعـدها انتقلت من مكسيكا إلى هنا على أنها تحف تباع للسائحين والذى أيد فكرتى هذه وجود سروج عربية بكامل أدواتها معروضة أيضا للبيع وهى بلا شك من مخلفات الأندلسيين المغاربة

وقد زاد استغرابى ماوجدته من المشابهـة بين مصنوعات هؤلاء الهنود المتخذة من القصب ومصنوعات السـودانيين عندنا أو زنوج أواسط أفريقية فأفكار الانسان وأعماله ملائمة لما هو عليه من الرقىّ أو الانحطاط فى الشؤون الاجتماعية فلو أن طائفتين من بنى الانسان تشابهتا فى رقيهما وانحطاطهما فلابد أن يتشابها فى أعمالهما ولو تباعدت أوطانهما فان حالة السودانيين الوحشية لاتقل عن حالة هؤلاء الهنود .

بعد أن أتممنا زيارتنا لكل غرف هذا المحل التجارىّ الأثرىّ أردنا الانصراف فوقع نظرنا على كتابة مكتوبة فى لوحة معلقـة على حائط باللغة الانكليزية علمنا منها أنه سيحتفل هـــذه الليلة باقامـة مرقص للهنود فى الساعة الثامنة مساء من هذا اليوم فصممنا على أن نعود ثانية الى هذا المكان حتى نرى شيئا جديدا لم نره من قبل فخرجنا وتنزهنا قليلا

حول الفندق ثم رجعنا اليه لأكتب مذكراتى عن رحلتى ولما أتت الساعة السابعة انتقلنا الى حجرة السفرة لتناول عشائنا وما أزفت الساعة الثامنة حتى كنا فى منزل الهنود الذى سيقام فيه المرقص وقد سبقنا اليه كثير من السائحين فنظمت هذه الحفلة بأن وضعت الكراسى على هيئة نصف دائرة حول محل كاف للراقصين فتقدم اثنان من الهنود الى بهو هذا الميدان وفى يد كل واحد منهما عصا جوفاء صغيرة فى طرفها كرة من الخشب بها قطع صغيرة من الأحجار (شخشيخة) حتى اذا هُزّت سمع لها صوت يشبه تمام المشابهة صوت (شخشيخة الزنوج) فأخذا يرقصان ويصيحان بأعلى صوتهما كنُباح الكلاب وصارا يرفعان قدما ثم يحطانها ويرفعان القدم الأخرى وهكذا . فرقص الهنود أيضا يشبه رقص زنوج أفريقية الا أن صوتهم أكثر إزعاجا . ولما انتهيا من رقصهما شرع مدير المحل يحذفهما ببعض قطع من النقود الامريكية ذات الخمسة أو العشرة سنس حتى ينبه السائحين الى أن يحذوا حذوه فصار كل واحد منهم يلقى مايريد والاثنان يسرعان الى التقاط مايلقى اليهما

انتهى دور هذين الاثنين فخرجا من المرقص وتقدم بعدهما خمسة من الهنود يتلو بعضهم بعضا على صف واحد فصاروا يرقصون

و يصيحون أيضا كما يفعل الزنوج السودانيون و بعد ذلك نثرت عليهم النقود فصاروا يلتقطونها ثم تركوا مكانهم فخلفهم امرأتان هنـــديتان عاريتـــا الأقدام وعلى كتف كلتيهما قطعـــة من القماش وابتدأتا فى الرقص أيضا ثم تبعهما بعـد انصرافهما ثلاثة أطفال تمموا حفلة الرقص وفى كل مرّة كانت النقود تلقى على الأرض والراقصون أو الراقصـــات يسرعون الى التقاطها أما الدف الذى كانوا يضربونه فهو كدلوكة السودانيين أيضا فلم أهتد تمام الاهتداء الى سرّ هذه المشابهات بين هؤلاء الهنود وسكان أواسط أفـريقيا . وأعجب من كل ذلك فى وجوه المشابهة أن معاملتهـــم فى الزمن السابق كانت بأحجار الفيروز وأنواع الصدف وغيرهما فان الأقراط والأساور المصنوعة من هـذه الفصوص كانت تبـاع بعـدّة رؤس من الغنم أو البقر أو الخيول أما ملابسهم على كثرة ألوانها فانهـم يزينونهـا بأنواع الخرز الملون فكأنّ الخرز أيضا كان له قيمة عظيمة عندهم كالزنوج

هـذه كانت حالتهم الأولى ثم صاروا يتدرّجون فى تغيير هذه الأشياء بعد تكشيف أمريكا ووفود الأوروبيين إليها وصاروا يصنعون من الفضة أقراطهم وأساورهم وغيرهما و يغيرون ملابسهم تدريجيا إلى أن وصلوا الآن إلى الارتداء بالملابس الأوروبيـة على قاعدة أن

المغلوب وَلُوع بتقليد الغالب . بعد انتهاء هذه الحفلة عدنا إلى الفندق واقترقنا للنوم وموعدنا الصباح

اجتمعنا فى يوم الخميس (٢٤ مايو) حيث كان الهواء عليلا والسماء رائقة نخرجنا من الفندق لنمتع أنظارنا بتلك المناظر الغريبة فنرى السائحين الذين سينزلون إلى أسفل المضيق فذهبنا الى المكان المعدّ لركوبهم فرأيناهم وعليهم ألبسة من الكاكى الأصفر أعدّها القائمون بادارة الفندق لأيجارها للسائحين فقد كان الرجال بينطلوناتهم السوارى والتراالك والسيدات بحللهن (فساتينهن) الواسعة المصنوعة من هذا القماش أيضا المعدّة للركوب فكان المنظر غريبا يجذب الأنظار اذ كنا نرى رجالا على ظهور البغال وحالتهم تظهر عدم اطمئنانهم من جهة دوابهم وسيدات بلغن سن الشيخوخة ويردن أن يظهرن مقدرتهن بتجشم هذه المشاق ورجالا وسيدات بلغوا من عظم الجسم ماجعل بغالهم تنوء بهم وأطفالا يلعبون فوق ظهور هذه الدواب ولا يجعلونها تستقر فى مكان واحد ـ وبالجملة أمضينا بعض دقائق ونحن نرى كل هذا ولم نأسف على ضياع وقتنا سدًى وبعد ذلك مشينا من هذ المكان إلى الأمام حتى وصلنا إلى محل فسيح قد ضرب به كثير من الخيام موضوعة بنظام كنظام المعسكرات للذين يفضلون الاقامة بها

من السائحين على السكنى بالفندق وأظن أن أجرة المبيت فى هذه الخيام أقل من أجرة الغرفة فى الفندق .

عدنا بعـد ذلك إلى الفنـدق لنعدّ متاعنا فقد صممنا على الرحيـل عند ما تمرّ خمسون دقيقة بعد الساعة السابعة . وبعد الغداء أردت أن أستريح قليـلا فى غرفتى فاعترانى ألم شـديد فى رأسى لم أتخلص من شـدّته إلا نحو الساعة الثالثة والنصف ففضلت الخروج فى الخلاء لاستنشاق هواء الأجمة لعلى أتغلب على هـذا الألم المتعب فصحبنى رفيقاى ومشينا الى أن قربنـا من أكواخ الهنود الذين يشتغلون فى الفنـدق أو فى المحل التجارىّ الذى سبق الكلام عليه فرأينا امرأة تسلخ خروفا معلقـا أمام كوخها ولمـا أردنا الاقـتراب منهـا لنرى ما تفعله دخلت فى كوخها فتعمدنا الاقتراب منها لنرى مايحويه ذلك الكوخ الذى توارت فيه فأغلقت الباب فى وجهنا فرجعنا بعد أن طال انتظارنا ولكنا عدنا ثانيـة للاقتراب من الأكواخ الأخرى المجاورة للكوخ الذى اختبأت فيه المرأة الهنـدية فكان نصيبنا أيضا عدم الوصول إلى معرفة مابداخلها وكنا كلما نقرب من أحدها تسرع امرأة أو طفلة الى إغلاق الباب فى وجهنا فكأنهن لايردن أن يقف أجنبىّ على أحوالهن الداخليـة . إن هذه الحوادث ولو أنها فى حدّ

ذاتها تافهـة جدا إلا أنهـا مرت على نفسى المفعمة بحب المحافظة على العوائد القديمة فوجدت فيهـا مكانا رحبا فشـعرت وقتئذ بلذة ذهبت بمـا كنت أشعر به من ألم الرأس وربمـا يتصوّر القارئ أنى من المتعصبين الذين لا يودّون تحسين أحوالهم باختيـار أحسن الطرق الموصلة إلى المدنية الحقة وترك العادات العقيمة الداعية إلى التأخر التى يقول فيها الباحثون عن أسرار تأخر الأمم الشرقيـة إنهـا العقبات الحـائلة دون وصول هذه الأمم الى درجة التقدّم العظيمة التى وصلت إليها الأمم الغربية .

حاشا لله أن تكون تلك سبيلى وأنا العظيم الحب لبـلادى ولكافة الشرق ولكن كثرة سـياحاتى واختلاطى بالشعوب الراقيـة وغيرهـا وبحثى الدقيق فى عاداتها جعلنى أمـيز بين النافع والضارّ منها وطالمـا سمعت من المتمدينين الشـكوى المرّة من عادات نحن نسرع إلى العـمل بهـا تشـبُّها بهم ولا نعـلم نتائجها ولا إلى أين هى تسوقنا . أترك هذا البحث الجليل الفائدة لحضرات علمائنا الأفاضل راجيا منهم أن يوجهوا عنايتهم إليه عساهم يوفقون الى أنجع الأدوية لعلاج هذا المرض العضال الذى أخشى كثيرا عواقبه غير أنى أوجه أنظار القراء الى عادة كان الشرقيون يتبعونها وكانت من أعظم وسائل نجاحهم .

إننا كنا فى الزمن السابق نعيش عيشــة الخشونة بعيدين عن الانغماس فى الترف ننفق مايزيد عن حاجاتنا الضرورية فيما يعود على الأمة بالفائدة العامة فلا الزخارف كانت تؤثر فينا ولا حب الظهور الكاذب كنا نميل اليـه . لانعمل الا مايجعلنا أمام غيرنا من الأمم مهيبين محترمين . كنا نحافظ على آدابنا وأخلاقنا وعوائدنا الشرقيـة . فلنعد اذًا الى مايلائمنا منها وان رأينا فى بعضها ما يسبب تأخرنا فلنتركه بعد مشاورة ذوى الرأى منـا . إن المجال واسع جدًا فى هـذا الموضوع وأرى أساسه الأخلاق فأسرعوا يانجباء الأمة إلى طرق هذا البـاب والله يوفقكم إلى خير الأعمال . نرجع الى رحلتنا فبعد أن تركنا هذه الأكواخ عدنا إلى الفندق وجلسنا فى أحد طنوفها (ڤيراندات) ننتظر حضور السائحين الذين ذهبوا صباحا إلى أسفل المضـيق ولمـا أتت الساعة الخامسة ونصف رأيناهم قادمين ووجوههم محترقة من أشعة الشمس وتظهـر عليهـم جميعا علامات التعب الشـديد وفى الساعة السادسة والربع ابتدأنا نتناول عشاءنا وما أتت الساعة السابعة والربع حتى كنا أخرجنا أمتعتنا ودفعنا حسابنا . ثم بعد ذلك توكلنـا على الله وذهبنا إلى المحطة فأذن لنا فى الساعة السابعة والنصف أن نأخذ مكاننا فى عربة القطار وقد كانت به عربتان للنوم احداهما تذهب الى

كاليفورنيـا والأخرى إلى جهة الشرق وعربة ثالثة اعتيادية للذين يذهبون فقط إلى محطة و يليـامس (Williams) التى نصل اليها بعد ساعتين ونصف وقد كان القطار مزدحما جدا بالراكبين فتحرك بنا وتخلصـنا ولله الحمد من الجـراندكانيون الذى هو جميل وعظيم إلا أن بُعده عن العالم وخلوه من حركة الحياة جعلانى أتصور اذ كنت فيه أنى لست فى عالم الأحياء بل فى مقابر نزورها ونحن خاشعون فنفسى ولو كانت لاتحب كثرة الضوضاء والحركة ولكنها لا تميل أبدا إلى هذا السكون المحزن . ابتدأ الخادم الزنجىّ فى إعداد أسرّتنا وبعد الساعة الثامنة مساء أخذنا نضطجع عليها لعلنا ننام ونرتاح وقد رأيت فى أوّل مرة على أحد الأسرة سيدة و زوجها ولا أعلم كيف يتسنى لهما أن يناما مع راحة وهـدوء فى سرير واحد لم يكن معـدّا الا لشخص واحد .

تركت هذا لهما وصرت أغمض عينى متعمدا النوم ولكن من أين يأتى ذلك وأنا أفضل النوم على كرسىّ طويل على أن أنام على سرير البولمن (Pullman) فإن الإنسان لايمكنه أن يرقد على أحد جنبيه لأن كثرة التعاريج تسبب شـدّة الاهتزاز و وقوف القطار وقيامه دفعة واحدة يجعلان المسافر فى فزع شـديد وقد شرحت حالة هـذه

القطارات قبلا وما كرتها إلا لما لاقيته من عدم الراحة التى جعلتنى أتألم وأشكو كثيرا منها وأخيرا وجدت خير طريقة للذى رماه الدهر وسافر فى هذه القطارات الليلية أن ينام على ظهره أو على بطنه ويفرج رجليه بحيث يجعل إحداهما فى حرف السرير والأخرى فى الحرف الآخر كذلك يفعل بيديه فبهذه الطريقة الوحيدة ربما يأمن السقوط المنتظر فى كل وقت وفى النهاية أمضينا ليلتنا وما طلع فجر يوم الجمعة (٢٤ مايو) حتى أسرعنا لارتداء ملابسنا . ولما أتت الساعة السابعة والربع وهو ميعاد تقديم الفطور فى عربات الأكل ذهبنا لنأخذ قهوتنا ولكنا رجعنا على أعقابنا لأنه قيل لنا إننا الآن فى الساعة السادسة والربع والزمن هنا يتأخر ساعة لأننا نسير جهة الغرب وبعد انتظارنا أربعين دقيقة عدنا ثانيا إلى عربة الأكل فوجدنا المُمَشّى مكتظًا بالسيدات فلم نجرأ أن نزاحمهن ونخترق صفوفهن فبقينا وراءهن إلى أن فتح الباب ودخلن ونحن وراءهن . ولما استقر بنا الجلوس ألقينا نظرة على الجهة التى نمرّ فيها فإذا هى صحراء عظيمة الاتساع شكلها محزن لخلوها من السكان فلا يجدر بانسان أن يزعم أن جميع جهات كاليفورنيا جميلة فقد أتت الساعة التاسعة ونحن مازلنا نخترق صحارى قاحلة رملية بها صخور سوداء لايرى الإنسان فيها شجرة واحدة زاهية بل كنا نرى

بين وقت وآخر بعض حشائش طبيعية ذابلة أظن أنها لا تصلح إلا مراعى للعز أما الماء فلم يكن له أثر هناك والمدن أو القرى قليلة جدّا .

بعد ذلك أخذ قطارنا يخترق صحراء (Mojave) العظيمة وهى سهل مرتفع رملىّ بها بعض بحيرات ملحة .

سبق أن قلت إننا نسير جهة الغرب ولو وجّه الإنسان نظره شمالا لرأى جبالا مرتفعة ولكنها بعيدة . ـ

وصل بنا القطار إلى محطة تدعى بغداد والقارئ لا يستغرب هذا الاسم فإن الولايات المتحدة لسعتها العظيمة وكثرة مدائنها استعير لبعضها أسماء أعظم بلاد الدنيا . وأخيرا وصلنا إلى محطة بارستاو (Barstaw) فانقسم قطارنا إلى قسمين قسم يذهب إلى سان فرنسيسكو والقسم الآخر إلى لوس إنجلوس وقد علمنا أن بهذه البلدة كثيرا من المناجم و رأينا بها عددا عظيما من المداخن التى تدل على كثرة المصانع بها و بعد أن أمضينا بهذه المحطة عشرين دقيقة سار بنا القطار ببطء فابتدأنا ندخل فى مضايق مكتنفة بالجبال و بعد ساعة عدنا إلى سهل عظيم الاتساع ولكن أرضه خصبة وبها كثير من أشجار البرتقال والقريز (توت أفرنجى) والكروم وأشجار فواكه أخرى وقد أعجبنى

كثيرا تنسيق زراعة البرتقال فإن أشجاره كانت على خط واحد ومنفصلة بعضها عن بعض بمسافات عظيمة تمكن العربة من المسير بينها وذلك لتسهيل جنى ثمار البرتقال . أما الأراضى التى بها هذه الأشجار فقد رأينا الاعتناء بحرثها عظيما ولا يمكن أن يرى فيها الإنسان أثرا للحشيش وقد جذب نظرنا طريقة رى هـذه الأشجـار فانها لاتسـق كما نعرف بعمل حفرة حول الشجرة مباشرة بل تسـقى بمرور قناة صغيرة على بعد من الشجرة أى فى وسط المسافة التى بين الشجرتين وقد استفهمنا عن السر فى ذلك فعلمنا أن هذه الأشجـار لكبرها وامتداد جذورها لا تنتفع من الماء إذا كان حول جذوعها مباشرة بل تنتفع منه إذا كان بعيـدا عنها إذ يكون قريبا من جذورها فبهذه الطريقة تأخذ الشجرة ما يكفيها من الماء ولا يحصل لهـا ضرر أبدا ولا خوف عليها من الغرق

وصلنا إلى محطة سـنت برناردينو (St. Bernardino) وهنا انقسم أيضـا قطارنا إلى قسـمين قسم يذهب إلى لوس إنجلوس بطريق (River side) والقسم الآخر يذهب إلى بسادينـا (Passadena) وهى الجهة التى سنذهب إليها —

أما بلدة سـنتابرناردينو (St. Bernardino) فيبلغ عدد سكانها

ثمانية آلاف نسمة وهى تصدر كثيرا من أنواع الفواكه وقد ألقينا نظرة عامة عليها فرأينا طرقها عظيمة ومتسعة وحسنة النظام ومغروسا فى جوانبها أنواع كثيرة من النخيل وغيرها . ومنازلها جميلة ومحاطة بحدائق ذات بهجة ولو أنها صغيرة ولكنها منظمة ومرتبة أما أنواع الزهور بها فحدث عنها ولا حرج فكلما وجه الإنسان نظره لا يرى إلا أنواع الورد وزهورا كثيرة أخرى مختلفة الشكل واللون بديعة جدا تسر الناظرين

أتى ميعاد الغداء فذهبنا الى عربة الأكل وأخذنا مكاننا ولما كنا فى بلاد الزهور فقد تقدم شاب وصار يقدم إلى كل سائح قرنفلة جميلة وإلى كل سائحة باقة صغيرة أنيقة من الزهور بدون ثمن فصار كل واحد منا يمتع نظره بهذه الزهور البديعة ويشم رائحة القرنفل العطرية ومن حين إلى آخر كنا نلقى نظرنا فنرى الخلاء المملوء مزارع عظيمة لا يمكن الإنسان أن يضجر من رؤيتها وكلما أنعم النظر فيها شعر بلذة وسرور فى نفسه . هنا حقيقة الحياة الطيبة فإننا شعرنا بالفرق العظيم بين ما رأيناه وما نراه الآن وقد ذكرت إذ ذاك لإخوانى أنى أفضل الجمال مع حركة الحياة على الجمال الذى يحف بالسكون المحزن . بعد أن انتهينا وأخذنا ماطاب لنا من الطعام عدنا

إلى عربتنا وصرنا نخترق مزارع كبيرة من أشجار الزيتون ولمـا وصلنا إلى جلاندورا (Glendora) رأينا بهـا أشجـار الليمون بكثرة كذلك سان جابريل (San Gabriel) فإنها شهيرة بصيد أسماك البقلاه والمرجان وقد كان بجانب طريقنا طريق آخر زراعى عرضـه يبلغ الأربعين مترا ومغطى بطبقة من القطران فأمضينا نحو عشرين دقيقـة ونحن نسير بجانب هذا الطريق ونخترق حدائق بها أنواع الليمون والبرتقال واليوسف أفندى إلى أن وصلنا إلى بلدة پسادينا (Passadéna) وقد كنا لاحظنا بين أشجار البرتقال فى مماشيها أكواما من البرتقال الذى تلف بالعفونة ولا غرابة فى ذلك إذا عرف القارئ مقدار مايصدر كل سنة من نوع البرتقال فقط من هذه الجهة فإنه يبلغ ٢,٥٠٠٠٠٠ صندوق غير باقى الفواكه الأخرى

قلت إننا وصلنا إلى پسادينا وهى مدينة يبلغ عدد سكانها اثنى عشر ألفا من النفوس وهى واقعـة بسفح جبل فى واد خصب جدًا فنزلنا من عربتنا نحو الساعة الثانية بعد الظهر وذهبنا توًا إلى فندق ماريلاند (Maryland) الواقعة فى أحسن شارع فى هـذه المدينة وقد أعدّ لنا فيها غرف فاخرة فأخذنا ننفض عنا الغبار ونصلح حالنا وبعـد ذلك نزلنا منها لنطلب إعداد سـيارة لتذهب بنا إلى داخل هـذه المدينة

الجميلة لتمتع برؤية ترتيبها وحسن نظامها وقد كنا أرسلنا باقي أمتعتنا الثقيلة (الحقائب الكبيرة) إلى لوس إنجلوس على نية أننا لانقيم بمدينة پسادينا أكثر من ليلة ولكنا لما أعجبتنا ظواهرها صممنا على أن نمكث بها أكثر من ذلك فسلمنا (حوافظ) هذا المتاع الثقيل لبوّاب الفُندق ليقوم بما يجب لإرساله لنا ولم نلبث أن أفهمناه ماتريد حتى أتت السيارة التي طلبنا إعدادها من قبل فركبنا فيها وسرنا في وسط شوارع كلهـا عظيمة وجميلة لاندري أيهـا أجمل من غيره فهي كالحَلْقة لايدري أين طرفاها والحق يقال إنهـا في منتهى النظام وكمال العناية والنظافة وقد زرع في جوانب هـذه الشوارع المتسـعة على أبعاد متساوية وفي صفوف مسـتقيمة أنواع من النخيل (Palmiers) ومن المـانوليـا (Magnolia) ومن أشجار الفلفل (Poivriers) ومن الكافور . أما منازلها فقـد بلغت من الجمـال غايته فإنها كلها عبارة عن ڤيلا (Villa) وقد قدّرنا اتسـاع هـذه الشوارع بأربعين مترا وكلها مرصوفة بالمكادام مغطاة بطبقة من القار تجـري في وسطها المركبات الكهربائية مملوءة بالركاب أما أرضها فمبلطـة ونظيفة جدّا والذي زاد إعجابنا بهـا أن جميع هذه المنازل لايُحدق بها أسوار ولا حواجز وبما أنها كلها محاطة بالحدائق البديعة فقد شبهنا مجموع هذه المدينة بحديقة واحدة عظيمة

محكمة النظام رائعة الجمال بها هــذه المنازل اللطيفة المرتبة بذوق سليم أما طقسها فلطيف أيضا ولم نشعر بدرجة الحرارة الزائدة كما كنا نتألم منها فى القطار قبل وصولنا إلى هــذه المدينة التى أسميها مدينة الزهور والرياحين ـ

هذا وقد أخذ سائق عربتنا يرينا قبل كل شئ حديقة المسيو بوش (Busch) الألمانى الأصـل الذى توصل باجتهاده أن يكون من أرباب الملايين ولمـا وصـلنا إليها وجدنا الدخول فيها مباحا لعـامة الناس لغاية الساعة الخامســة والنصف مساء فدخلناها وأعجبنا نظامها وشهدنا بأن صـاحبها ذو ذوق سليم وهو فى نظرنا من أكبر المغرمين بحب الحـدائق والمولعين بترتيبها وحسن تنسيقها وقد استفهمنا عن أسباب شدّة الاعتناء بهذه المدينة فعلمنا السر فى ذلك وهو أن أرباب الثروة العظيمة الذين يشتغلون بمدينة (لوس إنجلوس) الواسعة التجارة الكثيرة المصانع لم يجــدوا فيها من الراحة ما يخفف عنهم متـاعب أعمالهم فجعلوها فقط مركز أشغالهم وجعلوا مدينة (پسادينا) القريبة من (لوس إنجلوس) مأواهم فى أوقات راحتهم . فمدينة الزهور هى مأوى الأغنياء فهم كثير و الإقبال عليها وقد علمنا أيضا أن الشركات هى التى وضعت نظامها الحالىّ اللطيف فإنها التى أنشأت بها المنازل

وأخذت تتأنق فى بنائها وتبيعها لذوى اليسار وقد اعتنت بترتيب شوارع هذه المدينة فتوجهت الأنظار إليها فنزح إليها سكان البلاد المجاورة لها وفى زمن قليل وصلت إلى ماهى عليه الآن من حسن النظام . ولنعد ثانيا إلى ذكر حديقة المستر (بوش) تكلمتُ عن جمال هذه الحديقة وفاتنى أن أقول إن بها نباتا ذا أزهار جميلة جدًا لونها بنفسجىّ وقد يفتنون فى إقامة الجبيلات الصناعية بها ويجعلونها مُعَمَّمَة بهذه الزهور فيكون لها مناظر بديعة رائعة الجمال تقتاد أعنة الحدق فترنو اليها أنظار السائحين وكلما زادوها نظرا زادتهم سرورا وإعجابا بها :

إذا مازدتَها نظــرا ❁ يزيدك شكلها حسنا

فهذه الحديقة جمعت فأوعت فضلا عن كثرة جبيلاتها البديعة بها أنواع من الورد لاتحصى أما أشجارها فحدث ولا حرج عن كثرتها واختلاف أنواعها وقد شيّد صاحبها فيها منزلا فخما له وبجانبه منزلين أحدهما لابنه والآخر لابنته وأجملها فى نظرى منزل الأخت

تركنا هذه الحديقة وذهب بنا سائق سيارتنا إلى حىّ من أحياء المدينة يطلق عليه (سويسرا الصغيرة) وذلك لأن منازله مشيّدة على الطراز السويسرىّ وبعد ذلك صعد بنا إلى ربوة بنى عليها فُندق

كبير وهى مقفلة الآن لأنها تغلق أبوابها فى هذا الفصل لعـدم كثرة وفود السائحين إليها فأمكننا أن نرى من هذه الرباوة المدينة بشوارعها العظيمة المنظمة وأشجارها المغروسـة بترتيب بديع و زهورها المنتشرة فى حدائقها البـديعة فأعجبنـا جدًا رؤية هـذا المنظَر البديع لاسيما أطراف المدينة والفضاء الواسع الذى يحيط بها ثم سار بنا إلى بنـاء شـاهق مهجور ذى خمس طبقات وأصـــله دير مشيد على الطراز الاسـپانىّ وقد عرفنا أن فى كاليفورنيا كثيرا من أمثال هـــذا الدير وأغلبها اشترته الشركات لجعله فنادق ولمـا رأى مديرو هذه الفنادق أن الاقبال عليها عظيم أخذوا فى بناء فنادق على شـكل الأديرة الاسـپانية ولكن هـذا الفُندق الذى نحن به الآن لم يتم بناؤه لنفاد الأموال من أيدى القائمين به فأوقف العمل فيــه مع أنه لم يبق لإتمامه إلا قليل من العمل ولكن ثقتى بمهارة الأمريكيين فى اتخاذ الطرق التى يسلكونها للحصول على الأموال تجعلنى على يقين من أن أصحاب هـذا الفُندق لايعدمون من يعينهم على إتمامه فيفتح أبوابه فى السنة الآتية و ينال شهرة كبيرة . وبعد أن تفقدناه خرجنا وسرنا بجوار أملاك المستر (هامتنجتون) وقد علمنا أنه المنشئ لجميع خطوط المركبات الكهربائيــة فى مـدينة لوس إنجـلوس وضواحيها والذى

يدل على مقدار ثروته العظيمة أنه شيّد منزلا خصوصيا له أنفق عليه مليون دولار وقد حُفّ هذا المنزل بحديقة مساحتها ٨ هكتارا ولا نسل عن باقى ممتلكاته الواسعة فى المدينة فإننا رأينا من بينها أرضا واسعة قسمها إلى شوارع منتظمة وشرع يبنى فيها منازل صغيرة ليبيعها لمن يريد وقد سألنا هل يتيسر لنا زيارة قصره وحديقته فعلمنا أن الدخول فيه غير مباح للعامة فاستمررنا فى طريقنا إلى أن وصلنا إلى قصر المثرى العظيم الطائر الصيت المستر روكفلر فوجدناه فخما وجميلا ولكنا علمنا أنه لا يسكنه الآن فنظرناه على بُعد ثم مشينا فمررنا على مدرسة التجارة ومنها إلى (السپورتنج جراوند) الذى يلعب فيه جميع أنواع الألعاب الرياضية (كالپولو) وغيره خصوصا فى أيام السبت والأحد ولما قربت الساعة السادسة والنصف صممنا على أن نعود إلى الفندق فأمرنا السائق أن يذهب بنا إليه وقد صادفنا فى طريقنا عددا كثيرا جدّا من السيارات ولا عجب فإن سكان المدينة أصحاب ثروة واسعة وشوارعها تامة النظام عظيمة الاتساع فيسهل عليهم اقتناء هذه السيارات وكثرة ركوبها

أما عدد الكنائس التى مررنا عليها أثناء سيرنا فعظيم وأظن أن فى هذه المدينة ما لا يقل عن ثلاثين كنيسة .

وصلنا إلى الفندق وأسرعنا لتناول عشائنا وبعد ذلك ذهبنا لنستريح من عناء السفر ومشاقه ولمـا أصبح الصباح (يوم السبت ٢٥ مايو) رأينا الجو عابسـا والسماء متلبدة بالغيوم فلم يمنعنا انهمار الأمطار عن الخروج فارتدينا معاطفنا الواقيـة من المطر (ماكينتوش) وأخذنا مطرياتنا وتوكلنا على الله وسرنا فى المدينة راجلين لنراها على مهل ولم نعـد من جولتنا هـذه إلا نحو الساعة الحـادية عشرة فبعثنا فى طلب سيارة لتذهب بنا إلى مدينة (لوس إنجلوس) التى بها محل كوك لنبحث عن رسائلنا وفى الساعة الثانية والنصف أتت السيارة فركبنا فيها وأمرنا سائقها أن يذهب بنا إلى هذه المدينة ولما كانت الأمطار لاتزال منهمرة لم نستطع أن نقطع المسـافة بين پسادينا ولوس انجلوس إلا فى ٤٥ دقيقة مع أن المعتاد أن تُقطع فى نصف سـاعة وذلك لأن الطريق صـار كله مزالج ولم نرد أن نسرع اتقاء الخطر ولكن سـيرنا البطىء جعلنا نتمتع بمناظر جميلة وقد كان الطريق الذى نسير فيه على أتم نظام وأكمل نظافة وكانت المركبات الكهربائية تجـرى فى وسـطه بسرعتها العظيمة التى تفوق سرعة ترام مصر الجـديدة وكنا أينما وجهنا أنظارنا لانرى إلا مزارع واسعة نضرة تخلت لناهذه الاستراضة ولم نشعر فيها بملل إلى أن وصلنا إلى مدخل مدينة لوس إنجلوس فلم يعجبنا نظامه

لاحتوائه على منازل صغيرة جدا أغلبها أكواخ تسكنها فقراء العمال وبعد أن اخترقنا هذا المكان وصلنا إلى شارع عظيم جدا اسمه برودوى (Broadway) لا يقل عدد منازله وحوانيته عن الألف وقد رأينا فى هذا الشارع جميع أنواع البشر من صينيين ويابانيين وميكسيكيين وهنود أمريكيين وغيرهم ولم نر مصريا واحدا غيرنا ولا تركيا فكأننا بمرورنا فى هذه اللحظة جعلنا حظا للمصريين فى الاشتراك مع جميع هذه الأجناس فى هذا الشارع المختلط ومع كثرة هذا الزحام صرنا ننعم النظر فيما حولنا لنقف على أحوال هذه المدينة العظيمة وقد دلتنا تلك الحركة العظيمة التى بها على أنها مدينة صناعية تجارية وبها كثير من معامل البيرة وغيرها .

لابدّ أن المحال التجارية فى مثل هذه المدن كثيرة البيع والربح لكثرة السكان بها ولاحتياج هذا العدد العظيم من المخلوقات لمطالب الحياة من ضرورية وكمالية . إن مدينة لوس انجلوس هى عاصمة كاليفورنيا الجنوبية ونهرها الصغير الذى يسمى باسمها يخترقها ويصب فى المحيط (O. Pacifique) على مسافة قليلة وهذه المدينة أنشأها سنة ١٧٨١ الاسبانيون ثم سقطت فى أيدى الأمريكيين فى سنة ١٨٤٦ ولم تكن إذ ذاك شيئا مذكورا فإن عدد سكانها كان لا يزيد فى سنة ١٨٥٠

عن الألفين ولكن أخذ هذا العدد يزداد فى سـنة ١٨٨٠ إلى أن وصل إلى الخمسين ألفا أما الآن فعددها يربو عن ٢٨٠٠٠٠ وقد علمنا أن بها ١٣٠ كنيسة و ١٧٠٠ مصـنع ودخلها يزيد عن الثلاثين مليون دولار فى السـنة الواحدة والذى يدل على أن سكانها من أجناس مختلفة عدد جرائدهـا العظيمة التى تكتب بسبع لغات مختلفة ولميل سكانها إلى التشبه بأهل مدن أمريكا الكبيرة أقاموا المبانىَ الفخمة الشامخة الكثيرة الطبقات (Gratte Ciel) وبالجملة هذه المدينة هى مركز الخطوط الحـديدية ومنها ترسـل الفواكه إلى سـائر أنحاء أمريكا وذلك لجودة تربة أرضها ولإتقان طرائق الرىّ الصـناعية بها وقد ذُكر لى أنها ترسـل من أنواع الفواكه ما يزيد قيمته عن الثلاثة عشر مليون دولار ولا عجب لأننا رأينـا فى مزارعها المترامية الأطراف كثيرا من كروم العنب وأشجـار البرتقال والليمون والزيتون وغيرها .

وصلنا إلى محل كوك فوجدناه مجاور الفندق اليكسندريا (Alexandria) الشهير فدخلنا فيه وتسلمنا منه رسائلنا الكثيرة فما كان أعظمَ سرورنا إننا نَحِنّ إلى بلادنا ونشتاق إلى معرفة أخبارها وتنسم أحوال أقاربنا وأصدقائنا وجدير بنا ذلك لبعد الشقة بيننا وبين أوطاننا إذ أننا

فى الطرف الآخر من الدنيا وحسبنا دليلا على تنائى ديارنا أن وقت النهار هنا هو وقت الليل بمصر فنحن إذا نقرأ أخبارهم ونسير فى هذه الأراضى الواسعة بينما سكان مصر يتلذذون براحة النوم .

تركنا هذا المحل وسرنا فى شارع ماين استريت (Main Street) الذى يخترق وسط المدينة فرأينا فيه مبانىَ شاهقة أعظمها بناء البريد العام ومنه مررنا على جملة شوارع أخرى رأينا فيها مركز المحافظة ونادى (كلوب) السيدات والغرفة التجارية ومدرسة المعلمين وغيرها . أما فى شمال المدينة فقد رأينا حيا آهلا بالصينيين وبالجملة لم نترك مزارا يذكر حتى زرناه وقد وصلنا إلى متنزه عام يبعد عن المدينة بمسافة ميل به بحيرة صغيرة وبجواره مساكن الأغنياء الذين جعلوا مدينتهم تحاكى شوارع مدينة بسادينا فى نظامها وغرس أنواع النخيل على جانبيها وجعل كل منزل يحيط به حديقة بديعة بها أنواع الزهور المختلفة الألوان والأشكال وبعد ذلك عدنا إلى داخل مدينة (لوس انجلوس) فوصلنا إلى ساحة عامة بها حديقة صغيرة فى وسطها تمثال صغير وبجانبه مدفع أُخِذ من الاسپانيين وفى هذه الساعة انقطعت الأمطار التى كانت تضايقنا من وقت خروجنا من الفُندق وذهبت براحتنا ولم نستطع معها أن نشاهد بدقة كما نشاء كل ماوصفته . ولما كان عندنا

متسع من الوقت أخذنا طريقا آخر للعودة أوصلنا إلى حديقة جريفث پارك (Griffith Park) ومساحتها ١٢٠٠ هكتار وبها محل سباق فاستعرضنا فيها أيضا وبعد ذلك استمررنا فى طريقنا إلى أن وصلنا إلى الخلاء والمزارع فصرنا نرى بعض رباوات مكسوة بالزهور الطبيعية الصفراء ومن بديع جمالها ونظامها لا يحسبها الإنسان طبيعية ثم مررنا على قرية صغيرة لا تبعد كثيرا عن مدينة پسادينا تدعى الحمراء (Alhambra) وهى على صغرها جميلة أيضا تشبه پسادينا فى نظام شوارعها ومساكنها وقد رأينا على جانبى شوارعها أشجار الكافور وغيره فاخترقنا أيضا هذه القرية وبعد أن جاوزناها صرنا نسير فى وسط أشجار البرتقال المورقة التى كانت تنبعث منها الروائح العطرية وما زلنا على هذه الحالة فى بحبوحة هذا النعيم إلى أن وصلنا إلى بلدة پسادينا ووقفت بنا سيارتنا أمام الفندق فى الساعة الخامسة والنصف مساء وبعد ذلك أردت أن أرى الحدائق التى تربى فيها النباتات والأشجار لبيعها فذهبت إلى بستانى لعلى أجد أشجارا نادرة أشتريها وأرسلها إلى مصر ولكنى علمت أن دون ذلك صعوبات كثيرة منها أنه قبل نقل تلك الأشجار إلى بلاد أخرى لابد من البحث فيها بواسطة لجنة لتعرف أهى سليمة حتى يؤذن بنقلها ثم عند وصولها

إلى أوربا لابدّ من إعادة هـذا الكشف فانصرفت عنى هـذه النية لاسيما أن كل شئ فى أوربا وطرق النقـل منها أسهل وأقرب من أمريكا وإن كنتُ قد علمت أن فى هـذه الجهـات نوعا من الجوافة منبعجا يقال إنه أحسن من النوع الذى عندنا فى مصر بذوره صغيرة وقليلة ولكن لم أر أن أشترى شيئا من هذه الأشجار إذ لا قيمة لهـا تستحق ذلك . هذا كل ما وصلنا إليه فى يومنا

ولما أصبح يوم الأحد (٢٦ مايو) وأردنا أن نفطر علمنا أن الفطور لا يقدّم قبل الساعة الثامنة صباحا أما الغداء فإنه لا يكون قبل الساعة الأولى بعـد الظهر أى بعد انتهاء الصلوات . وهل يدل ذلك على حرص الأمريكيين على دينهم والعمل به ! فخرجنا للاستراضة قليلا فى شارع الفُندق ودخلنا فى محل تجارى لأشـترىَ منه بعض كارت پوستال ثم دخلنا إلى محل آخر لشراء شئ من الحلوى فوجدنا أن صاحبه صربىّ وبعد ذلك صرنا نمشى رويدا رويدا ونحن نتمتع برؤية الزهور والأشجار المغروسـة أمام كل منزل وهكذا صرنا ننتقل من مكان إلى آخر حتى نهاية شارع الفُندق ثم عدنا إليه لأكتب فى رحلتى ولما أتت الساعة لواحدة ذهبنا لتناول الغداء وقد كنت أوصيت أن تعـدّ لنـا سـيارة فى الساعة الثانيـة والنصف لنذهب إلى شاطئ البحر لرؤية

(سنتامونيكا (Santa Monica) وادسيان پارك (Ocean Park)
وڤينيسيا (Venise) وكلها متجاورة فلما حل الميعاد أتت السيارة فركبناها
وسارت بنا فى طريق آخر غير الطريق الذى ذهبنا منه إلى (لوس انجلوس)
فصرنا نمر بين حقول متسعة مزروعة قمحا وغيره ثم مررنا على عدة قرى
صغيرة لا يبعد بعضها عن بعض كثيرا وكل طرقاتها منظمة والذى ألفت
نظرنا أننا لم نمر على قرية إلا ورأينا بها مدرسة مشيدة تشييدا جميلا
ماعدا بعض تلك القرى . وفى أمريكا لا يحبون أن يسموا بلادهم الصغيرة
قرى بل يسمونها كلها مدائن كما ذكرت ذلك قبلا مخافة أن يغضبوا سكانها
وقد تغالوا فى ذلك حتى إن القرية الصغيرة التى لا تحتوى على أكثر من
عشرة منازل يسمونها أيضا مدينة وتلك عادة خاصـة بهم فلا توجد
فى جميع أنحاء الدنيا . وقد صادفنا فى طريقنا كثيرا من السيارات حتى
خيل إلينا أن كل فرد من سكان هذه الجهة له سيارة خاصة به وقد سمعت
أن جميع هذه الطرقات المرصوفة بالميكادام المغطاة بالقطران أُنفق عليها
فى ذلك مليونان ونصف دولار وهذا مايدل على عظم ثروة سكان هذه
الجهات وقد شهدنا أن نظام هـــذه الطرقات قد لا يعادله نظام آخر
فى جميع أنحاء العالم فإن الإنسان يمكنه أن يقضى طول يومه يتنزه بسيارته
و يعود بدون أن يتأذى من التراب أو من عدم تمهيد الطريق

خرجنا من وسط هذه الحقول وتركنا هذه القرى أو المدائن ووصلنا إلى سهل متسع فما لبثنا أن هبّ علينا نسيم البحر العليل فشعرنا بقربنا من البحر ثم ألفت نظرنا وجود مئات من أعمدة حديدية فى وسط هذا السهل كالأبراج قائمة على أبعاد مختلفة بعضها من بعض ومنثورة بدون نظام فسألنا عنها سائق سيارتنا فأخبرنا أنها مقامة فوق آبار البترول فمررنا بجانب بعضها وقد عرفنا أن ثلاث شركات تشتغل هنا فى استخراج هذا الزيت وهو كثير الوجود فى هذا السهل وقد فتحت آبار كثيرة فيه أما المضخات المستعملة لاستخراج هذا الزيت فإنها لاتسرع فى حركتها وقد قيل لنا إن بعض هذه الآبار يستخرج منه الزيت بالمضخات ليلا ونهارا وذلك لغزارة الزيت فيها وبعضها الآخر لايستخرج زيته إلا نهارا ويترك ليلا ليجم زيته وقد يوجد منها مالا تعمل فيه المضخات يوما من كل ثلاثة أيام وحول هذه الآبار يزرع القمح فكأن أصحاب هذه الأراضى لا يريدون أن يكتفوا بما تخرجه إليهم أرضهم من ثروة منابع البترول بل يكتسبون من جوفها ومن سطحها . أما العمال الذين رأيناهم يشتغلون فى منابع البترول فيظهر عليهم الفقر ولا تسل عن سوء حالتهم فإنهم فى غاية القذارة . وهنا فى أمريكا كافة عمال المناجم ومنابع البترول يشتغلون ليلا ونهارا وليس

لهم فى يوم الأحد راحة ـ وبعـد أن قطعنا نحو خمسة عشر كيلو مترا وصـلنا إلى قرب بلدة (سنتا مونيكا) فررنا أوّلا على بناء شاهق بديع النظام تكتنفه من سائر جهاته حديقة واسعة وقد علمنا أنه معدّ للذين أصيبوا فى الحروب وأصبحوا لاقدرة لهم على العمل ولما كان طريقنا يخترق هذه الحديقة ابتدأ سائق سيارتنا يسـير فيها ببطء وذلك على حسب الأوامر فكنا نرى على جانبى الطريق شيوخا جالسين وأمامهم منضدات (ترابيزات) وكلهم مرتدون ملابس مخصوصة لهم متحدة الشكل وتصدح الموسيقى فى أيام مخصوصة فى (كشك) فى وسط حديقتهم حتّى لايعتريهم ضجر من معيشتهم أما هؤلاء الشيوخ فهم (Les invalides de la guerre de Cessation) التابعون لجيش الشمال أما التابعون لجيش الجنوب فلهم ملجأ آخر .

بعد أن تركنا هذا الملجأ دخلنا فى بلدة سنتامونيكا فأوّل شئ اجتذب أنظارنا أشجارُها الذابلة ومنازلها التى تعدّ فى المنزلة الثـانية بالنسبة لمـا رأيناه من المنازل فى پسادينا مثلا أما ساحلها فخالته أيضا لاتسر كثيرا رغما من كثرة الحمامات التى به والقهاوى والملاعب وغيرها ممـا أعدّ للهو وقد علمنا أن هواء البحر هوالذى ذهب بنضرة هذه الأشجار وغيّر الألوان الظاهرة لتلك المنازل فلم تنبسط نفوسنا من رؤية هذه البلدة

التى تقبض مناظرها النفوس لا سيما أن النظافة قد عادتها وبعد أن تفقدنا حالتها دخلنا بين منازل صغيرة مصنوعة من الخشب ومتجاورة فى صفوف منظمة كأنها خيام معسكر أما الطريق الذى كنا نمشى فيه فكان ضيقا جدّا وقد علمنا أن هذه الأكواخ تؤجّر للذين يريدون أن يمضوا فصل الحمامات فى هذه البلدة فيسكنون فيها وعند مايريدون الاستحمام يخلعون ملابسهم ويرتدون ملابس الحمام ويخرجون منها إلى البحر ولا يعجب القارئ من ذلك فان الصور التى رأيتها فى بعض كارت پوستال هذه البلدة أكدت لى أن الخروج فى طرقات هذه البلدة بملابس الحمام مباح ولا ينكره أحد فتصوّر عاقبة هذا الأمر وأظن أن الشبان الجميلى الخلقة الأقوياء البنية لايتركون هذه الفرصة تمرّ بدون أن يعرضوا جمالهم على الذين يهمهم ذلك أما الغانيات فأظنهن أيضا لايبخلن على المغرمين بالجمال أن ينظروا اليهن ولو بطرف خفىّ للتمتع بخلقتهن البديعة . هذا وقد علمنا أن الساكنين فى هذه البلدة لايزور قلوبهم ملل لوجود كل مايسر ويبعد الحزن فكلٌّ لايعدم مايوافق هواه ويلائم مشتهاه من كل جنس . وقد يأتى إليها سكان مدينة لوس انجلوس التى لا تبعد عنها بأكثر من خمس عشرة دقيقة وأغلبهم من الطبقة الوسطى للتمتع بما فيها وقد مررنا على

مكان مثل وادى القمر (Luna Park) رأينا فيه جمعا محتشدا عدده كبير جدًا نخيل إلينا أننــا أمام قرية تمل آهلة بسكانها الذين لا يعـلم عددهم الا الله فالتفت إلينا سائق سيارتنا وقال هل تريدون النزول هنا فشكرته قائلا إن اليوم يوم أحد ولا أريد أن أعرّض نفسى لمزاحمـة لا فائدة منها و ربمــا يصيبنا شئ من بعض من لعبت برؤسهم الراح خصوصا وانى أرى على وجوه بعض السابلة مايجعلنى أشمئز من منظرهم وأظن أن مثل هؤلاء الأشخاص لا يودّ الانسان رؤيتهم فى مكان منقطع أو فى ظلام ليــل حالك فاستمررنا فى طريقنا لأننا صممنا على أن نعود من طريق (لوس انجلوس) وقد قابلنا سيارات كثيرة مكتظة بالركاب و إنى آسف لعدم إحصائهــا حيث إنى لم أفكر فى ذلك إلا بعد أن مر منها أمامنا عدد كبير وقد صادفنا فى طريقنا ثملا لعبت برأسه الخمر يركب درّاجة (Perolette) ويمشى متخبطا وقد ذهب شعوره فتارة ينعطف ذات اليمين وأخرى ذات الشمال وهو كمن به مس من الجن فلم أدر كيف يترك مثل هذا على هذه الحالة الخطرة على نفسه وعلى غيره فى وسـط زحام هائل فرجعت وتذكرت مايقوله السكيرون إن لهم إلها خاصا بهم يحافظ على حياتهم وقت مايفقدون رشدهم . هذا وقد علمنا أن فى أمريكا كل شخص يمكنه أن يكون سائقا لسيارة بدون

امتحان فى صنعته وليس عليه الا أن يدفع دولارين فيبيح له دفعهما أن يكون سائق سيارة ولذا رأينا سيدات وبنات وأطفالا يسوقونها وليس لأحد أن يعارض فى ذلك .

وصلنا إلى لوس انجلوس ودخلنا فى أحد شوارعها المدعو ويست ادامس (West Adam's) وهو من أكبر شوارعها وأعظمها به منازل فخمة محاطة بالحدائق الغناء يسكنها أصحاب الملايين من الذهب فاستمررنا فى طول هذا الشارع الكبير ولم نقابل كثيرا من المخلوقات وقد كادت المدينة أن تكون خالية لأنه فى يوم الأحد يخرج سكانها منها إلى الحدائق والرياض والبلاد المجاورة لاستنشاق الهواء وتغيير المناظر . وبعد أن انتهينا من هذا الشارع خرجنا الى الطريق الموصل الى پسادينا ووصلنا اليها فى نحو الساعة السادسة والنصف مساء فسررنا من رياضتنا هذه لاسيما ان الجو كان معتدلا والهواء عليلا فانتهى بذلك يومنا .

أصبحنا فى يوم الاثنين (٢٧ مايو) فلم نعمل شيئا يذكر قبل الظهر الا كتابة بعض رسائل لأقاربنا وأصدقائنا واستراضة صغيرة على الأقدام داخل البلدة وفى الساعة الثانية وخمس دقائق بعد الظهر ركبت ومعى مصطفى بك الترام الذى يقف أمام باب فندقنا

للذهاب إلى لوس انجلوس وقد كان يمشى بسرعة عظيمة جدًا فقطعنا المسافة اليها فى ٣٠ دقيقة ولكن دخول هـــذه البلدة بطريق الترام لا يسر كثيرا فانه يمر أمام أكواخ المكسيكيين القذرة فنزلنــا منــه فى الشارع الخامس ومشينا قليلا الى أن وصلنا أمام فندق الكسندريا فذهبنا إلى محل كوك المجــاور لهذا الفندق وتسلمنا رسائلنا ثم أنفذنا فى طلب سيارة لتذهب بنا الى مكان يبعد عن هذه المدينة بساعتين تربى فيه أنواع الحمام به ١٥٠٠٠٠ حمامة على ماقيل لنا فعامل كوك أحضرها لنــا واتفق مع السـائق على أجر مقـداره ثلاثة دولارات ونصف فى الساعة فركبناها ولمــا خرجنا من المدينــة سرنا ومجرى نهر الى أن وصلنا الى باب كبير مكتوب على لوحة معلقة عليه (أكبر محل لتربية الحمام فى العالم) فلم نستغرب ذلك أيضا لأننا تعودنا أن نقرأ : (أكبر محل فى العالم أو أجمل محل فى العالم) كثيرا وقد ذكرت قبلا أن هذه الطريقة متبعة فى أمريكا لجلب أنظار السائحين ولتشويقهم الى الدخول فى هذه الأماكن وقد كانت تغرّنا أيضــا هذه الطريقة لأننا كنا نقول ربمــا يصدق القوم ولو مرة واحدة فنحظى بالدخول فى أكبر أو أجمل محل فى العالم فدفعنا رسم الدخول وهو ٢٥ سنس أى خمســة قروش عن كل شخص ودخلنا فى هذا المكان فوجدنا أن

عدد الحمام به كثير جدًا ولكن العدد ١٥٠٠٠٠ حمامة مبالغ فيه كثيرا وقد قدّره مصطفى بك من عشرة آلاف الى عشرين ألف حمامة فقط أما أنا فقدّرته بأكثر من ذلك ولكن الفرق عظيم بين تقديرى وزعم أصحابه فألقينا نظرة عامة على هذه الأسراب من الطيور وقد عرفنا أنه يباع كل سنة من زبله مقدار بثمن عظيم ويصدر من فراخه كثير الى جهات مختلفة وبعد ذلك خرجنا وسار بنا سائق السيارة فى جميع الطرق الجميلة الى أن وصلنا إلى متنزه كبير كان فى الأصل معسكر جيش الأمريكيين قبل أن يستولوا على مدينة لوس انجلوس ويأخذوها من أيدى الاسبانيين وهذه الحديقة لم يتم نظامها الى الآن ولكنها عما قليل ستصير جميلة وتستحق الزيارة والرياضة فيها بفضل العناية العظيمة بها

تركنا هذا المتنزه وتابعنا سيرنا وصرنا ننتقل من شارع إلى شارع فى لوس انجلوس الى أن وصلنا الى الترام الذى يوصلنا الى پسادينا ولما أردت انتظاره قال لى سائق العربة الرأى عندى أن تذهبوا الى المحطة العامة للتراموايات فانكم اذا انتظرتم فى هذا المكان لا تجدون محلا لكم فى الترام لكثرة الزحام لاسيما ان هذا وقت خروج العملة من البيوت التجارية ومن المصانع وقد شاهدنا ذلك بأعيننا فان الترام الذى

مرّ أمامنا كان مملوءا والناس بعضهم فوق بعض ولكن هـذا لم يمنعنا أن نركب نحن أيضا مع الراكبين فى هـــذا الترام ولكن اضطُرِرنا أن نقف على السلم حتى لا يضايقنا التصاق الناس بعضهم ببعض فى هذا الزحام الشديد ومع ذلك لم نسلم من وقوف بعضهم على أحذيتنا دون أن يعتذر عما فعله اذ يظن أن هـذا شئ طبيعىّ وحق مكتسب لا يؤاخذ على فعله . وكلما نزل من العربة واحد صعد اليهـا عشرة حتى إن ثمانى فتيات صعدن إلى العربة مع هذا الزحام الشديد وصرن يضحكن وكلما وقف الترام يرتمين تارة و يتمايلن أخرى وأظن أن مثل ذلك كان يخفف على الراكب وطأة هذا الزحام . وصلنا الى پسادينا ولكن على أىّ حالة ! على حالة تعب شـديد فشعرت بألم شـديد فى قدمىَّ لأنى كنت طول الوقت واقفا على حذر من أن أقع على أحد الركاب أو أن أصطدم معه وهـذا الذى زاد فى تعبى وقد شكا إلىّ أيضا مصطفى بك قائلا إنه لم يلاق عناء مثل الذى لاقاه فى هذا اليوم العصيب فنزلنا وعند وصولنا إلى الفندق جلسنا للاستراحة قليلا . وهنا يجب أن أذكر شيئا لاحظته وهو أننا رأينا كثيرا من السيدات والفتيات يركبن الدراجات البخارية (الموتوسيكليت) (Motocycle) ووراءهن أحد الشبان أو الرجال و ياليت هؤلاء الرجال أو الشبان كانوا يركبون فى العربة

الصغيرة التى تتخذ عادة فى أوربا وراء الدراجة البخارية أو بجانبها ولكنهم يركبون وراء السيدات أو الفتيات ولا بد أنهم يضطرون فى بعض الأحيان الى الالتصاق بهن فأنكرت ذلك منهن خصوصا أنى أعتقد أن فى ركوب السيدات مثل هذه الدراجات ضررا على صحتهن وكفى أنهن يركبن على كرسى صغير جدّا وكلما تحركت الدراجة حركة تأثرت الراكبة باهتزازات هذا الكرسى الصغير وأظن أن ركوبها أضر على الفتيات منه على السيدات وقد نبههن بعض عقلاء الأمة الى هذه المضار الجسيمة فلم تصادف نصيحتهم هوى فى الفؤاد لأنهن يردن التمتع وربما كان فى ذلك مايزيدهن سرورا ومن الصعب كفُّهن عن أحب شئ اليهن . أسرعنا فى تناول العشاء وبعده افترقنا لنستريح من عناء هذا اليوم . وفى صباح يوم الثلاثاء (٢٨) مايو ذهبت إلى محل مصوّر كنت أعطيته بعض أصول (Films) لاظهارها وفيها بعض مناظر كنت صوّرتها بمصوّرى الشمسى ولكنى أسفت اذ علمت أن هذه المناظر قد أفلتت من آلة التصوير فلم تنجح فى اقتناصها وبعد ذلك أنفذت فى طلب سيارة لنذهب بها الى بلدة ريفرسيد (Riversid) وقد كنا صممنا على أن نمكث بها يومين ولكن لقربها من پسادينا فضلت أن نسكن فى الأخيرة مدينة الزهور ونذهب الى الأولى فى أىّ وقت نريده على السيارة

فى الساعة العاشرة صباحا وقفت السيارة أمام باب الفندق فركبناها وسرنا الى ريفرسيد التى لانصل اليها الا بعد ثلاث سـاعات فكان أوّل طريقنا جميلا جدّا لأننـا كنا نمشى بين أشجار البرتقال والليمون وكانت الروائح العطرية تحيي أفئدتنا وأحيانا كنا نمشى وســط طريق محفوف من جانبيه بأشجار كبيرة من الكافور أو من (الكازواربنا) وكنا نمشى بجوار الطريق الحديدىّ الذى ذهبنـامنه الى سنتابرناردينو (St. Bernardino) ولكنا قبل أن نصل إلى هذه البلدة بمقدار خمسة عشر ميـلا مشينا فى طريق آخر على اليمين لايسرك أن تسلكه فكله رمل يخالطه تراب ثائر فعلانا من الغبـار شئ كثير وكنا نرى على بعد بعض كروم عنب فاستمررنا على ذلك ونحن نمرأيضا على مصانع كثيرة لعمل النبيذ وغيره من المشروبات الروحية . فابتدأنا نتألم من هذه الحالة لا سيما أن الحر كان شـديدا جدّا بالرغم من سرعة السيارة حتى إنه أثر فى وجوهنا فتغيرت ألوانها حتى صارت حمراء وما زلنا على هذا الحال إلى أن دخلنا فى وســط سهل عظيم ثم قربنا من بعض روابى صغيرة إلى أن وصلنا إلى نهر صغير أوشك أن يفيض ماؤه فمررنا عليه وبعد ذلك أخبرنا ســائق السيارة أنه لم يبق لنـا الا خمســة أميــال للوصول الى ريفرسيد . هنا رأينا ثانيا مزارع الفواكه كالبرتقال وغيره

وقد علمنا أن الفواكه التي تخرج من هذا الوادي أحلى من غيرها وتنضج قبل فاكهة سائر الجهات الأخرى بأربعة أسابيع . قربنا جدًا من المدينة وصرنا نسير في طريق صالح قد غرس على جانبيه أنواع النخيل وهو أيضا مرصوف بالميكادام ومغطى بطبقة من القطران . وصلنا إلى فندق جلينود (Glenwood) في الساعة ١٢ و ٣٠ دقيقة وكان أمام أبوابها كثير من السيارات وذلك لكثرة الوافدين عليه وهو في الحقيقة يستحق الاعجاب به لأنه دير قديم اسپاني فنزلنا من سيارتنا ودخلنا فيه فوجدنا في حديقته وفي طنوفه كثيرا من الزائرين اختاروا هذه الأمكنة ليروا الوافدين على هذا الفندق وقد أتى ميعاد الغداء فابتدأنا أوّلا بتناوله في البهو المعدّ لذلك وهو حجرة بها كثير من الأعمدة القائمة في ساحتها ومعلق على حيطانها جملة من الرماح والحراب وغيرها من كل مايذكّر بتاريخ الأزمنة الوسطى فاخترنا مائدة ثم أقبلت الينا رئيسة الخدم وأخبرتنا أن من قانون هذا الفندق دفع الثمن قبل تقديم الطعام للذين لايسكنون به فدفعنا عن كل شخص دولارا وهي القيمة المقررة أما الطعام فيقدّم لكل الآكلين سواء وهو عدّة أصناف يقدّم من كل صنف شئ قليل جدًا و ياليتها مع ذلك طيبة فانها لاتؤكل الا اضطرارا فتذكرت رحلتي ببلاد اليابان حيث

كان يقدّم لنا كثير من أنواع الأطعمة ولكن الذى يقدّم من كل صنف قليل جدّا فكنّا نحسبها (عينة) لنختار بعد أن نذوقها مانشاء . وقد ينطبق مثَلُ بعض الجرائد الألمانية الهزلية على حالتنا فى هذا الفندق فقد رأيت يوما فى جريدة من هذه الجرائد صورة رجل وبيده منظار معظم ينظر فى صحفته (طبقه) لعله يجد مابها من الطعام فهكذا كنّا والحمد لله . أما حجرة الطعام فكانت مكتظة بالمخلوقات وبعد أن أتممنا غداءنا خرجنا لزيارة الفندق فأعجبنا نظامه وألقينا نظرة أوّلا على حديقته فكان أمام الباب الداخلى للفندق ببغاوان وفى طنوفها (فيراندائها) أربعة أخرى فمشينا قليلا فيها ووجدنا بناء صغيرا منفصلا عن محل السكن به جملة غرف معدّة للطالعة والجلوس وللعب (البليارد) ثم عدنا ثانيا الى داخلها فسمعنا صوت الموسيقى الشجىّ ولما كنت مغرما بسماعها مشيت الى الجهة التى أسمع منها هذه النغمات فماذا رأيت ؟

رأيت كنيسة بديعة النظام وسيدة تلعب بالأورج (Orgue) ورجلا يدق على (الهارب) فسررت جدا وأردت أن أجلس لأشنف أذنىّ بهذه النغمات التى تدعو إلى السكون من شدّة تأثيرها فى النفس ولكن ساءنى أنه لم يكن لدينا متسع من الوقت وقد جال بفكرى أن هذا

المكان ربما كان معدّا للعبادة (كنيسة) وربما كان فى وجودنا تكدير لصفاء المتمسكين بدينهم لاسيما أن سيدة عجوزا صارت تنظر الىّ شَزْرا فاستمررت أنا وزميلاى ننظر الى كل مابها فأعجبنا جدًّا بقاؤها على حالتها الأولى وقد رأينا كثيرا من السيوف القديمة والتروس وغيرها من آلات الحرب القديمة معلقا كل ذلك على حيطانها فصرنا نتنقل من مكان إلى مكان إلى أن وصلنا إلى محل يباع فيه بعض أشياء للسائحين فدخلنا فيه لشراء بعض بطاقات البريد (كارت پوستال) وسألت الرجل الذى يبيع هذه الأشياء هل المكان الذى تعزف فيه الموسيقى كنيسة فأجابنى لا ياسيدى إنه فى الزمن السابق كان محل إقامة الصلاة وقد ترك على حالته الأولى وهو الآن قد اتخذ محلا للموسيقى وفى المساء ينقلب الى مرقص فأنكرت على القوم ذلك لأنى ممن يحترمون كل مكان اتخذ لعبادة الخالق وبعد ذلك أخذنا نطلع على مابهذا الدكان فرأينا جملة مصابيح وكثيرا من أنواع الأثاث القديمة وغيرها وقد عرفت من هذا البائع أنه مضى على المحل نحو أربعين سنة وهو يتاجر فى هذه التحف فسألته . قل لى بربك كيف تمر هذه الأزمان الطويلة وأنتم تبيعون من هذه التحف دون أن يفرغ منها دكانكم .

فأجابنى وهو لا يملك نفسه من الضحك . إن كثيرا من السائحين

يشترون هذه الأشياء ليزينوا بها منازلهم ولا يودون أن يعرفوا حقيقتها وانها ليست تحفا قديمة بل هى أشـياء جديدة تحاكى التحف القديمة وليس من واجباتنا أن نذكر حقيقتها لئلا تكسد تجارتنا وإنى قد اشتريتها على حالتها التى تراها عليها فلست مسؤلا عن تاريخها فضميرى مرتاح من هذه الوجهة .

ولما كان الوقت لايسع أن نمضى فى هذا المكان أكثر من المـدة التى أمضيناها فيه لاسيما أننا نريد الذهاب الى روكدلند (Rocdland) أسرعنا إلى ركوب سيارتنا وأمرنا سائقها أن يذهب إليها فصرنا نمشى فى وادٍ به أيضا كثير من أشجار البرتقال التى تثمر برتقالا صغيرا به بذور كالتى تخرجه أرض مصر ولم نر شيئا جديدا غير هـذا وكنا نشعر بحرّ شديد . قربنا من روكدلند فالتفت الينا سائق السـيارة وقال إنى من سكان الشرق وهنا أهل الغرب مشهورون بالمغالاة فطالما سمعت كثيرا منهم يقول ان مكان كذا هو أكبر أو أحسن أوأعظم مكان فى العالم والحق يقال انى لم أر الى الآن شيئا يؤيد مايدعونه فوافقتـه على قوله لأن ماسمعته عن روكدلند جعلنى أشتاق لرؤيتها ولكن لم نر شيئا يذكر وهى تشبه قليلا بسادينا من حيث المزارع وتزيد عنها بشدّة حرارتها فلم نر موجبا لقطع ٢٥ ميلا فى هذا السعير بدون فائدة فأمرته أن

يعود بنا إلى حيث أتى فعرض علينا أن يرجع من طريق أطول من الذى جئنا منـه فقبلنا وسار بنا فيه وصرنا نرى بين وقت وآخر بعض أشجار الكافور العظيمة والاروكاريا الكبـيرة وبعد قليـل غير وجهة الطريق ومشى بنا إلى جهة الجنوب فانتقلنا إلى أودية مختلفة لا يوجد بها أشجار الفواكه بل كلها مزروع فيهـا أنواع الحبوب وصرنا نمرّ على كثير من الضياع التى يدل ظاهرها أن أصحابهـا من ذوى الثروة وأن كل هذه الاراضى فى غاية الخصوبة وقدحث السائق السيارة فأخذت تطوى الأرض طيا بكل قوتها فمررنا على أربعة وديان متشابهة وخصبة واستمر على هذه السرعة إلى أن قربنا من مدينة پسادينا وقد خرجت للرياضة هنا أربع مرات قبل هذه مرتين بالسيارة وثالثة بالترام ورابعة بالقطار وما كنت أرى فى كل مرة الا أشجار الفواكه ولم أكن أعلم أن بالقرب من مدينـة پسادينا حقولا كبيرة كالتى رأيناهـا هذه المرة .

وصلنا إلى الفندق الساعة السادسة والنصف وأظن أن ماقطعناه اليوم من المسافات الطويلة يكفى لختام هذا اليوم .

أصبحنا فى يوم الأربعاء (٢٩ مايو) فعزمنا أن نترك مدينة الزهور للذهاب إلى بلدة أخرى اسمها سنتابار بارا (Santa Barbara) فأعددنا العدّة لمغـادرة هـذه المدينة على القطار الذى يتحرك من مدينـة

لوس انجلوس الساعة الثانية وخمس دقائق فنبهت رئيس السفريين أن يجهز لنا غداء باردا قبل الظهر بربع ساعة وما أتت الساعة ١٢ و ٣٠ دقيقة حتى كنا على أهبة الرحيل فأخذنا معنا بواب الفندق ومشينا نحو خمس دقائق إلى أن وصلنا إلى محطة الترام والحمد لله أمكننا أن نأخذ مكانا فيه ونستريح حيث كل الناس فى هذا الوقت مشغولون بتناول غدائهم وفى الســاعة ١٢ و ٥٠ دقيقة تحرك بنــا الترام وبعــد ٣٠ دقيقة وصــلنا الى لوس انجلوس وذهبنا حال وصولنا الى محطــة سوترن باسيفيك (Southern Pacifique) وعند دخولنا فيها طلبت منا تذاكرنا فسلمناها وتسلمنا غيرها ثم ركبنا قطارنا وقد لاحظنا أنه كبير جداً يسع عددا عظيما من الركاب أما عرباته فقد كانت كبيرة أيضا وطويلة جداً وبها صفان من المقاعد كل مقعد معدّ لشخصين أما متكأ هذا المقعد فانه يتحرك بحيث انه إن كان معك أكثر من شخص أمكنك أن تحول هذا المتكأ فتجلسوا متقابلين لا متدابرين وبذلك تقطعون المسافة بأحاديث السمر دون أن تشعُروا بملل هذا وفى كل عربة محلان للغسل أحدهما للرجال والآخر للنساء كذلك بها مثلجة ماؤها نقى مثلوج ليطفى الشارب ظمأه من شدة الحر فابتدأ قطارنا يتحرك فى ميعاده وصرنا نرى المزارع التى تشبه كثيرا مزارع المــانيا وبعض جهات النمســا

وشرقى فرنسا . هـذا وقد كنا نرى العمال يعملون فيها وبين وقت وآخر كنا نمر على ضياع كبيرة بالنسبة لأمثالها بأوربا . أما هؤلاء العمال فأغلبهم مكسيكيون أو يابانيون والظاهر أن أرباب الضياع يفضلونهم على غيرهم لأن أجورهم قليلة بالنسبة لغيرهم . اخترق قطارنا نفقا وبعده صرنا نمرّ فى واد آخر خصب جدًا وأظن أن دخله عظيم جدّا ـ وصلنا إلى مدينة ڤانتورا (Ventura) أو سان بوينا ڤانتورا (San Buena Ventura) وهى مدينة يبلغ عدد سكانها ثلاثة آلاف وخمسمائة وهى مركز تجارة البنجر واللوبيا ومنها أخذنا نقرب من شاطئ البحر فرأيناه هادئا ساكنا تهب منه الرياح البليلة فتذكرنا بلادنا وقلنا متى نركب البحر لنعود إليها وقد أحدث فى نفوسنا بعض السرور تغييرُ المنظر لأننا أمضينا زمنا طويلا ونحن بين صحارى ووديان وجبال فأطلقنا لأنفسنا عنان الخيال للتمتع بالأشياء اللذيذة فخيل إلينا أننا فى الباخرة على مقربة من منار مدينة الإسكندرية الزاهرة حيث لم يبق علينا إلا قليل لنرى أهلنا وأقاربنا وكل عزيز لدينا .

نحن الآن على بعد ٢٠ ميلا من مدينة سنتابارابارا ونرى الآن كثيرا من آبار زيت البترول قريبة من الماء وبعضها فى الماء وهذا مالم أره من قبل . ومن الغريب أن المضخات المستعملة لاستخراج

هـذا الزيت من البر هي المستعملة لاستخراجه من قاع البحر غير أنه ليس لكل مضخة آلة بخارية تديرها بل اكتفى هنا بآلة واحدة ذات قوة عظيمة تدير عدة مضخات . قـربنـا من سنتابار بارا ودخلنا فى طريق تكتنفه بسـاتين كثيرة فوقف بنـا القطار أمام ناد يدعى كاو يترى كلوب (Country Club) له منزلة عظيمة بين النوادى لأن أصحاب الثروة العظيمة من الأمريكيين يفدون إلى تلك الجهات فى فصل الشتاء لقضاء بعض أيام بها إذ لايشتد فيها البرد فيتخذون ذلك الندىّ مجتمعا لهم وبما أن فى أمريكا أصحاب الملايين هم الذين لهم الحول والطول والنفوذ العـظيم الذى يضارع نفوذ أمراء الشرق فى الزمن السالف يقف القطار أمام هذا الندىّ إرضاء لهؤلاء الأغنياء الذين يديرون حركة هذا العالم بسلطة الأصفر الرنان .

وقف بنا القطار فى محطة سنتا باربارا فلمحت عربة فنـدق پوتر (Potter) الذى نقصـده فاسرعنا إليها وأخذنا مكاننا فيها وقد ركب معنا ثلاثة سائحين ولما لم يجد قائد العربة غيرنا سار بنا ثم دخل بنا من حديقة الفندق القريبة جدًا من شاطئ البحر ولما وصلنا اليه وجدناه كبيرا وعظيما فأسرع الينا من تسـلم متاعنا وبعد ذلك عرضت علينا غرف جميلة فى الطبقة الثالثة تُطل على حديقة الفندق الغناء ويُرى

منهـا الرصيف والبحر ومرفأ سـنتابار بارا الذى هو فى الحقيقة أكبر من ثغر (نابلى) لكن منازله أقل من منازل نابلى ويمتاز الثانى أيضا بيركان ڤيزوف المدمر . والناظر إلى الثغر الأول تجلى له فيه الطبيعة بجمالها وهيبتها . اتسـاع عظيم وجبال شامخة وأشجار خضراء تكسو الأرض حلة سـندسية فتزيد جمالها ـ رأينا فى هذا الثغر قسما من الأساطيل الأمريكية فأحصينا عددها فاذا هى قطعتان لخفر السواحل وثلاث قطع من نوع التوربيل وكل قطعة بها أربع مداخن ولكنى لم يعجبنى شكلها لخلها من السفن القديمة .

إن الهواء بليل والسماء عابسـة مفكهرة والجو منذر بوابل من المطر فنظرنا إلى ساعاتنا فاذا نحن فى الساعة السابعة فذهبنا إلى حجرة الأكل لتناول عشائنا فاذا هى كبيرة ونظامها وحسن ترتيبها يدل على أن الفندق من أعظم الفنادق وأنظفها فشرعنا نأكل ماطاب لنا من الطعام وكان عشـاؤنا لذيذا ولم نصادف أحسن منـه إلا فى مطعم (مارتن) الفرنسى بنيويورك وقد كانت الموسيقى تشنف آذان الحاضرين ويديرها ثلاثة أشخاص أحدهم يضرب على البيانو والآخران تحن فى أيديهما الكمنجة ولكن رغما من أن هذين الأخيرين يحاكيان رجال هـذا الفن الجيل فى إرسـال شـعرهما على ظهريهما ويتشبهان

فى حركاتهما بمتقنى الموسيق كانا لايتبعان فى عملهما نظاما واحدا بل كل واحد منهما كان مستقلا عن صاحبه ولا يســير معه فى تلحينه فصرنا نسمع نغمات مختلة لا أصــل لها ــ خرجنا من حجرة المــائدة فى الساعة ٨ و ١٥ دقيقة فوجدنا فى فناء الفنــدق طائفة أخرى من الموسيقيين ولكن ليست موسـيقاهم وترية وقد كان برأسها شاب قد أرخى أيضا شعره على ظهره وقلّد تقليدا دقيقا كبار المفتنين والمؤلفين فى فن الموسيق وهو وطائفته من الإيطاليين الذين يقيمون فى سنتابار بارا فجلســنا على مقربة منهم لعلنا نسمع مالم نكن نسمعه من قبل فوقف رئيسهم فى بُهرة حلقتهم وفى يده عصا صغيرة فأذن لهم فى الابتداء وصار يحرك رأســه يمينا وشمالا بسرعة ليس بعــدها سرعة كالذى به مس من الجن و يطوح بذراعيــه تارة إلى الأمام وأخرى ذات اليمين وذات الشمال فلله دره ما أخف حركاته الرياضية وكلما زادت أعصابه اضطرابا صفق له الحاضرون تصفيقا حادّا فيزداد تهيجا ولكنا لم نصفق له شفقة عليه و رأفة به لأن هــذا المحتال عرف كيف يوجه الأنظار إليه و بأىّ طريقة يجذب المسامع إلى موســيقاه حتى يزيد إعجاب الناس به و بمن معه فما أحمقه وأجهله . وقد قال خيرى : إن هذا الرجل يكسب حقيقة رزقه بعرق جبينه ولا بد أنه بعد أن يتم

أدواره ينام نوم أهل الكهف ولا يستيقظ إلا والطبيب يعالجه من داء الجنون الذى حل به . أما مصطفى فلمعرفته التامة بفن الموسيقى صار يتأوه إشفاقا على هذا المسكين ويقول إن عقله ذهب فى عالم الخيال وما حركاته المدهشة إلا نتيجة اضطراب أعصابه فصار لا يعى ولا يعرف مايفعل أما رأيي الخاص فى هذه الموسيقى وليس من شيمتى أن أبخس الناس حقهم فهو أنها كانت موسيقى فنية محكمة فليست حالة رئيسها المضحك الطائش بداعية للحط من قدرها . حضرت أمتعتنا فى نحو الساعة ٨ و ٣٠ دقيقة وبعد هذا الزمن بقليل صعدنا إلى غرفنا للنوم والراحة .

قضينا ليلتنا فى هدوء وسكينة وفى صباح يوم الخميس (٣٠ مايو) خرجنا لنرى المدينة فإذا هى شارع واحد طوله نحو ثلاثة كيلو مترات فمشينا فيه نحو نصف ساعة راجلين ثم عدنا إلى الفندق راكبين الترام الذى يمر فى وسط هذا الشارع حتى يصل إلى رصيف البحر ويقف أمام الفندق فلم نر إذاً إلى الآن مايستحق الوصف وما سرّنا إلا أن الجو كان صحوا والشمس تلقى أشعتها الذهبية على هذا الثغر الطبيعى الجميل . نزلنا من الترام ودخلنا الفندق من باب حديقته العامة ولما كان هذا اليوم من أيام الأعياد وفيه تحيي ذكرى العساكر الذين قتلوا

فى حرب (Guerre de Cessation) فقد كانت الأطفال وعامة أهل البلد مرتدين ملابسهم النظيفة وبأيدى الصغار منهم الأزهار أما أنواع الشرائط الحريرية المختلفة الألوان فإنها كانت تزين ملابس البنات ورؤسهن بجلست أنا وخيرى فى إحدى طنوف الفندق التى تطل على حديقتها وعلى البحر وإذا بضابط عظيم حضر بملابسه الرسمية ممتطيا جوادا فألفت نظرنا شئ واحد وهو لون حوافر الحصان الفضى فإن نعاله متخذة من معدن الالومينيوم وأظن أنه آت من حفلة تمرينات عسكرية فنزل من فوق جواده وتقدم إليه تابع له فأخذ الجواد وركبه وسار به إلى إصطبله .

اوصيتُ بإحضار عربة لنركب فيها بعد الظهر كى نرى ضواحىَ بلدة سنتابار بارا ولم أطلب سيارة لأن الحالة لاتستدعى الإسراع ولما أتت ركبناها وسرنا بها أولا إلى حى الأغنياء فإذا هو مجموع منازل جميلة محفوفة بحدائق واسعة تشبه منازل بسادينا وقد تسكنها الأغنياء فى فصل الشتاء لاعتدال جوها فى هذا الفصل ويصطاف فيها الذين يقصدون منهم الحمامات البحرية فى هذه البلدة وفى أثناء الطريق مررنا على شجرة موز كبيرة جدا أمام أحد المنازل فناديت البستانى وسألته عن نوعها ولم كانت هكذا عظيمة فقال إنما ذلك لتقادم عهدها

فإنها تبلغ من العمر ثلاث عشرة سنة وبعد ذلك استمر بنا فى طريق تكتنفه أشجار الكافور وغيره إلى جهة الجبل فوصلنا إلى أملاك أحد أغنياء الأمريكيين وأصله طليانى وقد قيل لنا إنه مغرم بتربية أنواع النباتات وقد أنفق فى بناء منزله ملايين من الدولارات وبه باب قديم جدًا من أيام (Pompée) وبه أعمدة تاريخها من ٤٠٠٠ سنة فدخلنا فى حديقة قد أُهملت العناية بها ورأينا فيها منزلا صغيرا فتوجهنا توًا لرؤية الباب المشهور وظنى أنه من ڤينسيا وتاريخه ربما يكون من القرن الثالث عشر وقد رأينا عليه صور رؤس فرسان وكتابة بعض صلوات مسيحية وهو ما يؤكد أنه عمل بعد ظهور السيد المسيح . فخرجنا نضحك من هذا القصر الذى لم أقدر ثمنه مع حديقته وكل ما اشتمل عليه بأكثر من ستة آلاف جنيه على فرض أنه بمصر وبعد ذلك عدنا إلى المدينة ومررنا على فُندق يبعد عن الساحل بميلين عدد غرفه ثلثمائة أما عدد غرف الفُندق الذى نحن نازلون به فخمسمائة وفى فصل الشتاء لاتخلو منه غرفة واحدة لكثرة وفود السائحين ولما وصلنا إلى فُندقنا دخلنا فى حديقته للاستراضة فوجدنا فيه كثيرا من أنواع الزهور وقد رأينا البستانيين ينضحون الأشجار بماء قد أذيب فيه صابون أسود لقتل الحشرات التى تضر بحياة هذه الأشجار أو إيقاف

نموها . وقد رأينا فيها مكانا قد أعدّ لبعض حيوانات وطيور كالقِرَدَة والببغاء والتيتل . وبعد ذلك عدنا إلى داخل الفُندق وفى الســاعة السابعة والنصف ذهبنا لحجرة المائدة لتناول العشاء ولم يكن بها الموسيقى الوترية بل بها فى ســاحة الفُنــدق الداخلية موسيقى من النوع الآخر وبعــد العشاء جلسنا فى هــذه الساحة وقد رأينا فيها أغلب السائحين الذين كانوا معنا فى الجـراندكانيون (Grand Canôns) وأظن أن كل السائحين يتبعون خطــة واحدة . وقد فاتنى أن أذكر أنا وجدنا على مقربة من آبار زيت البترول مستنقعات بها كثير من البط الجبلىّ وقد رأينا على شجرة بلوط قديمة نَسرا واحدا وهو الوحيد الذى رأيته إلى الآن مطلق الحرّية وهو من نوع النسر الصغير أكبر فى الجسم من الحــدأة المصرية وأصــغر من النسر المسمَّى (النسر الأمبراطورى) (Aigle impérial) وقد كانت رأســه بيضاء وكذلك عنقه أما جسمه فأسود وقوائمه عارية من الريش وأطراف جناحيــه بيضاء وهو من أحسن أنواع النسور التى أعرفها على أن رؤية هــذه النسور لا تسر كثيرا وفى كاليفورنيا ألوف من طيور (Tanagra) يراها الإنسان على طول الطرق الحديدية وهى فى جسم الشحرور ولونها أسود غير أنهــا من تحت العنق فما فوق لونها أحمر صافٍ وهذان اللونان متناسبان

جدًا ينشأ عن اجتماعهما منظر بديع عندما تطير هذه الطيور فى الفضاء فيكون منظرها بالغ الغاية من الجمال . ذكرت قبلا أننا جلسنا فى فناء الفُندق فأقبل إلينا مديره وقال إنه مستعد لتأدية أىّ خدمة تريدها وهو رهين الإشارة فشكرته على تجمله ثم سألنى هل زرت ضيعة أمريكية فأجبته لا فدعانى أن أذهب معه إلى الضيعة التى يمتلكها صاحب الفُندق ومساحتها ٧٠٠٠ هكتار . هنا يجدر بى أن أقول إن السابقين الذين نزحوا أوّلا إلى أمريكا هم الذين استولوا على الأراضى الواسعة بدون ثمن أو بقيمة زهيدة جدًا وورثتهم هم الذين استغنوا وصاروا من أرباب الثروة العظيمة لما ارتفعت أثمان هذه الأراضى وذلك باستخراج كنوزها أو بإصلاحها وتمهيدها للزراعة والفلاحة .

فى صباح يوم الجمعة (٣١ مايو) وصلنا من محل كوك بلوس انجلوس رسائل مرسلة إلينا من مصر فقرأناها ثم خرجنا من الفُندق لشراء بعض بطاقات البريد (كارت پوستال) تذكارا لزيارتنا بلدة سنتابار بارا فمشينا راجلين لأن الجو كان معتدلا ثم عدنا إلى الفُندق راكبين فى الترام لكتابة مذكراتنا عن الرحلة وللرد على ما وصلنا من الرسائل وعند دخولنا سُلم إلينا رسالتان إحداهما من صاحب الفندق يدعونا إلى النادى

(Country Club) الذى به الجولف والپولو والتينس والثانية من المستر مارتن رئيس الزراعات الواســعة (Chef des grandes Cultures) التابعــة للشركة الزراعيــة الكبرى القريبة من مدينة ساكرامانتو (Sacramento) عاصمة كاليفورنيا ومعها جملة خرائط أيضا . وبعــد الغداء فى الساعة الثانية بعد الظهر حضرت سيارة لتركب فيها إلى ضيعة صاحب الفُندق وهى على مسافة ثلاثين دقيقة من هنا فركبناها ولما وصلنا إليها ذهبنا أولا لرؤية إصطبل البقر وقــد علمنا أن البقر يرعى طول السنة فى المراعى وذلك لجودة الطقس ولا يدخلونها فى الإصطبل إلا لحلبها وقد رأينا فيه ٤٨ بقرة واقفة فى صف واحد بعضها بجانب بعض وثلاثة حلابين يحلبونها ولا يمكنها أن تتحرك لأنها وقت الحلب تكون رقابها مشدودة فى حواجز من خشب . (بطريقة خصوصية) وأمامها مذاود بها أوراق الذّرة مقطعة قطعا صــغيرة وقد أضــيف إليهــا جزء من النخالة وقد اتخذت الحيطة التامة من تغطية الأوعية وتنظيف القوارير بآلة مخصوصة لغسلها حتى يكون اللبن نظيفا وقد رأينا خارج الإصطبل فى أمكنة مخصوصة كل ما يلزم لحفظ الألبان ولعمل الزبد والجبن الخ . ورأينا أيضــا مخزنين كبيرين للعلف أما هــذا البقر فمن النوع الصــغير الجسم الذى يدرّ الباناً كثيرة فهو

يشبه بقر جزيرة جرسى أو هولستين بالمانيا أما نتاجها فالذكر منه يعتنى بتربيتــه حتى يسمن ويذبح والأنثى تبقى للانتفاع بنتاجها وألبانها وقد توضع مادة كاوية على قــرونها وهى صغيرة فتعجزها حتى أنها لما تكبر لا يخشى من تناطحها بعضها مع بعض

خرجنا من هذا المــكان وذهبنا إلى الضيعة الأخرى التى يربى فيها الحمام وعدده من عشرين إلى ثلاثين ألف حمامة وقد شاهدنا ان الاعتناء به وبنظافته أكثر من الاعتناء بحمام لوس انجلوس الذى تكلمت عنه قبلا . وبجانب هذا المكان محل معــدّ لتربية الخنازير وبه أكثر من مائة غير نتاجها الكثير .

وبعد ذلك ركبنا السيارة للعودة إلى الفندق فسار بنا السائق فى طريق جميل به مزارع كثيرة إلى أن وصل إلى نادى (كلوب) الجولف وهو عظيم ومتسع وفى مكان جميل ولعب الجولف الآن هو أحدث أنواع اللعب فلا يختار له إلا أحسن الأمكنة لجلب الناس إليه وقد رأينا فى هذا النادىّ محلا معدًا للراحة(Chalet) وسيدتين ممتطيتين جوادين ومررنا على محل لعب البولو وقد قيل لنا إنه مهمل منذ سنة فلم يلعب فيه .

خرجنا من هذا المكان فذهب بنا سائق السيارة إلى الساحل وهناك استرضــنا فى الأجمة التى به وهى قديمة وأشجارها مهشمة فاتخــذت

أشكالا غريبة وبعد ذلك وصلنا إلى المدينة ولم يبق علينا إلا زيارة محل تربية الدّجاج القريب من فُندقنا وبه ٤٠٠٠ من الدجاج وفراخها وهى من النوع الإنكليزىّ الذى يبيض كثيرا ولونها أبيض وضئيلة الجسم . وبعد ذلك سرنا فى المدينة فصادفت مزارعا بلجيكيا (Horticulteur belge) فنزلت من العربة لرؤية ماعنده فعلمت منه أن اسمه المسيو لوجون (Le Jeune) ويتبع المسيو زيردن بيروكسيل (Zirden) ولم يعجبنى شئ عنده أكثر من اجتهاده فى الفتك بالحشرات التى تضر بالأشجار وقد عرفت أن هذه الحشرات هى التى تضر بالموز الهندىّ عندى فسألته عن الطريقة التى يتبعها لمنع أذى هذه الحشرات فقال لى إن البلاد هنا غنية ولا يعز عليها أن تنفق النفقات الكثيرة لإبادة هذه الحشرات ولا شئ يرجعها أبدا عن عزمها ولذا أعتنى بتربية حشرات أخرى تتغلب على هذه الآفات وتأكلها فلم أستفد مما قاله شيئا جديدا لأنى أعرف ذلك من قبلُ ولكن ماهى الطريقة التى تؤدى إلى الحصول عليها والانتفاع بها فى بلادنا . إن فى أمريكا محالّ معدة لتربية هذه الحشرات المفيدة والزراع يشترون تلك الحشرات بثمن قليل وقد أسفت كثيرا لحرمان بلادنا من أمثال هذه العدّة التى يدفع بها عدوّ خيرات الأرض وقد

وجدت فى أمريكا كثيرا من الأشجار التى أشترى الواحدة منها بخمسين أو خمسة وسبعين فرنكا من أوربا ولا تساوى هنا إلا خمسة ولكن ما العمل وما هى الطريقة فى نقلها ونحن فى كاليفورنيا فى آخر العالم . إن سكان هذه الجهات تنتظر بفارغ صبر افتتاح قنال بناما لتسهيل طرق التجارة ويظن أن التجارة بعد فتحه تتضاعف حركتها . أما صعوبة إرسال البضائع بالطرق الحديدية فعظيمة لأن أجور النقل باهظة جدا والبضائع تتأخر كثيرا فى الطريق لأن أغلب الطرق الحديدية ليس بها إلا خط واحد وذلك من أكبر دواعى الإبطاء فى نقل البضائع . وقبل أن أخرج من عند هذا البستانى قال لى إن عنده نخلة نادرة وهى الوحيدة فى جميع كاليفورنيا وهى جميلة جدا تتخذ للزينة فآليت على نفسى أن يكون لمصر نصيب فى واحدة منها .

رجعنا إلى الفندق ونحن مسرورون من رحلتنا هذه فقابلنى مديرها وسألنى عن حالة الضيعة فأطريتها وأظهرت له إعجابى العظيم بنظافتها وعظيم الاعتناء بها وبما فيها خصوصا نظامها الحسن فقال لى إننا بعد أن نأخذ منها كل ما يحتاجه الفُندق نبيع لسكان المدينة سائر ما بقى من اللبن والبيض والحمام ولحم الخنزير وقد قال لى إن لهم مزرعة خصوصية لأنواع الخضر فهنأته بذلك وبما هم فيه من نعمة اعتدال

الجو فى هـذه المدينة حتى صارت صالحة لصـفاء الحياة فيها صـيفا وشتاء والماشية ترعى فى مروج مخصبة طول السنة وهى مطلقة الحرية وهذه من أجل نعم الله عليهم

بعد تناول العشاء جلسنا قليـلا لسماع الموسـيقى ثم افترقنـا للراحة والنوم .

أتى يوم السبت (أول يونيه) فعزمنا على الرحيل من هـذه المدينة فأعددنا أمتعتنا وبعـد ذلك نزلت ومعى مصطفى بك لدفع ماوجب علينا دفعه للفندق فوجدناه فى هـذه المرة معتدلا فشكرتُ لمديرهـا حسن اعتنائه بالسـائحين وبكل مايريحهم والحق أننا هنا سررنا جدّا من الخـدمة والاعتناء فإن كل المستخدمين كانوا يؤدون طلباتنـا بكل همة ونشاط وكل مستخدم كان يعرف واجباته فيقوم بها أحسن قيـام

فى الساعة العاشرة والنصف صباحا صحبنى خيرى بك وتركنا مصطفى بك ومعـه باقى أمتعتنا الخفيفة فى الفُنـدق على أن يلحقنا فى المحطة فمشينا راجلين إلى أن وصلنا إلى المحطة وفى الساعة الحادية عشرة والربـع تحرك بنا القطار إلى مونتيرى (Monterey) ومنها إلى ديلمونتى (Del Monté) وهي لا تبعد عنها بأكثر من عشر دقائق

بعد ثلاثة أرباع الساعة من ركوبنا أى فى الساعة الثانية عشرة نودى بأن الغداء حاضر فذهبنا لعربة الأكل ولما أتى لنا بالطعام وجدناه غير جيد وقد كان الحر شديدا حتى صار السفريون السود يتصبب عرقهم ولم تكن النظافة بادية عليهم

صرنا نمر فى سهول ليست جميلة ولكنها أحسن من صحارى ألاريزونا (Arizona) فهنا امامنا بعض مزارع ولا نمر على جبال مرتفعة فالمناظر تتغير إذا بين حقول وأراضى غير مزروعة ومستنقعات وغيرها وصلنا مرة أخرى الى منابع زيت البترول الكثيرة وقد عرفنا أن القاطرات هنا يستعمل فى إدارتها زيت كقاطرات سيبريا وفى محطة ساليماس (Salimas) رأينا مخزنا كبيرا لهذا الزيت وهو تابع للطريق الحديدى الجنوبى الباسفيكى (Southern Pacific) (railway) ولما وصلنا الى محطة كاسترفيل (Casterville) نزلنا لنركب قطارا آخر يوصلنا إلى ديلمونتى وهى التى نقصدها وطالما سمعنا الألسنة لاهجة بالثناء عليها وقد وقفنا فى هذه المحطة نحو عشر دقائق و بعدها تحرك قطارنا ومشى بنا فى سهول غير مزروعة وليس بها الا شئ من الكلإ وبعض شجيرات ضعيفة نابتة فى هذه الرمال .

نحن لانبعد الآن كثيرا عن شاطئ البحر ونمر على آكام مرتفعة

ولا نرى جبلا ولا آجاما جميلة كما سمعنا فالتفت الى صـديقيّ وقلت لهما ها نحن وقعنا أيضا فى الفخ وأظن أننـا إذا استمررنا على هـذا الحـال نكون قد تكبدنا متاعب بدون جدوى وبينما نحن فى هـــذا الحديث و إذا بنـا دخلنا فى حديقة غناء تزينها أشجار ثم وقف بنـا القطار فى وسط أجمـة هائلة وسمعنا مناديا يقول ديلمونتى فأسرعنـا بالنزول وركبنا عربة الفندق العامة التى سارت بنا فى وسـط مروج جميـــلة وحدائق بديعـة وكانت الطرق منظمة ومرصوفة بالميكادام محفوفة بالأشجـار المورقة على جانبيها أما محطة ديلمونتى فهى تابعـة للفندق الذى سننزل به

بعد أن مضى من الساعة الثامنـة عشر دقائق وقفت بنا العربة أمام الفنـدق فرأيناه عظيما ولمـا دخلناه وجدنا السـيدات بملابس المساء والرجال مرتدين الأسموكين و بعد ذلك أعطيت لنا غرف فى الطابق الأول تطل على الحديقة الجميلة وقد كررت كثيرا فى مثل هذا المقام جملة تدل على عظم وجمال الفندق ولكنها فى الحقيقة تقصر عن الوصـف وتقف دون التعبير عما فى الضمير وقد قلنا فيما بيننا : هنـا يمكن أن يمضى الإنسان شهرا فى لذة وهنـاء حيث تتجلى له الطبيعة بكل محاسنها و يستنشق الهواء العليل ويتمتع بالهدوء والسكينة والراحة

التـامة ولذا يفد إليه كثير من سكان سان فرانسيسكو الأغنياء الذين يطلبون الراحة التامـة ولكن قد أسـفنا لأن خطتنا لا تأذن لنا بالبقاء فيها أكثر من يوم واحد وبعد ذلك دخلنا حجرة المائدة لتناول العشاء وهو يقـدّم على حسب برنامج معين فلا يختار الآكل ما يشـتهيه من أصناف كثيرة تعرض عليه

ولمـا قدّم لنا وجدناه لا يؤكل وقد كان بجانبنا أحد السائحين فطلب قطعة جبن فقـدّمت له قطعة صـغيرة لا تصلح لإدام لقمة واحدة فأطلع عليهـا امرأته وأولاده وصـار يضحك وفى خلال الأكل كنا نسمع مايسمونه موسيقى ويديرها فتاتان إحداهما كانت تنفخ فى الكورنيت وظنى أن شفتيها رقتا من كثرة النفخ والأخرى كانت تضرب الكمنجة ومعهما فتى يضرب على البيـانو ولا نعـرف هـل الحاضرون يسمعونها أو أنهم لاهون عنها بطعامهم . أوصيت بإعداد سيارة قبل أن نصعد للنوم لأجل رياضة السبعة عشر ميلا المشهورة فى أمريكا فأشار علىّ مدير الفُندق أن نذهب أيضا إلى المتنزه الجديد واقترقنا على أن نتمتع فى صباح يوم الأحد (٢ يونيه) بهاتين الرياضتين وفى الساعة التاسـعة من صـباح اليوم المذكور أتت السـيارة فركبناها ومررنا أولا على مدينة مونترى التى يبلغ عدد سكانها نحو ٣٠٠٠٠

وقد علمنا من كثرة الزحام بها وكثرة السيارات التى تسير أو تنتظر من ركوبها أنه سيقام فيها حفلة طيران بعد ظهر هذا اليوم لأن هذا يوم الأحد وكان عدد المشاهدين كبيرا

ان هـذه المدينة ليس بها شئ يذكر غير أنها لما كانت تحت حكم الاسبانيين كانت من المدن المهمة وقد رأينا بها بعض مبانى قديمة كانت قديما مركزا للكوس وللقضاء وغيرهما ورأينا أيضا تمثالا لأحد المرسلين المدعو الأب سيرا (Serra) أقامته سيدة عجوز ثم مررنا على صليب من الرخام أقيم تذكارا لشجرة بلوط كانت فى مكانه وأقيم تحتها أول صلاة فى يوم أحد فهكذا تكون المحافظة على الآثار الدينية وظنى أن مثل ذلك لايرى فى بلادنا ومن العجيب أنه ينسب الينا دائما التعصب فليعتبر أبناء الوطن الأعزاء وليحافظوا على التقاليد القديمة . وهنا يجدر بى أن أقول انى منذ سنتين أريد أن أحيى تاريخا مجيدا للعرب الذين فتحوا مصر بتجديد (جامع عمرو) وجعله أثرا لايمحى خالدا الى ماشاء الله فلم ألاق إقبالا يشجع ولكن أملى فى الله وفى أولى المروءة أن لا يضنوا بالمساعدة فى هذا العمل الجليل الذى أراه تذكارا لأهم حادثة تاريخية فى حياة مصر وما ذلك على الله وعلى ذوى المروءة ببعيد .

مررنا بعد ذلك على تمثال نسر من الجرانيت أقيم تذكارا للقائد الأمريكى الذى أخذ هــذه المدينة من الاسبانيين - وبمونترى قوة مؤلفة من ألفى جندىّ نظامىّ . هذا وقد كنا نسمع فى الطرق كثيرين يتكلمون باللغة الاسپانية ولما صعدنا على مرتفع منها رأينا ثغر مونترى والبحر فيه هادئ جدّا لأنه مقفل وقد كان ماؤه أزرق ساكنا تسبح فيه مئات من السفن الشراعية فعلى بعد يراها الإنسان كأنها طيور بيضاء وهى ملك للصيادين الذين بعضهم صينيون .

استمررنا فى طريقنا إلى أن وصلنا إلى شاطئ البحر فشعرنا ببرودة قليلة وبين وقت وآخر كنا نمر على صخور تتلاطم فيها الأمواج فتعلوها الرغوة وقد كان الساحل جميلا جدّا فصرنا نمتع أنظارنا بهـذه المناظر البديعة إلى أن وصلنا إلى باب كبير دخلنا منه فى أملاك الفُندق التى تقدّر مساحتها بسبعين ألف هكتار وهى آجام لم أر أجمل منها . فيها طرقات بديعة النظام وبينا يمرّ الإنسان فى وسطها المنتشرة به الأشجار الهائلة إذا به يخرج إلى شاطئ البحر فتتمثل أمامه الطبيعـة بمناظرها الجليلة المؤثرة فى النفس وقد رأينا منارا وعلى مسافة منه بعض صخور عليها كثير من نوع الطيور صـيادة السمك ولا ينسى القارئ أننا على المحيط الباسفيكى . مررنا بعـد ذلك على كوخ حقير مهـدّم لأحد

صيادى السمك الصينيين . هنا وقف بنا سائق سيارتنا وأشار منبها أنظارنا إلى صخور قريبة من الشاطئ عليها كثير من ال (Phoques) وقد كان أحدها يسبح حتى صار على مقربة منا فصرنا ننظر إليه وأعجبنا شكله وهو يعوم أما الأمواج فلا تؤثر فيها غير أن صعودها على الصخور ولا أرجل لها لابدّ لها دونه من تجشم صعوبات كبيرة لأنها تزحف على بطنها وقد تصعد على هذه الصخور طلبا لحرارة الشمس وقد رأيناها نائمة على سطحها هادئة مطمئنة فمكثنا قليلا من الزمن لنمتع نظرنا بها ثم أتبعنا السير إلى أن دخلنا فى سهل صغير يرعى فيه قطيع من البقر ورأينا مكسيكيًّا على جواده لحراستها وللمحافظة على الغابة من الحريق ولا يخفى على القارئ أن أشجار الصنوبر سهلة الاحتراق كالهشيم . وصرنا نستنشق من روائح هذه الأشجار الذكية ونحن نستمر على السير فصادفنا تيتلا ذا قرون صغيرة تدل على أنه حديث السن وقد كان آمنا مطمئنا على مسافة قريبة منا فتركناه وشأنه ووصلنا إلى مرفأ يدعى مرفأ كارمل وذلك لقربه من دير الكارمليت (Couvent des Carmelites) هنا وجدنا خصا جميلا تابعا للفندق قد أعدّ للذين يحبون تناول طعامهم فيه بين هذه المناظر اللطيفة . هنا يباع كل أنواع السمك وأثمار البحر . مررنا بعد ذلك

على قرية صغيرة يسكنها بعض الصينيين الصيادين و يظهر عليهم سعة العيش وحسن الحال . حوّل السائق طريقه وذهب بنا إلى الطريق الجديد وليكن فى علم القارئ أننا ما زلنا فى الغابة الكبيرة . هنا رأينا نحو ٤٠٠٠ فدان حرقت أشجارها من مدّة أربع سنوات وقد أخذت الشجيرات الصغيرة فيها تنمو نموّا حسنا وظنى أنها بعد سنتين تصل إلى ماكانت عليه من قبل فتكسوها الأشجار فلا تكون عارية كما نراها الآن

إن هذه الغابات ملك لثلاثة أشخاص اشتراها آباؤهم من قبل أربعين سنة كل هكتار بخمسة فرنكات وهم الآن لا يبيعون الهكتار بأقل من ألف دولار فانظر الفرق العظيم بين الثمنين تعلم منه أن ثروتهم عظيمة . لا أقول إن الغابة كبيرة تضارع غابات سيبريا أو كاندا أو برزيليا أو أواسط أفريقيا أو استراليا ولكن جهة استعظامها أنها ملك لثلاثة أشخاص وأنها تابعة للفندق ـ

إن بالفندق حديقة كبيرة على أبدع نظام معتنى بها غاية الاعتناء بداخلها لفز (لابيرنت) من نوع ال (Syprès) منظم تنظيما بديعا .

وقد علمنا أن بالحديقة نحو ١٥٠٠ نوع من أنواع الأشجار المختلفة والزهور ولا عجب فمساحتها تقارب أربعمائة فدان وبها أيضا عدد عظيم من أشجار (الأريكاريا) و (الكاكتوس)

أما الفندق فلا ينقصه شئ من دواعى الراحة فبه مكتب للتلغراف وآخر للتلفون وثالث لإرسال الأمتعة وصيدلية ومحل كبير للحلاقة وفناء واسع للألعاب وبه سبعة ملاعب للعب التينس تظلها الأشجار وبحيرة تسير فيها زوارق بالتجذيف ومحل للعب الجولف وفى الأجمة نهر يصاد فيه نوع من السمك يسمى المرجان وحمام كبير على البحر به خص (كشك) للذين يريدون أن يرافقوا زوجاتهم والوالدات اللاتى يردن مراقبة أطفالهن ولا شئ أدعى إلى سرور الإنسان وأشرح لصدره من أن يكون فى غرفته ناظرًا من نوافذها إلى كل هذه المناظر الجميلة لاسيما مع هبوب النسيم البليل يحمل على جناحيه الروائح الشذية المنبعثة من زهر البرتقال والليمون فإنه ينعش الروح ويحبب إلى الإنسان الحياة الطيبة — فأسفت كثيرا لأنى عزمت على السفر منها وكان بودّى أن أمكث بهـا زمنا طويلا لولا أنى أسير على خطة معينة وبرنامج محدّد تقتضى الحال اتباعه

نحن فى يوم أحد وقد جرت العادة أن لا يقدّم الطعام فى هذا اليوم قبل الساعة الأولى بعد الظهر ولكن لأجل حفلة الطيران التى ستقام بعد الظهر أذن لنا بتناوله بعد الظهر بنصف ساعة فأكلنا وبعد ذلك دفعنا ما يجب علينا للفندق وأمرنا المكلف بإرسال المتاع أن يرسل متاعنا وصحبنى خيرى بك وتركنا مصطفى بك بالفنـدق لقضاء بعض شؤونه

على أن يلحقنا بالمحطة ومشينا راجلين (لأن مسافة الطريق لاتستغرق أكثر من عشر دقائق) ترويحا للنفس بين تلك الأشجار النضرة والزهور الباسمة وقد كان الهواء عليلا فلم نشعر بأن الطريق انتهى لكثرة إعجابنا بهذه المناظر التى نمرّ عليها و بينما نحن ننتظر بالمحطة سمعنا صوتا عاليا فقال لى رفيقى خيرى إن هذا الصوت لابدّ أن يكون طنين طيارة ولم يمض على كلامه زمن قصير حتى رأيناها تحلق فوق رؤسنا وهى من نوع البيبلان (Biplan) فأخذت ترسم فى طيرانها دائرة كبيرة ومرت فوقنا ثلاث مرات والناس يجرون لرؤيتها فحمدت الله اذ رأيت أن الجرى وراء مثل هذه الطيارة ليس مقصورا على بعض المصريين فى بلاد العلم والنور يوجد كثير ممن هم على شاكلتهم فى ذلك . وأظن أن مثل ذلك شئ عام فى جميع الشعوب . رأينا تحت هذه الطيارة إعلانا قد كتب بخط واضح عن معرض سنة ١٩١٥ فى سان فرنسيسكو وقد قرأنا هذه الكتابة رغما من ارتفاع الطيارة فانظروا كيف لايدع الأمريكيون أىّ فرصة تفلت منهم دون نشر إعلاناتهم فهم والحق يقال تفوّقوا على جميع الأمم افتنانا فى الاعلانات ولو رأى القارئ ما كتب عن هذه الطيارة الوحيدة لاغتر كثيرا وربما أخر سفره ولو كان مصمما عليه فاننا قرأنا ما خلاصته : فى الساعة الثانية والنصف من

هذا اليوم سيكون سباق هائل فى مضمار الطيران - ألا يفهم القارئ من هـذه العبارة أن عدّة طيارات ستتسابق فتطير من محل معين إلى غاية معينة والتى تنال قصب الســبق يكون صاحبها هو الفائز . إننا رأينا كثيرا من السائحين الأمريكانيين يسرعون إلى هذا المكان وأظن أن بعضهم غرّه هذا الإعلان فهل يكتفون بالنظر إلى هـذه الطيارة الوحيدة . هذا ماتركته لهم ولينشروا اعلاناتهم كيفما يريدون .

حضر القطار ولحسن حظنا وجدنامكانا خاليا فجلسنا فيـه رغما من كثرة الزحام به فإنه مملوء بالفلاحين الذين يتنزهون فى يوم الأحد .

قام بنا القطار فى الساعة ٣ و ٢٠ دقيقة بعد الظهر ونحن نأسف جدّا لفراقنا ديلمونتى الجميلة وسار بنا فى طريق سنتا كروز (Santa Cruz) إن طريقنا هو الطريق الذى أتينا منـه إلى ديلمونتى ومن كاسترفيـل (Casterville) استمررنا إلى پاچورا (Pajora) وهى بلدة شهـيرة بأشجار الفوا كه يمو بهـا التفاح والكريز والبرقوق وليس بهـا شئ من أشجار البرتقال والليمون . انتظرنا بهـذه البلدة القطار الذى يأتى من سان فرنسيسكو ولماحضر نزل منه عدد لا يقل عن مائة شخص وركبوا معنا قطارنا وقد كان من ضمنهم أسرة فلاحين اسپانية جلست بجانبنا وكانت القـذارة ظاهرة على كل أفرادها حتى إننـا اضطررنا أن ندبر عنهم

جاعلين ظهورنا قبلهم ونطل من نوافذ العربة هربا من الروائح الكريهة التى كانت تتصاعد منهم ومن رؤية قذارتهم التى تشمئز منها النفوس وينبو عنها النظر .

وصل بنا القطار إلى محطة سنتا كروز (Santa Cruz) فى الساعة ٥ و ٤٥ دقيقة وهى أمام كازينو فندق (Casa del Re) كازديل رى الذى سننزل به فألقينا نظرة عامة فوجدناه حديث النشأة وعلمنا أن هذا الكازينو تابع لإدارة هذا الفندق . دخلناه وأعطيت لنا غرف صغيرة ولكنها منظمة ومرتبة وبعد أن حضر متاعنا نزلنا منها وأنفذنا فى طلب سيارة لتحضر إلينا غدا لنذهب بها إلى الأشجار الكبيرة (Gros arbres) وبعد ذلك دخلنا إلى حجرة المائدة فصادفنا أمام بابها موسيقى يديرها ثلاثة أشخاص أحدهم يضرب على البيانو والثانى يعزف على الكمنجة والثالث يدق على السمبالون فاقتربت من الأخير وسألته هل أنت مجرى فأجابنى نعم فقلت له ما أبعد بلادك عن هنا فرأيت السرور باديا على وجهه لما رأى من الالتفات إليه وإلى صناعته وسألنى هل أحب أن أسمع بعض قطع خصوصية فشكرته قائلا إنى أكتفى بما تلحنون على حسب البرنامج الذى وضعتموه وصرنا لا نسمع من هذه الطائفة إلا نغمات كألحان السودانيين والكيك وك (Cake Wack)

وبعض مروس ڤالس ولم نسـمع منهـم ألحانا مجرية فاقتربت من المجرى وسألته هل يعرف لحن الجرداش فأجابنى هنـا ياسيدى لايحبون مثل هذه الألحان ثم استطرد فى حديثه وأخبرنى أنه فى الثامن من هذا الشهر سيحضر ثلاث فتيات ليتم بهن نظام موسـيقاهم وفى فصـل الشـتاء يذهبون جميعا إلى لوس انجلوس ليشـتغلوا فى فندق اليكسـندريا (Alexandria) أما فى فصـل الصـيف فيمكثون عادة فى هذه البلدة وقد أخذ يشكو من حاله ويقول إنه مضى عليه ثلاث سنوات فى هـذه البلاد ولم يكتسب شيئا مذكورا لغلو أسعار لوازم المعيشـة وإن الكسب فى أوربا أكثر منـه هنا ثم قال ضاحكا نحن الموسيقيين لاتخدمنا الفرص كباقى العمال أو المضاربين .

وبعـد أن مكثت قليـلا معه أسمع من أحاديثـه تركته وصعدنا للنوم . فى صباح يوم الاثنين (٣ يونيه) بعد أن تناولنا قهوتنا مكثت فى الفندق إلى قرب الساعة التاسعة وأنا أكتب فى رحلتى ولمـا أتت السيارة التى كنا طلبناها ركبناها وأمرنا سائقها أن يذهب بنا إلى الأشجار الكبيرة فمر بنا أولا على شاطئ البحر ليرينا بعض منازل الأغنياء ومن بينها منزل رئيس (شيخ البلد) مدينة سان فرنسيسكو السابق ومر رنا بعد ذلك على منار فقال لنا السائق ان الحكومة قررت انفاق ٢٩٠٠٠ دولار

لبناء منار آخر أهم وأكبر من هذا . وأخذنا نسير على الشاطئ وهو جميل جدًا وقد أثر ماء البحر فى بعض الصخور فحفرت فيها مغارات كبيرة (Grottes) حتى إن بعض تلك الصخور اخترقتها المياه فصارت كجسر طبيعى (كوبرى) وقد مررنا أمام إحدى هذه الجسور (الكبارى) الطبيعية وكان مهدما فأخبرنى السائق أن ذلك من تأثير زلزلة كبيرة حصلت من منذ ٣ أو أربع سنوات فخربت هذا الجسر الذى كان أكبرها وأجملها . وبعد قليل أخذ السائق طريقا آخر أمام معمل نشارة كبير وعدنا ثانيا إلى وسط المدينة ثم انعطف شمالا ولم يمض علينا قليل من الزمن حتى وصلنا الى مضيق مكتنف بالأشجار ومنه ابتدأنا نصعد فى طريق غير منتظم وصرنا نرى بعض عربات فى طريقنا . وبعد عشرين دقيقة من خروجنا من الفندق وصلنا الى الأشجار الكبيرة ووقفت بنا السيارة أمام منحدر عظيم فنزلنا منها ومشينا فيه بصعوبة الى أن وصلنا الى جسر من الخشب معلق (Pont suspendu) فمررنا عليه ونحن فى وسطه لحت فتاتين أمريكيتين ممتطيتين جوادين وهما من تحت هذا الجسر فأشرت اليهما أن يقفا لأصورهما وهما على هذه الحالة وفى وسط الأشجار فقبلا طلبتى فرسمتهما بالمصور الشمسى وبعد ذلك عبرنا هذا الجسر واستمررنا

فى طريقنا قليلا الى أن وصلنا الى أجمة مظلمة لا يسمع فيها أىّ صوت فرأينا فيها أشجارا هائلة استعير لكل شجرة منها اسم شخص مشهور مثل لينكولن وروزفلت وغيرهما وقد أحصينا عدد أعظمها فاذا هى لا تزيد عن ثمان أو تسع ولكن بجانبها عدد آخر من الأشجار أكبر حجما وأكثر ارتفاعا وهى محاطة بسور ومملوكة لشخص قد أذن بزيارتها لكل من يدفع فرنكين وقد وجدنا فى الغابة العامة التى نحن فيها الآن رجلا يبيع بطاقات البريد (كارت بوستال) وأشياء أخرى للسائحين واختار لذلك مكانا تحت ظل بعض الأشجار وأنشأ فيه دكانا من الخشب ووضع فيه بعض كراسىّ لمن يريد أن يستريح عنده فاقترب منا ووجه أنظارنا باشارته الى سلم يصعد فيه الى ارتفاع بعض أمتار على شجرة مقطوعة وعند مقطعها مكان يشرف على هذه الأشجار الكبيرة التى يدفع من أراد الدخول اليها لمشاهدتها القيمة التى ذكرتها قبل وقال لنا اصعدوا على هذه الشرفة وانظروا الى الأشجار الكبيرة التى يكتنفها هذا السور اذا أردتم أن تروا بدون دفع شئ فعملنا باشارته لاسيما اننا عازمون على الذهاب إلى يوزميت فالى وهو مكان به أكبر الأشجار العجيبة .

عدنا بعد ذلك الى السيارة وركبناها وأمرنا سائقها أن يذهب بنا إلى الفندق وقد كان هذا الرجل هرما ولا يكف عن الحديث لحظة

واحدة وكثيرا ما اصطدمت سـيارته بأشياء صادفتنا فى الطريق .
ولما قربنا من طريق تحته هوّة هائلة أعرضت عن سماع حديثه حتى لا أشغله لئلا يوقعنا حديثه فى خطر ولمـا رأى أنى لا أكلمه قال لى ياسـيدى مضى علىّ عشر سنوات وأنا أسوق هذه السيارة فى جميع هــذه الطرقات ولم يحصل لى والحمد لله ما كدر راكبا فلا تخف إذًا وكن مطمئنا فشكرته ولكن ثقته بنفسه هذه لم تجعلنى أستمرّ على محادثته بعد ما رأيت من كثرة اصطدام سـيارته وعلى ذلك أوصلنا والحمد لله الى الفندق . وبعد أن تناولنا الغداء دفعنا ماوجب علينا وفى الساعة ١ و ٤٥ دقيقة ذهبنا الى المحطة راجلين فوجدنا قطارنا مكتظًّا بالركاب وهو مركب من ثلاث عربات (Wagon couloir) ويلزمنا أربع ساعات لقطع مسافة الستين كيلو التى بين سانتا كروز وسان فرنسيسكو .

تحرك بنا القطار ولما كانت حرارة الجو أشـد من حرارة مصر وهنا الحرية مطلقة فلا نقد على إنسان فيما يفعله فلم أر بدًّا من خلع سترتى من شدّة تأثير الحر . دخل قطارنا فى وادى الأشجار الكبيرة ثم صار يمر على جبال عاليـة وكل خمس دقائق يقف بنا فى محطة وهكذا الى أن وصلنا الى بلدة پاجارو الشهيرة بفواكهها ومنها خرجنا الى سهل به مستنقعات ترعى فيه أنواع المـاشية ثم دخلنا فى مزارع خضر لمدينة

فرنسيسكو ـ وبعد ذلك صرنا نرى البحر الى أن وصلنا الى مدينـة أوكلندوهى واقعة أمام فرنسيسكو . هنا كل الركاب تنزل (Oakland) لأخذ نقالة تجارية توصلهم إلى مدينة سان فرنسيسكو ويوجد ست أو سبع نقالات لهذا الغرض تشابه المستعملة فى نيويورك أى يمكنها نقل عربات أيضـاً من الشاطئ الى الشاطئ الآخر فنزلنا فى إحداها وكان بها عدد عظيم من العمال والركاب وفى أثناء سيرها تقابلنا بنقالات أخرى آتية من فرنسيسكو مملوءة أيضا بالعمال الذاهبين الى أوكلاند التى يسكنها كثير من الفقراء أو الذين لا يقدرون أن يسكنوا بسان فرنسيسكو لارتفاع أجور المنازل بها ولما كانت الساعة الخامسة كان كل الركاب الذاهبين الى أوكلاند هم العمال الذين خرجوا من أشغالهم وأرادوا العودة إلى مساكنهم . وصلنا إلى فرنسيسكو فوجدناها عظيمة جدا والحركة بها عظيمة فأخذنا السيارة التابعة للفندق الذى سننزل به وسار بنا سائقها إليه فصرنا نشاهد فى كل مكان إعلانات عن معرض سنة ١٩١٥ أما منازلها ففى الحقيقة أجمل من منازل نيويورك فان أشكالها شارحة للصدور . وقبل أن نصل إلى الفندق صرنا نصعد تارة فى طريق مرتفع وتنزل أخرى فى منخفض سحيق لأن مدينة فرنسيسكو مبنية على تلال وفندقنا قائم على أعلى تل فيها ولذا كانت سيارتنا تصعد فى طريق مرتفع فى غاية الصعوبة

وصلنا إلى فندق فايرمونت (Fairmont) فدخلناه فوجدناه على عظمه هادئا ومنظما تنظيما جميلا وأغلب مستخدميه من الأوربيين الا بعضهم الذين يؤدّون الأعمال الشاقة فانهم من الصينيين . بعد أن كتبنا أسماءنا صعد بنا أحد وكلاء إدارته وأرانا غرفنا فقبلناها مسرورين ثم نزلنا لنخاطب محل كوك بالتلفون ونطلب من المدير أن يحضر إلينا صباحا فى الساعة التاسعة .

أتى ميعاد العشاء فتناولناه وكان لذيذا ولما أردنا النوم وجدنا الحر قد أطاره من أعيننا فقضيناها ليلة ساهرة حالفنا فيها السهاد الى أن ابتسم فجر يوم (الثلاء ٤ يونيه) فاعترانى من شدّة التعب نوبة عصبية ولما أتت الساعة التاسعة صباحا حضر المستر ستوك (Stokes) مدير محل كوك ومعه رسالة لى من شقيقى وجلسنا معا نتحادث فى رحلتنا وعدّلنا فى خطتنا بعض التعديل وحذفنا من برنامجنا الذهاب إلى يلستون پارك لأن مناظرها لاتساوى مشاق الوصول إليها ولم تكن تستحق ماسمعناه من المدح فيها وعزمنا على أن نقضى فى كندا الأيام التى كنا نريد قضاءها فى يلستون پارك .

أنفذنا بعد الظهر فى طلب عربة لاندو ولما حضرت ركبنا فيها وأمرنا سائقها أن يذهب بنا إلى المستراض العام وقد أخذ الجوّ يعتدل

ووطأة الحر تخف قليلا قليلا ولكن السماء كان بها بعض الغيوم ولمـا كانت الطرقات تارة ترتفع وأخرى تنخفض كان سير العربة بطيئا ولذا قضينا وقتـا طويلا للوصول الى المستراض ولمـا دخلنا فيه وجدناه كبيرا ولكنه غير معتنًى به كمتنزه شيكاغو ـــ رأينا فيه تمثالين للشاعرين الألمانيين الشهيرين جوتى (Gœthé) وشيللر (Schiller) (وقد علمنا أن بمدينة فرنسيسكو خمسين ألف ألمانى)ثم حديقة يابانية فيها مكان معد لتناول الشاى .

قضينا ساعتين ونصفا فى رياضتنا ثم عدنا إلى الفندق وطلبنا تغيير غرفنا لعل الهواء لا يضنّ علينا بنسيمه البليل فتبدلنا بها أخرى فى الجهة الشمالية وبعـد تناول العشاء صعدنا اليها طالبين من الله أن يمنّ علينا بالراحة فى هذه الليلة .

أتى علينا والحمـد لله يوم (الأربعاء ٥ يونيه) ولمـا جاءت الساعة الثامنة صباحا ذهبنا إلى محل كوك فوجدت به إشارة برقيـة بُعِث بها إلىّ من الخاصـة ولما سألت هل أعدّ مايلزم لسفرنا على حسب تغيير خطتنـا علمت أنه إلى الآن لم يتم شئ سوى أنه أعدّت لى حجرة (Cabine) بها حمام فى البـاخرة التى سنركب فيها الى ألاسكا (Alaska) عدنا بعـد ذلك إلى الفندق سائرين على مهل ننظر مخازن المدينـة

ومتاجرها الشهيرة وقد اشترينا فى الطريق بعض بطاقات البريد (كارت پوستال) تذكارا لزيارتنا لهذه المدينة وبعد الغداء رأينا أن نذهب الى شارع پولك (Polk Street) لشراء بعض جرائد فرنسية ومنه نذهب إلى أحياء الصينيين ويسمونها المدينة الصينية . ركبنا الترام الذى به مقعدان ملتصقان وممتدان على طول العربة فيقعد الركاب بعضهم بجانب بعض وكلما صعد الترام الى مرتفع بحكم الضرورة دفع الناس بعضهم بعضا من الجهة المضادة لسير الترام ويحدث عكس ذلك عند مايتحدر وصلنا إلى شارع پولك وقضينا لوازمنا منه ثم اتخذنا طريقنا إلى المدينة الصينية التى فقدت كثيرا من عظمتها بعد أن احترقت إثر ثورة الصينيين وقد قيل لنا إنه قبل حصول هاتين الحادثتين كان يبلغ عدد الساكنين بها ٤٠٠٠٠ صينى واليوم لايزيدون عن العشرين ألفا أما الأبنية التى تجددت بعد الحريق فانها فقدت بهجة المنازل الشرقية الصينية . وصلنا إلى طريق يذهب بسالكه إلى دكاكين صينية حيث مدخل المدينة فتقدم إلينا شخص أمريكى وأظهر لنا رخصة تسمح له أن يصحب السائحين الذين يريدون مشاهدة ما فى هذه المدينة وقال لنا إنه يعلم جميع مخبآتها وكل شئ غريب فيها يستحق الزيارة وعرض علينا خدمته هذه على أن يكون جعله دولارا عن كل شخص

فقبلنا منــه ذلك وأخبرنا أنه مضى عليه ٢٣ ســنة وهو يحترف بهذه الحرفة . أخذ يرينا أوّلا محل جزار صينيّ ثم مخبزا فصــيدلية صينية رأينــا فيها ثعابين ميتة وكذا أفراخ دجاج وكلها محفوظة فى ســائل فى أوعية وقد علمنا أن الصينيين ما زالوا يتبعون أدويتهم القديمة ولهم اعتقاد خاص فى تأثيرها فى أمراضهم . دخلنا بعــد ذلك فى دكان جوهريّ والظاهر من الأشياء المعروضة فيه أن الصينيين لا يعرفون من الحلى الا الذهب وحجر اليشب (Jade) ثم خرجنا منــه الى مسكن امرأة عجوز صينية تسكن تحت الأرض هى وبناتها العشر ويشتغلن جميعا فى ترقيع بعض الملابس ورَفْها وغسلهــا على أجرة قليلة جدّا وقد رأينــا مضجعهن فاذا هو عبــارة عن بعض ألواح من الخشب موضوعة بعضها بجانب بعض وفوقها غطاء كبير واحد لجميعهن فرثينا لحالتهن التى تنطق بمــا هن فيه من الفقر المدقع ثم زرنا باقى الغرف التى فى هــذا المسكن وعددها نحو خمس عشرة سعة كل واحدة منها ٣ أمتار طولا فى نحو مترين ونصف عرضا ويسكنها شخص أو جملة أشخاص فما أتعسهم . وقد ذكر لنا دليلنا أن شُرَط أمريكا تجد صعوبة هائلة فى ضبط القتلة الصينيين أو قطاع الطريق منهم وذلك لشــدّة الشبه بين جميع الصينيين ولكثرة أبواب منــازلهم الموصلة الى طرق

متشعبة وقد يقتل صينيٌ شخصا ويلجأ الى أيّ منزل ثم يخرج من الخلف من باب آخر فلا يقف الشُرطيّ له على أثر والصينيون لايساعدون رجال الأمن على ضبط المتهمين ولوكانوا يعرفونهم خوفا من الانتقام منهم إن دلوا عليهم .

ذهبنا بعد ذلك إلى منزل موسيقى هرم فضرب لنا أوّ لا على آلة تشبه الصانتور بقضيبين من البامبو (الخيزران) قصيرين أخذ يضرب بهما على أوتارها ثم ضرب على القيثارة ثم ضرب على كمنجته التى لاتختلف عن الربابة فى شئ . فبعد أن سمعناه أعطينا له دولارا وخرجنا من عنده الى مسكن أسرة صينية فقيرة فسمعنا غناء ابنتين صغيرتين وقد ابتدأتا أوّلا بالتلحين باللغة الانجليزية ثم باللغة الصينية . ولا ينسى القارئ أن جميع هذه المساكن تحت الأرض وبعد ذلك أراد دليلنا أن نزور مساكن أخرى صينية فأراد الدخول فى أحدها وفى أثناء فتح الباب خرج عليه صاحب المنزل وطرده فعلمنا أن هؤلاء المساكين يكثرون من تعاطى الأفيون والحكومة ترى ذلك جريمة تعاقب كل من ارتكبها بغرامة مالية قدرها ٥ دولارا وأظن أن هذا الرجل كان يتعاطى هذا السم القاتل هو وأصحابه داخل المنزل ولما عالج دليلنا فتح الباب حصل لهم خوف شديد وحسبوا أن الشُرَط

قد باغتوهم لضبطهم فخرج صاحب المنزل منزعجا وأغلق الباب فى وجه الدليل وهو فى أشدّ الحَنَق والقارئ لايستغرب ذلك فان مثلهم كمثل حَشَاشينا عند مايهاجمهم رجال (هارفى باشا) فانهم يهربون ولهم فى ذلك طرق شتّى ولايخفى ما يستولى عليهم عادة من الذعر والفزع اذا شعروا بأن الطارق عليهم هو من الشُرَط (البوليس) . ذهبنا بعد هـذه الحادثة لزيارة معبد صينىّ فى الطابق الأوّل من أحد المنازل فوجدناه مزخرفا ومحلًّى بالأخشاب المكسوّة باللون الذهبى فقابلنـا الكاهن وأخبرنا أنه ينبئنا بمستقبلنا بعد أن يؤدى الصلوات اللازمة لذلك فتركناه يعـمل ما أراد ثم قال لنـا مايقوله عادة الذين يدّعون معرفة الغيب من تلك الألفاظ المحفوظة المعروفة فى جميع أنحاء العـالم . دخلنا بعـد ذلك فى متجر كبير و رأينا فيه أنواع الآنيـة وثياب الحرائر الصينية ثم زرنا غرفة تجارتهم وفيها الفصل فى خصوماتهم على يد قضاة يُختارون من بين التجار المشهورين وهم يفصـلون فى دعاويهـم المدنية وينظرون فى أحوالهم التى تتعلق بفقرائهـم وأقاربهـم فى بلادهم الأصليـة . اكتفينا بعد ذلك بما رأيناه من شؤون المدينة الصينية ودفعنا للدليل جعله وذهبنا إلى فندقنا الذى كان غير بعيد عن هذا المكان .

فى صـباح اليوم الثانى (الخميس ٦ يونيه) ذهبنا لمحل كوك للبحث

عن رسائلنا ثم عدنا الى الفندق وفى الساعة التاسعة صباحا حضر إلينا المستر ستوك مدير محل كوك ومعه جوازاتنا (تذاكرنا) وبرنامج خطة سياحتنا الجديد وبعد الغداء عزمنا أن نذهب الى المتنزه الذى به حديقة الحيوانات فركبنا الترام الموصل إليها وبينما نحن فى الطريق إذ عرفنا أن هذا المتنزه هو بعينه الذى زرناه بالعربة عند حضورنا الى فرنسيسكو فلم نر حاجة لزيارة مارأيناه من قبل فنزلنا من الترام وركبنا آخر أوصلنا الى الفندق ولما كان فى نيتنا أن نعود إلى مدينة سان فرنسيسكو بعد السفر منها تركنا من متاعنا مايلزم غسله حتى اذا عدنا وجدناه مغسولا وبعد العشاء دفعنا ماوجب علينا للفندق وفى الساعة ٨ و ٣٠ دقيقة ركبنا السيارة التابعة للفندق لتصل بنا الى مرسى البواخر النقالة التى تذهب إلى الشاطئ الآخر لتركب قطارنا من أوكلند وهى المحطة التى أتينا منها وقد كان ميعاد قيام القطار الساعة ١٠ و ١٠ دقائق فعندنا من الوقت متسع ولكنا أسرعنا حتى نأخذ مكاننا فى العربة قبل أن تزدحم وننام ولو قليلا قبل قيام القطار فأرسل معنا مدير الفندق خادما ليساعدنا فى نقل أمتعتنا وقد تفضل علينا بهذه المساعدة العظيمة لما عرف أننا غرباء من بلاد بعيدة ونحتاج إلى المعاونة . إن وجهتنا هى الذهاب إلى محطة أوكلند لركوب

القطار الذى يوصلنا الى اليورتال (El-Portal) فلم يعرف خادم الفندق الطريق الذى يلزمنا الذهاب منـه واتخـذ طريقا آخر مضادًا لوجهتنا ولحسن الحظ رأيت مكتب استعلام فأسرعت إلى عامله وسألته عن الطريق فقال لى إن الجهة اليمنى خاصة بالطريق الحديدىّ الباسفيكى والجهة اليسرى خاصة بالسنتافيه (Santa Fée) ولما كنا أتممنا سياحتنا فى الطريق الأخير الذى يذهب إلى جنوب كاليفورنيا عرفت أنـ طريقنا فى جهة اليمين وفى الساعة ٩ و ٥ دقائق فتح الباب الموصـل إلى الرصيف الذى تركب منـــه الركاب فى الباخرة النقالة وبعد ربع سـاعة وصلنا إلى أوكلاند ودخلنا المحطة فوجدنا القطار ينتظر فيهـا فسلمنا خادم العربة الأسود أمتعتنا الخفيفة وطلبنا منه أن يعدّ أسرتنا وفى الساعة ١٠ و ١٠ دقائق تحرك بنا القطار ونحن على أهبة للنوم

فى الساعة ٦ من صـباح يوم الجمعة (٧ يونيه) كنا على استعداد ومرتدين ملابسنا فصرنا ننظر لنعلم أىّ طريق نسلكه فرأينـا قطارنا يمشى فى مضيق محاط بالجبـال على شاطئ نهر سريع يدعى مرسيد (Mersed) نخيـل إلينا أننـا فى بلاد سويسرا الجميلة لأن المناظر التى كانت تحيط بنا لايمل الانسـان من رؤيتها غير أن الفرق بينها وبين مناظر الأولى أنها طبيعية ولم تغير يد الانسان خلقتها الأصلية ـ كما نرى

بين حين وآخر بعض آلات مولدة للكهرباء موضوعة على مجرى النهر السريع ولا بد أنها تدور بدون انقطاع وتولد قوة كبيرة لسرعة الماء العظيمة . في الساعة ٧ ونصف وصلنا الى محطة اليورتال وقد كانت السماء صافية والجو معتدلا فنزلنا من قطارنا ولا بدّ دون الوصول الى الفندق من أن نصعد مسافة ٥٠ مترا على أقدامنا فقطعنا هذه المسافة ولما وصلنا الى الفندق دفعنا دولارا عن كل شخص لتناول الفطور قبل الدخول الى قاعة الأكل وهذه هي العادة المتبعة هناك فاخترنا مكانا وجلسنا وقدمت لنا أنواع المأكولات التي كانت في غاية الرداءة . وبعد أن انتهينا من تناوله سألت في مكتب الفندق هل جاءتهم أخبار لها اتصال بنا من المستر ستوك مدير محل كوك بسان فرنسيسكو من جهة إعداد عربة لنا فقال أحد العمال لا . وقال الآخر ربما يكون ذلك ثم تقدم الي شيخ هرم وبيده رسالة وقال لي نعم وان أردتم فهي رهن إشارتكم على تمام الاستعداد ففضلت الرحيل حالا حيث إننا متأهبون ولا فائدة لنا من الانتظار فذهب هذا الشيخ وبعد خمس دقائق حضرت العربة ووقفت أمام سلم الفندق الخاص بالمسافرين ولمنع تزاحم المسافرين على العربات نصب على السلم حاجز من الحبال في وسطه منفذ يقف عليه أحد عمال الفندق لا يأذن لأحد

فى المرور منه إلا على حسب الترتيب و بمقدار العدد الذى تسعه كل عربة ولما أتت عربتنا أراد بعض السائحين الركوب فيها فمنعوا ونودى علينا فركبناها ووضعت حقائبنا وشدّت بالحبال حتى لا يسقط منها شئ فى الطريق فسارت بنا العربة فى طريق ملك للحكومة صعبة المسلك لأنها رملية ولذا كنا نسير ببطء مع أن أربعة أفراس كانت تجر عربتنا و بعد أن قضينا مدّة ثلاث ساعات متوالية على هذه الحالة فى وسط مناظر بديعة وسماء رائقة وشمس محرقة وصلنا إلى جسر (كبرى) فى وسط وادى يوزميت فاللى على ارتفاع ٤٠٠٠ متر عن سطح البحر و بعد أن عبرناه وجدنا عددا عظيما من الخيام قدّرناه من ٨٠٠ الى ١٠٠٠ خيمة وقد أعطى لهذا المكان اسم معسكر يوزميت وقيل لنا إن جل سكانه من المشتغلين بأعمال البورصة أصحاب الثروة المتوسطة وقد أتوا الى هـذا المكان طلبا للراحة من عناء الأشغال مدّة من الزمن ثم يعودون بعد ذلك الى أعمالهم الشاقة و بعد ربع ساعة من مزايلة هذا المكان وصلنا الى فندق سانتنيل (Sentinel) وسمى بهذا الاسم لوجود صخرة قريبة منـه معروفة باسم الحارس (سانتنيل) وهذا الفندق مبنىّ من الأخشاب على طراز (البانجالوپ) فاختير لنا غرف ليست ذات زخرف ولكنها جميلة وقد أعجبنا مناظر هـذه الجهة فان موقع الفندق

كان على نهر عظيم يسمى مرسيد ريفر (Mersed River) يتدفق ماؤه الصافى بسرعة كبيرة وحيثما وجه الانسان نظره لايرى أمامه الاخضرة تكسو سطح الأرض أو ماء صافيا يجرى إلى جهات مختلفة وأظن أن هـذا الوادى لايماثله واد آخر لأنه جمع كل المناظر البديعة فبينما يرى الانسان مجرى النهر وما حوله من النباتات المختلفة الشكل واللون والأشجار الخضراء الناضرة التى لايدانيها شجر فى نضرتها ورونقها البهى يرى جبالا مرتفعة تشرف على الوادى من الجهتين وتسقط من أعلاها مياه عظيمة كسبائك من فضة لامعة تجرى على البساط السندسى وتنصب فى هـذا النهر العظيم الاتساع فكأننا كنا فى متنزه كبير منسق أحسن تنسيق لايمكن الانسان أن يتصور أجمل منه .

وقد رأينا بجانب هـذا الفندق مكتبا للطرق الحديدية وآخر لرئيس المركز العسكرى وخمسة دكاكين للتصوير بالمصور الشمسى (الفوتوغرافية) ومحلا لخياط ودكانا للبقالة وهذا كل مافى هذا المكان .

وقد وصلنا الى الفندق نحو الساعة ١١ و ٤٥ دقيقة فلم يبق لنا من الوقت الا مايسع غسل أيدينا وتناول غدائنا وبعد الظهر ذهبنا فى عربة الى ضواحيها فمررنا على مكان به ما يزيد عن المـائة خيمة يدير شؤونها و يؤجرها للسائحين صاحب الفندق الذى نزلنا به ويدعى

هذا المكان معسكر كارى (Camp Curry) أما أجرة السكن فى هـذه الخيم فقليلة بالنسبة لقيمة الفندق ولذا لم يكن سكانها من الأغنياء ولما كانت هـذه الجهة مجموع غابات تملكها الحكومة أذنت لمن يريد أن يضرب خيمته فى المكان الذى يحلو له ليقيم فيها المدة التى يريدها بدون دفع أجر فكنا نرى بين وقت وآخر خيمة أو أكثر تحت ظل الأشجار تسكنها أسرة أو عدة أسرات فتتمتع بالمعيشة الهادئة وتنتقل اذا أرادت الى مكان آخر حيث تطيب لها الاقامة تشبها بمعيشة البدو الصحية الساكنة . ذهبنا بعد ذلك لرؤية جزيرتين يطلق عليهما اســـم (هابى ايسلاند)(Happy Island) يصل اليهما السائح بواسطة جسرين جميلين فأعجبنا موقعهما وهما فى وسط النهر العظيم ومنهـما انتقلنا إلى مكان به ألوف من الصخور وقد علمنا أنه كان مأوى هنود أمريكا يختبؤن فيه اذا حزبهم أمر للمدافعة عن أنفسهم من إغارة الفاتحين لبلادهم وطالما حصلت حروب هائلة بين الجنس الأحمر والجنس الأبيض انتهت بفوز الأخير وطرد الهنود من هذه البقعة واستئصالهم من هذه الجهة إلا الذين سلموا أنفسهم وقبلوا أحكام المغيرين فأمنوا على أنفسهم بعض الأمن واستخدم بعضهم عند الجنس الأبيض فى خدمات حقيرة والبعض الآخر لم يزل مختبئا بين الصخور يقتات من حشائش

الأرض وأسماك النهر وأغلبهم من بقايا قبائل الشوشونية (Shoshones) الوحشية . مررنا بعد ذلك على الاصطبلات التابعة للفندق سانتيفيل وهى تسع ثمانين بغلا وخمسين حصانا كلها معدّة للسائحين بأجرة معلومة ومنها ذهبنا الى معسكر به مائة وثمانون جنديا غير الضباط وعملهم مقصور على حراسة هذه الجهة وما فيها وقد كان رؤساء فرق هذه الجنود وكذا الضباط يسكنون منعزلين عن باقى الجنود فى مساكن مصنوعة من الخشب (Chalets) أما رئيس هذه القوة فهو ماجور ويسكن بمركز هذا المعسكر القريب من الفندق وبعد ذلك وصلنا الى أسفل جندل يوزميت (Cascade de Iosmite) وماؤه يسقط من ارتفاع ٧٦٠ مترا وهو مقسم الى ثلاث طبقات الطبقة الأولى عمودية وتسمى الجندل الأعلى وطولها ٤٣٨ مترا فى عرض ١٠ أمتار ثم تلاقى مسطحا صغيرا فى الجبل فتتفرع الى جملة فروع صغيرة وتسقط جميعها عمودية من ارتفاع ١٩١ مترا ويطلق على هذه الطبقة الجنادل الوسطى ثم تصادف مسطحا آخر وتسقط ثانيا من ارتفاع ١٣١ مترا وتصب فى النهر وهذه الطبقة الثالثة تسمى الجنادل الأخيرة مجموعها اذاً هو جندل يوزميت وهو أعظم جندل من جهة الارتفاع على وجه الأرض وقد كنا نرى فى كل جهة لوحة

مكتوبا عليها (ممنوع صيد الأسماك قبل أوّل يوليـه) وذلك للمحافظة على الأسماك الصغيرة وقد علمنا أن أنواع السمك توجد بكثرة فى نهر مرسيد المذكور . مكثنا قليلا قرب هذا الجندل العظيم ثم عدنا الى الفندق واستفهمت من مديره عما ينبغى زيارته غدا فأخبرنى بضرورة رؤية بحيرة المرآة (Lac miroir) والذهاب إليها يكون بالعربة ومنها إلى أمكنة الثلوج(Glaciers)ولكن لوعورة الطريق لايمكن للعربة الاستمرار فى السـير من بعد هـذه البحيرة ولا يمكن أيضا الإنسان أن يصل إلى هذه الثلوج سائرا على الأقدام لبعدها العظيم فلابدّ دون الوصول أن يمتطى ظهور البغال أو الخيل وهذا ماوجدته شاقا ومتعبا فقررت الاكتفاء بزيارة البحيرة

فى الساعة ٨ من صباح يوم السبت (٨ يونيه) ركبنا عربة وسرنا فى طريق للذهاب إلى البحيرة فصادفنـا دبا وحشيا صـغيرا يجرى فى وسـط الأشجار فأوقفنا عربتنا ونزلتُ مع خيرى بك ثم لحقنـا مصطفى بك لعلنا نراه من كَثَب ولكنه ذهب كالسهم مختـرقا الأشجار التى كانت تحتها شجيرات وفروع يابسة متواشجة تجعل المرور بينها صعبا جدّا فلم نره وغاب عن أعيننا فعدنا إلى عربتنا واستمررنا فى طريقنـا إلى أن وصلنا إلى هذه البحيرة وهى على بعد ستة كيلو مترات ونصف

من شمال فنــدقنا فرأينــا ماءها صافيا ساكنا وحقيقة وجدناها كالمرآة ترى فيها صور كل ماحولها من جبال وأشجار وغيرها وهى على صغرها إحدى عجائب الدنيا فيؤمها كثير من السائحين ولا يرى الإنسان على سطحها أقل حركة تعكر هذا الصفاء فاسمها مطابق لمسماها وبعد أن سرنا على شاطئها نمتع نظرنا بهـذا الجمال مشينا على الأقدام إلى الأمام وصادفنا جندلين وكلما توغلنا حلا لنا المنظر فعدنا مسرعين إلى العربة لتذهب بنــا إلى اصطبلات الفنــدق لنؤجر الدواب ونتخذ دليــلا يوصلنا إلى أمكنة الثلوج حتى لا يفوتنا رؤية جمال الطبيعة التى سحرتنا وجعلتنا ننسى كل تعب ولمــا وصلنا إلى الاصطبلات قيل لنــا إنه لا يمكننا الوصول إلى مانريد قبــل ثلاث ســاعات وقد كانت الساعة وقتئذ العاشرة أى أننــا نصل إليهــا نحو الساعة الأولى بعــد الظهر والعودة تكون من طريق آخر أبعد من الأول ويُقطع عادة فى أربع ساعات ونصف فشدّة إعجابى بالمناظر التى رأيتهــا جعلتنى أصمم على الذهاب إليها مهما صادفنا من المشاق ولمــا كان الفندق قد أعدّ مكانا هناك لراحة السائحين وتناول طعامهم فيه وأنشأ سلكا تلفونيا بينهــا وبينــه ركبنا عربتنا وذهبنا مسرعين إلى الفنــدق وتكلمنا تلفونيا مع عامل الفندق المقيم بتلك الجهات الثلجية فأخبرناه بأننا سنحضر قرب

الساعة الواحدة إلى أمكنة الثلوج حتى يهيئ لنـا طعامنا وبعـد ذلك أخذنا معنا بعضا من السائد ويتش ثم عدنا إلى الإصطبلات وركبت أنا ومصطفى بك بغلين وركب الدليل وخيرى بك جوادين فكنا قافلة صغيرة قائدها الدليل وآخرها خيرى بك ومع أننا بذلنـا غاية الجهـد فى الاستعداد لنسرع فى المسير لم يتيسر لنا مغادرة الإصطبلات قبل الساعة العاشرة والنصف وبعد أن مشـينا قليلا وجدت دابتى بليدة بطيئة السير جدًا فتبدلت بها دابة مصطفى بك حتى لا أتعب من حثها بالضرب واتبعنا طريقا ضيقا جدًا تمر منه الدابة بعد أن تلاقى ماتلاقى من المشـقة وقد اختاره دليلنا لأنه أقرب طريق يوصـلنا إلى غايتنا فى الميعاد الذى حددناه لتناول الغداء . وبعد ساعة من المسير وقف دليلنا بغتة وأخذ يكلمنا وكان غرضه من ذلك أن تستريح الحيوانات قليلا وكلما تغلغلنا فى الطريق تزداد الصعوبة وتعظم المشقة على الدواب لأنا كنا فى سيرنا صاعدين فصار دليلنا يقف بنا قليـلا كلما قطعنا جزأ من الطريق لتستريح الدواب حتى صرنا على ارتفاع هائل من الوادى وصار الناظر كلما رمى بنظره إلى ذلك الوادى السحيق تجلى له مناظر الطبيعة الجميـلة ولكن ضيق الطريق المحفوف بالخطر والخوف من الهوىّ لايمكن الراكب من أن يملأ عينه من هذا الجمال النادر فإننـا

كنا نسير على شرفات الجبال وتحتنا هوّة هائلة رائعة ـ وصلنا إلى مكان يرى منه الإنسان عن قرب جنـدل يوزميت كله فازدادت عظمته فى أعيننـا ثم استمررنا فى طريقنا فإذا نحن أمام ركب من السـائحين ينزلون ممتطين ظهور بغالهم ومتبعين الطريق الذى نسير فيه فما العمل إذًا ولا بدّ أن نخلى لهم الطريق فأراد دليلنا أن يداعبنا بلطائفه فأوقفنا إلى جهة الهوّة أى على حافة الجبل فوقفنا على شفير تلك الهاوية وأذن للركب أن يمر آمنا مطمئنا فأقل مصادمة كانت يتبعها السقوط فى قرار عميق ولكنّ الله سلم وعدنا نسير إلى الأمام صاعدين ومتبعين طريقا كله انعطافات و بينما نحن فى طرف منعطف و إذا ببغلين وجوادين مطلقين يسوقها أمامه دليل هندىّ وهى تعـدو أمامه بجميع قواهـا فتجسم أمامنا الخطر بكل معانيه فأسرع دليلنا ونزل من فوق ظهر جواده وسلم عنان جواده لسائح كان يصعد معنا راجلا وقد حذوت أنا حذوه ونزلت من فوق دابتى وجعلتهـا بينى و بين تلك الهاوية أما سـائق تلك المطايا المطلقة فانه أخذ يعـدو راجلا لعله يمنع الخطر ولكن فات الوقت واختلطت دوابه بدوابنا وقد زاد الطين بلة أنهـا كانت تقمص وترفس فأصابت دليلنا رفسة آلمته وداس جواد على قدمى ولم أشعر إذ ذاك بالألم لهول ذلك الموقف الذى ينسى الإنسان

نفسه وقد سقطنا كلنا على الأحجار وأصابنا من الرضوض ماأصابنا ولكنا حمدنا الله الذى سلمنا من مهلكة كانت فاغرة فاها لتبتلعنا وكاد يعظم الخطب لولا مســاعدة بعض السائحين الذين أتوا الخلاصـنا بضـبط هـذه الحيوانات الشاردة وبعد أن مرت هـذه الحادثة أخذ بعضنا ينظـــر إلى بعض نظـرات الذهول وكانت حالة مصطفى تدعوا إلى الشفقة وصار يقول إن الحياة ثمينة فـالى وهـذه المصاعب ولِمَ ألقى بنفسى إلى التهلكة ثم امتطينا ظهور دوابنا وسرنا مجدّين فى السير إلى أن وصلنـا إلى قمة الجبـل فى مكان يدعى نقطة الوحى أو الالهـام (Inspiration Point) وهى أرض واسعة مبسوطة فوق ظهر الجبل أقيم على أطرافها سياج من حديد حتى يأمن السائح إذا اقترب من حافة الجبل و يرى منه الوادى من ارتفاع نحو ١٧٠٠ متر وذلك المكان جدير بأن يسمى بهذا الاسم لأن الواقف يشاهد أجمل منظر فإن الجبال التى تحيط بالوادى تكسوها الأشجار و يتخللها ألوان الصخور المختلفة وتسقط من رؤسها المياه العظيمة فتكون على سطح الوادى المكسو بالأعشاب والزهور نهيرات تصب فى نهر عظيم يخترق هــذا الوادى فاذا كان الواقف شاعرا مجيدا فان مجموع هذه المناظر توحى اليه ماتوحى فيهدى إلى عشاق الخيال الشعرى بديع تصوراته وخيالاته فى وصف هـذا

المكان الجميل فيتلذذ القارئ من تلك الصور الشعرية الصادرة من تأثير الجمال فتمنيت لوكان معنا أشعر شعراء لغتنا العربية المحبوبة حتى يرى بنفسه ماتراه ويترك لقريحته الوقادة عنانها فيتحف أبناء أمتنا بما أملته عليه عجائب الطبيعة وآثار القدرة الالهية فيكون أثرا خالدا مدى الدهر تتداوله الأيدى فتنمو الأفكار العالية وتصفو الأخلاق وتمتلئ النفوس شعورا بجمال الطبيعة وعظمة قدرة الخالق فيزداد اليقين . بعد إلقاء هذه النظرة مشينا فى أرض مبسوطة بين مروج نضرة مدّة عشرين دقيقة فوصلنا إلى فندق جلاسيه (Hotel Glacier) وهو منزل مكوّن من جملة غرف مصنوعة من الأخشاب وكان وصولنا إليه نحو الساعة ١٢ و ٣٠ دقيقة فكأننا قطعنا المسافة مع مالحقنا من دواعى التأخير فى أقل من ساعتين فجلسنا قليلا فى ردهة تطل على مناظر بديعة ولما حل ميعاد الغداء ذهبنا لتناوله فى غرفة ساذجة ولكنها منظمة وكانت تخدمنا خادمة تتكلم جيدا باللغة الفرنسية فبذلت كل مجهودها فى إحضار غدائنا على عجل ثم انتقلنا إلى ردهة أخرى وكنا نمتع نظرنا أثناء تناولنا القهوة برؤية الثلوج المتراكمة على رؤس الجبال وبعد ذلك خرجنا ومشينا على أقدامنا إلى أن وصلنا إلى صخرة بارزة من طرف الجبل وقدرأيت

فى أحد الرسوم المعروضـــة للبيع صورة حمار وبجانبه سائح وفى رسم آخر أحد المشهورين بالألعاب الرياضية تمثله وهو يلعب على الصخرة مايسمونه ايكيلبير (Equilibre) ولم يخش سقوطه فيالها من جراءة أعدّها جنونا ومخاطرة أما أنا ومصطفى بك فلم يمكنا أن نقترب ونمشى الى نهاية طرفها . عدنا إلى ذلك الخص (الكشك) ودوّنا أسمـاءنا فى الدفـتر المعـدّ للزائرين ثم امتطينا دوابّنا لنعود إلى فنـدقنا وسرنا فى طريق لا ينحدر كثيرا مدّة نصف سـاعة إلى أن وصلنـا الى شجرتين كبيرتين فرأينا نعل جواد قد ألصق فى احداهما بمسامير فقال دليلنا هـذا النعـل هو تذكار لحـادثة وقعت فى شهر أغسطس من السنة الماضية وهـذه الحادثة هى أنه كان تسعة أشخاص واقفين تحت هاتين الشجرتين يتقون بهما الأمطار الشديدة و بجانبهم دوابهم فنزلت صاعقة صعقت الدواب وقتلتها ولم يحصـل لأولئك الأشخاص أذًى فسبحان المنجى . استمررنا فى طريقنـا إلى أن وصلنا إلى مجرى ماء خضناه ولم نصادف إلا بعض سائحين قافلين وهم راجلون . رأينـا فى طريقنا جنادل ايليلويت (Illilouettes Falls) وهى عظيمة أيضا ثم أخذنا نصعد ثانية إلى أعلى جبل لزيارة جندل (Nevada) نيفادا وهو أكبر من الجنادل السابقة و بعد ذلك عدنا للنزول ثانيا وقد تعبت

دوابنـا من توالى الصعود والنزول ولقينا صعوبة كبيرة فى حملها على المسـير ثم وصلنا إلى سهل يجرى فيـه نهر وهو المكوّن لجندل ڤيرنال (Vernal Fall) وأثناء السـير كنت أرى أن مصطفى بك يتحرك كثيرا على سرجه حركة الضجر فسألتـه عن السبب فأجاب ان السروج الأمريكية صلبة لالين فيها ومؤذية وهو يفضل أن يمشى على رجليه على أن يستمر راكبا فأخذت أسليه بأن الباقى لنـا قليل فليصبر الى النهاية ولكن بعـد الجندل الأخير صادفنا فى نزولنا انحدارا كبيرا وما أصعبَ المرورَ منه فقال كلما قوى رجاؤنا فى التخلص من هذه العقبات يأتينا شئ جديد مخيف فكأننا لسـنا طلاب رياضة وترويح نفس بل كأننا مكتشفون تركنا أنفسنا للقادير . وصلنا الساعة ٥ و ٣٠ دقيقة إلى أسفل الجبل وكانت عربة (شارابان) بانتظارنا من الجهة الأخرى من جسر (كوبرى) جزيرتى هابى (Happy Islands) فركبناها ولمـا استقر بنـا الجلوس وجدنا القتام غطى ملابسنا أما وجوهنا وعيوننا فانها تغيرت وصرنا شعثا غبرا من كثرة ما علا وجوهنا من النقع المثار وعجبنا كل العجب لمـا وجدنا بنطلوناتنا وأحذيتنا لم تتقطع لأننـا كنا فى أغلب الأحيان نمرّ بين أشجار ذات أشواك حادّة كأنها القتاد وعند وصولنا الى الفندق خلعنا ما علينا من الثياب وأبدلناها بغيرها بعـد أن

نفضنا الغبار المتراكم علينـا فزال بعد عناء وجهـد وقد سارعت إلى الخروج من غرفتي حتى لا أظهر بمظهر التعب وذهبت إلى ردهـة الاسـتقبال التي كانت اذ ذاك خاليـة من السائحين وأخذت أضرب على البيانو . أما مصطفى بك فانه ذهب الى المصور ليأتي من عنـده بصورة له وهو على ظهر أتان ولما أتت الساعة ٦و٣٠ دقيقة ذهبنا إلى المطعم وبعد تناول طعامنا أسرعنا الى غرفنا طلبا للراحة والنوم .

ولما أصبح يوم الأحد (٩ يونيه) ذهبت أوّلا إلى مكتب الطرق الحديدية لأكون على علم من وجود محال خاليـة بالقطار الذى يسافر فى يوم ١١ يونيـه ثم عملا بمشورة مدير الفندق أوصيت على عربة خصوصية قبل ميعاد قيام السائحين بنصف ساعة للذهاب إلى ڤوڤونا (Wawona) حتى لا يصيبنا مايؤذينا من الغبار الذى يتصاعد من سير العربات . قضينا الوقت الى أن حل ميعاد الرحيل وهو الساعة ١٢ و ٣٠ دقيقـة ما بين كتابة مذكرات رحلتى واسـتراحة قليـلة على الأقدام وقبل أن نفارق الفندق شكرت لمديره لمـا لقيناه من الاعتناء بنا وما وجدناه عنده من أسـباب الراحة بالرغم من بعد هـذا المكان وقد أظهرت له سرورى وإعجابى بموقع هـذه البلدة الصغيرة وتمنيت لهـا مستقبلا حسنا خصوصا اذا اعتنت بتحسين حالها الحكومة

الأمريكية أكثر مما هى عليه الآن ولا أرى سببا لتركها على حالتها بدون زيادة الاعتناء بها مادامت هى موردا لزيارة السائحين لجمال موقعها وجودة هوائها ثم افترقنا وأخذ كل منا مكانه فى العربة ومشينا فى نفس الطريق الذى أتينا منه إلى البورتال . وبعد مدّة من الزمن وصلنا الى مُنْعَطَف جهة الشمال مشينا منه وابتدأنا فى الصعود وصار الحوذىّ يقف بنا بعد كل خمس دقائق دقيقة لراحة الخيول وقابلنا أثناء سيرنا ضابطا وسيدة راكبين جوادين وو راءهما عسكرى وسيدة أخرى ثم صرنا نرى كثيرا من المتنزهين والمتنزهات خصوصا فى الموقع الذى يسمى مكان المصوّر المبدع (Point de vue de l'Artiste) وهو أعلى مكان يرى الانسان فيه مناظر الوادى الجميل وقد أتت إليه جملة من المتنزهين ومعهم غداؤهم وفى هذا المكان لابدّ أن يحلو الجلوس و يعظم اشتهاء الأكل وقد استحسنا اختيارهم قضاء يوم راحتهم فى هذا الموقع ووددنا لو كان عندنا من الوقت متسع لنشاركهم فى سرورهم ونجلس ولو قليلا معهم ولكن المسافة التى يلزم قطعها طويلة فاكتفينا أن نلقى نظرة عامة على هذا الجمال و واصلنا السير الى أن قطعنا عشرة أميال ثم انتقلنا من الصعود الى النزول وحثت الخيول فأسرعت بنا ونحن نقول عسى أن لا تصادفنا عربة فى طريقنا ولكنا

لم تتم حديثنا حتى التقينا بعربة فى منعطف من الطريق الضـيق فأردت النزول لمساعدة الحوذىّ فى اقتياد خيوله الأربعة التى كانت تجر عربتنا فلم يقبل وقال انتظر سترى واذا بالخيول تحركت و وقفت على حافة الطريق وفتح طريق لمرور العربة الأخرى وقدقال لنا سائقها ان ثلاث عربات آتيــة و راءه فانتظرناها الى أن مرت ثم واصلنــا سـيرنا فصادفنا عربة أخرى خاليــة من الركاب فمرت من جانبنا من الخارج بسرعة عجيبة وقد رأيت بعينى العجلة الأخيرة تدور فى الهواء على حافة الطريق فشـعرنا بمقدرة هؤلاء الحوذيين وعظيم جسارتهم و بعــد بضع دقائق وقف بنا سائق عربتنا أمام خص (كشك) كبير مهمل وعلى بُعْـد بعض أمتار منه خابيتان مملوءتان ماء فترك الخيول لتشرب منها ثم أعاد السير فقطعنا ثلاثة أميال أخرى ووصلنا الى المحطة التى يغير فيها الخيول وهى عبارة عن اصطبل يسـع نحو الخمسين فرسا وهو فى منتصف الطريق الموصـل الى قوقونا وعنـد وقوف عربتنا أسرع الينا بعض الخدام فحلوا خيول عربتنا وأبدلوها بغيرها أما نحن فنزلنا قليلا لازالة ما لحقنا من تراب الطريق و بعد ذلك عدنا وأخذنا مكاننا وسارت بنا العربة وقال لنـا سائقها اننا قطعنا الى الآن أربعـة عشر ميلا ولم يبق علينا الا ثلاثة عشر ميلا ولمـا كنا نسير فى طريق

منحدر والخيول كانت قوية كان السير سريعا وصرنا ننظر ما حولنا فكنا لانرى فى الغابة إلا أشجارا بعضها محروق والبعض الآخر مورق وقد مررنا على جملة مجارى مياه كانت تعبرها الخيول بدون تعب الى أن وصلنا الى باب كبير مررنا منه وهو حدّ وادى اليوزميت (Yosmite Vallée) فالتفت إلينا سائق العربة وقال من هنا تبتدئ الأملاك الخصوصية وكل ماقطعناه كان فى أرض مملوكة للحكومة وقد قال لنا ان الفندق الذى سننزل فيه يتبعه ٢٠٠٠ هكتار من الأراضى وان ثمن الهكتار الآن عشرون دولارا فقلت لرفيقى لو كنت أمريكيا لاشتريت جزءا عظيما من هذه الغابات وجعلته متنزّها أحضر اليه ومعى أصحابى لقضاء شئ من الزمن فى هذا السكون التام فان الطقس فى هذه الأمكنة جميل والهواء عليل ورائحة الأشجار والزهور الطبيعية تنبعث فيستنشقها الانسان بلذة أما تغريد الطيور وخرير المياه فانها تشرح القلب وتجلى عنه الهموم . مررنا بعد ذلك أمام خص (كشك) صغير وبجانبه خيمة بها نقطة عسكرية لحراسة مدخل وادى اليوزميت ثم ابتدأنا نسير فى سهل عظيم الاتساع إلى أن وصلنا إلى الفندق الذى سننزل به وهو مجموع منازل صغيرة محاطة من كل جهة بالمتنزهات والحدائق فقابلنا على بابها مديرها وأوصلنا الى غرفنا فى أحد هذه المنازل وبعد

ذلك طلبنا ماء ساخنا لازالة الغبار الذى علق بأيدينا ووجوهنا وبعد أن استرحنا قليلا ذهبت إلى مكتب المدير للاتفاق معه على المزارات التى يلزم زيارتها وبعد أن أتممت ذلك جلست مع رفيقىّ فى ردهة الفندق الأمامية لرؤية السائحين الآتين وراءنا من اليوزميت وبعد نحو نصف ساعة حضروا فرأيناهم والتراب يكسو أجسامهم والتعب ظاهر عليهم وفى الساعة السابعة مساء تناولنا العشاء ثم خرجنا من الفندق لنسير قليلا على أقدامنا فوصلنا إلى مكان ترعى فيه أبقار الفندق وخنازيره وبعد رياضة قليلة عدنا إلى غرفنا وختمنا نهارنا

قمنا مبكرين يوم الاثنين (١٠ يونيه) وكان البرد شديدا جدّا وانتظرنا لغاية الساعة التاسعة صباحا فأتت العربة التى كنت أوصيت باحضارها فركبناها للذهاب إلى الأشجار الكبيرة وبعد أن تركنا الفندق ابتدأنا نصعد فى طريق ضيق ورديء للغاية بين غابات كثيفة ولم نر شيئا يستحق الذكر مدّة ساعة من الزمن الى أن وصلنا الى كوخين صغيرين يسكنهما بعض الفلاحين فأوقف السائق العربة وسقى خيوله ثم أعدنا السير وبعد مسير بعض كيلو مترات صرنا نسمع صفيرا كصفير قاطرات الطرق الحديدية فاستفهمنا من السائق عن مبعث هذا الصوت فقال لنا ان هذا صفير آلات قطع الأشجار وقد اشترى هذه

الغابات بعض الأغنياء وهم يتاجرون فى أخشابها فصرنا كلما تغلغلنا فى هـذه الغابات رأينا علامات الخراب فان حب الثروة قضى على هـذه الأشجار والغريب أنه لا يراعى فى تقطيع غابات أمريكا النظام المتبع فى أوربا فهنا تقطع الأشجار فى كل مكان بدون ترتيب بحيث إن الغابة تصبح مشوّهة وتفقد جمالها كله ولا يُسأل صاحبها عما يفعله فله الحق فى قطع ما يشاء ولو كان ذلك يضر بحالة الغابة وليس الحال كذلك فى أوربا فإنه جُعل نظام خاصّ وقوانين دقيقة للغابات فالحكومة تعين الأمكنة التى يمكن قطع الأشجار منها ولها مراقبون يحافظون على حياة الأشجار الصغيرة منها لتنمو وتأخذ مكان الأشجار التى قطعت وبعد أن ينتهى قطع الأشجار فى المكان الذى عينته الحكومة يترك المدّة القانونية وينقل القطع إلى مكان آخر فبهذه الطريقة لايرى الإنسان فى غابات أوربا ماتراه الآن هنا من الخراب وعدم النظر إلى حياة الأشجار الصغيرة ولم أعلل عدم مراعاة الحكومة الأمريكية لهـذه القوانين إلا بكثرة الغابات واتساعها بأمريكا ولكن حبي الشديد لتربية الأشجار جعلنى أُنكر إطلاق الحرية لأصحاب الغابات إلى هـذا الحدّ فصرت كلما مررت على مكان لحقته أيدى الخراب أتأسف كثيرا .

لقينا كثيرا من العمال الذين يقطعون الأشجار وأغلبهم كانوا إيطاليين أما طريقة نقل الأشجار بعد قطعها فهى سهلة جدا وذلك بأن يأتوا بأشجار بعد قطع أغصانها ويكونوا منها خطا مستقيما مزدوجا ممتدا على الأرض إلى قرب المكان الذى يراد قطع الأشجار منه فتنقل الشجرة المقطوعة وتوضع على هذا المزلق وبواسطة آلة بخارية لها حبل طويل من الصلب يقــرب طوله من ميــل وسمكه بوصتان فتربط الشجرة بهذا الحبل وتدار الآلة فتجر الشجرة إلى الأســفل على المجرى حتى تقرب من الآلة فتربط الشجرة فى حبــل آلة أخرى وهكذا إلى أن تصل إلى معمل تشذيب الأشجار ونشرها وبعد التشذيب والنشر يلقى الخشب فى مجرى نهر يوصــلها إلى مكان قرب مدينة فتخزن ومنــه ينقل بالطرق الحديدية إلى الجهات المختلفة وقد علمنــا أنه بواســطة الأنهر يمكن نقل الأخشاب إلى مسافة خمسين ميلا .

قربنا من مكان الأشجار الكبيرة (ماريبوزاجروف أوف بيج ترى) (Mariposa Grove of big trees) ومررنا من باب كبير مكتوب عليه تابع يوزميت فالى يشبه الباب الآخر الذى خرجنا منه قبــل الوصول إلى فندق فوفونا وأمامه أيضا مركز عسكرى وهو معد لحراسة الغابة وبه صف ضابط وثلاثة عساكر والظاهر عليهم أن أشــغالهم ليست

كثيرة ولذا رأيناهم افتنّوا فى انشاء طرق صغيرة مرصوفة بالأحجار المختلفة الألوان حول خصمهم (كشكهم) الصغير وبعد أن تركناهم بنحو خمس دقائق وصلنا إلى وسط الأشجار الكبيرة الهائلة ولا يظن القارئ أن المراد بكبرها أنها طويلة عظيمة الارتفاع فقد رأينا بعض الأشجار التى لا تعدّ من طبقتها أطول منها بكثير بل المراد بكبرها أنها بلغت من العمر عتيا حتى صارت ضخمة جدّا فأغصان بعض تلك الأشجار أضخم من الأشجار العادية التى يستعظمها من لم يشاهد تلك الأشجار الكبيرة فمررنا أوّلا على ثلاث شجرات هائلة فى مدخل الغابة اسمها الحرّاس الثلاثة ثم رأينا على بُعد منها شجرة يابسة ملقاة على الأرض لا يمكن لمن لم يرها أن يتصوّر مقدار كبرها فإن جذعها إذا مر بجانبه فارس ووقف على ظهر جواده ورفع يديه فلا يمكنه أن يمس غايته وكفى لإظهار جسامة هذه الشجرة أن رأينا فى أحد الرسوم المعروضة للبيع عربة يجرها فرسان فوقها فكأنها شارع يسع مرور العربات فأسرعنا إلى الصعود عليها وصوّرت بآلة التصوير صورة لرفيقىّ فلم تكن صورتهما بالنسبة لصورة جذور الجذع شيئا مذكورا وهذه الشجرة يطلق عليها اسم الملك المخلوع أو أب الغابة (Le roi détroné ou le père de la forêt) وكان ارتفاعها بالغا على

مايقال ١٣٣ مترا وطول محيطها خمسة وثلاثين مترا أما نوع هـذه الأشجار فإنها تشبه أشجار الصنوبر ولكن حجم إحداها يبلغ نحو أربعة أمثال حجم شجرة الصنوبر وقد رأينا أن جلها محروق من أسفله وأظن أن ذلك ناشئ من عدم العناية بحراستها وقبل ستين سنة كانت الهنود تضرم النار فيها عمدا . استمر سائق عربتنا فى طريقه إلى أن وصلنا إلى شجرة نُحت فى جوفها نفق ارتفاعه ٣ أمتار وعرضه كذلك فمررنا من هذا النفق بعربتنا دون أن نصادف عائقا وكان طوله ثمانية أمتار وتسمى هذه الشجرة كاليفورنيا (California) فقال لنـا السائق انتظروا فسترون ماهو أعظم منهـا وحقيقة عند ما وقف بنا أمام الشجرة المشهورة باسم جريزلى (Grizzly Giant) اعترتنا الدهشة من جسامتها فإن ارتفاعها يبلغ الثمانين مترا ومحيطها ٣١ مترا وقطر محيط دائرتها تسعة أمتار وعلى بعد ستين مترا من الأرض رأينا أحد فروعها عموديا عليها فقد نشأ من اتصاله بها زاوية قائمة وهو ضخم جدا يبلغ قطر دائرته مترين على الأقل فنزلنا ووقفنا بجانبها فشـعرنا بضعفنا أمامها وتعجبنا من قوة الأرض وكيف تُنبت مثـل هذه الأشجار النادرة ولمـا رأى سائق عربتنا ما نحن غارقون فيه من لجج العجب قال لنـا اركبوا فسأريكم أيضـا أعظم منها فمشى بنـا فى الطريق الموصل إلى أعلى الغابة (Upper Grove)

فوجدنا بها مئات من هذه الأشجار الكبيرة فألفت نظرنا إلى ثلاثة منها يسمونهـا شجرات الرحمة (Les trois graces) ثم إلى اثنتين إحداهما ملتحمة بالأخرى و يطلق عليهما اسم الأمينتين (Les deux fidèles) وهكذا صار يشـير الى كل شجرة ويذكر لنـا اسمها فلم يُترك أحد من مشهورى عظماء الأمريكيين سـواء كان من أعاظم قوادها أو من فطاحل كتابها أومن دهاة حكامها أومن رؤساء جمهوريتها إلا وسميت شجرة باسمه كذلك أسماء المدن العظيمة الأمريكية أطلقت على بعض أشجار منها كمدينة سان فرنسيسكو ونيويورك وغيرهما . ولمـا أن فرغنا من رؤية هذه العجائب ذهب بنـا السائق إلى خص فى وسط الغابة أجّرته الحكومة لشخص يديره و يبيع فيه صور الأشجار وأوعية وعصيّا مصنوعة من خشبهـا فجلسنا فى مكان جميل ووضعنا بيننا ماأحضرناه معنا من غدائنا وأكلنا باشتهاء ثم قدّم لنـا صاحب الخص قهوة لذيذة فشربنـاها وفى نحو الساعة الثانية عشرة والنصف عدنا الى عربتنـا وسارت بنا إلى أعلى قمة فى الجبل فوصـلنا إليها و إذا هى على ارتفاع ٧٥٠٠ قدم من سطح البحر فألقينا نظرة على مايكتنفنا فأعجبنا رؤية الجبال المكسوّة بالأشجـار ثم سرنا إلى شجرة تدعى ڤوڤونا (Wawona) وهو اسم الوادى الذى به الفندق الذى نحن نازلون به ثم ذهب بنـا

إلى شجرة تدعى التيليسكوب (المنظار المعظم) وحقيقة ينطبق هذا الاسم على المسمى فان قلبها كان خاليا فنزلنا ودخلنا فى جوفها ونظرنا فوقنا فرأينا السماء ولايستغربن القارئ ذلك فإنها كانت أحرقت فلم تؤثر النار إلا فى قلبها فجعلته رمادا ومع توالى الزمن وتأثير الأمطار مع قيامها على هيئة عمود صار هذا القلب المحروق يتساقط شيئا فشيئا إلى ان آلت إلى هذا الشكل واستحقت اسم التيليسكوب . أتممنا رؤية الأشجار الكبيرة الهائلة وأمرنا سائقنا أن يعود بنا الى الفندق وفى الطريق قابلنا ثلاث سيدات تحت شجرة وكانت إحداهن راقدة على الأرض وقد خلعت نعليها وكشفت عن رجليها لأنهن قطعن الطريق من يوزميت قالى إلى هنا راجلات فلقين من سفرهن هذا نصبا فلم تستطع إحداهن من شدة الإعياء الاستمرار على المسير فألقت بنفسها على الأرض تحرسها زميلتاها حتى تصادفهن عربة فتحملهن إلى مكان أمين . عدنا إلى الفُندق بعد ساعتين من قيامنا من المكان الذى تناولنا فيه غداءنا وقد كنا قطعنا هذه المسافة فى الذهاب فى أربع ساعات وذلك لأنه فى العودة كان الطريق منحدرا جدًا فالخيل تسرع فى المسير .

إن هذه الاستراضة قد شرحت صدورنا بما شاهدناه من عجائب

خلق الله ولو أن طريقها كان متعبا جدا والنقع كان يثور علينا كثيرا فإن رؤية هذه الأشجار الضخمة الهائلة تنسى الإنسان كل مالقيه من النصب ·

قضينا وقتنا بعد هذه الرياضة فى إماطة ما لحقنا من التراب ثم فى كتابة مذكرات رحلتى إلى أن أتى ميعاد العشاء فتناولناه ثم خرجنا وجلسنا فى ردهة الفندق وقابلنا الوافدين من السائحين من يوزميت ڤالى فكان عددهم خمسين أتوا راكبين فى خمس عربات وبمجرد وصولهم انفصل منهم ست سيدات وثلاثة شبان ركبوا سيارتين أُعدتا لهم دون أن يتناولوا شيأ من الطعام وساروا فى طريقهم وقد أخبرنى مدير الفُندق أن هذا الجمع كله تلاميذ وتلميذات ولا يعرف أحد منهم الطريق ولم يكن معهم من يرشدهم اليه فلم أستغرب هذا الجنون وهذه المجازفة منهم فإن الطيش أعمى بصيرتهم ·

دخلنا بعد ذلك فى بهو فوجدنا آنسة قد بلغت غاية الجمال تعزف على البيانو فلذّ لنا السماع وقد يحلو للإنسان سماع صوت الموسيق خصوصا فى الأمكنة الهادئة ثم ذهبنا إلى غرفنا مسرورين ونمنا وأصبحنا فى يوم الثلاثاء ١١ يونيه مستعدّين للسفر إلى سان فرنسيسكو وكان الميعاد المحدّد لقيامنا منتصف الساعة الثانية عشرة قبل الظهر فقضينا وقتنا

فى رياضة على أقدامنا حول الفندق كما فى خلالها نرى السائحين الذاهبين إلى الأشجـار الكبيرة وكتابة مذكراتى وقبـل أن يحل ميعاد السفر أكلنا ماطاب لنـا من الطعام وفى السـاعة المحددة ركبنا عربتنـا ووجهتنا محطة البورتال والطريق معلوم لنا لأننا حضرنا منه وقد كان سائق عربتنا هو الذى حضر معنا من يوزميت وهو الذى ذهب معنا البارحة إلى الأشجار الكبيرة وهو شيخ هرم مضى عليه أكثر من ٢٨ سنة وهو يشتغل بهذه المهنة وقد ذكر لنا مفتخرا أنه كان سائق عربة الرئيس روزفلت والرئيس تافت عند زيارتهما لهذا المكان وقال إن الرئيس تافت ضخم جدا حتى إنه جلس مكان اثنين فى العربة قال ذلك وقد ملكه الضحك لأنه تذكر أن هذا الرئيس لما أراد أن يذهب إلى أمكنة الثلوج (Glacier Point) لم تستطع دابة أن تحمله وتذهب به إلى أعالى هـذه الجبال فاضطر أيضا أن يقطعها راجلا فكان هذا السائق يسلينا بلطيف مسامرته لولا أنه يبصق كل لحظة فكنت أشمئز من حالته ولكن لا سبيل إلى اجتثاث هذه العـادة القبيحة منه وقد تمكنت فى نفسه

إن الخيل التى كانت تجر عربتنا هى الخيل التى جاءت بنا من وسط طريق وادى اليوزميت ولكن عند حضورنا كانت طريقنا منحدرة

فقطعت المسافة فى ساعة ونصف أما ونحن عائدون منها فإننا نصعد ولذا قطعناها بعد مشقة وجَهد فى ثلاث ساعات ونصف ولما كانت الطريق مفمعة بالتراب وقد عرفناها من قبل أعددنا لها عدّتها وارتدى كل منا ماكينشوشة (معطف واق من المطر) وقد وقفنا فى المكان الذى استبدلت فيه الخيل فى المرة الأولى واستبدلت خيولنا وسرنا فى طريقنا الذى يتحدر الآن وبعد ساعة وثلاثة أرباع الساعة وصلنا إلى وادى اليوزميت ولم نصادف فى طريقنا شيئا غير الذى ذكرناه قبلا يستحق أن يذكر غير أن السائق سأل هل ستحضر عربة أخرى لتذهب بنا إلى البورتال فأُمر بأن يستمر فى سيره إلى النهاية فاتباعا للأمر سار بنا إليها وكانت المسافة الباقية للوصول إليها ١٢ ميلا وكنا نتبع مجرى النهر العظيم ولحسن حظنا وجدنا الطريق مرشوشا فلم نلاق فى عودتنا مايكدر صفاءنا وقد قابلنا وكيل شركة العربات يسوق بنفسه عربة قد ركب فيها بعض سيدات ورجال فعرفنى وحيانى فقلت للسائق إن هذا الوكيل يستريض مع أسرته اليوم فقال لا ياسيدى انه ينوب عن سائق لأن كثيرا من السائحين حضروا ولم يكن عدد الحوذيين كافيا فاضطر أن يسوق عربة حتى لا يضيع زمن على أولئك الراكبين فى عربته وقد أثبت قوله هذا أننا بعد مروره قابلنا عربة ثانية

ثم ثالثة فسألنا سائق الثالثة هل تأتى بعده عربات فأجابنا إن العربات الآتية وراءه خمس عشرة وكلها مملوءة بالسائحين •

وصلنا إلى اليورتال فى الساعة ٦ و ١٥ دقيقة مساء فقطعنا الطريق ما بين فوفونا واليورتال فى نحو سبع ساعات وقد لقينا من سفرنا هذا نصبا لأننا كنا جالسين طول هذه المدة وأيضا لانحـدار الطريق كانت العجلات مقيدة فكان لصوتها تأثير سيئ فى أعصابنا ثم دخلنا الفندق وذهبنا مسرعين إلى محل غسل الأيدى وأزلنا مالحقنا من الغبار وبعد ذلك تناولنا عشاءنا ونفوسنا تشتهيه ثم ذهبنا إلى المحطة لنرى هل أعدّت لنا محالّ فى القطار فلقينا ذلك الزنجيّ الذى كان معنا فى القطار عند حضورنا فتقدّم إلىّ وقال إنه عائد هذه الليلة فأخبرته أننا أيضا نسافر معه وقد استفهمت من محل بيع التذاكر هل جاءتهم تنبيهات من كوك تتعلق بنا فأجبت بأن تذاكرنا حاضرة وقد دفع ثمنها فتسلمتها وفى الساعة ٨ حضر قطارنا فأخذنا مكاننا فيه وقد كان الحرّ شديدا جدّا وبعد ربع ساعة تحرك بنا القطار وقد قضيناها ليلة ساهرة وماأتت الساعة السادسة من صباح يوم الأربعاء ١٢ يونيه حتى كنا مرتدين ملابسنا وبعد مدّة قصيرة وقف بنا القطار بمحطة أوكلند (Oakland) وهى التى نركب منها فى الباخرة النقالة للذهاب إلى سان فرنسيسكو فأسرعنا فى نقل متاعنا

اليها حتى ندرك مكانا لنا فيها لأن هذه الساعة هى ميعاد ذهاب العمال إلى سان فرنسيسكو فالزحام يكون عادة شديدا فسارت بنا إلى أن وصلنا إلى الشاطىء الآخر وركبنا سيارة فندق فيرمونت Fairmont التى كنا نزلنا فيها فى المرة الأولى وأوصلتنا إليها نحو الساعة التاسعة صباحا وقد أعطيت لنا الغرف التى كنا نزلنا فيها أيضا فسررنا وحمدنا سُرانا حيث وصلنا إلى هذه المدينة بعد التعب الشديد فرأيت أن أبتدئ أولا بدخولى الحمام الساخن ليذهب عنى ما أشعر به من مشاق السفر فأسرعت إلى الدخول وكنت أظن أن حقيبتى التى بها ملابسى الداخلية قد أحضرناها معنا فى السيارة ولكن خاب هذا الظن فانى بعد ما اغتسلت وأردت أن أرتدىَ ملابس نظيفة لم أجد الحقيبة فاضطررت أن أتأزر بإزار وأرتدىَ برداء كما يفعل ذلك العاملون فى حمامات مصر واضطجعت على سريرى منتظرا رحمة من سيحضرها إلىّ فطال انتظارى بدون جدوى فتكلمت بالتلفون مع مدير الفندق وطلبت منه أن يسرع بإرسالها وبعد مرور ساعة وأنا من طول الانتظار على أحرّ من الجمر أتت الحقيبة ولكن بعد أن ملكتنى سورة الغضب ولم ينصرف عنى إلا بورود تلغراف من صاحبة الدولة والدتى يبشرنى بتمام صحتها التى أرجو من الله دوامها فانقلب الكدر سرورا ونسيت

كل ما كنت أجد من الكدر وبعد تناول الغداء أجبت دولتها بتلغراف وفى منتصف الساعة الثالثة بعد الظهر حضر المستر ستوك مدير محل كوك بسان فرنسيسكو وأحضر إلىّ تذاكر السفر وخطة باقى السياحة فسردت له مالقيته من حسن العناية فى كل الأمكنة التى زرتها وذلك بفضل رسائله التى كانت تسبقنا إلى كافة مديرى الفنادق وغيرهم بالتوصية علينا لعمل كل مافيه راحتنا وشكرته كثيرا وبعد انصرافه ركبنا سيارة وذهبنا إلى مكتبة فرنسية لنشترىَ منها بعض جرائد أوروبا لنقف منها على الأخبار وبعد رياضة قليلة عدنا إلى الفندق لكتابة مذكراتى وبذا انتهى أول يوم بهذه المدينة العظيمة وفى صباح اليوم الثانى (الخميس ١٣ يونيه) لم نعمل شيئا يستحق الذكر إلا أنى ذهبت ومعى مصطفى بك إلى داخل المدينـة لشراء بعض أشياء مثـل بطاقات البريد (كارت بوستال) وبعض صور وغيرها ولما عدنا الى الفندق وجدنا فى ردهته عددا عظيما من اليابانيين واليابانيات ومعهم بعض الأمريكيين فعلمنا أنهم تابعون لجمعية الصليب الأحمر اليابانية وقد حضروا إلى هنا لحضور حفلة تكريم أقيمت لهم ولتناول الغداء على مائدة الفندق فصرنا نراهم وهم يحيون بعضهم بعضا ويحنون انحناء التعظيم والاحترام وذلك على حسب عاداتهم المتبعة فى بلادهم . أما

ما بعـد ظهر اليوم فقضيناه فى التجوال فى أحياء المدينة راجلين وقد شعرنا بالسآمة من الإقامة فيها .

ولمـا أتى (يوم الجمعة ١٤ يونيه) استفهمت من محل كوك هل وصلته رسائل لنا فعلمت أنه لم يصل إليه شئ من ذلك وفى متصف الساعة الحـادية عشرة غادرنا الفندق قاصـدين السفر إلى پورتلنـد (Portland) فأخذنا متاعنا و ركبنا السيارة فأوصلتنا إلى مرسى الباخرة النقالة التى تذهب بنا إلى أوكلند وهى المحطة العامـة التى يسافر منهـا السائح إلى الجهات التى يقصدها وقد سبق الكلام عليها عند سفرنا فى المرة الأولى من سان فرنسيسكو إلى يوزميت ڤاللى

وصلنا إلى المحطة قبل تحرك القطار بنصف ساعة فأخذنا مكاننا فيه وقد كان عدد المسافرين عظيما جدّا و رأينا بعضهم وعلامات الفقـر ظاهرة عليهـم فصرت أقول من أين تأتيهـم الدراهم حتى يتنقلوا و يسافروا على قُطُر أجورها غالية أما كان الأولى لهم أن يصرفوها فى تحسين أحوالهم وقد رأيت بينهم أشخاصا تدل هيآتهم على الشرّ فإن ملامحهم كانت تشبه ملامح سـفاكى الدماء وقاطعى الطرق ولا عجب فإن أمريكا يلجأ إليها كثير من أمثال هؤلاء الأشرار الذين يهربون من بلادهم فرارا من القصاص وهربا من يد القانون وقبل تحرك قطارنا

بخمس دقائق رأينا عالماً يتدفق كالسيل للركوب فيه فاستفهمت من خادم عربتنا عن سبب سفر هذه الجموع فأخبرني أن هــذا القطار هو أسرع القُطُر التي تسير على هذا الخط فإن المسافة الشاسعة التي يقطعها في ٣٢ ساعة تقطعها سائر القُطُر الأخرى في ثمان وأربعين ساعة .
تحرك بنــا القطار قرب الظهر وأهم مدينة مررنا عليها قبل أن يرخى الظلام سدوله هي مدينة ساكرامنتو عاصمة كاليفورنيا

وفي صباح يوم السبت (١٥ يونيه) كنا نخترق ولاية أوريجون (Orégon) وكان طريقنا بين الجبال وكنا بين وقت وآخر نمرّ بمضـيق وكان سـيرنا بجانب نهر ساكرامنتو (Sacramento) فلم نحرم من المناظر الطبيعية الجميلة أما الغابات فكان يظهر عليها أنها مهملة لأننا لم نلمح فيها طريقا منتظما وقد رأينا كثيرا من مناجم النحاس فإذًا هذه المقاطعة غنية بمعادنها وقد رأينا أيضا كثيرا من قطعان الحيوانات ترعى بجانب النهر وعلمنــا أن عددا عظيما من المهاجرين يفد إلى هــذه المقاطعــة للإقامة بها ويظن أنها مع الزمن ستصبح من أهم المقاطعات عمرانا .

وصلنا إلى مدينة سالم (Salem) وهي عاصمة ولاية أوريجون وهي مشهورة بكثرة معاملها وفي منتصف الساعة الثالثة بعــد الظهر وصلنا إلى مدينة بورتلند وكان عدد الراحلين منها والوافدين اليها من السائحين

كثيرا جدّا فشعرنا بأنها إحدى المدن المهمة و بينما كنا نبحث عن سيارة الفندق الذى سننزل فيه تقدم إلينا شخص بادن الجسم فسألنا هل المستر (بيك) (Bey) بيننا (لقد حسب الامريكيون أن كلمة بيك اسم لى) فقلنا له نعم فذكر أنه يقصدنا فتعرفت إليه باسمى المستعار الذى كنت أسيح مسمى به فقال إنى حضرت بسيارة خصوصية لكم و إنى آسف لوصولى إلى المحطة متأخرا وكنت أود أن انتظركم حتى لا تلاقوا أىّ تعب فشكرته وركبنا السيارة فعرفنى بأنه مدير فندق مولتنومه (Multnomah) ثم أمر السائق أن يسير فرأينا أن الطريق مزين بالأعلام والزهور فسألته عن السبب فقال إن اليوم عيد الزهور وقدومكم مبارك ولما وصلنا الفندق صعد معنا إلى الغرف التى كان أعدّها لنا من قبل فى الطابق الثانى فأعجبتنا و بعد أن مكثنا بها قليلا من الزمن نزلنا إلى ردهة الفندق العامة فوجدناها قد ملئت بالجالسين وعلمنا أن الدخول هنا مباح لعامة الناس كفنادق نيو يورك فأىّ شخص له أن يحضر و يجلس مع رفقائه وأصدقائه ولو لم يكونوا نازلين بالفندق ثم رأينا فى نهاية السلم الموصل للطابق الأول رحبة تدور حول غرف هذا الطابق وتطل على الردهة العامة و بها جملة كراسى الجالس عليها يرى الداخل والخارج من الفندق وأمام كل كرسىّ سماعة تلفونية توصل له أنغام موسيقى ملهى المدينة الشهير

ويسمع منهـا أدوار الغناء وبجانب كل سماعة برنامج القطع الموسيقية وميعاد التلحين وهكذا يمكن لأىّ إنسان أن يحضر ويسمع كل مايدور فى هذا الملهى بدون دفع أجرة . وهذا ليس بالشئ الغريب فإن فى باريس محـلا خاصا يدعى تياتروفون (Théatrophone) به مثل هـذه السماعات التليفونية أما إباحة الدخول للعامة فى هـذا الفندق فالغرض منه جلب السائحين إليه بواسطة سكان المدينـة الذين لا بدّ أن يصفوا لأصحابهم وأقاربهم محاسن هذا الفندق وما هو عليـه من النظام ويرغبوهم فى النزول به عند حضورهم إلى مدينة بورتلند وقد تم لهم هـذا الغرض لأن هذا الفندق على حداثة عهده قد نال شهرة عظيمة جعلته محط رحال السائحين .

أوصينا على سـيارة فأتت وكانت أجرتها ثلاثة دولارات ونصفا فى الساعة فركبناها وأخذنا معنا دليلا ليرينا المدينة وقد أغتنمنا فرصة صفاء الجو لرؤية كل ماتهم رؤيته لأننا كنا سمعنا من قبل أن الأمطار قلما ينقطع انهمارها فى هذه المدينة فذهبنا أوّلا إلى الأحياء الجديدة ووجدنا منازلها مصـنوعة صنعا جميلا من الأخشاب وكلها محاطة بالبساتين ثم مشينا بجانب نهر ويللاميت (Willamette River) الذى يخترق المدينة ورأينا عليه أربعة جسور (كبارى) وهم يشتغلون

فى إنشاء خامس وقد تقدمت المدينة تقدما بينا فإنها فى سنة ١٩٠٠ كان عدد سكانها لا يتجاوز ١٠٠,٠٠٠ نسمة وقد أصبح اليوم يزيد عن ٢٢٠,٠٠٠ ولكن جل سكانها من الألمان وقد يوجد بينهم ٣٠٠٠ صينى وسبب اتساعها أنها متصلة بالبحر وهى ملتقى جملة خطوط حديدية والتجارة منتشرة فيها انتشارا عظيما خصوصا تجارة الدقيق والأخشاب وما يصنع منها أما معامل الجعة (البيرة) ومصانع الحبال فعددها عظيم و بينها و بين الصين واليابان مبادلات تجارية بطريق البحر وقد قدرت قيمة تجارتها العامة السنوية بمبلغ أربعين مليون دولار .

ذهبنا بعد ذلك لرؤية دار البلدية والغرفة التجارية ودار البريد العام والمحاكم ودار التمثيل (الأوبرا) وغيرها وكلها أبنية شاهقة وبعد ذلك قربنا من الميناء فوجدنا بها دارعة أمريكية اسمها ماريلاند(Mariland) مزينة بالأعلام المختلفة الألوان ويزورها جم غفير من أهل المدينة والسرور باد على محياهم لما وصلت إليه بلادهم من القوة والمنعة وفى اشتراك الحكومة فى إقامة معالم الزينة على إحدى مدرعاتها والاذن لرعاياها بزيارتها دليل قطعىّ على شدة حرصها على مراعاة شعور الأمة ومشاركتها فى أفراحها وما جعلت زيارة هذه المدرعة مباحة إلا

لاستجلاب محبتهم ولتقوية الرابطة بينهـا و بينهم ولتُظهر لهم أن الحكومة مجدّة فى حفـظ مكانتها بين الأمم وهـذه القطعة الحربيـة ماأُنشئت إلا بأموالهم للدافعة عنهم ولصدّ كل عدوّ يريد التعدى عليهم فبمثل هـذه الأمور تثق الأمة بحكومتها و يتربى الحب الصحيح مع الاحترام لها فى قلوب رعاياها كذلك بمثل هـذه المظاهر يسهل على رجال الحكومة جباية الأموال لأن الشعب يشعر بضرورتها وشـدّة الحاجة إليها فيدفعها عن طيب نفس .

ذهبنا بعـد ذلك لرؤية حىّ يسكنه الأغنياء ولكننا لم نر فيه عظمة المنـازل التى رأيناها فى (لوس انجلوس) أو فى (پسادينـا) وقد كنا سمعنا أن مدينة پورتلند مشهورة بكثرة أنواع الورد فيها فأخذنا نبحث عن هـذه الشهرة لعلنا نتحقق من صحتها فلم نجد لهـا أصلا وما يوجد فى بساتينهـا من الورد لايقاس بمـا يوجد فى جنـوب كاليفورينـا فحملنا هـذا أيضا على مغالاة الأمريكيين . استمررنا فى طريقنا إلى أن وصلنا إلى حديقة (City Park) ورأينافيها مكانا يشرف على منظر المدينة بمينائها ونهرها والجبال التى تحيط بها وقد خُيل إلينا أن المدينة يسكنها مليون من النفوس وذلك لأن شوارعها المتسعة ومنازلهـا المحفوفة بالبساتين جعلتها كبيرة وعظيمة الاتساع . دخلنـا الحديقة

فوجدناها حديقة عادية ولم نرفيها ما يستحق الذكر إلا مكانا معدا للحيوانات به أربعة من الجاموس الوحشى فغادرناها مسرعين إلى الفندق وبعد تناول العشاء صعدتُ إلى غرفتى لأستريح وتركت زميلىّ يذهبان لرؤية عيد الكارنفال . وفى صباح يوم (الأحد ١٦ يونيه) سمعت منهما أن الزحام كان شديدا حتّى إن القوى يأخذ فى وجهه الضعيف ولا حاكم هناك إلا القوة فكان النظام مختلا والفوضى عامة وقد رأيا كثيرا من الشبان يحمل كل واحد منهم على كتفه فتاة تصيح إذا رأت أنها على وشك السقوط من مكانها المحبوب ومع ذلك لا يلتفت إليها ولا إلى استغاثتها فياويح من كانت فى مثل حالتها إنى لتأخذنى الشفقة على فتى يحمل غادة على كتفه فى وسط هذه الجموع الذين لا يراعون حرج موقف أمثال هذا الفتى الذى ندم على زيادة تلطفه وتقربه من الغادات الحسان وأظنه إن سلم فى ليلته هذه فلن يعود إلى مافعل ولوكانت الآنسة أجمل النساء . أما مصطفى بك فإنه فقد نفسه فى هذا السيل الجارف فاستغاث بزميله فانتشله بعد عناء كبير ورجع الاثنان راضيين من الغنيمة بالإياب .

إن مثل ذلك يحصل عادة فى أيام الأعياد فى جميع أنحاء الدنيا فما بالك فى بلاد الأمريكيين والحرية فيها مطلقة لا حد لها وعدم المبالاة

من عوائدهم وقد شهد رفيقاى مع مالقيا من الشدّة فى هذا الزحام بأن مارأياه من المعروضات يستحق الإعجاب فقد كانت العربات مزدانة بأنواع الزهور المختلفة الجميـلة وقد صوّرت أنواع الطيور مجسمة وكذا بعض الحيوانات كالفيـل وغيره وكل هـذه الصور قد وضعت على عربات وغطيت بالزهور والحشائش فلايراها الإنسان وتلك العربات تسـير على طريق الترام بقوّة الكهرباء مضاءة بأنوار متلألئة ساطعة فكان الإتقان بالغا حدّه وحسن الذوق آخذا نهايته .

خرجنا قبل الظهر راجلين للاستراضة ولما عدنا إلى الفندق وجدت رسالة من الأستاذ سان ساين(Saint Sains)ووجد خيرى بك رسالة من أخيه علمنا منها بعض أخبار بلادنا العزيزة وفى الساعة الثالثة بعد الظهر ركبنا سيارة وأمرنا سائقها أن يذهب بنـا إلى الخلاء لنستنشق الهواء النقىّ فصادفنا فى طريقنا جمعا كبيرا يروضون أنفسهم بالألعاب المختلفة ولمـا خرجنا من المدينة ورأيتُ الطقس معتـدلا أمرت السائق أن يستمر فى طريقه متبعا مجرى النهر بعد ماعلمت منـه أنه يمكننا أن نسير فى هذا الطريق المنظم مسافة ٨ أميال وقد مررنا على بعض مصانع صغيرة يشـتغل فيهـا بعض المحكوم عليهم بعقوبات خفيفة .

عدنا إلى الفندق مسرورين من رياضتنا نحو الساعة السادسة وفى صباح يوم (الإثنين ١٧ يونيه) أخذنا نعدّ أمتعتنا استعداد للرحيل وقد كان الحر شديدا حتى عجبنا من بلوغه إلى تلك الدرجة من الشدّة فى مثل هذه البلاد وقد سألنا بعض الأمريكيين عن حالة هذا الطقس فقالوا لنا إنهم لم يروا مثل هذا اليوم المحرق . وفى الساعة ٢ وربع صحبنا مدير الفندق إلى المحطة ليودعنا فأخذنا مكاننا فى العربة ولكننا لم نطق شدّة الحرّ لضيق الغرفة المعدّة لى فاسرعنا إلى العربة المكشوفة (Observation Car) لندرك أماكن فيها قبل الازدحام . وقبل قيام القطار بعشر دقائق تقدم إلينا شخص وسألنا باللغة الإنكليزية هل بيننا الأمير محمد على فظننا أنه ربما كان أحد مخبرى الجرائد فأجبناه متنكرين حتى نتخلص منه ففارقنا بعد أن أبدى لنا عظيم احترامه . سار بنا القطار ولم تخفّ وطأة الحرارة فاضطررنا أن نذهب إلى غرفتى ليخلع كل منا (الجاكته والصديرى) كما يفعل الأمريكيون عند اشتداد الحرّ وفتحنا كل الشبابيك رغما من كثرة الدّخان والقتام المتصاعد من سرعة سير القطار فلم يُجدنا فتح الشبابيك نفعا وقد وجدت باقة من الزهور مرسلة باسمى من أحد السورين واسمه الخواجه عزيز عطيه فأعجبنا هذا الذوق السليم وهذا التلطف الجميل .

نحن نسير الان فى مقاطعة واشنجتون بين غابات كثيفة والناظر إلى اليمين يرى على بعـد جبل (Rainer) وعلى رأسـه الثلج ولم نصادف مدنا كبيرة تستحق الكلام عليها وفى الساعة ٧ ونحن فى عربة الأكل وصلنا إلى بلدة تاكوما (Tacoma) وعدد سـكانها ٣٠٠٠٠٠ وبها غابة عظيمة (Forêt vierge) وهى شهيرة بمعامل الحـديد على اختـلافه ومصانع الأخشـاب وغيرها وتجارتها فى الحبوب والأخشاب والفحم الحجرى والشاى وغيره وصـلنا فى الساعة ٩ مساء إلى مدينة سـياتل (Seattle) وقد رأينا بمحطتها خمس طرق حديدية آتية من جهات مختلفة فدلنا ذلك على أنها مدينة عظيمة وقد أعجبنا بناء محطتها الحديدة وهى فى نظرى أجمل محطة رأيتها إلى الآن بعد محطتى شيكاجو ونيويورك .

ركبنا سـيارة بعد أن أعطينا وثائق حقائبنـا الكبيرة لأحد العمال الذى تقدم إلينـا وأخذ يقول . هنا ياسـيدى نعتنى كثيرا بإيصال الأمتعة لأربابها قبل مضى ساعة من الزمن فكن مطمئنا فسيصلك جميع متاعك وأنت فى الفندق بعـد زمن قليل جدا فتركناه على هذا الشرط وأمرنا سائق سيارتنا أن يذهب بنا إلى فندق واشنجتون الجديد (New Washington) ولمـا وصلنا إليه وجدناه فخما ومنظما وقد حجز لنا

جزء كبير من طابقه يزيد عن حاجتنا فقبلناه حتى نخلع ملابسنا ونستريح من عناء السفر ولكن طال انتظارنا ومتاعنالم يؤت به الينا قبل منتصف الساعة الثانية عشرة فلم أتمكن من النوم إلا بعد نصف الليل لوجود الموسيقى التى تعزف عادة ليلا بالقرب من غرفتى التى تطل على شارع يمر منه جملة (ترامات) فأسمع مايقلق راحتى من الداخل والخارج .

فى صباح يوم الثلاثاء (١٨ يونيه) كلفت مصطفى بك أن يذهب إلى إدارة الفندق ليطلب تغيير هذه الغرف فأجـ المدير إن هذه الغرف معدة لرؤساء الجمهورية وليس عنده أعظم منها وإن أجرتها فى الليلة الواحدة ثمانية جنيهات فاستكثرت هذه القيمة على مثل هذه الغرف وتمسكت بطلبتى لأنى لاأرى من الحكمة أن يـ ـع الإنسان ماله فى غير موضعه لاسيما أنى لست روتشيلد زمانى ولا فاندربلت أمريكا ثم انتهى الأمر بأن أدركنا ماطلبنا .

وبينما كنا على مائدة الطعام وصلتنى إشارة برقية من الخواجه عزيز عطية وأخيه يرحبان فيها بوفادتى إلى هذه البلاد ويذكران أن السوريين الذين يقيمون فى مدينة پورتلاند كانوا يودون مقابلتى لإبداء ما فى ضميرهم من الإخلاص والحب لى ولأسرتى فتذكرت الشخص

الذى تقدّم إلينـا فى المحطة وسأل عنى مع عظيم الأدب والاحترام فأسفت لأنى لم أستفهم منه عما يطلبه لظنى إذ ذاك أنه أحد مخبرى الجرائد ولو كان قد تكلم معنا بلغتنا المحبوبة لما خفى علينا أمره ولما حرمنا من التمتع بثمار هذه المصادفة الجميلة فأرسلت إليه فى الحال إشارة برقية أشكره على حسن عنايته وأتمنى له ولأهل وطنه ببورتلاند السعادة والرفاهية وكلفت خيرى بك أن يكتب له خطابا رقيقا يعبر عن شعورى نحوهم ورجائى أن يوفقهم الله دائما إلى ما فيه صلاحهم وفلاحهم .

خرجنا بعد ذلك للاستراضة راجلين فوجدنا المدينـة عامرة كثيرة السكان والظاهر أنها كانت فى سنة ١٩٠٠ لا يسكنها أكثر من ٧٠٠٠٠ نسمة والآن يزيدون عن ٢٤٠٠٠٠ أما نظافتها فحدث عنها ولا حرج وقد أعجبتنا أكثر من مدينـة بورتلاند . وبعد ذلك ركبنا (الترام) للذهاب إلى شركة (.Pacific Coast Co) للاستعلام عن ميعاد قيام الباخرة التى ستذهب بنا الى الاسكا (Alaska) وللاتفاق معها على طريقة إرسال حقائبنا الكبيرة ولمعرفة حالة غرفنا التى أعطيت لنـا فى هذه الباخرة وبعـد أن أتممنا ذلك كله عدنا إلى الفندق وفى منتصف الساعة الرابعة بعد الظهر ركبنا سيارة وأخذنا معنا دليلا مطبوعا للسائحين يبين شوارع المدينة والأمكنة التى ينبغى زيارتها .

سارت بنا السيارة فى طريق به منازل جديدة متقنة البناء وقد علمنا أنها بنيت مكان تل أزالته يد الإنسان بتسليط قوة تأثير المياه المقذوفة من أفواه مضخات هائلة عملت لذلك وقد ابتدئ فى بناء مكان هـذا التل منذ خمس سنوات . المـدينة عظيمة وآخذة فى الرقىّ بسرعة مدهشة يجـدير بى أن أذكر للقارئ الأسـباب التى رأيتها أدت إلى هذه النتيجة السريعة . إن مدينة سياتل واقعة على شاطىء البحر فى أحسن موقع طبيعىّ فهى على لسان داخل فى البحر والداخل فيها يرى البحر عن يمينه ساكنا هادئا لوجود جزائر كثيرة مزدانة بالأشجار المورقة فمنعت هذه الجزر تلاطم الأمواج وصارت حاجزا قويا يصدّ عنها تقلبات البحر الهائلة فلا يرى الإنسان أثرا للأمواج المتلاطمة بل يرى وجه الماء كأنه بساط سندسىّ يضرب لونه إلى الزرقة لا يعكر صفاءه إلا سير البواخر المختلفة و يرى عن شماله بحيرتين عظيمتين ماؤهما عذب وفى وسطهما بعض جزر أخرى لا تقل جمالا عن الجزر التى فى البحر وهـذه المدينة واقعة على حدود حكومة كندا وقد أنشأت حكومة الولايات المتحدة فى إحدى الجزر القريبة منها جملة حصون وضعت فيها المدافع الضخمة لحمايتها عند اقتضاء الحال . والبواخر الذاهبة إلى تاكوما التى سبق الكلام عليها تمرّ أولا على مدينة سياتل فهى إذا محطة

بحرية عظيمة . إن موقع هذه المدينة الذى يسمى (Elliot Bay) على مســافة ٣ كيلو مترات من إحدى البحيرتين الســابق الكلام عليهما واسمها بحيرة واشنجتون وطولها ٣٠ كيلو مترا وعرضها يختلف من ٣ إلى ثمانية كيلو مترات فلاتساع هذه البحيرة يشتغل الأمريكيون الآن فى فتح قنال يوصلها الى مدخل البوت المذكور عرضه ٣٠٠ قدم وعمقه كاف لمرور (أكبر بارجة دريدنوط) حربية فمستقبل هذه المدينة عظيم جدًا بالنســبة لموقعها التجارىّ والحربىّ ومن التهويل الذى سمعناه من الأمريكيين عن بحيرة واشنجتون المذكورة كما هى عادتهم فى كل شئ أن عمقها مجهول إلى الآن ولا يعرف قرارها إلا الله فلم أصدّق هذه الدعوى الباطلة لأن الإنسان أمكنه أن يعرف قرار أعمق نقطة فى البحر وهى ٩٠٠٠ متر فهل يتصوّر أن يعجز عن معرفـة عمق هذه البحيرة كلا ثم كلا وما ذلك على العلوم العصرية بعزيز .

هذا ويجدر بى ذكر سبب آخر وهو فى نظرى أهم الأســباب التى دعت إلى ارتقاء هــذه المدينـة ونموّ عمرانهـا : كشفت فى جهات الاسكا منـاجم كثيرة للذهب فأقبلت الشركات لاســـتخراج هذه الكنوز من بطون الأرض ولمـا كان العمل يحتاج إلى ألوف كثيرة من العمال سهلت الحكومة كل الأســباب لجلب هؤلاء العمال ولكن

فى جهات الاسكا لايمكن الانسان أن يتحمل شــدة البرد فى فصل الشتاء ولما كانت مدينة سياتل ليست شـديدة البرد وهى قريبة من (الاسكا) أقبل جميع العملة وأصحاب الشركات على السكنى فيها مدّة الشتاء . كذلك تكشيف المناجم فى (الاسكا) لم يقف عند حدّ فمن وقت إلى آخر يكشف منجم جديد يحتـاج إلى عملة آخرين كثيرين فيضطرون إلى الإقامة فى (سياتل) فى فصل الشتاء فالزيادة إذا مطردة ولا يخفى أن الأماكن التى تظهر فيهـا منـاجم الذهب يكون الإقبال عليها عظيما لأن كل إنسان مولع بالحصول على الثروة فالمهاجرون إلى هذه الجهات يزدادون طمعا فى العثور على هذه الكنوز المدفونة فى باطن الأرض ولا يفوت القارئ أن منازل أصحاب الشركات ومهندسيها ومديريها ورؤساء العملة وغيرهم لا يتركونها خالية فى فصل الصيف فقد يفد إليها للإقامة بها جملة أسرات لقضاء فصل الصيف فيها فالحركة فيها مستمرة صيفا وشتاء .

نعود إلى ذكر ما رأيناه فى المدينة أثناء رياضتنا بالسـيارة : إننا كنا نسير فى طرقات منظمة ولكنها غير مسـتوية لأن المدينة مشيّدة على آكام وتلال وهذا مايزيد جمالهـا وقد لاحظنا أن طولها أكثر من عرضها أما منازلها فهى فى الجملة متقنة البناء وقد سألنا سائق السـيارة

هل لهذه المدينة أحياء قديمة لنزورها فذهب بنا إليها وهى بالرغم من قدمها لاتخلو ممـا يستحسنه الذوق وأثناء سيرنا رأينا دخانا متصاعدا إلى عنان السماء من جهة البحر فسألنا عن منشئه فأخبرنا أن النار شبت فى مخزن أخشاب كبير فأمرنا سائق العربة أن يقصد بنا مكانها لنقف على طريقـة إطفاء الحرائق وهل عنـدهم من المضخات والأدوات الواقية من شر الحريق ما يكفى لحصر النار فى جهة واحدة وإخمادها بسرعة فذهب بنا حتى قربنا منها ووقفنا على تل عال نرى منه موضع الحريق فيالها من ساعة رهيبة . إن ألسـنة النار كانت تندلع مرتفعة ارتفاعا هائلا فى متسع عظيم لايقل عن اتساع ثكنة قصر النيل ومن الغريب أن بعض الأخشاب كانت طافيـة على سطح ماء البحيرة فلم يؤثر ذلك فى قوة النار فـماذا تفيـد إذا المضخات وإن كثر عـددها فى مثل هذه الحـالة وقد اجتهدوا كثيرا فى فصـل جزء عظيم من الأخشاب العائمـة على وجه الماء حتى لايلحقها الشرر فتصبح رمادا ولا تسل عن اجتهاد عمال المضخات فى إخماد النار ومساعدة الألوف لهم ولكن اجتهادهم لم يكن مخففا وطأة النار التى صارت قطعـة من الجحيم وقد كنا نشعر بحرارتها من مكاننا البعيد فكيف يكون حال هؤلاء التعسين وهم على مقربة منها . ولو كان هـذا المخزن فى وسـط البلد

لدمرها تدميرا وجعلها قاعا صفصفا ولكن المتبع فى أمريكا أن جميع مصانع الخشب ومخازنه لا يؤذن بوجوده داخل المدن بل يكون دائما على شـواطئ البحار أو الأنهر بمبعد من المنـازل والظاهر أن سبب الحريق شرارة صغيرة خرجت من إحدى مداخن الآلة المتحركة التى تنشر قطع الخشب الكبيرة فعظم خطبها حتى حدثت هـذه الخسارة الجسيمة .

أما الهواء فكان يزيد النار اشتعالا ولكنه كان يأتى من جهة البر فيلق بها إلى جهة المـاء ولا تسل عن عدد الذين حضروا لمشاهدة النار وما عملت فإن السيارات والعربات كانت تحضر عشرات تحمل السيدات والرجال والأطفال ولم نر أحدا من رجال الشرطة حضر للمحافظة على السكون أما عدد المضخات فكان لا يزيد عن ستة ورجالها قليلون .

بعد أن مكثنا زمنا أمرنا سائق سيارتنا أن يستمر فى طريقه لتتم زيارة المدينة فمرّبنا على ثلاث حدائق مسـاحة احداها ٢٠ ميـلا والثانية سبعة أميال والثالثة أحد عشر ميلا وكلها حدائق ذات بهجة وهى على شاطىء البحيرة وقد أخبرنا السائق أن هناك مشروعا لاتصالها كلها بعضها ببعض فتصبح مساحة حديقة المدينة ٨٠ ميلا تكتنف البحيرة من كل جهة .

مررنا أثناء سيرنا على القنال الذى يشتغلون الآن فيه وهم على وشك الفراغ منه وقد سبق الكلام عليه أما طريقة حفره فهى أنهم يسلطون المياه المندفعـة بقوة من المضخات على الرمال والتراب فتزيلها بسرعة غريبة وقد أعجبتنى هذه الطريقة كثيرا .

وقد شاهدنا فى الطريق مســتشفى عظيم البنـاء أنفق على بنـائه ١,٥٠٠,٠٠٠ دولار فأعجبنا موقعه ونخامته . وبعد ذلك ذهب بنا السائق إلى الرصيف الذى ستركب منه فى الباخرة إلى (الاسكا) فرأينا تلك الباخرة متوسطة بين الصغيرة والكبيرة ثم أمرناه أن يعود بنا الى الفندق ونحن فى الطريق رأينا مضخات تعدو إلى جهة والناس يعدُون وراءها ورأينا عمودا قائما على طرف رصيف الشارع له جناح أحمر اللون ومعلق به جرس سمعنا له صلصلة وهذا ماينبئ عن حصول حريق فذهبنا نحن مع الذاهبين الى مكانها ورأينا الدخان يخرج من نافذة منزل ذى ست طبقات وقد وصلت ثلاث مضخات وصارت تشتغل فى إطفائها ورأينا على سطح المنزل المذكور آلة صغيرة يديرها بعض الرجال وهى تغمر سطح المنزل بالماء حتى لا تؤثر فيه النار ولكنها لم تأت بما أُريدَ منها فإن مثل هذه الآلات قد تتلف فى وقت اشتداد الحاجة إليها وهذا مايثبت أن الاحتياط ولو عظم لا يفيد شيئا إذا قدر الله أمرا فلا رادّ لقضائه .

بعـد قليل من الزمن أطفئت النيران وأخذنا طريقنـا للعودة إلى فندقنا وهناك وجدنا رسالة من مدير شركة (الكناديان باسفيك) يقول لنـا فيها إنه حضر مرارا ليرانا والقدر لم يوفقه الى ذلك وهو مكلف من قبل المستر ستورس (أحد مديرى كوك) أن يتسلم متاعنا ليرسله إلى ڤانكوڤر (Vancouver) فكتبت له كلمة أشكره وأرجوه أن ينتظرنا صباح الغد بمكتبه

بعـد العشـاء خرجنا قليلا للرياضـة فقرأنا إعلانا على باب ملهى (تياترو) ترجمته :

(هنا سيقوم الليلة بألعاب بهلوانية مدهشة عدد عظيم من التونسيين فنحث الجميع أن يغتنموا هذه الفرصة لرؤية ما يشرح صدورهم ويعجبون منه) فدخلنا هـذا الملهى فاذا نحن فى ردهة عظيمة غاصة بالمشاهدين وكانت الموسـيقى تشنف أسماعهم وبين وقت وآخر يمثل دور هزلىّ مضحك الى أن أتى ميعـاد تمثيل التونسيين فلعبوا ألعابا لاقيمة لها بالنسبة لما تضمنته الاعلانات المنتشرة فى شوارع المدينة ثم خرجنا من هذا المكان نحو الساعة الحادية عشرة للذهاب إلى الفندق للنوم والراحة .

فى الساعة التاسعة صباحا من يوم (الأربعاء ١٩ يونيه) ذهبنا إلى

مكتب مدير شركة الكاديان باسفيك المستر بين (Penn) لنشكره على اهتمامه بنا ولنخبره أننا سنأخذ متاعنا معنا لأنه أصبح على وشك التلف لعــدم اعتناء الحمالين به اذ يلقونه بلا شفقة على الأرض غير ناظرين إلى مصالح أصحابه فوجدناه غائبا وتقــدّم إلينا مساعده فأخبرناه بما لزم ثم ذهبنا إلى الباخرة لنرى غرفنا فيهــا فأعجبتنا واستفهمنا عن ميعاد ارسال الحقائب فقيــل لنا فى أىّ وقت نريده وبعــد ذلك عدنا إلى الفندق وكتبنا على كل حقيبة اسم صاحبها ونمرة الغرفة وأرسلناها إلى الباخرة . وفى الساعة الثامنة مساء أخذنا باقى الحقائب الصــغيرة وذهبنا إلى الباخرة ونحن نظن أننا نجــد كل شئ فى مكانه من غرفنــا ولكن خاب ظننا وصرنا نسأل من هــذا وذاك من مســتخدمى الباخرة لعلنا نقف على مســتقرّ أمتعتنا فلم نستطع إلى ذلك سبيلا وكان جوابهم لا تستعجلوا فسيصلكم كل شئ عما قريب ولكننا لم نطمئن مخافة أن نفقد شيئا ولا نعثر عليه قبل أن تسـير بنا الباخرة وبينما نحن نبحث تقدّم الينا مدير ادارة الباخرة وسألنا عما ننشد فأخبرناه به ثم أخذ تذاكر السفر وكلف أحد المستخدمين بالبحث عن حقائبنا لتحضر وقال انها لم تسجل إلى الآن فأدهشنا ذلك التقصير من أصحاب الفندق وغشهم السائحين فقد طلبوا ٣ جنيهات لنقلهــا وتسجيلها وقالوا لنا انكم عند

ذهابكم ستجدون كل شئ فى مكانه ولكنهم لم يوفوا بعهدهم فعملنا ما يلزم لتسجيلها ونقلها ولما أردنا أن نتفقد أمتعتنا وجدنا حقيبة مفقودة فأخذنا نبحث عنها ورئيس الخدم يأمر أحد الملاحين أن يساعدنا فى التفتيش فلم يسمع له أمرا فتشاتما وكانا على وشك التضارب لولا لطف الله ومن هنا تبين لى مقدار آداب القوم ووقوف كل عند حده وقد خففت هذه الحالة ما ألم بى من الكدر لأنى علمت أن الرؤساء عندهم لا احترام لهم فلا عجب إذا ساءت معاملتهم للسائحين

قبل ارتحال الباخرة بعشر دقائق وجدنا الحقيبة ملقاة على الرصيف فنقلناها وبذلك انتهى فصل الحقائب . وبينما نحن على ظهر الباخرة تقدم إلىّ شخص بادن الجسم وقد خلع لحيته وشاربه فسألنى هل أنا من رفقاء رستم بك فظننت أولا أنه أحد مخبرى الجرائد ولكن لما رأيت أنه لم يبق من الوقت متسع يستطيع فيه أن يتنسم منا أخبارا تهمه لقرب تحرك الباخرة لم أرد أن أرده خائبا فأبرز إلىّ بطاقته فعلمت منها أنه المستر دومان (Mr. Dumann) المفتش العام لشركة البواخر التابعة إليها باخرتنا ثم أخبرنى أنه وصله رسالة من المستر (ستورس) بسان فرنسيسكو يوصيه أن يساعدنا فى كل ما نحتاجه فصافحته وسررت لأنى علمت أنه لا بد أن يعتنى بخدمتنا ما دام ملازمنا وقد قال لى إنه يسافر عادة

فى أول باخرة تسير بالسائحين إلى جهات الاسكا فى فصل الصيف ليعلم مقدار راحة السائحين وخدمتهم العامة فى كل الجهات فحمدنا الله إذ قادنا حظنا إلى الركوب فى هذه الباخرة وقد أخبرنى أنه يعلم حقيقة اسمى ولذا أمر جميع الخدم بأن يسرعوا إلى اجابة طلباتنا مع عظيم الاعتناء بسائر شؤوننا وقد حجز لنا فى حجرة السفرة مكانا خاصا بنا واختار لخدمتنا غلاما يعتقد فيه النباهة وكمال الأدب ولصغر حجرة السفرة وكثرة السائحين يقدم الطعام مرتين وقد نصحنا ألاّ نأكل إلا فى المرة الثانية فكانت مواعيد أكلنا هكذا : نفطر الساعة التاسعة صباحا ونتغدى الساعة ١ و ٣٠ دقيقة ونتعشى الساعة ٦ و ٣٠ دقيقة فقبلنا نصيحته ولو أن هذه المواعيد لا توافقنا

بعد قليل من الزمن سمعنا صفيرا من ربان الباخرة وكان هذا الصفير إيذانا بالسير فتحركت بنا الباخرة باسم الله و إذا بأمر آخر قد صدر لمدير حركتها بالوقوف فبحثنا عن السبب فعلمنا أن سيدتين كانتا فى الباخرة تشيعان صاحبة لهما فأخذهما الحديث ولم يشعرا إلا والباخرة تتحرك فانتبهتا من غفلتهما وطلبتا من الربان أن يرجعهما إلى الرصيف ففعل

إن اسم الباخرة التى نحن على ظهرها الآن هو اسبوكين (Spokane)

وكان بجانبها باخرة أخرى اسمها سيتل (Seattle) تشارك باخرتنا فى تلك الرحلة وهى أيضا تابعة لشركة (الكاديان باسفيك) غير أن الأخيرة تتخذ فى البحر طريقا آخر غير طريقنا ولما كنا متعبين من كثرة ماتكبدناه فى يومنا أسرعنا إلى غرفنا للنوم بعد أن فارقنا مدينة سياتيل التى كانت وقتئذ أنوارها ساطعة خصوصا أنوار فندق واشنجتون الذى كنا فيه

أصبحنا فى يوم (الخميس ٢٠ يونيه) وما أتت الساعة السادسة صباحا حتى كنا على ظهر الباخرة ولما كانت رحلتنا هذه إلى جهات الاسكا فلا أرى بأسا من ترجمة بعض ما تضمنه إعلان وزعته الشركة على السائحين يشرح حالة هذه الجهات وتاريخها ليقف القارئ على طريقة من طرائق النشر فى هذه البلاد وكثرة مغالاة الأمريكيين وها هى الترجمة : إن الاسكا هى أقرب طريق يوصل إلى الشرق الأقصى . وبين سياتيل وقلاديفوستوك ٤٥٠٠ ميل ومساحتها ٣٢٩٥٢٩٠٠٠ هكتار وجو ثلاثة أرباع هذه المساحة يقارب جو بلاد السويد والنرويج (Suède et Norvège) وروسيا وطول شواطئها ٢٦٠٠٠ ميل وقد اشترتها حكومة الولايات المتحدة من روسيا فى سنة ١٨٦٧ بمبلغ ٧٢٠٠,٠٠٠ دولار وأول من كشفها

ربان روسي يدعى فيتوس بهرنج (Vitus Behring) فأنشأ فيها أول مدينة سنة ١٧٨٤ وسماها سيتكا (Sitka) وحيث إن القانون المتبع فى أوروبا أن كل شخص أوروبى يكشف أرضا من بلاد المتوحشين تكون هذه الأرض تابعة للحكومة التى يتبعها هذا المكتشف فبهذا القانون صارت الاسكا ملكا للروسيين . وقد كان الأمريكيون يعتقدون أن أراضى الاسكا غير قابلة للسكن فيها لشدة بردها وكثرة ثلوجها ولن تكون آهلة إلا ببعض من (الايسكيمو) الذين يتحملون هذا الجو وكانوا يؤكدون أن أرضها لاتنبت شيئا مطلقا ولا يرجى منها فائدة ولذا لما أرادت حكومة الولايات المتحدة شراءها من روسيا قام فى وجهها المعارضون ومن بينهم نائب مدينة نيويورك فإنه عارض أشد المعارضة فى مجلس النواب (البرلمان) قائلا إننا لانريد شراء مستعمرات روسية غضب عليها المولى سبحانه وتعالى فسلط عليها البرد القارس . وقام آخر عززه فى أقواله مشيرا على أعضاء مجلس النواب (البرلمان) بشراء جرينلاند بدلها وثالث قال إذا كنتم تريدون بشراء الاسكا أن تخطبوا ود الروسيا فهبوها سبعة الملايين دولار واتركوها للروسيين ملكا حلالا لهم . ثم قام نائب آخر وقال : لاتسرفوا فى أموالنا واصبروا قليلا فستتركها الروسيا ووقتئذ خذوها وضموها إلى

بلادكم أتجاهلون أيها السادة ؟ ألا تعلمون أن هذه الجهات هى منبع البراكين ؟ إننا لانريد شرًا لابناء وطننا . ولكن لحسن حظ حكومة الولايات المتحدة تغلبت آراء المعضدين لمشروع الشراء على حزب المعارضين وتمت الموافقة على دفع ثمن الاسكا للروسيا وضمها إلى أراضى الولايات المتحدة . فماذا كانت النتيجة ؟ إن هذه الولاية الجديدة أصبحت أغنى ولايات الدنيا فإنه كشف فيها منجم للذهب يلزم لاستخراجه حتى ينفد ٥٠,٠٠٠ عامل يشتغلون فيه مدة ٥٠ سنة ومثل هذا العدد وهذه السنين كذلك لمنجم الفحم ومنجم النحاس

ولا أطيل عليك أيها القارئ فى وصف كل ما قيل فى هذا الإعلان الذى ترجمت لك منه بعضه وكفى أنه نشر به تصريح المستر فريدريك (M. Frederik) الذى قال : إن الاسكا أغنى فى الذهب من كاليفورينا واوستراليا وجنوب أفريقيا وفى الفحم من بانسيلفانيا (Pensylvaine) وويلس (Wales) وفى الأراضى الصالحة لتربية الحيوانات من مقاطعات الكنزاس (Kansas) وأوكلاهوما (Oklahoma) وتيكساس (Texas) فقد جعلها إذًا أغنى من كل بقاع الدنيا ومن ضمنها أمريكا . وقد قيل فى آخر الإعلان إنه قد استخرج

من مناجم الذهب وحدها فى الاسكا من سنة ١٨٨٥ إلى اليوم ما قيمته ٢٠٠ مليون دولار وهذا غير دخل باقى المعادن الأخرى

وبينما كنت أقرأ هذا الإعلان تقدّم إلىّ المستر دومان مفتش الشركة العام وبمناسبة هذا الإعلان أخبرنى أن عدد المهاجرين إلى الاسكا يوم أن كشف منجم الذهب كان عظيما جدّا حتى إن البواخر كانت كلها مكتظة بهم ولم يكن ما فيها من الأطعمة كافيا لجميعهم على حسب ما ينبغى فكانت جميع ردهات البواخر وممـاشيها مملوءة بهؤلاء المسافرين الذين أثرت فيهم الإعلانات الكثيرة التى انتشرت فى جميع بلاد الدنيا قائلة إن الاسكا كلها مناجم ذهب ومعلوم لهم أن كل من كشف مكان منجم تتساهل الحكومة فى بيعه له بشروط خفيفة جدّا فملأ الأمل قلوب هؤلاء المهاجرين وبينهم الأمريكيون أنفسهم وكان الاعتقاد السائد أن كل من نبش فى أرض الاسكا يعثر على منجم فلذا وفد الناس من كل فج عميق مسرعين إلى هذه الجهات طمعا فى الثروة مع ما يلاقونه من شدّة البرد وغلاء أسعار أسباب المعيشة فإن البيضة الواحدة قد اشتريت بدولار ولما كان عدد القادمين على الاسكا كثيرا جدّا أقبل البقالون عليها أيضا ليبيعوا

بضائعهم وفى الحقيقة هم الذين كان نصيبهم من الكسب أكثر ممن عداهم حتى من الذين كشفوا المناجم فإنهم كانوا يبيعون بضائعهم بأثمان عالية جدًا فهم الذين جنوا جل الثمار التى أثمرتها أعمال هؤلاء المهاجرين المساكين فكأنهم ما زرعوا إلا ليحصد هؤلاء البقالون . وقد علمت عن جو هذه الجهات أن شواطئها تصلح للسكن فيها ولكن لا يمكن لأىّ مخلوق أن يعيش فيما وراء جبالها أو داخلها

هذا ومن العجيب أن أول من كشف أكبر منجم للذهب فى الاسكا لا يملك أكثر مما دخله ٥٠٠ دولار وذلك لأنه لم يعرف قيمته وباعه بثمن بخس جدًا . ومن نوادر حسن المصادفة أن ثلاثة صيادين نرويجيين اشتدّت عليهم الأمطار وكانوا وقتئذ يصطادون فى جهات الاسكا بجوار نهر يدعى سيربانت (Serpent) فالتجئوا إلى حفرة ليقوا أنفسهم من شرّ الصواعق وقد قرب الدم أن يجمد فى أجسامهم من شدّة البرد فاقترح أحدهم على الآخرين أن يشتغلوا فى الحفر فى هذه الحفرة حتى يحركوا أعضاءهم فيجرى الدّم فى عروقهم حتى لا يموتوا شهداء البرد فشرعوا فى هذه الحركة المباركة التى أوصلتهم إلى تكشيف منجم ذهب من أكبر المناجم وقد كانوا عقلاء

فلم يبيعوه بل حفظوه لأنفســـهم وبهذه المصادقة الجميلة انتظموا في سلك أكبر الأغنياء

في منتصف الساعة الثامنة صباحا وصلنا إلى مدينة فيكتوريا عاصمة كولومبيا الإنكليزية (British Colombia) وهي واقعـة على الشـاطئ الجنوبيّ من جزيرة ڤانكوڤير (Vancouver) وعدد سـكانها ٣٠٠٠٠ نسمة ويسكنها كثير من الصينيين وقد شعرنا بمجرد وصولنا إليها أننـا خرجنا عن بلاد الولايات المتحدة لمـا رأيناه بها من السكون واتباع نظام البلاد الإنجليزية وقد أنشئت هـذه المدينة في سـنة ١٨٤٢ لتكون محطة لشركة (Hudson Bay Co.) ولكنها لم تطر شهرتها إلا في سنة ١٨٥٨ حين ابتداء تكشيف مناجم الذهب فنزلنا إلى الرصيف ولمـا كانت المســافة منه إلى وسط المدينة تبلغ كيلو مترين أردنا أن نركب في الترام الذي يخترق شوارعها ولـكن تقدّم إلينا حوذي وقال لنـا إن الترام لا يســير إلا كل نصف ساعة فإذا أردتم ذهبت بكم في عربتي إلى ما يلزم زيارته من المحال ولا أطلب منكم أجرا أكثر من أربع دولارات فقبلنا منه ذلك وذكرت له أني قرأت في دليل (Baedeker) أن هناك ميناء تدعى اسكيمالت (Esquimalt) بها قلاع وثكنات وهي محطة عسكرية للبوارج الحربية الإنكليزية التابعة لأسـطول المحيط

الباسفيكى ونريد أن تذهب بنا إليها لنرى موقعها والبوارج الراسية فى مياهها فطلب منى دولارين زيادة عما اتفقنا عليه بحجة أنها تبعد ٥ أميال عن المدينة . ركبنا عربته وسار بنا قليلا فلقينا سيارات ذات عداد (تاكسى) معدّة للإيجار فأسفنا لعدم استئجار واحدة منها حتى نتمكن من رؤية كل ما تشتمل عليه هذه المدينة فى زمن قليل . مشى بنا السائق بجانب شاطئ البحر إلى أن وصلنا إلى متنزه طبيعى لا يخلو من الجمال وقد رأينا فى وسطه بحيرة صناعية بها كثير من أنواع الطيور ثم استمرّ فى شارع عظيم إلى أن قربنا من منزل مبنىّ على تل فقال لنا السائق إنه مسكن حاكم كولمبيا العام وبعد ذلك وصلنا إلى مبانى شاهقة ذكر لنا السائق أنها مركز الحكومة فأحدها مجلس النواب وثانيها دار الآثار وثالثها المكتبة العامة ورابعها مركز المحافظة وأمامها تمثال السير جمس دوجلاس (Sir James Douglas) أوّل حاكم انجليزى لهذه المستعمرة وقد رأينا عمالا كثيرين يشتغلون فى هذه الجهة لتنظيم شوارعها وإتقان أرصفتها وأظن أنها بعد تمام العمل ستكون من أحسن وأجمل الجهات

ذهبنا بعد ذلك إلى حىّ الصينيين وألقينا نظرة عامّة على مساكنهم وحوانيتهم وندّيهم فلم نر شيئا يستحق الذكر ثم سار بنا السائق فى

شـارع عظيم به كثير من المعامل فكان الدخان يتصاعد منها وينتشر علينا حتى إننا اضطررنا أن نضع على أنوفنا مناديلنا حتى لانستنشق هذا الدخان وقد رأينا مخازن خشب التهمتها النار فصيرتها رمادا وبعدذلك أخذ طريقنا يصعب وكان العمال يشـتغلون فى رصفه وقد قرأنا على هيئة سـكان المدينة وما يبدوا من حالهم أنهم ليسوا على جانب عظيم من الثروة كسكان الولايات المتحدة أما العمال فأغلبهم صينيون . ثم وصلنا إلى ميناء ايسكيمالت فلم نجد فى مياهها إلا بارجة واحدة قديمة أما قلاعها فلم نتمكن من رؤيتها لأنها مسـتورة فأمرنا سائق عربتنا أن يعود بنا إلى المدينة وقد علمنا أننا اغتررنا بما قرأناه فى الدليل . وقفنا أمام دكان اشترينا منه بعض بطاقات البريد (كارت پوستال) ثم ذهبنا لزيارة المتحف (Musée) وقد دخلناه ونحن على يقين من أنه ليس فيه شئ يذكر لـكن ظهر لنا أنه على صغره مملوء من مصنوعات الهنود وبعض أكواخهم القديمة وملابسهم الوطنية وعددهم الحربية وقد رأينا بين مافيه من الآثار (بُلَطًا) وفؤوسا من الخشب أو من الحجر ولو كان معنا عالم أثرى لظن أنها من ابتـداء نشأة العـالم ولـكن الحقيقة أن أولئك الهنود لجهلهم ولوحشيتهم كانوا يستعملون هـذه الآلات إلى أن كشف بلادهم الأوربيون فتاريخ اسـتعمال هـذه

الآلات عند الهنود قريب العهد بالنسبة لتاريخ استعمال مثل هذه الآلآت فى أوروبا لما كان الجهل مخيما على سكانها . دخلنا بعد ذلك فى قسم التاريخ الطبيعىّ فرأيناه حاويا لكثير ممـا يهم علماء هذا العلم النفيس ثم مررنا على غرف تحوى كثيرا من حيوانات وطيور هذه الجهة (محنطة) وموضوعة فى أماكن تلائم طبائعها وقد ألفت نظرنا طير صغير جدًا (Oiseau mouche) أعرف أنه يوجد مثله فى بلاد البرازيل الحارّة ولا أعلم كيف ينسب إلى طيور كولومبيا التى جوها بارد مع أنه لايمكنه أن يعيش إلا فى البلاد الشديدة الحر

سألت أحد مستخدمى هذا المكان هل فى مكاتب المدينة كتب بها أشكال حيوانات كولومبيا وطيورها فأجابنى يمكنك أن تقف على مطلوبك فى مكتب الاستعلامات التابع للحكومة ثم دلنى على طريقه فذهبت إليه فوجدت فيه أربع غلمـان يشتغلون بترتيب الكتب فسألت أحدهم عن مطلوبى فقادنى إلى شيخ بلغ من العمر عتيـا فقال لى ذلك الشيخ إن الكتاب الذى تطلب قد نفدت نسخه والحكومة تشتغل الآن بإعادة طبعه وأخيرا أعطانى بعض كراسات بهـا صور كثير من طيور كولمبيا وحيواناتها فاكتفيت بها و بعد ذلك عدنا إلى باخرتنا .

أقلعت بنا الباخرة فى الساعة الثانية مســاء متجهة إلى الشمال وقد كان الجو مكفهرا والضباب منتشرا حتى ملأ الفضاء ولكن مع هذا الظلام كنا نشاهد ألوفا من الجزائر الصغيرة بعضها بجانب بعض وكلها مكسوة بالأشجــار العظيمة ومقفرة من السكان و بعــد أن سرنا هنيهة شاهدنا منارا على صخرة قائمة فى البحر فلله در الموكلين بحراسته وما أصــبرهم على الإقامة فى مكان موحش فإنهم منقطعون عن العالم .

إن رؤية هــذه الجزائر الصــغيرة شوقتنى لأن يكون لى سفينة ترتع فى البحر متنقلة بين الجزائر لاركب فيها و يصحبنى من رفاقى المغرمون بجمــال الطبيعة والصــيد فى البحار لقضاء وقت معهم فى حياة بحرية تملأ القلوب انشراحا وأظن أنه لو تم لنا لانسأم هذه المعيشة البحرية ولا نعدم فى خلالها صيدا من حيوان وطير .

إن البحر كان هادئا وكأن الشمس اطلعت على مافى نفوســنا من أمنية التمتع بجمــال هذه الجزر المتقاربة وأن هذه الأمنية لاتتم لنا إلا إذا بسطت أشعتها الذهبية على تلك الجزر فرفعت لنا حجب السحاب والضباب وأسفرت حتى بدت لنا مناظر تلك الجزائر البديعة فحمدنا الله إذلم يحرمنا من تلك الأمنية و بينما كنا نشاهد جمال الطبيعة سمعنا أن سـيدة ستلقى على المسافرين محاضرة فى شؤون (الاسكا) فذهبنا

لسماعها وإذا هى سيدة فى منتصف العمر وقد أخذت تسرد تاريخ حياتها وتذكر أنها مضى عليها عشرون سنة لم تنقطع فى خلالها سنة واحدة عن زيارة تلك الجهات لجمال مناظرها واعتدال هوائها وإن مثل هذه السياحة تجدد فى الإنسان النشاط وتكسبه صحة ثم صارت تتكلم عن معيشة الهنود الأمريكيين وبعض عاداتهم وأنهم إلى اليوم لم يحسن ظنهم فى الجنس الأبيض ولم يثقوا تمام الثقة بأنه يريد بهم خيرا ويعلمهم ويرشدهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور وقد دلتنا كثرة إطنابها على أنها مأجورة من قِبَل الشركة لترغب السائحين فى العودة لزيارة هذه الجهات ولتحثهم أن ينشروا فى العالم هذه الفكرة التى تعود بلا شك على الشركة بالفائدة العظيمة ثم أخذت تشرح برنامج اليوم الثانى من أيام السياحة وما ستراه من العجائب .

فى صباح يوم الجمعة ٢١ يونيه قمنا مبكرين وخرجنا من غرفنا فوجدنا الجو رديئا عابسا فلا يكاد الإنسان يرى شيئا من كثرة الضباب وقد كنا إلى هذه الساعة نسير بين هذه الجزر وما أتت الساعة الحادية عشرة حتى خرجنا منها وأخذت الباخرة تسرع متغلغلة فى عرض البحر فتغيرت الحالة وشرعت السفينة تلعب كالريشة فى مهب الرياح فالتجأ المسافرون إلى غرفهم طلبا للراحة مما أصابهم

من آلام البحر ولم يستطع إلا القليل منهم تناول الطعام ولكن هذه الحالة لم تدم كثيرا ففى نحو الساعة الثالثة بعد الظهر دخلنا مرة ثانية بين جزائر كثيرة فسكن البحر وخرج كل من مخبئه وقد لاحظنا أن أغلب المسافرين بلغوا من العمر عتيا وقد أخبرنى المفتش العام للشركة أنه مضى عليه أكثر من عشر سنوات وهو يسافر فى أول باخرة تذهب إلى جهات الاسكا وفى كل مرة كان أكثر من ثلثى المسافرين لاسيما السيدات يزيد عمرهم عن الخمسين سنة فبحثنا عن السر فى ذلك فاهتدينا إليه وهو أن هذه السياحة علمية أكثر منها خيالية فلاحظ فيها للفتيات والشبان لأنهم لايجدون فيها طَلِبَتَهم ولا مايسرهم من أنواع الملاهى كما فى البلاد الكبيرة الشهيرة بالملذات وقد اجتمعت كل العجائز حولنا وصرن كلهن يتكلمن و يقهقهن بأعلى أصواتهن فهربنا من جوارهن حتى لايصيبنا من جرّاء لغطهن وجلبتهن صداع فى رؤوسنا ولقد عجبت من أمرهن ولم أدر كيف يفهم بعضهن من بعض من خلال تلك الأصوات المختلطة . وهن فى الحقيقة أكثر المسافرين راحة إذ يجلسن حيث يشأن و يفسح لهن المجال فى ذلك من هم دونهن سنا .

فى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم السبت ٢٢ يونيــه سمعنا

الصفير ثلاث مرات وفى ذلك إشارة إلى أننا دخلنا فى مياه (الاسكا) التابعة للولايات المتحدة وتبع ذلك الصفير أن صاحت جموع الأمريكيين صياح السرور (Hourras) وهم يطلبون السعادة والرقىّ لوطنهم العزيز فأعجبني هذا الشعور الصادر من القلوب المخلصة لبلادها فإن هذا الحب الصحيح تجلى على وجوههم فنطقت به .

وفى الساعة الثالثة بعد الظهر قربنا من صخرة بارزة فى البحر وصرنا نسمع من الحاضرين مايدل على عظيم اعجابهم بها ولكنها لم تؤثر فى نفوسنا تأثيرا يذكر كما أثرت فى نفوسهم . وفى الساعة الرابعة دخلت بنا السفينة فى مضيق يسمى (Rudyerd Fiord) وهو جميل جدّا وفى بعض الأوقات كنا نمر بين شاطئين قريبين جدّا منا فنرى الأرض مكسوة بالأشجار ولكن رداءة الجو حرمتنا من التمتع بجمال هذه المناظر فتقدم إلىّ مفتش الشركة العام وقال : إنه سيأمر ربان الباخرة بالذهاب إلى مضيق آخر أجمل من هذا لم تذهب إليه سفينة من قبل لتتمتعوا برؤية جماله لأنكم حرمتم من التمتع بجمال هذا المضيق لرداءة الجو فشكرت له على تلطفه وحسن عنايته بنا ثم سارت الباخرة بنا لتكشيف هذا المضيق ولحسن حظنا أخذت الغزالة تجود علينا بأنوارها الساطعة ودخلنا المضيق والباخرة تسير بنا سيرا بطيئا ونحن

نعجب من المناظر التى حولنا و بينما نحن نتمتع برؤية هـذا الجمـال وقفت بنا الباخرة فسألت عن السبب فقـال لى أحد المسافرين إن المفتش العام ينزل الآن ومعـه فتاة محرّرة فى مجـلة تصويرية لرسم صورة الباخرة ومن عليها من السائحـين وبعض مناظـر هـذه الجهة واستطرد فى كلامه قائلا إنه أحسن إلينا كثيرا فزيارةهذا المضيق منة له علينا تستوجب شكره ولـكنه لم يضع الفرصة السانحة له ولم يخرج من عملهبدون فائدة تعود عليه فإنه سينشر فى المجلات العلمية وغيرها خبر دخول باخرته فى هذا المضيق الجميل وتنقل هذه المجلات تلك الصور التى رسمها وتطنب فى مدحها فتزداد رغبـة الأمريكيين وغيرهم فى مشاهدة هذه الجهات وهذه ياسـيدى حالة الأمريكيين فى جميع أعمـالهم لا يعطون بدون مقابل .

عادت الباخرة إلى السـير بعد أن انتهى المفتش العام من التصوير ونحن دخلنا فى ردهة الباخرة و إذا بسـيدة تصيح بأعلى صـوتها بين الحاضرين إنى أقترح عليكم جميعا أن تصيحوا معى فىالساعة التاسعة مساء ثلاث مرات فليعش ربانالباخرة وليعش المفتش العامللشركة مكافأة لهما على ماصـنعاه معنا اليوم من الجميل الحسن ولـكنا لم ننتظر هذه الساعة بل ذهبنا إلى غرفنا للنوم والراحة .

قمت نحو الساعة الثالثة من صباح يوم الأحد ٢٣ يونيه فلم أشعر بسير الباخرة فعلمت أننا وصلنا إلى بلدة كيتشيكان (Ketchikan) ولكنى لم أخرج من غرفتى وفى منتصف الساعة الثامنة أخذت شيئا من الطعام ثم نزلنا إلى الرصيف لزيارة هذه البلدة

إن هذه البلدة يبلغ عدد سكانها ٥٠٠ نسمة وثلثهم من الصينيين واليابانيين وأغلبهم صيادون و بعضهم يتجر فى فراء الدب وغيره وهى قذرة جدا ورائحة السمك منتشرة فى هوائها أما شوارعها فقد غطيت بألواح من الخشب لرطوبة أرضها ومنازلها صغيرة وحقيرة وقد دخلنا بعض حوانيتها فلم نر فيها شيئا يذكر وقد رأينا قرب أحياء الهنود أعمدة من الخشب قائمة وقد نقش عليها رسوم غريبة وعلى رأس بعضها صورة نوع من الطير و بعضها على رأسه صورة نوع من السمك أو الضفدع وكلها ملونة بألوان غير متقنة و بالجملة صنعتها تدل على انحطاط مدارك أصحابها و بُعدهم عن الحضارة ذهبنا بعد ذلك لرؤية جندل فمشينا بجانب مجرى ماء كان يخترق أراضىَ زراعية خصبة إلى أن وصلنا إلى سلم من خشب فصعدنا فيه ولكن لابدّ دون الوصول إلى أعلى مكان يرى الإنسان منه هذا الجندل أن نعبر جسرا (كوبرى) من خشب وهو مكون من لوحين متجاورين بدون حاجز يقى المارين

شر السقوط فلم يخاطر زميلنا مصطفى بك بحياته فيمشى عليـه . وقد قابلنا أحد سكان هـذه البلدة وقال لنـا لا تتعبوا أنفسكم ولا تجاوزوا مكانكم فليس هناك شئ يستحق هذه المخاطرة وقد أخبرنا أن هـــذا الجسر يمتـد إلى مسافة ربع سـاعة وينتهى بغابة لا طريق فيها صالح يوصلكم إلى نهاية مرغوبكم وقد كنت أودّ أن أذهب إلى البحيرة التى تتكون من ماء هذا الجندل لأن السيدة التى تخطب كل يوم فى الباخرة وتصف عجائب ماسنراه فى اليوم التالى كانت أخبرتنا بأن مقدارا عظيما من سمك (البقلاه) فى هذه البحيرة حتى إنه يتيسر لكل من أراد أن يصطاد منه بيديه بدون شرك وقد كنت واثقا بأن كلامها لا أصل له ولكنى كنت أريد أن أرى بنفسى هـذه البحيرة حتى أحكى عمـا شاهدته عيانا لمن يغرهم هـــذا الكلام الباطل . هذا وقد كانت أطلقت للسانها عنانه وصارت تشرح للحاضرين بعض تاريخ حياة هذا السمك وسأذكر هنا للقراء ملخص ما قالت على سـبيل الفكاهة .

هذه الباحثة قالت إن هذا النوع من السمك بعد أن يكبر فى هذه البحيرة يتبع مجرى الماء وينحدر إلى الأسـفل ولكنه قبـل أن يموت بأربع سنوات يعود إلى المكان الذى خلق فيه فيتكبد مشاق الصعود بين تسلق صخور ومرور بين جذور أشجار تأكل من جسمه وقد رؤى

بعضها ممزق الجسم وبعضها فاقد البصر ولكنه لا يرجع عن العودة إلى مكان نشأته حبا لوطنه الأصلى فهل هـذا الكلام يتصوره العقل ؟ كلا ثم كلا ومع ذلك فقد كانت محاضرتهـا تسر السيدات حتى كان تصفيقهن لهـا حادا جدّا يصم الآذان . إن السيدات مهما بلغن من التعلم فإنهن سريعات التأثر تتلاعب بعقولهن الأوهام فيصدقن كثيرا من الأباطيل التى قلمـا يتأثر بها الرجل المتعـلم فيصدقها ولذا لم أر واحدة من اللاتى سمعن هذه المحاضرة إلا وهى مصدّقة لأقوال هذه الباحثة فى أخلاق السمك . كيف يمكن تصديق هذه الخرافة والإنسان يعانى ما يعانى للوصول إلى هذه البحيرة فهل يعقل أن السمك يصعد إلى قمة صخرة يزيد ارتفاعها عن عشرة أمتار ويقاوم تيار المياه المتدفقة بسرعة هائلة ؟

عدنا بعـد ذلك إلى داخل البلدة ووقفنا أمام مطعم صينى وآخر يابانى وقرأنا اللوحتين المعلقتين أمام بابيهما وقد كتب عليهما باللغتين الإنجليزية والصينية أو اليابانية وقد رأينـا بين الأطعمة لحم الكلب وعيون السمك وأظن أن هذين المطعمين مشهوران بإتقان هـذين الصنفين . ذهبنا بعد ذلك إلى معمل حفظ السمك الشهير فقطعنا الطريق الموصل إليـه فى ٤٥ دقيقة على الأقدام وقد شممنـا رائحة

السمك على بُعد عظيم منه وقد رأينا أمامه عددا كبيرا من الصناديق التى يوضع فيها السـمك و يصـدر إلى الجهات البعيدة والدخول فى هذا المعمل مباح لعامة الناس فابتدأنا برؤية المكان الذى يرد إليه السمك أوّلا ثم يفرز و يوضع كل نوع على حدّته وبعـد ذلك انتقلنا إلى الغرفة المثلجة التى يحفظ فيها السمك و يؤخذ منهـا و يقدّم إلى الآلة التى تقطع رأسـه وذنبه وتفتح بطنه وتغسله وتنظفه ثم ترتبه وتضعه فى الصناديق وتغلقها عليه فتسدّ سدّا محكما بالمسامير كل هذا يحصل بقوّة البخار و بسرعة عظيمة وقد سمعنا أن النوع الجيد من السمك المحفوظ يصدر إلى نيو يورك وشيكاغو والفاسـد منه يرسل إلى الصين ولم يمكنا أن نقف كثيرا فى هذه الغرفة المثلجة لشدّة بردها فخرجنا مسرعين وعدنا إلى الباخرة

أقلعت بنا الباخرة من كيتشيكان (Ketchikan) فى نحو الساعة الحادية عشرة ومن ذلك الوقت إلى أن صارت الساعة ٤ و ٥٠ دقيقة لم نر منظَرا يستحق الإعجاب ولكن بعـد ذلك أخذنا نسـير فى مضـيق لا يزيد اتساعه عن اتساع نيل مصر عند قصر النيـل وقد كانت الباخرة تسير بين علامات طافية على وجه الماء حتى لا يتعطل سيرها وقد مررنا على معمل سمك على شاطئ هذا (القنال) الطبيعى يسمى

معمل سان بطرسبرج فأردت أن أصوره لجماله ولحسن موقعه فلم أتمكن من ذلك وعزمت على رسمه عند العودة إن شاء الله . إن ماء البحر فى هذا المضيق كان ساكنا صافيا حتى كنا نرى كل شئ فى مقره كأنه مرسوم على سطح الماء وقد قطعناه فى ساعتين ونصف وبعد ذلك أخذنا نقترب من أمكنة الثلوج التى كانت تنفصل منها قطع وتعوم على وجه الماء وكنا نشاهدها وتمسها باخرتنا وفى الساعة التاسعة مساء افترقنا للنوم ولكن من أين يأتينا ذلك والشمس لا تغرب قبل نصف الليل

رست الباخرة قبل الساعة السادسة صباحا من يوم الاثنين ٢٤ يونيه فى مكان الثلوج الذى يسمى تاكو جلاسيه (Taku Glacier) فاسرعنا بارتداء ملابسنا ولما خرجنا من غرفنا وجدنا الباخرة محاطة بقطع كبيرة من الثلوج بعضها أبيض ناصع و بعضها الآخر أبيض مائل إلى الزرقة تخيل إلينا أننا فى القطب الشمالى لأننا حيث نوجه نظرنا لا نرى إلا ثلجا وقد كنا نسمع بين وقت وآخر صوتا يشبه قصف الرعد وكان ذلك ناشئا من انفصال الثلوج وسقوطها فى البحر ولا تسل عن مناظر أمكنة الثلوج فإنها رائعة جميلة وتلك الأمكنة متسعة الأرجاء لا يبلغ البصر مداها ومن العجيب أنها أيضا مختلفة الألوان والأشكال

لجزء منها مستولون بعضــه أبيض ناصع والبعض الآخر أزرق وجزء آخر به تلال من الثلج رؤوسها بيضاء وقواعدها زرقاء وآخر أزرق الرأس أبيض القاعدة

فتصور أيهـا القارئ سكون البحر وصـفاء مائه الذى يتخلله قطع لا تعد من الثلوج بألوانها المختلفة حول باخرتك وعلى مسافة منك أمكنة الثلوج الهائلة على أوصافهـا السابقة فهل يمكن أن ترى منظرًا أبدع من ذلك

فى نحو الساعة ٩ والدقيقة ١٥ قامت بنا الباخرة تقصد تريدويل (Treadwell) فوصـلنا إليها فى الساعة ١١ والدقيقة ١٥ ولمـا أردنا النزول من الباخرة تقدم إلىّ المســتر دومن مفتش الشركة وقال لى لا تصحبوا الدليل كباقى السائحين فإن أردتم أصحبكم لأريكم مايهمكم رؤيته ممـا فى هذه البلدة فقبلنا منه ذلك مع الشكر ونزلنا معه فذهب بنا أولا إلى مخزن تجارة به كل أنواع المأكولات المحفوظة فى الصناديق وأنواع الحلوى وكثير من ملابس الرجال والسيدات وبالجملة به جميع الحاجات الضرورية للإنسان وهذا المخزن يبيع للعمال الذين يشتغلون فى مناجم الذهب التى بتريدويل وبعـد ذلك اسـتأذن منا فى مقابلة مدير أهم منجم فى هذه البلدة ليأذن لنـا بالدخول فيـه لنرى كيف

يستخرج الذهب من بطون الأرض وبعد قليل من الزمن عاد إلينا ومعه أحد مستخدمى هذا المنجم وذهبنا كلنا أوّلا لزيارة مساكن العمال فإذا هى بالغة غاية النظافة وحسن الترتيب ثم دخلنا فى المطعم وهو عبارة عن غرفة واسعة بها عدد عظيم من الموائد عليها الأطباق وكل مايلزم لتناول الطعام فاعجبنا عظيم الاعتناء بها وقد وضع فى أركانها بعض شجيرات خضراء لتزدان بها وقد وجدنا فى أحد أركان هذه الغرفة ثلاث قدور (صموبرات) إحداها للقهوة والأخرى للماء المسخن والثالثة للشاى . دخلنا بعد ذلك إلى المطبخ فوجدناه لا يقل نظافة عن غرفة الطعام . وبالجملة قد روعى فى كل ما زرناه جميع أسباب الراحة ولم أر نقصا فى جميع نظام هذا البناء العظيم الذى يسع الألوف من العمال وعند خروجنا منه وجدنا أمامه كل مايستعمل عادة فى إطفاء الحريق على أحدث طراز وقد حكى لنا عامل المنجم الذى معنا أنه فى كل شهر تجرى مسابقة بين طوائف العمال الموكلين بإدارة المضخات وتركيب خراطيم المياه وغيرها وعدد كل طائفة ثلاثة عمال والذين يحوزون قصب السبق ينالون مكافأة قدرها ٥٠ دولارا وقد خصصت الشركة هذه القيمة الكبيرة لتنشط العمال ولتأمن على عمارتها العظيمة من شر الحريق أما هؤلاء العمال فإنهم خليط من

اليـابانيين والنمسويين والروسيين ورؤساؤهم أمريكيون . ذهبنا بعـد ذلك إلى بنـاء أصغر من الأول ولا يبعد عنه إلا بعض أمتار وإذا هو ناد يشـتمل على غرفة للمطالعة بهـا مكتبة حاوية بجمـلة مجلدات وجرائد أمريكا ومجلاتها ثم غرفة أخرى بها ملاعب مختلفة كالبلياردو وغيره وقـد علمنا أن من أراد من العمال أن يكون عضوا فى هذا النادى فعليه أن يدفع كل شهر دولارا ونصفا . ذهبنا بعـد ذلك إلى الحمـامات فوجدناها نظيفـة جدّا وقـد رأينا فيهـا حوضا كبيرا وضع عليه بعض ألواح ليلقى العامل نفسه من فوقها إلى وسط هذا الحوض ويسبح فى مائه ووجدنا أيضا بعض الآلات المستعملة للرياضة البدنية وقـد اعتنى بتنظيم هـذه الحمـامات فإنها لاينقصها الحمامات البخارية ولا أنواع (الدش) وقد يأتى إليها كثير من سكان هـذه البلدة وبلدة جونو (Juneau) القريبة من هنا فيدخلونها بأجرة يدفعونها . خرجنا من هذا النادى فوجدنا أمامه رحبة عظيمة معدة لكثير من الألعاب الرياضية (كالتينس) وغيره ثم ذهبنا بعد ذلك لنرى كيف يستخرج الذهب من بطون الأرض فوقع نظرنا على بنـاء كبير كقطعة من جبل يدل شكله الخارجى على أنه مقسم إلى جملة أقسام فإن سطوحه بعضها مستطيل ومرتفع وبعضها الآخر مربع ومنخفض

أما عدد المداخن فكثير جدّا والدّخان المتصاعد منها يدل على ان الوقود الذى يحرق فى هذه المعامل كثير جدّا وقد رأينا أبوابها متسعة وتمر منها خطوط حديدية تمشى عليها عربات نقل الأتربة التى يستخرج منها الذهب وتجر هذه العربات قاطرة صغيرة ولكنها كافية لتسيرها بسرعة عظيمة فألقينا أوّلا نظرة عامة على هذا النوع من التراب فإذا هو عبارة عن خليط من الرمال و بعض قطع من الحجارة التى يشبه لونها لون مايصنع منه القلل المصرية (القناوى) ولا يمكن للإنسان أن يرى فى خلالها أثرا للذهب فاستغربنا من ذلك لأن بعض الناس يعتقد أن الذهب يخرج من بطون الأرض سبائك أو تبرا ناعما إلا أنه يكون مختلطا ببعض معادن أخرى تفصل عنه بمواد كياوية أو بصهره فى تنانير مرتفعة الحرارة إلى درجة معلومة فرؤيتنا هذا التراب أبعدت عنا هذه الفكرة ـ دخلنا بعد ذلك فى هذا المنجم و إذا نحن فى ردهة عظيمة الاتساع تدخل فيها هذه العربات الصغيرة وتفرغ الأتربة والحجارة الصغيرة فى هواون مصفوفة بعضها بجانب بعض على خط مستقيم وفوقها عمود يسقط فيها و يتحرك بسرعة مدهشة فيجعل هذه الأتربة والحجارة كالدقيق وقد اعترتنا الدهشة من كثرة الضوضاء فإن الإنسان إذا صاح باعلى صوته لايمكن أن يسمعه أىّ شخص ولو

كان قريبا منه فشعرت بحالة هؤلاء العمال التعسة ولابد أنهم يخرجون بعد انتهاء أشغالهم وهم لا يسمعون ولا يعون فقضلت حالة زراعنا فى أراضى مصر الخصبة عن حالة هؤلاء المساكين وحمدت الله كثيرا إذ من علينا بما يغنينا عن هذه المعيشة الشاقة . رأينا تحت كل هاون منضدة (طبلية) مستطيلة تهتز من الخلف إلى الأمام بسرعة بطيئة فيسقط عليها التراب الناعم وتدفعه مياه مسلطة عليها فيسقط على منضدة أخرى مستطيلة مصقولة صقلا تاما ومغطاة بلوح من الفضة ناعم جدا فالماء يدفع ما على المنضدة الأولى من التراب فيسقط على الثانية ويدفعه أيضا إلى مجرى ماء شديد يدفعه إلى الخارج وبهذه الطريقة يرسب على المنضدة الثانية طبقة رقيقة جدا من معدن الذهب والفضة وغيرهما وقد أحصينا عدد المناضد المكسوة بالألواح الفضية فإذا هى ثلاثون وعند ما ترى العمال أن هذه الطبقة كست اللوح يمنعون سقوط الماء عنه ويجففونه ثم يكشطون هذه الطبقة بسكين حاد ويجمعونها فى بودقة وقد بحثنا فيها فلم نجد للذهب ولا للفضة أثرا وبعد ذلك يضيفون إلى هذا التراب المستخرج أخيرا جزءا من الرصاص وأجزاء أخرى كيميائية ويضعونها فى تنور درجة حرارته معلومة عندهم مدة ٤٥ دقيقة فيمتزج الرصاص مع الذهب والفضة ويسقط

فى قاع البودقة فتتكون طبقة تشبه الزجاج فوق هذا المزيج منفصلة عنه فتلقى هذه الطبقة و يوضع مزيج الذهب والفضة والرصاص الذى تبلغ زنة مايكون منه فى بودقة واحدة من ٢٠ إلى ٣٠ جراما فى بودقة أخرى من (السمينتو) و يضاف إليه مواد كيميائية أخرى ثم يوضع ذلك فى تنور شديد الحرارة فيتبخر ثلث الرصاص والباقى منه ينفصل عن الذهب والفضة ثم يفصلون الذهب من الفضة أيضا و بعد ذلك يسلم الذهب المستخرج إلى عامل يزنه بميزان دقيق جدًا مغطى بالزجاج ثم ينقل بعد وزنه إلى خزانة حديدية لحفظه وقد رأينا هذا الذهب المستخرج فإذا هو قشور رقيقة جدًا كالورق الذى يُذَهّب به بعض أثاث المنازل أما العمال الموكلون بوزن الذهب فإنهم ممن تثق الشركة بأمانتهم وقد تبلغ وظيفة أحدهم فى الشهر من ١٥٠ إلى ٢٠٠ دولار لأمانته ودقة عمله وهؤلاء العمال يكتبون فى دفاتر خاصة بهم مقدار الذهب المستخرج من كل بودقة وقد انتهزتُ هذه الفرصة لأقف على قيمة مايستخرج كل سنة من الذهب من هذا المنجم فقيل لى إن كل طن من الأتربة والحجارة يستخرج منه ذهب قيمته ثلاثة دولارات وقد توجد مناجم أخرى يستخرج من الطن الواحد من أتربتها أكثر من مائة دولار ولكن هنا السرعة العظيمة فى العمل

هى التى تجعل الشركة تربح فإن دخلها من منجمها فى كل سـنة يبلغ مليون جنيه وقد ابتدئ فى استخراج الذهب من هذا المنجم من مدّة ٢٥ سنة و ينتظر أن يستمر العمل فيه أكثر من هذه المدّة . ذهبنا بعـد ذلك لرؤية الآلة المحركة لهذه الآلات (المـاكينات) فإذا هى قوية جدّا ثم ذهبنا إلى المصعد الذى يهبط إلى بطن الأرض فيحمل العربة مملوءة بالأتربة إلى سطحها وقد علمنا أن هذه الأتربة تستخرج الآن من عمق ١٠٠٠ قدم وهناك مصاعد أخرى مثل هذا تشتغل فى النقل وقد علمنـا أن كل حفرة تحت الأرض تزيد مساحتها عن ١٢٠ مترا مربعـا وكلها مضاءة بالأنوار الـكهربائية التى تولدها آلة كبيرة جدّا تكفى لإضاءة هـذا المنجم المتسع و جميع منازل البلدة أما عدد العمال فيبلغ ٣٠٠٠ رجل وصحتهم جميعا جيدة .

خرجنا من هـذا المنجم بعد أن شكرنا مندوب شركة المناجم الذى رافقنا فى هـذه الزيارة المفيدة ولكنا مدينون بكثير من الشكر للمســتر دومان الذى سعى حتى حصـل على إذن لنا بالدخول فى هذا المنجم لأنه لولا مساعدته لما أمكنا أن نرى هذا المنجم الذى لا يؤذن بالدّخول فيه لغير عمال الشركة .

عدنا بعـد ذلك إلى باخرتنا وفى الساعة الثانية بعد الظهر أقلعت بنا

إلى مدينة چونو (Juneau) عاصمة الاسكا الأمريكية فوصلنا إليها بعد ٤٥ دقيقة . نزلنا فى هذه العاصمة فلم نجد فيها شيئا يستحق الذكر وقد أنشئت فى سنة ١٨٨٠ ميلادية وشهرتها فى تجارة الفراء فاسترضنا قليلا فى شوارعها المغطاة بالخشب ووقفنا بجانب حانوت كان أمام بابه دب صغير يلاعب السابلة ثم ذهبنا إلى مكتب البريد البرقى (التلغراف) وأرسلنا إشارة برقية إلى كوك بنيويورك نسأله فيها أن يحجز لنا إن أمكن غرفا فى الباخرة التى تقوم من نيويورك فى ٢٣ يوليه إلى أوروبا فإن وجد مايوافقنا نكون بذلك تقدمنا أسبوعا عن ميعاد السفر المقرر فى برنامجنا ووددنا لو تحققت هذه الأمنية فقد زاد اشتياقنا إلى بلادنا العزيزة وفى أوروبا لانحرم من رؤية كثير من أبناء وطننا العزيز .

عدنا إلى الباخرة وبعد تناول العشاء خرجنا منها للاستراضة قليلا وقد علمنا أن بمدينة چونو بعض مناجم النحاس ولكنها ليست من الأهمية بمكان .

فى منتصف الساعة الثامنة من صباح يوم الثلاثاء ٢٥ يونيه رست الباخرة على بلدة سكاجوى (Skagway) وقد قيل لنا إن بها مستراضا صغيرا يتوصل إليه بطريق حديدى ولكن المستر دومان نصح إلينا ألّا نذهب إليه لاسيما إذا كان الجو غير معتدل كيومنا هذا الذى

تنهمر فيـه الأمطار انهمارا فإننا لا نرى شيئا يعادل ما نتجشمه من المشـقات فقبلنا نصيحته وقضينا وقتنا ما بين جلوس فى ردهة الباخرة وكتابة مذكرات عن رحلتى . ولما حل ميعاد تناول غدائنا ذهبنا إلى السفرة فلم يكن معنا أكثر من عشرة من السائحين والسائحات فحمدنا الله إذ كنا فى هدوء لا نسمع جلبـة العجائز ولا كثرة كلامهن المقلق وبعد أن انتهينا منه ذهب كل منا إلى غرفته للاسـتراحة قليلا وبينما كنت على سريرى دخلت علىّ سـيدة عجوز بدون أن تستأذننى وأخذت من أمامى قلة الماء وأنا أنظر إلى ما تفعل وأعجب من جرأتها وعدم مراعاتها الآداب وقد فاتنى أن أذكر أن هذه السيدة حضرت البارحة عندى وفتحت باب غرفتى ولما رأتنى اعتذرت قائلة إنها كانت تظن أن هـذا الباب يوصـل إلى المطعم فلم أجد لاعتذارها وجها يجعله مقبولا .

إن الذين ذهبوا للاستراضة عادوا إلى الباخرة بدون أن يصـلوا إلى غايتهم منها وذلك لرداءة الجو وقـد ذهب ما أنفقوه فى تلك السبيل هباء منثورا ولم أر على وجوههم أثرا للسرور من رياضتهم هذه فقلت فى ضميرى حسنا فعلنا إذ لم نفقد شيئا من دراهمنا ولم يصبنا من البلل ما أصاب هؤلاء الذين ساء حظهم فى هذه الاستراضة

بعد ما اعتدل الجو قليلا ركبنا فى عربة عامة معـدّة لنقل السائحين إلى مركز تجارة هذه البلدة بدون أجر فالقينا نظرة عامة على حوانيتها فلم نر فيها شيئا يستحق الذكر إلا جلد دب أبيض معرّض للبيع فسألت عن ثمنه فقيل لى ١٠٠٠ فرنك وهو يساوى فى بلاد النرويج ٢٥٠٠ فرنك على أقل تقـدير والسبب فى رخص الجلود هنا أن أغنياء السائحين قلما يحضرون إلى هذه الجهات فلا أمل للتجار فى طلب ثمن عال لبضاعتهم .

عدنا بعد ذلك إلى الباخرة راجلين وفى نحو الساعة الثالثة بعد الظهر أقلعت بنا السفينة إلى بلدة هاينس (Haines) التى تبعد عن اسكاجوى بخمسة عشر ميلا ولمـا وصلنا اليها وجدناها صغيرة جدا وعدد منازلها لا يزيد عن الثلاثين ولكن بها مركز عسكرى به ثكنة للجنود وبجوارها منازل الضـباط وقد كان على رصيف الميناء كثير من الجنود ومعهم دب صغير مطلق السراح يلعب معهم وقد سمعنـا عنـه أنه يترك فى الغابة ولمـا يشـتد عليه ألم الجوع يبكى فيرسل له أحد العساكر لاحضاره فيناديه فيتبعه إلى الثكنة بلا خوف ولا وجل

فى منتصف الساعة الثامنـة قامت بنا الباخرة إلى داڤيدسون جلاسيه (Davidson Glacier) وقد كانت السماء ترسل وابلا مدرارا

ولكن ماانتصفت الساعة التاسعة حتى انقشعت هذه الغيوم وظهرت الغزالة وقد كنا قربنا من داڤيدسون جلاسيه وهى عبارة عن أمكنة ثلوج هائلة لا يفصلها عن البحر الذى تسير فيه باخرتنا إلا خط من الأشجار فلم نهتد إلى السبب الذى حفظ هذه الأشجار فلم تمت من تأثير البرد الشديد فألقينا نظرة عامة على المناظر التى تحيط بنا ثم افترقنا للنوم وقد تحركت بنا السفينة ليلا .

وفى صباح (يوم الأربعاء ٢٦ يونيه) وصلنا إلى أمكنة الثلوج التى تدعى موير جلاسيه (Muir Glacier) فأسرعنا بارتداء ملابسنا وخرجنا من غرفنا وألقينا نظرة على ماحولنا فاذا نحن محاطون بقطع صغيرة من الثلج ولكن يعلوها الغبار فلم يرقنا منظرها وقد نزل بعض السائحين إلى هذه الأمكنة حتى يقولوا عند عودتهم إنهم ساروا على الثلج أما أنا فلم أرد أن أنزل معهم لأنى رأيت مثل هذه المناظر كثيرا فى بلاد النرويج وفى جبال سويسرا وقد كان البرد شديدا جدّا وهذا السبب الأخير هو الباعث القوىّ لعدم تحرّكى من مكانى . اقتربت قطعة هائلة من الثلج من باخرتنا فأردت أن أنزل لأقف عليها حتى ترسم صورتى وأنا على هذا الحال فطلبت ذلك من ربان الباخرة فأجابنى إنه لايمكنه أن يتحمل على عاتقه تبعة هذه المخاطرة فعدلت عن فكرتى

وفى الساعة الثانية عشرة قامت بنـا الباخرة إلى كليسانو (Klisano) وقد كانت الباخرة تصادم قطع الثلج المنتشرة فى البحر وكنا نسمع صوت هذه المصادمات وفى الساعة الثامنة مساء وصلنا إليها ولا أعرف سببا لوقوف الباخرة على هـذه القرية الصـغيرة التى لا يبلغ عدد منازلهـا العشرين فنزلنا وجلنا فيهـا فلم نجد شيئا يذكـر الا معمل السمك (Hareng) الذى كانت تنبعث منه رائحة كريهة أشد تأثيرا فى الأنف من رائحة (الفسيخ) وقد رأينـا بعض الملاحين يأخذون فى أوعية سمكا فقلنا ماذا نصنع اذا قدم لنا منه شىء فى طعامنا فقربنا منهم و رأينا مايحملونه واذا هو سمك صغير جدّا ذو رائحة شديدة كريهة و بعد ٤٥ دقيقة أقلعت بنا الباخرة و بعد أن سارت قليلا وقفت فى عرض البحر ثم رأينا حبالا فى طرفهـا شصوص (سنانير) أعدت لصيد السمك وكان عددها نحو الخمسين حبلا ففهمنا السبب فى تعريجنا على كليسانو الصغيرة وأخذنا منها السمك الصغير والظاهر أن هـذا المكان الذى نقف فيه الآن شهير بكثرة السمك وقد فرقت هذه الحبال على كل من يريد أن يلهو بصيد السمك وقد تولى ملاحظة كل خمسة حبال ملاح وأخذ كل ملاح منهم يضع فى شصوص حباله (سنانيرها) قطعا من السمك الصغير وأدلى السائحون والسائحات حبالهم فى البحر فصارت

الباخرة أشبه بباخرة صيادين من أن تكون باخرة سائحين أما نحن فصرنا نمشي لنرى ماذا يتم فى هذا الأمر و بعد انتظار ساعة اصطادت سيدة سمكة متوسطة فقلنا اذا كان هـذا الزمن الطويل لا يصطاد فيه إلا سمكة واحدة فلا ينتظر فائدة كبيرة ولكن بعدقليل سمعنا صياح الفرح فقد أعقب هـذه السيدة العجوز زوجهـا الهرم فصاد سمكة أخرى فتحولت الأنظار اليهما وكثرت عليها التهانى و بينما هما يشرحان كيف أمكنهما صيد هاتين السمكتين اذا بسيدة تنادى بأعلى صوتها لقد منّ الله على بسمكة كبيرة فأسرعوا ياأهل النجدة الى مساعدتى على جذبها فتكاثرت عليها الرجال والسيدات وكل ينسب الى نفسه الفضـل فى اقتناصها فكثرت المجادلة بين الجميع واختلفوا فيمن هى من نصيبه أما السمكة فكانت كبيرة جدا من نوع (الهاليبو) حتى أوشك الحبل أن ينقطع بها لثقلها وقد رأينا رأسها بارزا وهوكبير الجسم وكانت حركتها تدل على شـــدة قوتها وقد كان الزحام حولها بالغا أشده والكل يبدى رأيه فى طريقة سحبها فأراد الربان الثانى للباخرة أن يظهر مقدرته فأخذ عصا طويلة فى طرفها قطعة من الحديد ذات شـباة ونزل الى قاع السفينة وأراد أن يغرسها فى رأس السمكة و يساعد على إخراجها ولكن ذهب تعبه بل خلص السمكة من الحبـل فاتخذت سـبيلها فى البحر هربا

وغاصت فى قاعه فعلا صياح الأسف بين الجميع والكل يخطئه فى عمله الذى أضاع عليهم ثمرة تعبهم أما نحن فسررنا من فرارها لأننا رأينا من حال المجادلة الأولى أن الأمر ربما يفضى إلى المشاحنة وهذا ماتخشاه كثيرا لأن الحادثة وقعت أمام باب غرفتى فاذا كثر الصياح لاأجد سبيلا إلى الراحة والنوم . دخلنا بعد ذلك فى غرفة التدخين فاذا رأينا رأينا الغلام الموكل ببيع الخمور يلعن هذه السمكة التى كانت سببا فى كسر عدد عظيم من الزجاجات الثمينة المملوءة بالراح فانه عندماسمع الصياح قفز من مكانه ليرى ماذا جرى فأوقع زجاجات الخمور على الأرض فكسرت وذهب كل ما فيها فصار يكرر الشتم و يلعن طالعه السيئ وقد كان يتصاعد من الخمور رائحة قوية تغلبت على رائحة السمك الصغير الذى يصطاد به وبعد ذلك فارقت رفيقىّ وذهبت للنوم وفى نحو الساعة العاشرة سمعت صياحا آخر يدلّ على السرور ولكنى لم أنتقل من سريرى وأغمضت عينى تاركا للصيادين حبورهم داعيا لهم أن يزيد الله فى رزقهم لأن ذلك الرزق يصيبنا شئ منه فان السمك سيطبخ و يقدم للجميع .

ولما أصبح (يوم الخميس ٢٧ يونيه) علمت من رفيقىّ أنه بلغ عدد السمك الذى اصطاده السائحون أكثر من خمسين سمكة وأغلبها كبير

وقد كنا وصلنا إلى مدينـة سيتكا (Sitka) التى كانت عاصمة ألاسكا عند ما كانت تابعة للروسيين فنزلنا اليها و وجدنا عددا كبيرا من الهنود بين رجال ونساء يعرضون مصنوعاتهم للبيع فألقينا نظرة على هـذه البضاعة فاذا هى كالمعروضات التى كنا نراها فى كل مكان (خف مصنوع من جلد الغزال وملاعق خشبية وأساور وحلى هندية وجلود حيوانات هذه الجهة وغيرها)

ثم استمررنا فى طريق أوصلنا الى غابة جعلت كمتنزه وكانت أشجارها متقاربا بعضها من بعض وقد صادفنا كثيرا من الأعمـدة الهندية المنقوشة التى سبق الكلام على مثلها وهى مختلفة باختلاف الأسرات فإنها معتبرة كرمز عند الهنود الى نسب كل أسرة و بعد أن جُلنا فى هـذه الغابة عبرنا جسرا ومنه عدنا الى المدينة وزرنا معرضها العام فلم نجد فيه شيئا غريبا لم نر مثله من قبل ثم مررنا أمام مدرسة لتعليم بنات الهنود الغسل والكىّ والطبخ والخياطة وكل مايلزم لادارة المنزل وقد كانت البنات مرتديات بملابس أوربية ثم دخلنا بعد ذلك كنيسة روسية قيل لنا إنها قديمة العهد ومن أجمل الكنائس ودفعنا أجر الدخول نصف دولار عن كل شخص ولكنا لم نر فيها ماينطبق على ما وصفت به لنا إلا لوحتين معلقتين يمثلان صورة السيد المسيح

والعذراء وهما حقيقة من أبدع ماصنعته يد الانسان ثم رأينا لوحة أخرى بها صورة أول كاهن روسى وصل الى سيتكا ولكن صنعتها أقل اتقانا من صنعة اللوحتين السابقتين وبعد ذلك عدنا إلى الباخرة لأننا كنا ننتظر ردّ الرسالة البرقية التى أرسلناها الى نيويورك نستفهم عن امكان تغيير تذاكر السفر وتقديم ميعاده أسبوعا وبمجرد وصولنا إلى الباخرة تسلمنا رسالة برقية أنبأتنا بأنه يمكن السّفر فى الباخرة التى تسافر من نيويورك يوم ٢٣ يوليه فسررنا جدا . وبعد الغداء ذهبنا إلى مكتب البريد البرقى وأرسلنا رسالة برقية نذكر فيها قبولنا السفر فى الباخرة المذكورة ثم جُلْنا فى المدينة واشترينا من الهنود مااخترناه من بضائعهم ثم نظرنا مساكنهم الحقيرة وحالتهم التعسة وقد رأينا كثيرا منهم مصابا بأمراض مهلكة وبعضهم فقدوا نظرهم من عدم الاعتناء بنظافة عيونهم وقد أثر فينا منظر هندى بلغ من العمر أرذله وهوضرير وكان ينشر قطعة من خشب فما أقسى قلب الانسان إنهم لايتركونه يقضى باقى عمره فى هدوء مع أنه فى أتعس حالة فالكبر جعل جسمه يرتعش والفقر زاد شقاءه فتقدمت اليه وأعطيته بيدى مايخفف عنه آلام الحياة التى كلها شقاء فرأيت من حالته أنه ما كان ينتظر من أحد أن يهبه مايسدّ به رمقه هذا وقد علمنا أن هؤلاء الهنود كانوا يعتنقون

الدين المسيحى على المذهب الارثودوكسى لما كانت بلادهم يحتلها الروسيون والآن غيروا مذهبهم واتبعوا المذهب البروتستانتى مذهب الأمريكيين ولا غرابة فى ذلك فالناس على دين ملوكهم أردنا بعـد ذلك أن نذهب الى المقابر الروسية والهندية فتقدمنا الى فتاة وطنيـة نسألها عن هذه المقابر فلم ترد أن ترشدنا الى مكانها قائلة إنها لاتعرفها وقد رأينا من هيئتها واشمئزازها أنها تكره الجنس الأبيض ولعل لهـا فى ذلك بعض المعـذرة . وأخيرا دلنـا عليها روسى كهل فمشينا فى الطريق الموصل اليها وصرنا نصعد فى تل عال إلى أن وقفنا فى وسط المقابر فلم نر فيها شـيئا غريبا الا أننـا وجدنا مكانا محاطا بالأخشاب وعلى جوانبه دكك فصعدنا عليها فرأينا مناظر سيتكا الجميلة وقد أعجبنا موقع هذه المقابر لأنها فى أجمل مكان فى سيتكا . ولمـا شعرنا بتأثير البرد صممنا أن نعود و بينما نحن فى وسط الطريق قابلنا المسـتر دومان أمام حانوت وقال لى ان هـذا الحانوت يديره أحد الشـبان المتعلمين وعنـده ما يهم الوقوف عليـه فدخلنـاه و رأيت ملامح الذكاء تلوح على مديره الشـاب فسألته عن عـدد الهنود فى جزيرة بارانوف (Baranof Island) التى فيها مدينـة سيتكا فقال لى انهـم لا يبلغون الخمسمائة و ينقسمون الى ثلاثة أقسام تحت رياسة ثلاثة مشايخ ثم قدم

إلىّ حقا به تراب ناعم جدا وقال لى انه من آثار الاتربة التى ثارت عند حدوث الزلزلة وانفجار البركان منذ عهد قريب فى جهة كودياك (Kodiak) التى تبعد عن هنا بنحو ٦٠٠ ميل فقد حملها الهواء الينا حتى كان الجو مظلما وقد غطى التراب الثائر كل العمال والمنازل وغيرها وقد لاحظت أن الأشجار التى أصابها هذا التراب عدمت الحياة فجمعت منه هذا المقدار لأقف على تركيبه و يظن أنه خرج من بطن الأرض عند التهاب البركان وقد أعطانى منه مقدارا صغيرا لأبحث فيه بمصر ولأعلم سرّ مابه من الأجزاء المهلكة للنبات . ثم عاد الى ذكر أحوال الهنود فقال إنهم فى الزمن السابق كانوا يعيشون تحت أحكام أمرائهم التى كانت نافذة عليهم وكانت فى طبيعتهم مساعدة فقرائهم والبائسين مساعدة عظيمة حتى كان القوى منهم يشتغل ليقوت الضعيف أو المريض أو الهرم ولكن الآن ذهبت منهم هذه الخلال الحميدة باختلاطهم بنا فقد أصبح كل هندى لايهمه الا شأن نفسه وقد ذهب عن عاتقه عبء الانقياد لقدماء رؤسائه ولكنهم مازالت فيهم بعض فضائل فانهم لا يزالون يحبون بعضهم بعضا ولا يسرقون شيئا يملكه هندى مثلهم وجميع معاملاتهم فيما بينهم صادقة بخلاف معاملاتهم للجنس الأبيض فكأنهم يرون أن كل ما يمتلكه الأبيض

حلال لهم ثم استطرد فى كلامه إلى معــارف الهنود فقال ان هؤلاء الوحشيين قد عرفوا أن السمك يبيض قبل أن يختلطوا بالأوربيين ولذا كانوا يلقون فى البحر على الشاطئ فــروع الأشجار بأوراقها و يربطونها فى أحجار فاذا حل ميعاد بيض السمك أتى الى تلك الفروع و باض على أوراقهــا فيلتقطونها و يجففونها و يحفظونها للأوقات التى تقل فيها موارد غذائهم ولما كانوا لا يعرفون استخدام المعادن فى صناعة أوانيهم كانوا يصــنعون من فروع الشجر ســلالا و يطلونهــا بالطين و يجففونها ثم يضعون فيها الماء و يلقون فيه هذه الأوراق التى بها بيض السمك ثم يصهرون الحجارة المختلطة ببعض معادن و يلقونها فى هذا الماء فيسخن و ينفصل البيض عن أوراق الشجر و بعد ذلك يخرجون هذه الأوراق والحجارة ثم يصفون الماء فيبقى لهم البيض يأكلونه و يتغذون به (كالخافيار) وهذه الطريقة كانت مستعملة قديما عندهم فى انضاج غذائهم الذى يحتاج إلى الماء وهى غريبة فى بابها . وقد سألته عن سبب انتشار أمراض العيون بينهم فأجابنى أن أغلبهــم به مرض الزهرى ولا أعلم من أين أتتهم العــدوى كذلك لا يعتنون بنظافة أجسامهم ومساكنهم وقد يحرقون الأشجار فى فصل الشتاء اتقاء شر البرد القارس و يجلسون بقرب النار فيتصاعد عليهم الدخان المؤذى فيعمى أبصارهم .

فأين محبو الانسانية لينقذوهم من هذا المرض القتال وأين العلم الذى يلقونه عليهم ليرشدهم الى النافع ويبعدهم عن الضار . ان كلمة انسانية لا وجود لها فى هذا العالم الا فى خيال الفلاسفة الذين يعتقدون أن الانسان يجب عليه أن يحب أخاه ويعطف عليه وقت الشدّة ولكن مع الأسف نرى ضدّ ذلك فكأن ارتقاء بنى آدم فى علومهم ومدنيتهم داعية إلى قسوة أقويائهم على المستضعفين منهم واحتقار حقوقهم فلا حول ولا قوة الا بالله .

تركنا بعد ذلك الحانوت بعد أن ودعنا صاحبه المستر ميريل (Merill) ونحن معجبون لدقة مباحثه واتساع معارفه وعدنا الى الباخرة .

فى الساعة السابعة مساء أقلعت بنا السفينة بين هبوب الرياح الشديدة والعواصف تلعب بها ولكن هذه الحركة المتعبة لم تدم طويلا وبعد عشرين دقيقة من ذهابنا الى غرفنا للنوم وقفت بنا الباخرة بفأة وسمعت من السيدة التى تسكن بجانبى أنه حدث تلف فى الآلة المحركة للباخرة فاحتذيت نعلىّ ولبست معطفى وخرجت لأسأل عن السبب فصادفت ملاحا فأجابنى لاشئ ياسيدى وتركنى وذهب إلى حاله ثم قابلت رئيس الملاحين وسألته فأجابنى أن بالباخرة كثيرا من الزوارق الصغيرة وهى كافية لنجاة جميع المسافرين فأسرعت

إلى غرفة زميلىّ وأشرت اليهما أن يرتديا ملابسهما فكان خيرى أسرع من لمح البصر بجانبى أما مصطفى ابن بلاد الشمس الحارة فلم يخرج من سريره مخافة البرد فاكتفيت بالأول وذهبنا لنعرف الحقيقة فقيل لنا اننا ننتظر أن يهبط ماء البحر حتى يتسنى لنا المرور من مضيق به تيار شديد يخاف منه على الباخرة فعدنا إلى غرفنا بعد أن اطمأنت نفوســنا لعلمنا أنه لم يحدث خلل فى آلات السفينة ولكنى لم أتمكن من النوم قبل منتصف الليل .

وفى الساعة السابعة من صباح (يوم الجمعة ٢٨ يونيه) وقفت بنـا الباخرة ثانية فقالوا لنا إنهم فى هذه المرة ينتظرون قوة التيار ليساعد على المسير وأخذ الملاحون فى إعداد حبال صيد السمك حتى لايمل الســائحون من الانتظار وقد اغتنمت فرصـة عدم وجود أحد من المولعين بالصيد وأبعدت الحبال من أمام غرفتى حتى لا أشم الرائحة الكريهة ولكن بعد زمن قليل رأيت الملاحين يطوون هـذه الحبال وما فرغوا من طيها حتى كنا نسـير فى طريقنا فوصلنـا فى منتصف النهار أمام بلدة بطرسبرج (Petersbourg) الجميـلة التى حال دون أن نصورهـا عند مرورنا عليهـا فى المرة الأولى رداءة الجو ولكن فى هذه المرة رسمنا ماأعجبنا رسمه فيهـا لأن الشمس كانت زاهية والجو

صافيا . وصلنا فى الساعة الرابعة مساء الى بلدة فرانجيل (Wrangell) وهى فى رأس جزيرة وأغلب سكانها صيادون وتجارتها فى الفراء فنزلنا اليها ولم ننتظر مثل باقى السائحين الدليل الذى سيقودهم الى المزارات ويشرح لهم ما يغمض عليهم فهمه و بينما نحن نجول فيها صادفنا جموع السائحين وقد التفوا حول دليلهم وهو يتكلم بينهم وهم يسمعون أحاديثه فعلمت من هيئة ملابسه أنه قسيس فسألت أحد الامريكيين هل يعرف هذا الدليل فأجابنى أنه واعظ الكنيسة فقلت سيقودهم اليها و يبتز منهم أموالهم وهم عن ذلك غافلون فضحك هذا الرجل وقال لى أتسمع صوت الناقوس فأجبته نعم انه يقول (خمسة سنس خمسة سنس) أى ان كل زائر سيدفع هذه القيمة الزهيدة لجيب القسيس الذى يأخذها لنفسه ولا يصرف إلا القليل منها على الفقراء والمساكين . استمررنا فى طريقنا إلى أن وصلنا إلى حانوت يباع فيه جلود الدب فاستحسنت منها واحدا وسألت عن ثمنه ولكنى وجدته غاليا فتركت مصطفى عنده ليساوم صاحبه وذهبت إلى الباخرة وعند عودته أخبرنى أنه لم يقبل ثمنا له أقل مما طلب أولا فصرفت النظر عن شرائه خصوصا وأنه يكلفنى أتعابا ونفقات حتى أوصله الى مصر . بعد العشاء خرجنا لنستريض قليلا وفى الساعة العاشرة مساء قامت بنا

الباخرة ووجهتها بلدة اولدكاسان (Old Kassan) وستصلها فى الساعة الخامسة صباحا من (يوم السبت ٢٩ يونيه) ولكنا صممنا ألّا نقلق راحتنا ونقوم مبكرين لرؤية بلدة صغيرة ليس لهـا شأنـ يذكر وفى الساعة العاشرة والربع صباحا من اليوم المذكور وصلنا الى ميتلاكاتلا (Mitlakatla) وهى أيضا بلدة صغيرة فى جزيرة لا يبلغ عدد منازلهـا أكثر من عشرين منزلا وبهـا كنيســة واحدة ومخزن تجارى لجميع السكان وقد رأينا حالة الهنود الذين يسكنونها فهى أيضا محزنة وأظن أن الجنس الأبيض المتمدين حكم على هذا النوع من بنى الإنســان بالفناء فترك الأمراض القتــالة تفتك بهم ولا راحم يرحمهم لأنهم فى نظره لافائدة فى وجودهم على ظهر الدنيا . فى الساعة الحادية عشرة صباحا أقلعت بنا الباخرة إلى نهاية رحلتنا بالاسكا فاننا صعدنا إلى أعلى نقطة فى شمالهـا وطفنا حول جزائرها الكثيرة ثم عدنا من طريق آخر إلى آخر نقطة فى جنوبها ولمـا كانت ليلتنا الآتية هى آخر ليالى تلك الرحلة أخذ فى الاستعداد من الآن لاقامة مرقص وبعد العشاء دار الحاكى (الفونوغراف) وصارت السيدات والرجال ترقص على نغماته إلى أن أتى دور (المشيش) فانبرى من الجمع سيدتان عجوزتان كبيرتا الجسم وطفقتا ترقصانـ رقصا مخجلا فقال أحد زميلىّ نحمد الله

لأنهما بلغتا من العمر أرذله فأجبته نعم يجب أن تحمد الله لأنهما لو كانتا فتاتين للعبتا بأفئدة الشبان ولكن لاخوف على الرجال منهما فهما فعلتا فلن تلاقيا استحسانا ولا نظرة ولو بطرف خفى . بعد ذلك تركنا الجميع فى سرورهم وذهبنا الى غرفنا للنوم

ولما أصبح (يوم الأحد ٣٠ يونيه) رأينا الضباب يحيط بنا من كل جهة والباخرة تمشى متباطئة ولكن ما أتت الساعة الثامنة صباحا حتى انقشع هذا الضباب وسارت الباخرة تمخر فى عباب البحر بسرعتها المعتادة وفى الساعة الحادية عشرة أقيمت الصلاة وفى منتصف الساعة التاسعة ألقت السيدة المعروفة محاضرتها عن مستقبل الاسكا وفى الساعة الخامسة أعيدت الصلاة ثم أعقب ذلك بعد العشاء الرقص

وفى صباح (يوم الاثنين غرة يوليه) قمنا مبكرين ومستعدين للنزول إلى ڤانكوفر (Vancouver) هنا أيضا يلزم إعادة مثل الاستعلامات التى حررناها عند وصولنا الى نيويورك مثل ذكر الاسم واللقب والصناعة وهل القادم متزوج وهل يقصد الاقامة فى كندا واذا كان سائحا فما مقدار الوقت الذى سيقضيه فيها ثم يذكر عمره والحكومة التى هو تابع لها وهكذا . وصلنا نحو الساعة التاسعة الى مصب نهر فريزر (Fraiser) الذى يجرى فى ڤانكوفر و بعد نصف ساعة صارت باخرتنا

تمرّ بين منارى هـذا الثغر وقد أخذنا نرى الراية الانكليزية تخفق على الزوارق والبواخر التى كانت مملوءة بالركاب وقد لاحظنـا فى أيدى المسافرين فيها رايات انكليزية بهـا علامة حكومة كندا فسألت عن سبب ذلك فقيل لى ان لسكان كندا عيدا فى أول يوليــه . رست الباخرة على رصيف الميناء فى منتصف السـاعة الحادية عشرة فبحثنا عن مندوب فندق ڤنكوڤير فـلم نجده فصحبنى خيرى وركبنا عربة أوصلتنا إلى الفندق المذكور بعد خمس دقائق ولما دخلناه سألنا أحد مديريه ألم تصل اليهم أخبار فى شأننا من محـل كوك فأجابنى قائلا لا فسألته عن غرف لنافقال ان اليوم يوم عيد وجميع الغرف مشغولة الآن وعليكم أن تنتظروا الى وقت الظهر فتركته وذهبت الى بواب الفندق لأرسله الى الميناء لاحضـار مصطفى وحقائبنا فلم يرد أن يتحرك من مكانه ولمـا أكثرت الطلب أجابنى ان رفيقكم اذا طـال عليـه أمد الانتظار يحضر ويسلم الحقائب الى شركة النقل لتوصلها الى هنا وأخيرا تركنا الفنــدق لنذهب الى مصطفى وفى الطريق صرت أبحث عن مكتب شركة الكنديان پاسـفيك فلم أعثر عليه فتركت خيرى يذهب الى رصـيف الميناء ليلاقى زميلنا الآخر وقصدت شرطيا وسألته عن هذا المكتب فدلنى عليه فتقدّمت الى مكان استلام الرسائل وسألت

العامل هل وصلت رسائل باسم رستم بك وأصحابه فأجابنى بفتور قائلا لا فأعدت سؤاله ألم يصل توصية بهذا الاسم من محل كوك فقال لا دخل لى فى ذلك . فرجوته أن يدلنى على المكان الذى يمكننى أن أستفهم منه عن طلباتى فلم يتنازل الى اجابتى فذهبت الى عامل آخر فكان نصيبى معه مثل نصيبى مع الأول . حدث لى كل ذلك ولم يستول القنوط علىّ فخرجت لأبحث عن خيرى فقابلته وذهبنا معا الى المحطة التى كانت قريبة من الميناء ولما دخلناها وجدنا مكتبا معدا للاستفهام فتقدمت الى الموظف فيه وسألته هل يمكننى مقابلة أحد رؤساء الشركة فأخذ يضحك ويقول لمَ ذلك فأخبرته إننا غرباء وننتظر من محل كوك رسائلنا وأن يوصى شركتكم بنا فصار يضحك أيضا وأخيرا نطق متكلفا بقوله: إذهب الى رصيف المحطة تجد عامل كوك فى مكتبه فأسرعنا الى هذا الرصيف وأخذنا نبحث عن هذا المكتب فلم نجد له أثرا ثم ساقنا حظنا ودخلنا فى مكتب إرسال البضائع وسألت أحد موظفيه عن عامل كوك فقال لى أنا ياسيدى الموكل بأشغاله وإن لم أكن موظفا عنده فحمدت الله اذ لم يذهب تعبنا هباء منثورا فوجهت اليه أسئلتى فأجابنى بلطف اصعد ياسيدى الى المستر بوردى (Bordy) وهو رئيس فرع الكناديان باسفيك

ويسكن فى الطابق الثانى من عمارة المحطة فركبنا المصعد الذى أوصلنا إلى أمام مكتب فدخلت فيه وقابلت موظفا وأخبرته أنى المسيو رستم فبش فى وجهى وقال تفضل واجلس ياسيدى إننا ننتظرك فسردت عليه مالقيناه فى الفندق فما لبث أن تكلم بالتلفون مع مديره الذى يتبع شركتهم وأمره بأن يعد حالا غرفنا وأوصاه بنــا خيرا ثم سألنى هل تذاكركم مستوفاة فأجبته إننــا أدخلنا بعض تعديل فى برنامجنا فقــال سأرسل اليكم أحد عمالنا فى الساعة ٢ و ٣٠ دقيقة ليتسلم التذاكر القديمة ويطلع على التعديل الجديد لتغيير التذاكر على حسبه فشكرته وانصرفنا من عنده مسرورين لأننا وصلنا الى غايتنا وعدنا الى الفندق فوجدنا غرفنا قد هيئت لنا فلم ينقصــنا بعد ذلك إلا حقائبنا فقيل لنا انهــا ستصل الينا بعد الظهر

فى الساعة ٢ و ١٥ دقيقة حضر مندوب شركة الخطوط الحديدية فأوقفناه على مطالبنا وانصرف على أن يعود الينا فى الســاعة ٧ ومعه تذاكرنا الجديدة أما نحن فاستأجرنا عربة وركبناها وأمرنا ســائقها أن يذهب بنــا الى داخل المدينة ليرينا أهم شئ فيها فذهب بنا أولا الى الحــديقة العامة فرأيناها غاصــة بالمتنزهين الذين كان السرور باديا على محياهم وقد كانت ملابســهم نظيفة وكانوا يهنئون بعضهم بعضا

بحلول هذا اليوم الذى يحتفلون به أعظم احتفال فى جميع بلاد كندا ويعتبرونه من أكبر أعيادهم فتفقدنا هـذه الحديقة التى تسمى ستانلى بارك (Satanley Bark) فاذا هى عظيمة الاتساع وقد كانت الموسيقى تصدح بألحانها الشجية فى مكان فيها أعد لذلك فأمضينا فيها ساعة من الزمن بين أشجارها الناضرة وزهورها اليانعة وبحيراتها التى صفا ماؤها ثم خرجنا منها فقصدنا حىّ الأغنياء وكنا نصادف فى الطرقات بعض الشرط (البوليس) ما بين راجل وفارس بملابسهم الأنيقة ويشبهون شحنة (بوليس) مدينة لوندرة العظيمة فى الشكل والهيئة والنظام ولما وصلنا الى منازل الأغنياء وجدناها خالية من الزخارف كمنازل الانجليز العادية . ذهب بنا السائق الى شاطىء نهر يخترق المدينة فرأينا على ضفتيه جملة حمامات وملاهى مكتظة بالمتنزهين والمستحمين ولكنهم لا يخرجون عن حد الآداب العامة هـذا وقد لاحظنا خليطا من هنود آسيا وهنود أمريكا وعددا كبيرا من الصينيين وغيرهم من ذوى اللون الأسود يشتغلون فى معامل المدينة وحوانيتها وقد قيل لنا ان هؤلاء وظيفتهم الاشتغال بالأشغال الخطرة لانه ان حصل حادث أفقد أحدهم عضوا لا يطلب دية عظيمة كما يطلب الأبيض كذلك ورثة من فقد حياته منهم أثناء قيامه بتأدية عمله فانهم

يكتفون بالقليل من المـال وقلما يجدون بين المداره (المحامين) من يأخذ على عاتقه المدافعـة عن حقوقهم أمام رجال القضـاء طلبا لتعويض كبير يخفف عن الورثة مالحقهم من الضرر بفقد عميدهم ولو بحثنا بحثا دقيقا فى الأسباب الموجبة للتمييز بين منزلة الجنس الأبيض ومنزلة باقى الأجنـاس حتى أمام القانون الذى كان الغرض منه فى أصل وضعه تطبيقه على جميع سـكان مملكة واحدة بدون تمييز بين الأبيض والأسود والأحمر والأصفر لو بحثنا فى تلك الأسباب لوجدنا أهمها الاعتقاد السـائد بأن الجنس الأبيض أرقى وأنفع للهيئة الاجتماعيـة من باقى الأجنـاس ويعللون ذلك بعلو مدارك الجنس الأول وانحطاط عقول باقى الأجناس حتى ان علماء التشريح يثبتون هذا الفرق فى تكوين الأدمغة ويدعون أن دماغ الأبيض أكثر نموا من دماغ الاسـود مثلا وقد يرسمون شـكل جمجمة الأول ليقارنوا بينها وبين جمجمة الثانى ولقوة بيانهـم لا يعدمون أن يخلقوا براهين قوية تثبت دعاويهم ولقد كان الجنس الاصـفر فى الزمن السـابق معدودا من الأجناس الأقل درجة فى المدارك من الجنس الابيض ولكن هذا الاعتقاد أخذ يتغير من بعد مزاحمة اليابانيين للاوروبيين وجدهم واجتهادهم ووصولهم الى هـذا المجد الشامخ فقد برهنوا أخيرا

أن بينهم من لا يقل كفاءة عن أخيه الاوروبى القائد الباسل أو السياسى المحنك أو الكاتب البليغ أو الصانع الدقيق أو المكتشف الماهر أو المخترع العظيم . نعم لقد عرفت هذه الأمة ما ينقصها فاجتهدت فى نشر التعليم والمبادئ الحقة بين أبنائها ولم تترك وسيلة من وسائل الرقى الى مستوى أرقى الامم الا اتخذتها ولما وثقت بقدرتها وآنست من نفسها الكفاءة للتسابق فى ميادين الرقى وأرادت اعلان ذلك على رؤس المنكرين لفضائلها رأت أن لا سبيل الى ذلك الا اذا أظهرت أنها لا تقل عنهم مقدرة وقوة فألقت بنفسها فى تيار السياسة وطرق الاستعمار ولما أحست بأن حقوقها لا تحترم فى مسائل حيوية استعدت للطوارئ ولما وقع الحرب بينها وبين روسيا العظيمة خرجت وعلى رأسها اكليل الفخار والظفر وصرنا لا نسمع من وقتها الا المدح والاطراء فى همة اليابان فالقوة اذا هى المعيار الذى يعول عليه فى تقدير القيم والميزان الذى تقاس به مراتب الأمم . لقد ذكرت مثل اليابانيين لأضحد حجة من يرى أن الجنس الأبيض دون غيره هو المستعد للرقى الجدير بالسيادة على سائر الأجناس ولأثبت أن الاستعداد للرقى لم يختص الله به قوما دون آخرين بل هو مشترك بين خلق الله أجمعين غير أن المدارك لا تنمو الا بالتعليم فعلى كل أمة مهما كان

جنســها اذا أرادت أن تأخذ مكانا رفيعا بين باقى الأمم المتمدينــة أن توجه جل عنايتهـا الى التعليم الصحيح ونشر التربيـة الحقة التى تغرس فى نفوس أبنائها الأخلاق الفاضلة التى تعدهم لأن ينهضوابها سائرين فى سبيل النجاح . لاينكر أحدأن المغلوب مقهور وقلما يحترم له حق أو يرى له حرمه فان الحق مع القوة وما أصدق قول المتنبي :

متى تجمع القلب الذكى وصارما ❁ وأنفا حميـا تجتنبك المظـالم

هذه حقائق يعرفها كل انسان ذكرتها عرضا بمناسبة معاملة العمال الذين ليسوا من الجنس الابيض وقد سمعتها من الامريكيين أنفسهم ولم أر تعليلا لهذه المعاملة الا ماذكرته آنفا . هذا ولقد أخذت أبحث بين هؤلاء العمال لعلى أجد من بينهم من فقد أحد أعضائه فلم أهتد الى ذلك فعلمت أنهم يعرفون هـذه المعـاملة ولذا يحترسون أشـد الاحتراس ولا يخاطرون بأنفسـهم فى عمل يعود عليهم بالضرر فحسنا فعلوا

أعجبنا بين هؤلاء العمال الهنود الاسيويون بعمائمهم المختلفة الالوان وقوامهم المعتـدل ووجوههم السـمراء اللطيفـة ولحاهم السـوداء وشـعورهم اللامعة وعيونهم البراقة فصرت أمتع نظرى لانهم أقرب شكلا لأبنـاء الأمة العربية الكريمة ولقد سررت جدا من وجودهم

فى هـذه البلاد البعيدة طلبا للارتزاق وهـذا من دلائل الاجتهـاد نجحهم الله فى أعمالهم

عدنا بعدذلك الى الفندق ولم تأت أمتعتنـا من مخزن المكس (الدخولية) فكلفت مصطفى بك أن يأخذ مفاتيح حقائبنا ويذهب اليه عند افتتاحه فى السـاعة ٦ مسـاء وبعد عودته أخبرنا أنه لاقى صعوبة كبيرة فى اخراجها وقد كان هنـاك عامل هرم لم يترك حقيبة الا فتحها وجعل عاليها سافلها وأخيرا تخلص منه زميلنا بعد أن سمع من مر الكلام ما جعله يسخط على آدابه المنحطة

أصبحنافى يوم (الأربعاء ٢ يوليه)وكنا على استعداد للسفر وما أتت الساعة التاسـعة حتى كنا فى قطارنا وقد صحبنا الى المحطة مدير الفندق ومنـدوب الشركة الذى أوصى بنا عمال القطار ولمـا تحركنا صرنا نمر على بلاد واسعة آهلة بالسكان ولكن اتساع أراضى كندا وقلة سكانها بالنسبة لمساحتها العظيمة جعل جزأ كبيرا منها غير متزرع ولقد فكرت الحكومة فى ذلك فسهلت سبيل الهجرة اليها والحصول على أراض خصبة بشروط معتدلة فنزح اليها كثير من المهاجرين حتى من سكان الولايات المتحدة

مازلنا سائرين بين جبال شاهقة ووديان خصـبة الى وقت الزوال

ولكنا بعده صرنا نمرّ فى صحراء مقفرة لا نبات فيهـا ولا زرع وبعد غروب الشمس دخلنا ثانيا بين جبـال عاليـة صخرية وفى السـاعة السادسة من صباح يوم (الخميس ٣ يوليه) ارتدينا ملابسـنا وأخذنا نشـاهد على رؤوس هذه الجبـال مقادير عظيمة من الثلج المتراكم بعضه على بعض وما أتت السـاعة ١٢ و ٣٠ دقيقة حتى كنا بمحطة لاجان (Lagan) وهى التى منها سنذهب الى بحيرة لويس (Lac Luise) التى نقصدها وقد كنا متأخرين عن ميعاد الوصول بساعتين ونصف . وبينما كنا على رصيف المحطة تقدم الينا شـاب وسـأل هل هو فى حضرة المستر رستم وأصحابه فأجبته نعم فأخبرنا أنه وكيل ادارة الفندق الذى سنذهب اليه وأنه مأمور أن يقوم بمـا يلزم لنا فسـلمناه وثائق حقائبنا الكبيرة فأعطاها لبواب الفندق وأمره بايصالها الى الفندق ثم أخذنا باقى أمتعتنا الخفيفة وركبنا معه عربة (شربان) يقودها حوذى ثرثار صـار يتكلم عن ماضيه وكيف كان يذهب بالسائحين الى جهة يللوستون بارك الشهيرة (Yellowstone Park) بمناظرها الرائعة ثم انتقل الى الكلام عن زوبعة شديدة حصلت أخيرا فى هذه الجهات خربت بلدة رچينا (Regina) وقتلت خمسـة عشر شخصا وأتلفت مزروعات كل هذه الجهة وقد حكى لنا أنه من منذ أربعين سنة لم تأت زوبعة

شديدة مثل هذه الأخيرة التى قضت على آمال المهاجرين الذين أتوا الى هذه الجهات لاستغلال أراضيها الخصبة . ان الطريق ما بين المحطة والفندق يبلغ تقريبا ثلاثة أميال قطعناها فى أكثر من ساعة لكثرة الأوحال وعدم انتظامه ولم نر شيئا جميلا يستحق الوصف . وصلنا الى الفندق فأعجبنا كثيرا موقعه فأخذنا مفاتيح غرفنا وصعدنا اليها وتفقدناها فراقتنا ثم نزلنا بعد ذلك لتناول غدائنا وكانت تقوم بخدمتنا خادمة شمطاء أسرعت فى اعداد طلباتنا . وبعد ذلك صعدنا ثانيا الى غرفنا لنزيل ما لحقنا من التراب ولنستريح قليلا من عناء السفر ولما بحثت عن حقيبتى الصغيرة التى كان بها أنفس الأشياء عندى وأعزها خصوصا كتاب الله الكريم الذى اهدته الىّ والدتى يوم ولدت فهو حليفى أينما سرت أتبرك به ولا أتركه بعيدا عنى لحظة واحدة ومصحف آخر أتلو منه بعض الآيات الشريفة بعد صلاة الفجر من كل يوم فلم أجدها فطار لبى وعظم كدرى فأسرعت الى طلب بواب الفندق وسألته عن هذه الحقيبة ولكنى كنت أشعر باطمئنان فى نفسى وان الله لايحرمنى من هذين المصحفين الشريفين فوصفتها له فأجابنى أنه لم يرها فرجوته أن يسأل المحطة بواسطة المسرة (التلفون) عنها ثم أرسلت فى طلب مصطفى بك وأخبرته بضياع

الحقيبة وسألته أن يذهب و يستعلم من مدير الفندق أو غيره و يبذل العناية فى البحث عنهـا وبعد أن غاب قليلا حضر الىّ ومعه بواب الفندق وأخبرنى أنه لم يعثر عليها فى المحطة ولا بين حقائب المسافرين فكلفت مصطفى ثانيا أن يقابل المدير و يلح عليه فى البحث عنها ولما طال انتظارى بدون فائدة تكلمت مع مدير الفندق بالمسرة قائلا انه مضى على حقيبتى أكثر من خمس ساعات وأنا انتظرها وذكرت له أن بهـا بعض ملابس أنا فى حاجة اليها الآن ومن العيب أن تكون ادارة الفندق مختلة النظام الى هـذا الحد ولا يستغرب القراء هـذا الاهمال وعدم العناية بالبحث عن أمتعة السائحين فى أمريكا لا سيا عند المقارنة بين اهمـال هؤلاء ودقة أصحاب الفنادق فى أوروبا فى المحافظة على حقائب النازلين عندهم وسرعة احضارها لهم فان الأمريكى ينتظر الى أن يؤتى له بها ولا يدفع فلسا واحدا فى استئجار عربة للبحث عنها او مكافأة للخادم الذى يكلف نفسه مشقة البحث عنها حتى يعثر عليهـا ويحملها اليه ويرى ذلك كله من واجبات رجال الفندق فالاعتناء بنقلها وايصالها الى أصحابها مفقود . علمت بعـد ذلك أنها ستصلنى عما قليل وبعد هنيهة رأيتها بين حقائب المسافرين على عربة ولما وقفت بها أمام الفندق أبى البواب أن يحملها و يصعد الىّ بها وقد

بدر منه لرفيقىّ حينما طلبا منه ذلك خشونة وجفاء فى القول وقال انه لم
ير مع أحد من السائحين حقائب كثيرة وثقيلة الحمل كحقائبنا .
صدق فى كلامه لأن أغلب القادمين الى هذا المكان من سكان المدن
القريبة ولا يحضرون معهم الا ما يكفيهم من الملابس لقضاء أيام
معدودة فى هذا الفندق فليسوا مثلنا قادمين من بلاد بعيدة . وبعد
جهاد شديد وصلت الىّ تلك الحقيبة مهشمة وعند ما نزلنا لتناول
العشاء قابلنى مدير الفندق وأخذ يعتذر فقلت له ان الوصية بنا لم تفد
كثيرا ولو كنا نعلم أننا سنلاقى فى فندقك من التعب واقلاق الراحة
مالقينا خصوصا بعد ما تكبدنا المشاق فى رحلتنا الى الاسكالما قصدناه
وذكرت له بعض ما فرط من بوابه فصار يبدى عظيم أسفه ولكن ماذا
يفيد الأسف بعد أن تأذينا من سوء المعاملة . فى صباح يوم (الجمعة
٤ يوليه) نزلنا لنتفقد حالة الفندق وموقعه فرأيناه كبيرا جدا مشيدا على
شاطىء بحيرة لويز (Lac Luise) والواقف أمام بابه يرى البحيرة وماءها
الأزرق الصافى وعلى جانبيها جبلان عظيمان تكسوهما الأشجار الناضرة
وفى نهايتها من الجهة الأخرى أى بين هذين الجبلين جبال من الثلج
تذوب وتكون جنادل تصب فى هذه البحيرة الجميلة فسألنا هل هناك
طريق يوصلنا الى رؤية هذه الجنادل فأخبرنا أنها لاتبعد عن مكاننا

بأكثر من ميلين وقد قيل لنا ان هذه الجنادل تكون بحيرتين قبل أن تصب فى هذه البحيرة التى نحن نمتع الآن أنظارنا بمناظرها الجميلة فعزمنا أن نذهب اليها راجلين لا سيما وأن الجو فى يومنا هـذا صاف والشمس تلقى أشعتها الذهبية على هذه الجبال الجميلة فتزيد فى حياة أشجارها وتكسبها نضرة وبهاء وتتسـلط على رؤس الجبـال الأخرى المكسوة بالثلوج فتذيبها وتجعل دموعها تتسـاقط كاللآلىء فأخذنا طريقا على شاطىء البحيرة من الجهة اليمنى وقبل أن نصل الى منتصف البحيرة انعطف بنـا الطريق الى جهة اليمين وأخذنا نصعد فشعرت بالتعب وأخذ نفسى يضيق ودقات قلبى تقصر فاتخذت الطريقة التى تتبعها الجوذية فى راحة خيولهم عند تسلقهم الجبال وصرت كل ١٥ دقيقة أستريح نحو أربع دقائق وقد كان بجانبى خيرى بك فلم أر عليه أقل تعب وكأنه كان يمشى فى طريق معتدل وهـذا ليس بكثير على من كان مثله جنديا مدربا على ملاقاة أنواع المشقات أما مصطفى بك فحدث عن حالته ولا حرج فانه صار لا يقدر على الكلام ومن حسن حظنا أن وجدنا مقاعد معـدّة للراحة على جانب الطريق ولا يبعد بعضها عن بعض كثيرا فكنت أنا ومصطفى نجلس عليها خائرى القوة ويقف أمامنا خيرى يشـجعنا على الاستمرار حتى تم هـذه

الاستراضة التى شعرنا بصعوبتها . وصلنا الى خص جميل يطل على البحيرة فجلسنا فيه قليلا وقد أعجبنا موقعه جدا وهو معد للالتجاء اليه عند انهمار الأمطار وقبل أن نغادره وصل اليه فارس (Cow-Boy) يقود ثلاث سيدات بلغن من العمر عتيا يركبن جيادا وقد كشفن عن سوقهن دون مبالاة فيالله من هذه العادات التى مزقت معها ثياب الآداب وانى لأخشى أن الزمن على تواليه يحسن القبيح ويقبح الحسن فتقضى البدع (المودة) بالارتداء بملابس تشبه ملابس قدماء اليونانيين والرومانيين أيام كانوا يكشفون نصف أجسامهم وأظن أن السيدات المتأنقات فى الملبس لايحرمن أنفسهن من التمتع بهذه البدع (المودة) ولو نفرت منها الفضيلة وأنكرتها الآداب

ان التهتك والتبرج بلغا أقصى غايتهما ومما يملأ القلب أسفا أن ذلك لم يبق مقصورا على البلاد الغربية فانه أخذ يتسرب الى بلادنا وينتشر فيها بسرعة مدهشة فأين آدابنا الشرقية وأخلاقنا الاسلامية . انى أرى اهمالا شديدا فى المحافظة على عوائدنا القديمة وقد التبس الأمر على الشرقيين فى فهم معنى الحرية وأساءوا التصرف فى الانتفاع بها وتذرعوا بها الى هتك حرمة الآداب وتقويض دعائم الأخلاق الكريمة . ولو تيقظوا لعلموا أن الحرية حق من حقوق الرشيدين

من عباد الله جل شأنه منحهم اياها ليستعينوا بها على تنظيم أحوالهم وترقية شؤونهم واستعمال مواهبهم فيما خلقت لأجله والتمتع بما أباحه الله لهم فليس فى معنى الحرية الخروج عن حدود الآداب وخرق سياج الفضائل فان ذلك سائق الى مهاوى الهلاك . ان كلمة حرية كان يقصد بها أولا تخليص الانسان من أطوار العبودية والرق يوم كان القوى يتغلب على الضعيف فيأخذه أخذ عزيز مقتدر ويسخره فى مصالحه كحيوان أعجم مملوك له يتصرف فيه كيفما يشاء فلما استنارت العقول رأت أن ليس لمخلوق حق السيادة على آخر وان كل عبودية من الانسان للانسان حطة ودناءه وأن الانسان سيد نفسه الا أمام خالقه فهو عبد له دون غيره ولا تفاضل بين بنى آدم الا بمقدار ما لهم من المدارك وفضائل الأخلاق ومحاسن الآداب

هذا هو معنى الحرية التى جعلها الحق جل شأنه من حقوق عباده وهى بهذا المعنى أكبر أركان سعادة الانسان فبها يحيى العدل ويموت الظلم وبها يتخلص الانسان من قيود الذل الى بحبوحة العز بهـا تكون للحياة قيمة وبدونها لا معنى للحياة فاذا خرج الانسان بالحرية عن هذه الدائرة الى انتهاك الحرمات والانغماس فى الشهوات واطلاق العنان للنفس تتلاعب بها الأهواء وتفعل بها كلما تشاء اذا ذهب الانسان

بحريته الى هذه الغاية انقلبت الى حرية العجماوات السائحة فى بواديها فهام فى ظلمات الضلال واذا كانت هذه الحرية المطلقة هى غاية المدنية الحديثة فجدير بها أن تسمى همجية . انى ليحزننى أن أرى المتمدينين من أبناء الشرق (مهد المدنية الحقة) بعد أن غربت شمس حضارتهم بنبذهم مزايا أسلافهم أخذوا يتهافتون على الاقتداء بالغربى فى مساوىء مدنيته دون محاسنها فالغربيون متضافرون متعاونون على ما فيه خير لهم مجدون فى أعمالهم بعيدو النظر فى شئونهم كثيرو التدبير فى عواقب أمورهم . حياتهم العملية سائرة على نظام متين أطلقوا لعقولهم عنان البحث فى ملكوت السموات والأرض ليقفوا على أسرار ما خلق الله من جماد وحيوان ونبات فينتفعوا بها فى حياتهم والشرقيون متخاذلون متواكلون لا تعاون بينهم متقاعدون عن عظائم الأعمال قصير والنظر فى شئونهم لاسيما الاجتماعية قليلو التدبر فى العواقب يكاد نظر أحدهم لا يتجاوز موطىء قدميه متخبطون فى حياتهم العملية فلا نظام لها تركوا عقولهم ضالة فى فيافى الجهل وان تناولوا شيئا من العلم قنعوا بقشوره دون لبابه و ياليتهم تركوا للقوم شرهم كما أهملوا خيرهم ولكنهم اقتفوا آثارهم فى معايبهم فكانوا جماعا للعيوب فانهمك الرجال فى الشهوات واستهوتهم الملاهى ووضعوا يد الاسراف

فى أموالهم نخسروا الفضيلة والمـال وتبرج النساء ولا تبرج الجاهلية الأولى وغاض ماء الحياء من وجوههن وكادت العفة تطير من قلوب كثير منهن حدث كل ذلك وما أشبهه باسم الحرية والحرية الحقة بريئة منه هذا هو مجمل الأسباب الداعية الى انحطاط الشرقى وضعفه وهذه هى علل تقهقره ووقوعه تحت سلطة غيره وحلوله فى منازل الهون التى سيبقى فيهـا حتى يغير ما بنفســه (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) لحذار حذار من سـوء عاقبة هـذا الاهمال المهلك والله يهدينا الصراط المستقيم

تركنا مكاننا واستمررنا فى طريقنا صاعدين الى أن وصلنا الى مستو رأينا فى وسطه بحيرة صغيرة تدعى المرآة (Lac Miroir) فرأينا أن الاسم ينطبق على المسمى وقد كان ماؤها صافيا ساكنا فمشينا حولها ثم ألفت نظرنا خص فى مكان مرتفع لا يزيد بعده عنا عن مسير ربع ســاعة فعزمنا أن نصل الى النهاية وأخذنا الطريق الموصل اليه وبعد اثنتى عشرة دقيقة وصلنا اليه فوجدناه على شاطىء البحيرة الصغيرة الثالثة التى تسمى اجنيس (Agnes) فأسرعنا الى الدخول فيه لنتقى تأثير البرد والهواء خصوصا أن العرق كان يتصبب منى ومن مصطفى وبعد أن استرحنا قليلا خرجنا لرؤية منظر هـذه البحيرة فتجلت أمامنا الطبيعة

بجمالها وصرنا نرى البحيرتين الأخريين بحيرة المرآة وبحيرة لويز فوضع هذه البحيرات الثلاث كدرج السلم بعضها فوق بعض فالأولى بحيرة لويز التى على شاطئها فندقنا وهى الكبرى ثم تليها بحيرة المرآة وهى أصغر من الاولى ثم بحيرة اجنيس وهى أصغر من كلتيهما والواقف فى مكاننا يحيط نظره بأطراف هذه الجهات فتصور أيها القارئ مجموع هذه المناظر : جنادل تسقط من رؤس جبال مغطاة بالثلوج فتكون بحيرة صغيرة منها تسقط جنادل أخرى تكون البحيرة الثانية ثم جنادل ثالثة تكون بحيرة لويز الجميلة واذا التفتت الى اليمين أو الى الشمال ترى جبالا مكسوة بالأعشاب والأشجار واذا مددت نظرك الى ما وراء هذه الجبال ترى سهولا خصبة تخترقها أنهر فما أبهى وجه الطبيعة فى هذا المكان انا نشعر بلذة لا تعلوها لذة . هنا يتيقظ الخيال ويتسع أمام الناظر مجال التصور فمن كان ايمانه صحيحا يكثر من تعظيم الله وتسبيحه وحمده على جزيل نعمه على الانسان ومن كانت أخلاقه كريمة ينمو فى قلبه الحب الصادق لكل الفضائل . هنا ينسى الانسان آلام الحياة التى كلها شقاء واذا أطلق لوجدانه عنانه يحس من نفسه بارتياح عظيم لازالة الضغائن والحسد والشقاق بين البشر فما أجمل الأخلاق العالية . ان كل شئ جميل أراه يلطف من أخلاقى ويرقق من

احساسى ويجعلنى أقدر عظمة الاله جل شأنه فيزداد ايمانى ويرسخ فى نفسى اعتقادى فياليت قومى يشعرون بمـا أشعر به الآن من الميل الى رقة الطباع

تركنا هـذا المكان لنعود الى فندقنا وأخذنا طريقا آخر أقرب من الطريق الذى أتينا منه فاضطررنا أن نمشى فى صخور المرور منها صعب وقد كنت أتوكأ على مظلة (شمسـية) كانت فى يدى وتركت أخى مصطفى لزميله خيرى ليساعده حتى لا يسـقط ولله الحمد وصلنا الى البحيرة الثانية وفى أثنـاء سيرنا تقابلنا مع رفيق كان معنا فى سـياحة الاسكا وقد كان ممتطيا جودا فسألنا هل بينه وبين وصوله الى البحيرة الثالثة مسافة عظيمة فأجبته انهـا على بعد قليل منه ثم قابلنا ركبا آخر من الأمريكيين فقال لى من فى مقدمتهم ألم تنته هذه الاستراضة اننا نصعد كأننـا نذهب الى القطب الشمالى فأشرت عليـه بالاستمرار ثم صادفنا ركبا آخر من السيدات فسألتنى احداهن عن الطريق ومسافته فشجعتها أيضا على تحمل هـذه الأتعاب قائلا ان المنظر فى النهـاية يستحق هذا العناء وهكذا صرت كلما أقابل ركبا سألنى بعض من فيه فأجيبه حتى وصلنا الى أسفل الطريق فرأيت حالة مصطفى قد تغيرت قليلا وقد وضع يديه على بطنه كأنه يشعر بمغص فاستأذننا أن يسرع

الى الذهاب الى الفندق وتركنا وذهب يجرى ولما وصلنا الى ردهة الفندق قابلنا باشا مسرورا وقال الحمد لله لقد زال العناء وحلت الصحة مكان الألم

بعد أن استرحنا قليلا ذهبنا الى شاطىء البحيرة نحو الساعة الرابعة مساء واستأجرنا زورقين وأخذت مصطفى معى فى زورق وتركنا زميلنا فى زورق آخر وقد كنت أظن رفيقى يعرف التجذيف فيساعدنى فى تسيير الزورق ولكنى وجدته لا يعرف فيه شيئا بجلس فى مؤخر الزورق ليضبط السير وصار كلما يهب علينا ريح أو تصادفنا موجة يصيح يا ستار إنى لا أعرف السباحة وأخاف الغرق وما السبيل الى الخلاص من هذه الورطة الأخرى وأخيرا وصلنا الى نهاية البحيرة ولما قربنا من الشاطىء سمعنا صياح بعض السيدات فالتفتنا الى مكانهن واذا بفأر كبير يجرى بين الأعشاب ففزعن منه وامتلأت قلوبهن رعبا ولا عجب فالذعر والجبن حليفا المدنية والرفاهية كما أن الشجاعة مهدها الخشونة والبداوة . عدنا بعد ذلك وقبل أن نصل الى المكان الذى استأجرنا منه الزورقين رسونا على كشك صغير على شاطئ البحيرة وخرجنا نحن الثلاثة الى البر ثم قلت لمصطفى اركب أنت وزميلك هذا الزورق وأنا آخذ الزورق الآخر وبمجرد أن ركب

الزورق وتحرك به فابتعد قليلا عن الشاطىء أخذ يصيح الىّ ياخيرى فانى على وشك الغرق ونحن نضحك من هذا الخوف الشديد وأخيرا أنقذناه من حالته وسلمنا الزورقين لصاحبهما

بعد أن أتممنا هذه الاستراضة عدنا الى الفندق وجلسنا فى أحد طنوفه فرأينا كثيرا من السائحين يعودون من الاستراضة الجبلية الشاقة ولا تسل عن حالة الجياد التى كانوا يركبونها فان التعب كان ظاهرا عليها و ياليتها نجت من قسوة الانسان وظلمه بعد تسلقها الجبال ونزولها من المنحدرات فاننا رأينا بأعيننا أن بعض الأولاد الذين كانوا يقودون الجماعات بمجرد نزول السائحين من فوق ظهورها يرفسونها فى بطونها رفسات شديدة و يتركونها بعد ذلك تذهب الى مرابطها فيالشقاوة هذه الدواب وأين جمعية الرفق لترى مايحل بهذه الحيوانات التى تسام من العذاب ألوانا ؟

دخلنا بعد ذلك فى غرفة المطالعة فوجدنا كثيرا من السائحين والسائحات مضطجعين على الطنافس (الكنبات) وبعضهم كان يغط غطيطا مزعجا فأدهشنا هذا المنظر ولكننا لم نر على وجه الحاضرين من ينكر ذلك فكأن النوم عندهم فى غرف المطالعة أو الاستراحة أمر عادى فهل يعتبر الفندق فى نظرهم كالمنزل الخاص الذى يفعل

فيه صاحبه ما يشاء . هذا ما لم أره من قبل فى جميع البلاد التى زرتها ولو كنا فى بلادنا نفعل مثلهم لقامت علينا القيامة واعتبر ذلك منا توحشا وعدم مراعاة لآداب المعاشرة

ان انهمار الأمطار لم يمكنا من الاستراضة ولو قليلا بعد أن تناولنا العشاء كذلك كثرة زحام السائحين فى ردهات الفندق اضطرتنا أن نصعد الى غرفنا لنبتعد عن هذه الجموع المؤلفة من الطبقة الوسطى من الأمريكيين الذين لا يراعون كثيرا الآداب العامة ولكن من أين تأتى لى الراحة و زجاج نافذة غرفتى كان مكسورا والمطر يندفع منه بشدة وحركة الأمريكيين المزعجة الذين كان السرور طافحا على وجوههم والخمور تلعب برؤوسهم إحياء لذكرى عيد استقلالهم أسمعها من فوق وتحتى ومن الغرف المجاورة لغرفتى فقضيت ليلتى ساهرا أتقلب على فراشى كالمريض المتألم ولم أذق لذة النوم الا قرب الصباح ولكن لم تأت الساعة السابعة من صباح يوم (الجمعة ٥ يوليه) حتى قمت منزعجا من قهقهة سيدة كانت تسكن هى وزوجها فى الغرفة المجاورة لى فكأن الليل الطويل لم يكفهما مداعبة فأرادا الاستمرار حتى لا يبقيا من السرور جزأ لليالى الأنس المقبلة

ان انهمار الأمطار المستمرة فى هذا اليوم حالت دون خروجنا من

الفندق لغاية الساعة الرابعة بعد الظهر ولكن بعد ذلك صحبنى مصطفى واستأجرنا زورقا ركبنا فيه وأخذ مصطفى يجذف مدّة ساعتين بكل قواه وبمهارة عظيمة أدهشتنى لأن الخوف كان مستوليا عليه أمس وقد أنكر معرفته صناعة التجذيف

عند عودتنا الى الفندق وجدنا جمعا عظيما محتشدا من الامريكيين والأمريكيات وعلى رؤسهم قعات غُبْرٌ وعلى صدورهم أوسمة كل وسام يمثل رأس تيتل وهى مصنوعة من الذهب اتخذوها شعارا لجمعيتهم فمثلهم كمثل جمعيات الالعاب الرياضية فى بلاد سويسرا والنمسا ولكن لم أر من بينهم من تظهر عليه علامات القوة والنشاط فان أغلبهم كانت أجسامهم ضخمة جدا وهذا من دلائل الكسل وعدم الحركة وربما كانوا من المولعين بالرياضه البدنية فى الزمن السابق ولما كثرت عليهم مطالب الحياة انقطعوا عنها وحفظوا لأنفسهم الحق فى الانتساب الى جمعيتها . لما حل ميعاد العشاء دخلنا فى غرفة الطعام وأخذنا مكانا بين هذه الجموع العظيمة فعزفت الموسيقى بتلحين لم نفهمه فوقف كل من كان فى المطعم اجلالا وتعظيما لهذا التلحين فوقفنا مع الواقفين اقتداء بهم واحتراما لعاداتهم ولكن لم نكد نستقر فى الجلوس حتى ابتدئ فى تلحين آخر وقامت هذه الجموع مرة ثانية

وثالثة وهكذا تكرر القيام والقعود عدّة مرار ونحن نفعل مثلهم وأخيرا عزفت الموسيقى بما يسمونه (Cake Walk) فصارت الرجال والسيدات يغنون ويرفعون أصواتهم بالغناء والطعام يملأ أشداقهم ونحن نلتفت يمينا وشمالا وننظر اليهم ونقول فيما بيننا لم يبق علينا الا أن نرقص فى وسطهم . وقد علمنا أن هؤلاء الزائرين من سكان ولاية مينيزوتا (Minnesota) وكل ما عزفت به الموسيقى هو من الأناشيد الوطنية والحذر من عدم احترامها فان من لم يحترمها يلاقى من أنواع الاهانة ما يجعله يندم على ما فرط منه . عند ذلك تذكرت حادثة محمد بك فريد فظهر لى الفرق العظيم بين احترامنا لنشيدنا الوطنى واحترام باقى الامم الحية لنشيدهم الوطنى وكان الأولى بمن كان مثا رئيس الحزب الوطنى أن يظهر بمظهر الاحترام لشعار الأمة ولو كانت خطته السياسية تنافى خطة الحكومة ولكن ما العمل وعادة الشرقى الا يبحث بحثا دقيقا فى نتيجة أعماله وان اندفع فى أمر لا يحسب للعاقبة حسابا وبعد أن تحل به المصائب يتأوه ويندم ولكن ما الفائدة وقد سبق السيف العذل

ان المسألة مسألة آداب وأخلاق وأرى أن اختلاف المذاهب والنزعات لا يؤدى الى الخروج عن حدود الآداب خصوصا اذا

كان الغرض شريفا وأرى أن انقسام الامة الى أحزاب يضرّ بها وكفى دليلا ما نراه الآن من عاقبـة الشقاق والتفرق بين طوائف الأمم الاسلامية . فهل الصادق الوطنية يحب لأمته عاقبة محزنة كالعاقبة التى تمثل أمام أعيننا الآن ؟ انى أتألم كثيرا من عدم التبصر فى العواقب ويزيد آلامى الغرور وحبّ الذات . ألم تقترب الساعة التى تترك فيها كل هذه الأحقـاد والضغائن المؤدية الى الفنـاء ؟ . اللهم حقق أغراض المصلحين الصادقين وأبعـد عنـا الأشرار المفسدين انك مجيب دعاء المخلصين

فى الساعة الثانية بعد ظهر يوم (السبت ٦ يوليه) أتت العربة التى ستذهب بنا الى المحطة لنغادر فندق بحيرة لويز فركبناها وبعد أن سرنا نحو ستمائة متر أوقفنا عامل وأخبرنا بأنه وضع لغما فى الجبـل على قرب منا فانتظرنا قليلا واذا بانفجار هائل دوى فى الفضاء ورأينا قطعا كبيرة من الصخور ارتفعت فى السماء ارتفاعا هائلا ثم سقطت وتبعها قطع أخرى صغيرة اقترب بعضها منا وبعد أن انتهت هذه الحادثة استمررنا فى طريقنا الى المحطة فركبنا قطارنا وتحرك بنا فى منتصف الساعة الرابعة فأوصلنا الى محطة بانف (Banff) بعد سـاعة من الزمن وقد كان فى انتظارنا المستر ماكدونالد أحد مديرى شركة (A.C.R.) ولمـا أردنا أن

نركب عربة الفندق وجدناها مكتظة بالسائحين فاضطررنا أن ننتظر قدوم عربة أخرى أرسل فى طلبها المستر ماكدونالد المذكور وفى أثناء ذلك سألته هل يمكن أن نتبدل بتذاكرنا التى أخذناها للذهاب الى تورنتو (Toronto) بطريق البحيرات غيرها حتى نذهب بالطريق الحديدية فأجابنى ان ذلك ميسور له فسلمته ما عندى من التذاكر وفى أثناء ذلك حضرت العربة فركبناها وسارت بنا الى أن أوصلتنا الى الفندق التابع لشركة (P. C. R.) وأعطيت لنا فى الحال غرف جميلة وبعد أن استرحنا بها قليلا ووصلتنا حقائبنا نزلنا منها لتفقد حالة الفندق فدخلنا المكتبة المعدّة للمطالعة فاذا هى صغيرة بالنسبة لاتساع الفندق ثم زرنا باقى الغرف والردهات واخترنا منها ردهة تطل على مناظر بديعة فمكثنا فيها وأمضينا وقتنا بين المسامرة والتنزه الى أن أتى ميعاد النوم أصبحنا فى يوم (الأحد ٧ يوليه) ونحن نشعر بتمام العافية لأن ليلتنا الماضية كانت هادئة ساكنة فأخذنا لانفسنا من الراحة ما أذهب عنا آثار المتاعب السابقة ثم غادرنا الفندق لتفقد مدينة (بانف) فاذا هى شارع واحد عظيم الاتساع به جملة حوانيت ويمتد الى المحطة التى أتينا منها فسرنا الى نهايته ولما كان اليوم يوم أحد وجدنا حوانيت المدينة مقفلة الا حانوتا واحدا دخلنا فيه عند عودتنا فقابلنا صاحبه

وعرض علينا بضـائعه فاشترينا منه ما أخترناه وقبل أن نتركه رجانا ألّا نخبر أحدا بمـا باعه لنا فى هـذا اليوم لئلا تعاقبه الحكومة بغرامة قدرها ٥ دولارا لمخالفتـه قانون عدم البيع فى أيام الآحاد فوعدته بذلك بعـد أن أظهرت له أن هـذا القانون يخالف مبادئ الحرية الانكليزية ويدل على التعصب الشـديد . سرنا بعض خطوات فى الشارع فراقنا مكان به مقعد جلسنا عليه فوقفت أمامنا عربة وتقدّم الينا قائدها وعرض علينا أن يذهب بنـا الى حديقة (بانف) العامة التى بها كثير من الحيوانات فقبلنا طلبه وسار بنا اليها وفى الطريق صار يحدثنا عن طريقة تربية هذه الحيوانات ومن أين يؤتى بهـا والجبال التى تكثر فيها ولما وصلنا اليها وجدناها طبيعية أكثر منها صناعية وهى كبيرة الاتساع خالية من نظام الحدائق المعتنى بهـا ثم قادنا الى مكان الجاموس الوحشى ولاحظنا ذكرا منفصـلا عن باقى الجاموس وهو كبير الجسم تدل هيئته على القوة والبطش فأخبرنا الحوذى أن السبب فى وضعه على انفراد شراسته وقد أخبرنا ببعض طبائع هذه الحيوانات المتوحشـة ومن أعجب أمورها أنه اذا كثر ايذاء أحدها لغيره يتفق سـائرها على مطاردته الى أن يهلك ويذهب فريسة توحشـه فكأن هذه الحيوانات أرشـدها الله الى معرفة أن القوة مهما عظمت تبيد

أمام اتحاد الضعفاء وان فى ذلك لعبرة لقوم يعقلون . رأينا كل مافى هذه الحديقة وبعد ذلك عدنا الى الفندق

ان مدينة بانف على صغرها شهيرة بمناجم الفحم الحجرى وبها ثلاث ينابيع كبريتية يؤمها كثير من المصابين بالأمراض للاستشفاء بمياهها ولذا كثر عدد الوافدين اليها وينتظر أن تكبر هذه المدينة الى أن تصل الى مصاف أمهات المدن

أتى يوم (الاثنين ٨ يوليه) وكان يوما عصيبا اذ فوجئت بنكبة المرض العصبى فلازمت سريرى لغاية الساعة الأولى بعد الظهر وفى نحو الساعة الثالثة مساء ركبنا عربة بعد أن ارتديت بمعطف يقينى من تأثير البرد الشديد وذهبنا لزيارة بحيرات تبعد عن هذه المدينة بتسعة أميال وفى الطريق مررنا على مناجم الفحم الحجرى ورأينا العمال وقد اسودت وجوههم فما أشق معيشة هؤلاء البائسين إنهم يستحقون الشفقة والرحمة والرعاية من ذوى اليسار . استمررنا فى طريقنا الى البحيرات ولما وصلنا اليها لم نجد شيئا يستحق الوصف ولكنا لم نندم على اضاعة وقتنا سدى لان حالتى العصبية تستدعى أمثال هذه الاستراضة لتسكين آلامى . ان الانسان مهما كبر مقامه وعظم جاهه وكثرت ثروته فانه فى احتياج الى لطف الله فهل للذين

أعماهم الغرور أن يتنازلوا عن كبريائهم وخيلائهم و يتركوا العظمة والقوة للواحد القهار . هذه حقائق ثابتة لا ينكرها الا جاهل بقيمة نفسه فاللهم اكشف الغطاء عن بصيرة هؤلاء الأشقياء حتى يعرفوا منزلتهم الحقيقية ولا يكونوا سببا فى تعس من حولهم من أبناء أمتهم إنك على كل شئ قدير

عدنا الى الفندق وتسلمنا تذاكرنا من المستر ماكدونالد وفى الساعة العاشرة من صباح يوم (الثلاثاء ٩ يوليه) غادرنا الفندق الى المحطة فركبنا قطارنا فتحرك بنا فى الساعة ١١ و ٣٠ دقيقة وسمكث به للوصول الى (تورنتو) أربعة أيام متوالية فأمضينا يومنا هذا فى اختراق جبال صخرية ووديان خصبة يسكنها بعض أفراد لا يقدرون على زراعتها لاتساعها فمستعمرة كندا تسع أضعاف ما بها من السكان وحسنا فعلت الحكومة فى إباحة المهاجرة وتسهيلها وجعل أراضى كندا رخيصة الثمن فدعا ذلك الى أن يلجأ اليها كثير من المهاجرين ولكن لا بد أن تمرّ سنين كثيرة حتى يملأ هذا الفضاء المتسع الارجاء . قبل أن يرخى الليل سدوله وصلنا الى بلدة كالجارى (Calgary) ورأينا سكانها خارج البلدة يتنزهون ومن ملابسهم النظيفة علمنا أنهم فى عيد وطنى لهم وفى الساعة ٦ و ١٥ دقيقة من صباح

اليوم الثانى (الأربعاء ١٠ يوليـه) وصلنا الى بلدة ريجينا (Regina) ورأينا منازلهـا خالية وعلى عروشها خاوية فان الزوابع دمرتهـا قبل أسبوع من يوم مرورنا وجعلت عاليها سافلها وفى الساعة ١٢ و ١٥ دقيقة وصلنا الى محطة براندن (Brandon) ثم استمررنا فى طريقنا الى منتصف الساعة السابعة فوقف بنا قطارنا بمحطة وينيبج (Winnipeg) أكثر من ساعتين نزلنـا فى أثنائهما الى فنـدق المحطة التابع لشركة (C.P.R.) وتناولنا فيه طعامنا وقد علمنا أنه فى هذا اليوم افتتح معرض المصنوعات الوطنيـة وحضر افتتاحه صاحب السـموّ الملكى الدوق أف كونوت

تحرك بنا القطار بعد أن مضى ربع الساعة العاشرة وفى صـباح يوم (الخميس ١١ يوليه) وصلنا الى (Port Williams) وهى مدينة واقعة على بحيرة (Lac Superieur) وكان فى خطتنا قبل تغيير برنامجنا (ببنف) أن نركب منها الباخرة التى توصلنا الى (تورنتو) وقد نزل فيها كثير من السائحين الذين كانوا معنا فى القطار للذهاب بحرا أما نحن فاستمر قطارنا فى سيره بعد أن فصل منه عربتان وصـار ينهب الأرض نهبا متبعا طريقا يقرب من شاطىء بحيرة (Lac Superieur) ونحن ننظر الى اتساعها العظيم الى أن أتت الساعة الرابعة بعد الظهر فوقف بنا بمحطة

شرير (Schreiber) ثم بمحطة ويت رايفر (Sudbury) ولما خيم الظلام افترقنا للراحة والنوم وفى الساعة السابعة من صباح يوم (الجمعة ١٢ يوليه) وصلنا الى محطة سودبورى (Huron) القريبة من بحيرة (Roi Eduward) ثم ابتدأنا نمرّ على المدن الكبيرة العامرة بالسكان الى أن وقف بنا القطار بمحطة (تورنتو) فنزلنا فيها وركبنا عربة فندق (Montreal) وهناك أعطيت لى الغرفة نمرة ٧٥٠ وهى فى الطابق الخامس . أما بناء هذا الفندق فهو على الطراز الأمريكى ويحتوى على ألف غرفة وقد كنت أنفذت فى طلب عامل كوك فحضر مسرعا فطلبت منه أن يبدلنا غرفا غير غرفنا فى الطابق الأول فأجابنى بأن ذلك ميسور له الا أنه يخشى أن يزعجنا ويقلق راحتنا المرقص الذى سيقام هذه الليلة فى ردهة الفندق فقبلنا ما أعطى لنا من الغرف وقضينا ليلتنا فى راحة تامة

وفى صباح يوم (السبت ١٣ يوليه) ذهبنا الى مكتب كوك لأعمال تتعلق بسفرنا بحرا الى مونتريال (Young Street) ومنه مشينا راجلين فى وسط المدينة مخترقين أهم شارع يدعى (Lac Ontario) ولما كان الحر شديدا أردت شراء حلة (بدلة كاكى) فلم اوفق لما يوافقنى ونحن فى الطريق أمطرت السماء مدرارا فالتجأنا الى مكان بقينا شر

البلل ولما انقشعت السحابة استمررنا فى طريقنا ثم دخلنا فى حانوت لشراء بعض بطاقات البريد فرأينا غادة كانت تعزف على البيانو وصاحب الحانوت يشنف الآذان بصوته العذب وبعد أن قضينا حوائجنا عدنا الى الفندق ثم استأجرنا عربة لزيارة المدينة

ان مدينة (تورنتو) كبيرة وشهيرة بكثرة معاملها ومصانعها وهى واقعة على بحيرة أونتاريو (Lac Ontario) وبينها وبين بوفالو (Buffalo) ونياجارا (Niagara) مواصلات وبها مبانى فخمة كمجلسها البلدى ومجلس نوابها وجامعتها الكبيرة ومصنع سفنها وسجونها وغير ذلك وقد مررنا على جملة تماثيل أهمها تمثال الملكة فكتوريا والتمثال المقام تذكارا للذين ضحوا بحياتهم فى حروب جنوب أفريقية . رأينا كل مهم فى هذه المدينة من منازل جميلة وحوانيت كبيرة ولما قرب الظهر عدنا الى الفندق على أن نتم باقى الزيارة بعد الغداء وفى الساعة الرابعة بعد الظهر استأجرنا عربة أخرى وسارت بنا فى وسط المدينة ثم أمرنا سائقها أن يذهب بنا الى شاطىء البحيرة ومنه الى حديقة الحيوانات الشهيرة بكثرة عدد دببها ونسورها وقردتها وقد أخبرنا الحوذى أن سكان تورنتو يؤملون أن تكون يوما ما مدينتهم عاصمة كاندا لتقدمها السريع وقد يؤمها كثير من السائحين وبها ١٥٠ فندقا و٢٨٠ كنيسة .

عدنا بعد ذلك الى فندقنا ولولا شدّة الحر لكنا قد قضينا ليلة هادئة وقد استمرت هذه الحرارة المؤذية حتى صباح يوم (الأحد ١٤ يوليه) ولما لم نجد لأنفسنا مخرجا استأجرنا عربة وأمرنا سائقها أن يذهب بنا الى مكان نستنشق فيه الهواء وفى الطريق أخذ يحدثنا بتاريخ حياته وانه مكث لغاية السنة العاشرة من عمره ولم يذق للحوم طعما لفقره المدقع والآن يكتسب عشرة دولارات فى الأسبوع ولكن يدفع نصفها أجرة مسكنه وله من الأولاد ثمانية وتاسعتهم زوجته ولا يعرف ماذا يفعل للقيام بمعيشة هذه الأسرة الكبيرة وأخيرا انتقل حديثه الى شدّة ارتباط الاسرائليين بأبناء طائفتهم خصوصا الفقراء منهم فان الأغنياء يساعدونهم ولا يضنون عليهم باعطائهم رأس مال صغير يوصلهم باجتهادهم الى مصاف ذوى الثروة وقد قال أخيرا انه لايرى مثل هذه المساعدة من المسيحيين

استمرت هذه الاستراضة لغاية الساعة الحادية عشرة ولما عدنا الى الفندق وجدنا عامل كوك ينتظرنا فاتفقنا معه على الساعة التى يلزم أن نذهب فيها الى الباخرة لمغادرة هذه المدينة . قبل أن تقلع الباخرة بنصف ساعة كنا على ظهرها فتفقدنا غرفنا فوجدناها جميلة وبها كل ما يلزم لراحتنا وفى منتصف الساعة الثالثة بعد الظهر تحركت بنا

السفينة باسم الله وقد كان المنظر عند خروجنا من تورنتو جميلا جدا الا أن الحالة تغيرت بعد ساعة من مغادرة الشاطئ فان ماء البحيرة اشتدت أمواجه فخيل الينا أننا في وسط لجج المحيط الأعظم ولكن ما أتت الساعة التاسعة مساء حتى كنت أستعد للنوم ولم أكد أغمض جفني حتى سمعت مصطفى يطرق الباب ويقول انظر مدخل مدينة شارلوت (Charlotte) الجميل ففتحت نافذة غرفتي ورأيت المدينة كأنها شعلة من نار لكثرة مصابيحها الكهربائية وقد ألفت نظرى كبر وادى القمر (Luna Park) القريب من شاطيء هذه المدينة الصغيرة فرست الباخرة بجانبه وأقامت ساعتين ثم أقلعت بنا وفي الساعة السادسة من صباح يوم (الاثنين ١٥ يوليه) كنا مستعدين لرؤية أول ألف الجزيرة (Les 1000 îles) وفي منتصف الساعة الثامنة مررنا على بلدة كليتون (Clayton) الأميريكية وبعد أن تركناها أخذنا نمر بين الجزر التي بعضها كبير وبعضها متوسط والبعض الآخر صغير جدا فليست احداها الا صخرة صغيرة ظاهرة على وجه الماء . ان الأمريكيين مضطرون الى ادخال مثل هذه الصخور في تعداد الجزر لتكملة عددها العظيم وهو الالف ولكن هذا لا يمنع أننا رأينا في بعضها حدائق غناء وقصورا شاهقة تسر الناظر اليها وقد اشترى بعض

الأميريكيين الأغنياء بعض هذه الجزر وافتنوا فى جعلها فى أحسن حالة حتى اننا رأينا كثيرا منها لا تحتوى الجزيرة منه الا على قصر واحد فخم وباقى الجزيرة حديقة منظمة تكتنف هذا القصر البديع ولا تسل عن الحمامات الخاصة التى بها وعدد الزوارق البخارية وغيرها الراسـية على شواطىء هذه الجزر أوالتى تجرى بينها وقد سمعت أن هؤلاء الأغنياء يتزاورون بواسطة هذه الزوارق فما أحلى هـذه المعيشة الطيبة . هذا ان متوسط الثروة لم يحرم من هذه اللذة فان فى بعض هذه الجزر منازل معدّة للايجار والظاهر أن أجرة السكنى بها ليست عالية . وقد أعجبنا جدا رؤية ألف الجزيرة ولما وصلنا الى (Alexandra Bay) وجدنا بها كثيرا من الفنادق الكبيرة ذات الحدائق الغناء . هنا أيضا عدد الجزر عظيم ولما وصلنا الى بروكويل (Brockville) التابعة لحكومة كندا كانت انتهت زيارة ألف الجزيرة وأخذت الباخرة تسير فى نهر (S^t Laurent) وفى نحو الساعة العاشرة وصلنا الى (Prescott) وكانت تنتظرنا باخرة صغيرة انتقلنا اليها حتى يمكن السير فى مجرى النهر الشديد السرعة . وقد حكى لنا أنه يسكن على ضفتى هـذا النهر نحو خمسة آلاف هندى من ذوى اللون الأحمر وستراهم بزوارقهم الوطنية يمرون فى المواقع التى يشتد فيها سرعة مجرى النهر ولكن الى الآن لم

يقع نظرنا على شخص واحد من هذا الجنس

تحركت بنا السفينة الصغيرة فى منتصف الساعة الحادية عشرة صباحا وبعد ذلك بزمن قليل تقدم الينا رئيس السفريين وسألنا أأنتم السائحون الوافدون من بلاد بعيدة ؟ فأجبناه نعم فقال انى تحت أمركم وسأعدّ لكم ما يلزم لتشاهدوا سرعة تيار مياه النهر فى الأمكنة التى تشتد فيها ولكن يلزمكم السرعة فى تناول غدائكم حتى لا تفوتكم الفرصة وقد نصحنا ألّا نصعد الى أعلا السفينة وقال لنا اننا نصل الى هذه الأمكنة فى الساعة الأولى بعد الظهر ويلزم أن نقف من الجهة اليمنى أولا للباخرة ثم ننتقل الى الجهة اليسرى منها

رست الباخرة بنا وأقامت فى مرساها خمس دقائق أمام (Cornwall) ثم أقلعت وبعد أن سارت بضع دقائق وصلنا الى المجرى السريع الشهير الذى يسمى (Long Sault Rapid) فرأينا الماء يغلى فاعترى جميع السائحين هزة الخوف والفزع من سير السفينة فى هذا التيار الشديد ولما اقتربت منه اندفعت فيه بسرعة وصارت تتلوى كالحية فتارة تعلو على سطح الماء وأخرى تهبط فيخيل الى الراكب فيها أنها ذهبت الى قاع النهر ولكن لا تمضى هنيهة حتى يراها ارتفعت من أحد جانبيها فيظن أنها ستنقلب على الجانب الآخر وقبل أن يذهب

عن فكره هذا الوهم يرى مقدمها مغمورا فى الماء فكل هذه التقلبات الرهيبة تمرّ بسرعة البرق والسفينة مستمرة على السير بسرعتها رغما من تلاطم الأمواج وكثرة الدوامات التى تفتح على سطح المـاء فتحات يظن الناظر اليها أنهاستبتلع السفينة بمافيها وتذهب بها الى قرار عميق .
لقد عللنا هـذا الغليان بتعليل عقلى لا نعلم مقدار صحته من الوجهة العلمية فقلنا ربمـا كان فى قاع النهر فى هذه الجهة هوات عميقة حولها مرتفعات صخرية بارزة فيتصادم تيار النهر فيها ثم تندفع المياه بقوة فى هـذه المنخفضات وتلاقى أمامها حواجز صخرية أخرى عالية فتتغلب عليها ولم تكد تخرج منها حتى تلاقى هوات أخرى وهكذا ولو كان قاع النهر مسـتويا لمـا حصل هـذا الغليان الشديد والغريب أن الانسان لا يمكنه أن يعرف بالدقة من أين يأتى التيار فكأن الماء يرد من جملة أمكنة مرتفـعة و يصب فى جهة واحدة منخفضـة فتتلاطم الميـاه الآتيـة من جهات مختلفة بعضها ببعض فيحصل النزاع بينها وتنشأ من ذلك هذه الحالة الرهيبة التى وصفتها

أما نحن فصرنا تارة ننظر من الجانب الأيمن للسفينة وأخرى ننتقل الى الجانب الأيسر الى أن خلصنا من هـذه البقعة الخطرة وابتدأت الباخرة تسير فى ماء هادئ سـاكن . أما حالة السـائحين خصوصا

السيدات فكانت موجبة للنظر فان بعضهن كانت تقبض على حاجز الباخرة بيديها كأنها على شفا جرف هار وتخاف السقوط فى مهوى سحيق . أما الصياح فكان يعلو من كل جهة حتى اختلطت الأصوات رقيقها بخشنها

بعد أن مضى ربع الساعة وصلنا الى تيار ثان ولكنه يقل عن الأول شدة ويدعى (Cotran Rapid) ثم الى تيار ثالث اسمه (Cedra Rapid) ورابع ويسمى (Split Rock Rapid) وخامس ويدعى (Cascade Rapid) والحقيقة أن التيارات الأربعة الأخيرة هى تيار واحد منفصل بعضه عن بعض بمسافات قصيرة

ان مهندس الباخرة قبل الوصول الى كل تيار كان يوقف حركة الآلة ثم يجعلها تسير من الخلف ثم يحرك السفينة الى جهات مختلفة ليكون على علم من صحة جميع الآلات وعدم وجود شئ فيها معطل خوفا من حصول ما يسبب عطل السفينة الذى ربما أدى الى ضياعها بين هذه الأمواج المتلاطمة

رأينا على شاطىء النهر أثناء سيرنا زورقا بخاريا قد أصيب بعطب فقيل ان صاحبه أمريكى وأراد أن يمرّ من هذه التيارات بدون مرشد يدله على طريقة السير فيها فكان نصيبه من هذه المجازفة أن

ألقاه اليم على الشاطىء فهشمه وخرج الأمريكى وأصحابه نادمين

قبل أن نصل الى مونتريال (Montreal) مرت بنا السفينة على تيار آخر يسمى (Lachine Rapid) وهو أعظم مما رأيناه وقد مكثت السفينة تكافح صدماته الهائلة مدة عشرين دقيقة ثم خرجت من هذا العراك سالمة من الأذى وصارت تقترب من صخور بارزة على وجه الماء وفى بعض الأحيان كانت تمر بين صخرتين هائلتين ولكن كل ذلك لا يعد شيئا مذكورا بالنسبة لاختراقها قلب كل تيار شديد .

ولقد علمنا أنه بالرغم من وجود مرشد فى كل سفينة له خبرة كبيرة بطريقة سيرها فى هذه التيارات قد أصيب بعضها بالعطب ولقد رأينا بعد مرورنا على التيار الأخير سفينة تشابه سفينتنا راسية على الشاطىء فأشار اليها رئيس السفريين وقال انظر يا سيدى هذه السفينة انها تكسرت قبل مرورنا بيومين باصطدامها فى صخرة بارزة فحمدنا الله على سلامتنا

وصلنا الى مونتريال بعد عشرين دقيقة من الساعة السابعة مساء وكنا ننتظر أن نرى على الرصيف عامل كوك ولكننا لم نره ولم نعثر عليه فصحبنى خيرى واستأجرنا عربة لتذهب بنا الى فندق ويندسور (Windsor) وتركنا مصطفى مع حقائبنا حتى عند حضوره الى الفندق

يجد الغرف مستعدة ولا نتعب فى البحث عن حقائبنا . كنا أوّل من أخذ عربة من السائحين ولكن قائدها كان بليدا فأوصلنا إلى الفندق فى مؤخرتهم فلم نجد غرفا موافقة فأسرعت بطلب عامل كوك بالمسرة (التلفون) وفى أثناء ذلك حضر رفيقنا مصطفى ومعه الحقائب ولما كان مكتب كوك لا يبعد كثيرا عن الفندق لم يطل انتظارنا ولما حضر صار يعتذر و يقول إنه أرسل لنا أحد رجاله ليكون فى خدمتنا فلم نعر هذه الاعتذارات التفاتا ثم عزمنا إن نذهب إلى فندق آخر اسمه (Viger) يتبع شركة (C.P.R.) بعد ما ذكرت له أنهم أهملوا فى حجز غرفنا وما كنت أنتظر منهم ذلك وفى أثناء الحديث حضر عامل آخر من مكتب كوك بسيارة وتقدّم إلينا وقال إنه ذهب لانتظارنا ولكنه ما كان يعلم أن الباخرة تصل فى هذا الميعاد إذ عادتها الوصول بعد الساعة السابعة . إن عدم الالتفات إلينا فى فندق و يندسور جعلنى أكره الإقامة فيه ولو كلفنى ذلك أن أغادر المدينة حالا مع مانحن عليه من التعب الشديد فأرسلت أحد هذين العاملين إلى فندق (Viger) ليعلم أهناك غرف تليق بنا لئلا نذهب إليه ونعود بخفى حنين ثم خرجنا من فندق و يندسور وجلسنا على مقعد فى ساحة عامة ننتظر ماذا يتم ولم يمض علينا زمن طويل حتى عاد هذا العامل وأخبرنا أنه

حجز لنا غرفا جميلة فى الطابق الأوّل من الفندق المذكور فأخذنا سيارة وصحبنا العامـــل الاخر وتركنا الثـانى يحضر حقائبنا إلى محـل إقامتنا الجديد . وفى الطريق مرت السيارة فى شـارع ضيق جدّا به كثير من الأطفال فصدمت السيارة طفلا ألقته على الأرض ولكن لحسن الحظ لم يصب بضرر فاجتمع علينا جم غفير وكثر الصياح والعويل حولنا واقـترب منـا شرطىّ وأخذ يسأل السائق و يكتب مـذكرة فى دفتره الصغير عن الحادثة وقد تكلم معنا أحد المشاهدين باللغة الفرنسية وقال لنـا مالكم والمرور من هذا الحى الضيق الذى يسكنه الإسرائيليون فأجبته إننا غرباء ولا نعرف الطرق ومع ذلك فالحادثة صغيرة لاتستوجب الندم ما دام الطفل لم يحصل له أقل أذى

وصلنا إلى الفندق فأعجبنـا منظره من الخارج وقد قابلنا مديره وأحسن وفادتنا ثم صعد معنا إلى غرفنا فوجدناها كبيرة ونظيفة تطل على سـاحة متسعة و بعد ذلك تناولنا عشاءنا و بعد اسـتراضة صغيرة ذهب كل واحد إلى غرفته

فى صباح يوم (الثلاثاء ١٦ يوليه) ذهبنا أوّلا إلى مكتب كوك لنخبره بعزمنا على السفر إلى نيو يورك فى القطار الذى يقوم ليلا من هنا يوم ١٧ يوليه و بعد ذلك صرنا نتنقل من شارع إلى شارع ومن حانوت

إلى آخر ونحن نسمع أغلب سكان هـذه المدينـة يتكلمون باللغة الفرنسـية بطريقة غريبة ومن الصعب علينا فهمها من أول وهـلة فتعجبنا من إهمـال الفرنسيين لهذا الحد التفكير فى إصلاح لغة هذه البلاد مع أنهم يرسلون المرسلين إلى بلادنا الشرقية لفتح مدارس فيها و يساعدون على انتشار لغتهم فى الشرق ولو كلفهم ذلك ما كلفهم من التعب والنفـقات أما كان الأجدر بهم أن يلتفتوا إلى سـكان كندا الذين أغلبهم من أصـل (Bretons et Normands) فرنسى لا سيما أنهم يدينون بالدين المسيحى الكاثوليكى . هذا الأمر يجعل عقلاء الشرقيين يفكرون فيه وهل لانتشار لغات الغرب بيننا مآرب أخرى يجهلها بعضنا

إن سـكان مدينة مونتريال يظهر عليهم التعصب الشـديد لدينهم فان أغلب الشوارع سميت بأسمـاء القديسـين ولكن كثرة الواردين عليها من أولى المذاهب المسـيحية المختلفة سبب ابتداء التنافس بين المذاهب والدليل على ذلك أننـا مررنا على مكتبة فى شـارع سنت كاترين فوجدنا بها كتبا ورسـوما معروضة للبيع مضمونها الاستهزاء بالمذهب الكاثوليكى وتفضيل المذهب البروتستانتى عن غيره وهـذه ليست أول مرة رأيت فيهـا بعض البروتستانت يهزءون بالمعتقدات

الأخرى فان في بلادنا دخلاء منهم نزحوا إليهـا ليعرضوا بالدين الاسلامى الحنيف الذى لا يجد العقل السليم سـبيلا إلى الطعن فيه فقد حفظه الله نقيا رغم أنف الجاهلين

إن مدينة مونتريال شهيرة بتجارتها فى أنواع الفراء وموقعها الجغرافى جعل لهـا مكانة عظيمة فى علاقاتهـا التجارية مع باقى الجهات وهى مدينة عتيقة وتاريخها قديم والجائل فيها يحكم بثروتها من عدد مخازنها ومعاملها ومصارفها . ولما حل بنا التعب من كثرة السير أخذنا عربة أوصلتنا إلى ساحة وندسور ومنها إلى ساحة فكتور يا ثم إلى الفندق

فى منتصف الساعة الثـالثة بعد ظهر اليوم أردنا إن نذهب الى (Dominion Park) وهى على بعد ثمانية أميال من الفندق فركبنا الترام من شارع نوتر دام (Notre Dame) القريب منا وسار بنا على شاطئ النهر وصرنا نمر على معامل غزل القطن وعمل الأقمشة ومصانع المطاط ومعامل السكر وغيرها و بعـد عشرين دقيقة وقف بنـا أمام الحديقة التى نقصدها و إذا هى وادى القمر فدخلنا فيهـا بعد أن دفعنا رسم الدخول ومقداره ١٠ سنس عن كل شخص ولكننا لم نر فيهـا كثيرا من الزائرين لأنهم لا يحضرون عادة فى مثل هـذا الوقت فتفقدناها فإذا هى مقسمة إلى جمـلة أمكنة بهـا ألعاب مختلفة دخلنا فى بعضها

كالغرفة المتحركة وسباق (الكاوبوى Cow Boy) والزوارق الصغيرة التى تسير بقوة اندفاع الماء بين المغارات والزوارق التى تنزلق من علو وتسقط فى بحيرة صناعية وغير ذلك ثم تفقدنا باقى الأمكنة فرأينا سودانيا ضخم الجسم يقدرون زنته بسبعمائة وخمسين رطلا وامرأة تلاعب الثعابين ورجلا نصفه الأعلى كامل الخلقة أما جزؤه الأسفل فصغير جدا لا يكبر عن جسم طفل حديث الولادة ثم ذهبنا بعد ذلك إلى مكان به مصعد فأراد مصطفى بك أن يرى ما فيه من الغرائب لأن ظاهره لا يدل على شئ خارق للعادة فتقدم إلى الرجل الذى يحركه وطلب منه أن يصعد به إلى أعلى مكان لعله يرى شيئا جديدا فيخبرنا به ولما دخل فيه قال له الرجل توكأ على المسند حتى لا يعتريك تعب فعمل باشارته وأدار الرجل حركة المصعد فما لبثنا أن رأينا مصطفى ملقى على ظهره وقدماه مرفوعتان إلى السماء فقام يتعثر فى أذيال الخجل مما لحقه . أما نحن فكاد أن يغمى علينا من شدة الضحك . انتقلنا بعد ذلك إلى مكان به دائرة من الخشب تشبه الرحى فجلس عليها مصطفى وحرك آلتها الرجل الموكل بحراستها فدارت بسرعة مدهشة ألقت مصطفى على الأرض على بعد منها فانقض عليه عدد من الأطفال وطفقوا يلعبون بأيديهم فى جسمه وهو يصيح

وما من مجـير يجيره من أيديهم التى لا ترحم . ثم ذهبنا إلى مكان به أنبوبة كبـيرة من الخشب وكان يتبعنا هؤلاء الأطفال فتقدّموا إلى مصطفى وقالوا له إن من الصعب أن تمر من هـذه الأنبوبة وصاروا يحثونه على أن يظهر شجاعته واقتداره فى المرور منها فلبى طلبهم ودخل فيها وتبعه عدد من هؤلاء الأطفال ولما وصل إلى نهايتها لم يشعر إلا وهو فى بؤرة (فسقية من خشب) لا يمكن الانسان أن يقف فيهـا أو يخرج منها وتهافت عليه الأطفال وأيديهم تلعب فى خاصرتيه وهو كالسمكة بينهم يتلوى و يصيح إلى أن خلصه الرجل الذى يحرسها بأن ألقى إليه حبلا أمسك طرفه وجذبه إليه ولكن بعد أن رماه فيها جملة مرار وهو يسترحمه أن يخرجه من هذه الورطة . وقبل أن نخرج من وادى القمر أردنا أن نصعد فى الجبال الروسية (Montagnes Russes) فركبنا فى إحدى عرباتها وصعدت بنـا إلى علو شاهق فرأينا المـدينة ومناظرها البديعة و بعد أن تركنا هذه الجبال ألفت نظرنا رجل يقول تعالوا لرؤية أشهر السابحات فى الدنيا فأردنا أن نختم الزيارة برؤية تلك الغادات الحسان ولمـا تقدّمنا لدفع رسوم الدخول قال لنا هذا الرجل إن دراهمكم لا تذهب سدى فسترون ما يروقكم و يسركم . ان هذا المكان يحتوى على بحيرة صغيرة صناعية مستديرة وحولها مدرج

(انفيتياتر) لجلوس الزائرين وقد وجدناه غاصا بالمشاهدين دون الأمكنة الأخرى وهذا ليس بعجيب فان المرأة من طبيعتها أن تجذب الرجل فكيف بها وهى عارية ولا يستر جسمها الرقيق الجميل إلا غلالة (فانيلة) سوداء تزيد حسنها وتظهر جميع أجزاء جسمها . وقفنا بجانب المكان الذى تثب منه الغادة إلى هذه البحيرة وتظهر افتنانها فى ضروب السباحة وقد كانت غادة أخرى واقفة فى هذا المكان المرتفع وعملها أن تنادى اسم كل غادة يأتى دورها مع عرض معلوماتها الواسعة فى فنون السباحة وإيضاح صعوبة كل حركة تعملها السابحة وقد رأيناها أجمل من رفيقاتها أما عدد اللاتى عرضن أنفسهن أمامنا فست بينهن ذات الشعر الأسود وذات الشعر الذهبى والكستانى وبالجملة جميع ألوان الشعر الجميلة . أما أجسامهن فمختلفة فمنهن من هى هيفاء تتمايل كالغصن إذا هب عليه النسيم ومنهن من هى قوية الجسم طويلة القامة شديدة الأعصاب عضلة تملؤها الصحة والعافية ومنهن من هى متوسطة القوام خفيفة الروح سريعة الحركة . وبالجملة كان فى هذا المعرض كل أنواع الجمال الأمريكى لأنهن من بنات الولايات المتحدة . إن نفسى لا تكره أن ترى مثل هذا الجمال والدلال ولكنى أشعر أن فى ذلك انتهاك حرمة الآداب . هذه

المناظر هيجت أعصاب أحد المشاهدين فأخذت تبدو عليه حركات تدل على شدّة انفعاله وتأثره وهو ينطق بألفاظ لايليق أن يفوه بهـا أمام الجمهور فاستشاطت إحدى السابحات غضبا وجعلت تسمعه من قارص الكلام وتسدّد إليه من سهام التقريع ما يخرس الألسنة ولكن أنّى لها ذلك وهل تنتظر من جمهور جامع لكل الطبقات آدابا عالية. لولا أن رأينا منهن مادل على إتقانهن جميعا فن السـباحة لكنا حكمنا بأن إنشاء مثل هذا المكان لم يكن الا لأغراض أخرى سيئة ولكنهن أبدين من ضروب السباحة ما أدهش جميع الحاضرين ومع ذلك إنى أنكر عرض هذه المعلومات أمام الجمهور لمخالفتها الآداب . عدنا بعد ذلك الى الفندق وختمنا يومنا باستراضة قليلة بعد تناول العشاء

وفى صباح يوم (الأربعاء ١٧ يوليه) ذهبنا أوّلا إلى مكتب كوك لاسـتلام تذاكر السـفر ثم أمرنا سائق عربتنا بالذهاب الى الحديقة التي تدعى (Royal Park) وهى واقعة خلف المدينة على جبل تكتنفه الأشجار وتكسوه الأعشاب وفى الطريق مررنا على مدرسة الجيزويت الكبيرة ثم على الجـامعة التي تسـمى باسم منشئها الدكتور (Magill) وهى مكوّنة من خمسة عشر قصرا وقد سمعنا أنها ما وصلت إلى هذه العظمة إلا بفضل الهبات الكثيرة التي وهبهـا لها المسـتر ماكدونلد

(MacDonald) الكندى التاجر الشهير فى أنواع التبغ ولقد عرف كيف يخدم بلاده فلم يبخل عليها بثروته العظيمة لاسيما أنه غير متزوج ويبلغ من العمر الخامسة والستين ولا فائدة له فى كنزها . مررنا بعد ذلك على مستشفى فيكتوريا العظيم الذى أنشئ بأموال أهل المروءة وتبرعات اللورد (Strathcona) الذى كان يتجر تجارة صغيرة فى أنواع الفراء فى الزمن السابق وكان اسمه المستر (Donald Smith) ويزيد عمره الآن عن تسعين سنة ومع ذلك لا ينقطع عن الأشغال فهو يمثل حكومة كندا فى مجلس النواب الإنكليزى والمدير العام لشركة (C. P. R.) وإذا رآه الإنسان لا يقدّر عمره بأكثر من ستين سنة فهو قوىّ يسافر إلى انكلترا ليحضر جلسات مجلس النواب ويعود إلى كندا لإدارة شؤن الشركة التى يرأسها . أما تاريخ حياته فانه كان تاجرا صغيرا فى الفراء فأتته السعادة من هذا الباب ولا عجب فى ذلك فإن تجارتها كانت تكسبه ٢٠٠٠ فى المائة ولا يستغرب القارئ ويظن أن فى ذلك مبالغة فإن الفروة الواحدة التى تساوى ألوفا من الفرنكات كان يشتريها من الهنود وغيرهم بأربعة كيلو جرامات من الدقيق أو بعقد من الزجاج الملوّن أو بقطعة من الأقمشة الرخيصة ولما يجمع من الفراء عددا كبيرا يرسلها إلى بلاد الصين ويستبدلها بالشاى

أو القطن أو الحرير أو غيرها فكان يأخذ من هذه الأشـياء مقادير عظيمة ثمنا لفروة واحدة لم يدفع ثمنا لها أكثر من أربعة كيلو جرامات من الدقيق ثم يبيع هذه الأشياء فى أوروبا وأمريكا وفى الجهات التى يكون ثمنها فيهـا عاليا . وإذا بحثنا عن الأسباب التى أوصلت أسرة أستور (Astor) إلى ثروتها التى تعد بالمليارات نجدها نفس الأسباب التى أغنت المسـتر (Donald Smith) قديمـا أو اللورد (Strathcona) الآن

مررنا بعد ذلك على عمـارة المستر (Allan) صاحب شركة البواخر الإنكليزية (Allan Line Co.) وهكذا صرنا نتنقل من شارع إلى شارع ومن عمارة إلى عمـارة إلى أن وصلنا إلى الجبل فصعدنا فيه ولا يبلغ ارتفاعه أكثر من ٢٨٠ مترا فرأينا منه أطراف المدينة ونهر سان لوران العظيم وبعد أن متعنا نظرنا برؤية كل هـذه المناظر عدنا إلى الفندق وفى منتصف السـاعة الثامنة ذهبنا إلى المحطة لركوب القطار الذى يوصلنا إلى نيويورك فتحرك بنا بعد أن مضى عشر دقائق من الساعة التاسعة وفى الساعة السادسة من صباح يوم (الخميس ١٨ يوليه) وقف بنا القطار فى محطة (Albany) وهى التى ذكرتها سابقا عند رحلتنا إلى نياجارا (Niagara) ؛ فى الساعة الثامنة صباحا وصلنا إلى محطة نيويورك

واستأجرنا سيارة أوصلتنا إلى فندق (Gotham) بشارع (5th Avenue) فدخلنا فيه وأعطيت لنا غرف جميلة جدا خصوصا غرفة الاستقبال التى اختارها لى مدير الفندق فانها كانت تطل على أهم شوارع المدينة . وعلى أثر وصولنا حضر لمقابلتنا والسلام علينا الخواجه قيصر صباغ وأخبرنا أن بعض أعضاء نادى الاتحاد السورى يستأذنون فى مقابلتنا بعد الظهر فضربنا موعدا لذلك الساعة الثالثة وانصرف من عندنا بعد أن شكرناه لرقة إحساسه . حضر بعده المستر يونج مدير محل كوك بنيويورك ومعه رسائلنا فاتفقت معه على طريقة السفر وبعد ذلك انصرف إلى حيث أراد

فى الموعد المضروب حضر أعضاء نادى الاتحاد السورى فقابلناهم مرحبين بهم وأبديت عظيم سرورى من رؤيتهم وهم متمتعون بالصحة وكررت على مسامعهم شكرى لهم على ما ألاقيه منهم ثم دار بينى وبينهم حديث عن رحلتنا الطويلة فقصصت عليهم بعض ما رأيناه من عجائب هذه البلاد وبعد ذلك اتفقنا على ما يلزم لإحياء ليلة التكريم التى سيقومون بها لنا فى يوم ٢٠ يوليه وانصرفوا مودعين منا بما اقتضته آدابهم

قضينا باقى يومنا فى استراضة صغيرة داخل المدينة وفى قراءة بعض

الجرائد التى تأتى من أوروبا لنقف على مجرى السياسة وفى اليوم التالى (الجمعة ١٩ يوليه) لم نعمل شيئا مذكورا سوى كتابة مذكرات رحلتى والذهاب إلى مكتب كوك وزيارة بعض الحوانيت وعند عودتنا الى الفندق وجدنا رسـالة من الخواجه تيودور خيـاط العضو فى مكتبة نيويورك العامة يدعونا فيها لزيارة المكتبة ثم تسلمنا هدية نفيسة مرسلة من قبـل المسـيو ريحانى وهى مؤلفاته الكثيرة المفيدة وبعد الظهر حضرت مـدام صباغ ومعها زوجها فقضينا معهما وقتـا طويلا فى المسامرة ولقد أعجبنى فى هذه السيدة أدبها وذكاؤها فإنها أهل لكل مدح وثنـاء وكفى دليلا على نبوغها أنهـا تدير محل تجارة كبيرا خاصا بملابس السيدات وسائر مطالبهن وأصبحت بجدها واجتهادها وحسن معاملتها ورقة ذوقها زعيمة باقى المتاجر التى تشتغل فى مثل تجارتها . إن سيدة شرقية تتغلب على الأوربيات والأمريكيات وتزاحمهن فى أشغالهن وتنال الشهرة بينهن وهى غريبة فى هذه الأوطان لجديرة بكل إعجاب وفخر ولقد زاد احترامها فى نظرى ما رأيته فيها من الوطنية الصادقة والإخلاص العظيم لأبنـاء جنسها فهى واقفة على دخائل أمور بلادها الاقتصادية ولا تجعل الفرصة تمر بدون أن تبرهن للعالم أنها من أقدر السـيدات . إن فى تشغيل أبنـاء جنسها بسوريا فى

صناعة (الدانتيلا) و إرسالها إليها لتبيعها الأمريكيات لدليل قطعى على معرفتها الواجب عليها لأبناء وطنها . إنها بذلك تشجعهم على اكتساب رزقهم حلالا وتحببهم فى الأعمال وتخفف عنهم وطأة الحياة التى كلها شقاء

ذهب بنا الحديث بعد ذلك إلى ذكر بعض أقاربها ومعارفها الذين أعرفهم حق المعرفة وأحترم آراءهم وأفكارهم السامية كسليم أفندى سركيس الشهير بتضلعه فى آداب اللغة العربية فإن كتاباته تدل على علو منزلته فى عالم التحرير وله فوق ذلك طريقة خاصة لطيفة فى كتابة مقالاته يعرفها كل أهل مصر . أما سليم بك ثابت فإنى أحترمه كثيرا وأحبه بكل قلبي فهو خطيب معروف وكاتب نحرير يخدم بلاده بكل قواه و إذا حصل سوء ظن بين المسلمين والمسيحيين مواطنيه يتداخل فى الأمر و يحسم فى الحال الخلاف الواقع بينهم ولا غرض له فى كل أعماله إلا الخدمة الحقيقية وتوثيق عرى الاتفاق بين الجميع بدون نظر إلى المعتقدات والمذاهب ولذا كان محترما بين الجميع معروفا عند أكابر الموظفين العثمانيين محبوبا من بطريركه الجليل فهو إذا واسطة خير و بشير سلام وخادم الأصدقاء . ذكرنا بعد هذين الفاضلين اسم خليل أفندى مطران وما له من المكانة العالية عندنا ثم

اسم نجيب باشا شكور الذى جمعتنى به حادثة تعدى الايطاليين على سكان بيروت عندما تألفت اللجنة بمصر لاغاثة من أصابهم هــذا التعدى الفظيع وكان من ضمن أعضائهــا فوجدته ذكى الفؤاد رقيق الأخلاق حميد الصفات عالى الهمة

بعد انصراف هذه السيدة الفاضلة وزوجها المحترم وصلتنى رسالة من جلال الدين بك قنصل تركيا بنيويرك يدعونى فيها من قبل ضيا باشا سـفير الدولة العثمانية بالولايات المتحدة أن أحضر حفلة الدسـتور العثمانى التى سـتقام يوم ٢٤ يوليه فأرسلت أشكره على هذه الدعوة معتذرا بأنى لا أستطيع ذلك لأنى سأسافر قبل هذه الحفلة بيوم . ومع ذلك لو كنت فى نيو يورك لما حضرت هذه الحفله لأنى لا أرى موجبا لإقامتها . فاذا كنا مسلمين يلزمنا قبـل كل شئ احترام الخليفة لأنه أمـير المؤمنين . فاذا احتفلنا نحتفل بعيد ميلاده وعيد ارتقائه على عرش الخلافـة أما اذا كان بعضهم يعتبر وظيفته صورية فإنى برئ منه ومن أفكاره فحمدت الله إذ لم أكن بينهم فى يوم احتفالهم حتى لا أضطر إلى رفض دعوتهم

فى منتصف الساعة الخامسـة مساء من يوم (السبت ٢٠ يوليه) ذهبنا لرد الزيادة لمـدام صباغ فى منزلها على شـاطىء (Riverside)

وهناك الهواء جميل والجو معتدل والموقع حسن جدًا وبعد أن شربنا القهوة الشرقيـة اللذيذة وتناولنا شراب عصير الليمون المثلج انصرفنا إلى محل إقامتنا لنستعد للذهاب إلى الحفلة الإكرامية . وفى الساعة السابعة حضر أنطون أفندى سمعان ومعه إلياس أفندى ملوك فأخبرنا بأنهما ينتظراننا بقاعة الاستقبال ولا يظن القارئ أن الخواجه سمعان من أسرة سمعان المعروفة بمصر ولكنه رجل له مكانة رفيعة بين مواطنيه والأمريكيين فهو محبوب من الجميع لما اشتهر به من الكمال وعلو الهمة . ركبنا سيارتين ذهبتا بنا إلى فندق والدورف أوستريا وقد كنت ورفيقاى مرتدين طرابيشنا حتى نجعل للحفلة صبغة وطنية رسمية ودخلنا من مدخل صغير غير مطروق لكيلا نمر على ردهة الفندق العامة التى يكثر فيها عادة الجالسون ثم ركبنا المصعد فوقف بنا أمام الردهات المتسعة التى زينت بأبهى زينة وكان ينتظرنا جميع المدعوين وبمجرد أن وضعت قدمى فى باب الردهة الكبيرة عزفت الموسيقى بالسلام الخديوى وتبع ذلك تصفيق حاد وقد كنت أرى على وجوه جميع الحاضرين الفرح والسرور فكانت كل حركة يأتون بها تدل على عظيم الإخلاص والتعلق بالأسرة الخديوية . هذا وقد كان أول من استقبلنا حضرة رئيس الجمعية داود أفندى حديرى

وهو أحد مؤسسى جمعية الاتحاد السورى ومن أعظم العاملين فيها لمـا له من الخـبرة العظيمة فى كل مايرقى أمته وقـد كنا سمعنا به وبغزارة معارفـــه فانه درس العلوم العالية وتممها بنجاح كبير فابتدأ يقدّم إلى الحاضرين وأنا أصافحهم فـردا فردا إلى أن ألفت نظرى هيئة شاب يتقد ذكاء فعندما ذكر حضرة حديرى أفندى اسمـه وهو عبد الملك أفندى سـعد سررت لأن نظرى لم يخطىء فى معرفة جنسه بمجرد أن رأيته وقد قال لى عنه رئيس الجمعية إنه يدرس الطب بجامعة (بوسطون) ولما سمع بإقامة الحفلة طلب الاشترك فيها حتى لا يحرم من رؤية أمير مصرى فى هـذه البلاد فقبل طلبه وتكبد مشاق السفر لحضور هذه الحفـلة فشكرت له شريف إحساسـه وأظهرت له عظيم سرورى برؤيتى أحد المصريين بيننا فى هذه الليلة الشائقة . وبعد أن أتممت مصافحة جميع الحاضرين ألقى رئيس الجمعية خطبة بليغة رحب بهـا بقدومى وأعرب عن شكر جميع السوريين لى لقبولى دعوتهم ولمـا كنت أعددت خطبة ولم تكن لى عادة أن أخطب فى وسط جمهور عظيم طلبت أن أقرأها عليهم حتى أكون مستريح البال مدّة وجودى بينهم فقابلوا هذه الصراحة بفرح عظيم وقال رئيسهم إنهم يودون أن أكون فى راحة تامة ويسرهم أن أعمل ما أحب فشرعت أقرؤها وهم

حولى يسمعونها وكلهم آذان مصغية وها هو نص الخطبة :

أيها السادة

إنى أقف بينكم لا لأريكم منى خطيبا يريد أن يظهر براعته ومقدرته بل لأريكم أنى شرقىّ صميم محب لبلاده وأمته له شعور حى يود من صميم فؤاده أن يشرحه لأبناء الشرق الأعزاء

إنى أنطق الآن بلسان المودّة والارتباط ولاحرج علىّ إن أظهرت للملأ شدّة إعجابى بمروءة وشهامة إخوانى السوريين الذين لقيت من حسن ضيافتهم فى أثناء سياحتى فى سوريا ما يجعلنى أكرر ثنائى وعظيم شكرى لأبناء الأمة العربية الكرماء

إن الصلات التى تربط بلادى ببلادكم قوية ورأيتها مجسمة لما كنت فى وسط أهلكم وعشيرتكم الذين لم يتركوا أية فرصة لإظهار ارتباطهم ومحبتهم لأسرتى وجدودى وطالما سمعت منهم المدح العظيم لمؤسس الأسرة العلوية الذى أحمل مع عظيم الفخر اسمه الشريف فهو الذى دوّن التاريخ فى صحائفه البيضاء أعماله الجليلة وحياته العظيمة

إن الثلاثين سنة التى قضيت معظمها جائلا فى أنحاء أوربا والتى لا أنكر المزايا التى اكتسبتها فيها بمعاشرتى واختلاطى بكبراء رجالها المفكرين والمصلحين قد زادت فى قلبى حب بلادى وتعلقى بالشرق

والشرقيين فبكل جوارحى أنادى « فليعش الشرق وأبناؤه »

جدير بنا أن نفتخر ببلادنا العزيزة مهبط الانبيـاء ومنبع الاديان وأصل التاريخ ومصدر التمدين فذكر مجد الشرق السالف يحزننى فأين نحن الآن من عظمتنا الماضـية ؟ ألقوا معى نظرة فى تاريخ حياة أجدادنا انه كان مجيدا فكم من بلاد فتحوها بشفار سـيوفهم وكم امم أخضعوها بقوتهم وشـدّة بأسهم ؟ انهم لم يتركوا أية وسـيلة لاعلاء شأنهم واظهار عظمتهم ونشر سلطانهم الا اتخذوها مقدمين بلا خوف ولا وجل . ولا أى باب يوصلهم الى غايتهم الشريفة الا طـرقوه بدون تردد أو تهاون فالتاريخ يشهد اذا بمـا كانوا عليه من صفات الفاتحين كالشهامة والاقدام لاسيما التفاف بعضهم حول بعض وجمع شملهم ووحدة كلمتهم واخلاصهم وشدّة حبهم لبلادهم . فيالله ماذا جرى لنا حتى أصبحنا فى مؤخرة الامم المتمدينـة ؟ ان بلادنا لم تتغير رجالها هم أبناء أولئك الامجاد وأحفاد أولئك الابطال فماذا دهانا حتى وصلنا الى هذه الدرجة التى لاتسر ؟ أظن أنـا تهاونا فى أمورنا فحلت علينا المسكنة والمـذلة وتركنا شؤوننا فغشينا من التعس ما غشينا

انى بالرغم مما نحن عليه الآن لست يائسا ولكن قبل كل شئ أرجو أن يحمل كل من سمع خطبتى هذه محمل الاخلاص فاننى أريد الخير

لجميع الشرقيين ولست ممن يسعون فى التفرقة بين الاجناس كما اتهمت بهـذه التهمة التى أردها عنى بكل صراحة يوم كنت فى سوريا فان أعداء الحقيقة رجال السوء هم الذين أشاعوا هـذه الاشاعة الباطلة والله أعلم بضميرى . وبودى أن تجتمع كلمة عامة الشرقيين على اختلاف أجناسهم ومعتقداتهم لصـد هجمات أعدائنا الذين يريدون ابتلاعنا وأخذ بلادنا بدون حق أو مسوغ شرعى . فأشهدكم جميعا أنى محب للاتحاد والوئام وعدو لكل من يسعى فى أسباب التفرقة المؤدية للهلاك والفنـاء والله على ما أقول شهيد . أما أنتم يا أرباب الأقلام ويا أصحاب الجـرائد فعلى فصاحتكم وقوة بيانكم نعتمد قووا الشعور وانشروا فى صحفكم أسـباب سر تقدم الامم حتى نأخذ مكاننا اللائق بنا . فان أردتم كنتم السبب فى تقوية الرابطة بين أبنـاء العرب وغيرهم مهما اختلفت الأديان والأجناس ومهما بعدت الأمكنة . وجهوا أنظـاركم الى كل ما يعلى شأننا اننا نريد أن نرفع رؤوسـنا أمام العـالم . اننـا نريد أن نفتخر بجنسـنا وبمـا وهبنا الله من الشجاعة والاقـدام والذكاء فلقد جاء الوقت لنهب من سباتنـا ونتحرك من جمـودنا . ان السـعادة فى هـذه الحيـاة ليست بالثروة فقط فكم من رجل أنفق وقتـه فى جمع الدرهم والدينـار ولم يؤد فرائضه

الوطنية وحقوق بلاده فبالرغم مما وصل اليه من الثروة ذهب بعد موته نسيا منسيا

لست ممن يودون المعيشة الهادئة بدون أداء واجبات الأمة . لانى أرى عدم الالتفات الى هذه الحقوق المقدسة من أكبر الذنوب وأعظم العيوب والنقائص . ان مهمتنا ليست فى الحقيقة من الصعوبة بمكان ان اجتمعت كلمتنا وقويت الارادة فى الحصـول على المـركز العالى الذى نريد أن نختاره بين الأمم . والطريقة الوحيدة التى أعتقد أنهـا توصلنا الى غايتنا هى أن يعتقد كل فرد منا أنه قادر على خدمة بلاده بصـدق وأمانة يتحمل الصـعوبات مهما كبرت والمشـقات مهما كثرت

وأنتم يا من تركتم بلادكم وتغربتم بعيدين عن الأهل والأحبـاب انى أهنئكم باقدامكم وعظيم نشـاطكم وثباتكم فقد برهنتم للملأ جميعه باجتهادكم وذكائكم أننـا شعب حىّ قادر أن يحافظ على اسم أمته الكريمة . فمن كان منكم قد وصل الى الدرجة التى يتمناها فليعد الى وطنه مسقط رأسـه فان بلادنا فى حاجة الى الرجال العاملين . ان بلادنا الواسـعة فيها من الخيرات ما لا يقل عن هذه البلاد والدليل على ذلك طمع الشعوب فى التقرب الينا لابتزاز هذه الخيرات وليس

تقربهم حبا لنا بل طمعا فى ثروتنا المكنوزة التى لا نشتغل لاستخراجها فأنتم يا إخوانى السوريين أحق من هؤلاء الأجانب الذين ينالون الامتيازات الكثيرة و يبتزون أموالنا ونحن عن ذلك غافلون . إن طريقة الاستعمار ليست خافية عليكم فبعد أن يحصل الأجانب على هذه الامتيازات بأية طريقة كانت يصبحون أرباب السيادة فأخاف أن تضيع البلاد بهذه الواسطة وكفانا ما فقدناه حتى الآن . فلنحافظ على البقية الباقية من وطننا العزيز . لقد درستم الحياة وعرفتم أسباب وأسرار تقدم الأمم باختلاطكم بالشعوب الراقية العاملة وأتممتم ما ينقصكم من الاختبار فارجعوا إلى بلادكم غانمين واستثمروا خيراتها بما تعلمتموه ولا تجعلوا للأجنبي بابا للتداخل فى شؤونكم فأنتم أولى من الغريب بهذه الثروة الموروثة من أجدادكم وان وجدتم صعوبات فتحملوها فداء وطنيتكم والله ينصركم و يوصلكم الى كل ما تحبونه

ولكن بأى جنس تعودون ؟ عودوا بجنسكم العثمانى رافعين الرأس حاملين اسمكم السورىّ لا بجنس أجنبيّ فان عدتم إلى أوطانكم بالحالة الأولى يكون وقتئذ لكم الحق فى مشاركة حكومتكم فى كل ما يعود عليها وعليكم بالخير و إن تكن الأخرى (ولا إخالكم ترضونها لأنفسكم) فعدتم متحلين جنسا أجنبيا لمعاكسة الحكومة وعدم احترام قوانينها

وشرائعها والصياح فى وجهها بدون حق فهى إن عاملت هؤلاء الخارجين عن طاعتها معاملة الأجانب ولم تلتفت الى طلباتهم ولم تعن براحتهم كانت محقة فى ذلك وهذا أقل جزاء يناله من تبرأ من جنسه اذ يعد خارجا على أمته

هذه آمالى فتقبلوها منى باخلاص وأختم خطبتى بأن أشكركم من صميم فؤادى لمـا لقيته منكم من حسن الوفادة والكرم وأهنئ رجال الصحافة ناشرى لغتنا المحبوبة بين إخواننـا السـوريين البعيدين عن الأوطان ومسببى الارتبـاط الدائم بين الشرقيين لا سيما السـوريين المقيمين فى الممالك المحروسـة وبين الساكنين الآن فى هذه الدنيـا الجديدة و إنى أدعو الله أن يوفقنا الى كل مافيه صلاحنا وفلاحنا . اهـ

هنا يجدر بى كتابة ما نشرته جريدة مرآة الغرب الغراء التى تصـدر بنيويورك باللغة العربيـة لصـاحبها نجيب أفندى موسى دياب عن وصف هذه الحفلة الاكرامية :

الأمير محمد على فى نيويورك

جمعية الاتحاد السورى تحتفى بسموه وتكرم مصر فى شخص شقيق الجناب العالى

المأدبة الاكرامية فى ولدروف اوستوريا

تجلت ليلة القدر مساء السبت الفائت فى نزل ولدروف الشهير فى نيويورك اذ طلع الأمير الكريم محمد على شقيق خديو مصر بدرا فى سماء الحفلة الإكرامية التى أقامتها جمعية الاتحاد السورى باسم السوريين احتفاء بسموّه وهو ضيف الجالية السورية بل ضيف الأفئدة الشرقية فى ديار كولمبس على ضفاف الهدسون

كان أعضاء الاتحاد السورى قد اجتمعوا فى القاعة المخصصة لاستقبال الضيف العظيم عند الساعة السابعة مساء وكانت الجمعية قد أوفدت حضرتى الفاضلين أنطون أفندى سمعان والياس أفندى ملوك بسيارتين فأقبلا مع الأمير وحاشيته وما أزفت الساعة السابعة ونصف حتى أشرقت أنوار طلعة الأمير و بطانته الكريمة المؤلفة من الماجور محمود خيرى بك ياور الجناب العالى الخديوى ومصطفى رضا بك كاتم أسراره وعلى رؤوسهم الطرابيش العثمانية فصدحت الموسيقى بالسلام الخديوى واصطف الأعضاء على الجانبين فأخذ سموّه يصافحهم فردا فردا وتصدّر المجلس فاستقبله حضرة رئيس الجمعية الفاضل داود افندى حدارى بخطاب بليغ رحب به و بمن معه باسم

الاتحاد السورى والجالية السورية وحياه باسم الناطقين بالضاد من شاطىء الاتلانتيك الى شاطىء الپاسفيك فوقف سموه وألقى خطابا بليغا كالدر النضيد كتبت آياته بقلم الوطنية وخطت سطوره بيراع الصدق ولا غرو فهو خطاب الأمـير المؤلف والرجل الكبير الذى حقق الخُبْرُ عنه الخَبَرَ

(ولقد نشر هذا الخطاب فى الصفحة الأولى من الجريدة وكتب فى مقدمته : إنه أول خطاب ألقاه سمو الأمير فى حفلة رسمية وحرىّ بجمعية الاتحاد السورىّ جمعيتنا الكبرى أن تنال هذا الشرف من أمير العلم والجد ورب السيف والقلم حفيد سميه محمدعلى الكبير) وما كاد سموه ينتهى من خطـابه حتى اهـتزت أرجاء المحفل بالتصفيق والهتاف . ثم فتح الباب الفاصل بين حجرة الاستقبال وحجرة المائدة فدخل سموه والجمع المعجب به وتصـدر المـائدة التى كانت مزدانة بالأزهار والأنوار فزادها نوره نورا وأنعش لطفه ما فيها من الزهور . جلس الأمير فى ظل العلمين المصرىّ والأميركىّ وفى وسطهما خمسة رسوم مكبرة هى رسوم جدّه الأكبر محمد على الكبير وإبراهيم باشا الغازى أو نابليون الشرق واسماعيل باشا جدّه وتوفيق باشا والده وسمو شقيقه الأمير عباس الثانى خديومصر . جلس الأمير والى يمينه حضرة

الفاضل داود أفندى حدادى رئيس الجمعية والى يساره حضرة العالم الخطيب والنطاسى البارع الدكتور رزق أفندى حداد رئيس الجمعية الأول و رئيس هـذه الحفلة والى يمين الرئيس حضرة العالم الفاضل والنطاسى البـارع الدكتور اسكندر بك جريديني أحد ضيوف تلك الليلة الساطعة بأنوار طلعة الأمير وأخذ الحاضرون مراكزهم وكانت راية الجمعية وشعارها الأرزة تخفق أمام الضيف العظيم الذى كانت أنوار اللطف تفيض من محياه فيحدث من حوله و يبسم للجميع ابتسامـة تشف عن سرو ره برؤية أبناء سوريا ومصر ملتفين حوله محدقين به يقومون بواجب مقدس نحو أمير الفضل والعلى

ولم تمض سـاعة حتى وقف رئيس الحفلة الدكتور رزق أفندى حداد مستأذنا الضيف الخطير فافتتح الكلام على المائدة بذكر محاسن الشرق والشرقيين ومن جملة ما قاله : « إن الغرب أمسى يحيط بوجودنا وأما الشرق فهو مقيم فى وجداننـا » ثم شرب نخب من هو رجاء الشرق وعمـاد الأمة العثمانيـة النجيبة جلالة السلطان المعظم (فوقف الحضور دفعـة واحدة وشربوا نخب جلالتـه بمزيد الوقار والاحترام) وما لبث الخطيب أن أنشد :

سـلطاننا محمـد المفتـدى ❁ وتاج عثمان السنى المجيـد

حامى حمى الدستور فى شرقنا ❁ وركن ذاك الإتحاد الوطيد
يدعو له فى الغرب أبنــاؤه ❁ بالنصر والملك السعيد المديد
فتبسم الأيام حتى نرى ❁ عصر رشاد فاق عصر الرشيد

ثم عاد رئيس الحفلة الى الكلام عند شرب النخب الثانى فذكر الديار التى هى أقرب الديار الينا والأمة التى هى أعزّ الأمم لدينا أى الأمة المصرية الكريمة فتمنى لمصر أن تبقى مدى الزمان كما كتب عنها عمرو الى الخليفة عمر فى صدر الاســلام اذ قال « فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء اذا هى عنبرة ســوداء فاذا هى زمردة خضراء فاذا هى ديباجة زرقاء فتبارك الخالق لمــا يشاء » ثم رفع الكاس على ذكر رئيس الأسرة الخديوية ومليك الأمة المصرية ونصير العربيـة والعثمانية سمو الخديو (عباس باشا حلمى الثانى) وأنشد هذه الأبيات

يا مصر مهد العلى والمجد من قدم ❁ ومطلع العلم والعرفان للناس
لله كم حزت من حسن ومن حسب ❁ وحاز أهلك من لطف وإيناس
أنت السعيدة فى الأمصار قاطبة ❁ لأزلت باسمة فى ظل عبــاس

ثم تقدّم الدكتور حداد الى نخب الزائر الكريم فقال : إن مصر وسوريا شقيقتان منذ بدء الزمان وهمــا أقدم البلدان ومهبط الحكمة والأديان . مصر أم العلى . وسوريا أم الهدى . وان السورىّ الهابط

الى مصر من سفح لبنان لا يعدّ نفسه فيها غريبا أو دخيلا بل يعتبرها وطنا له ثانيا ويحبها كذلك . ثم أخذ يعدّد مآثر الأسرة الخديوية من عهد محمد على الكبير الى عهد عباسها الثانى الذى أحيا ذكر العباسيين القدماء فأضحت الكنانة مقرّ العلم والعلماء والأدب والأدباء كما كانت الرصافة فى عهد هرونها ومأمونها . إلى أن قال : « تلك الأسرة النبيلة التى أخرجت فى وقت واحد بسمارك الشرق ونابليون الشرق وأشار بذلك الى منشئ الوحدة المصرية محمد على الكبير والى ابراهيم القائد الخطير والبطل الشهير . ثم قال : إن أجدادنا فى أوائل القرن التاسع عشر قد تألبوا حول ذلك الأمير الفاتح ونحن اليوم فى أوائل العشرين نتألب حول الأمير السائح . ذاك قد افتتح بلادنا وأما الأمير فقد غزا ولكن قلوبنا . وبعد ما أفاض الخطيب فى تعداد مآثر تلك الأسرة الكريمة خاطب الأمير الزائر فحياه باسم الاتحاد السورى وبالنيابة عن مئات الألوف من السوريين المهاجرين ثم اشترك الكل فى شرب نخب الأمير وختم الخطيب كلامه بهذه الأبيات :

ألا فاسقنا كأس الأمير فإنها ❁ لكأس العلى والمجد والفضل والندى
سليل العلى من أسرة علوية ❁ تصون لها الأيام مجدا مخلدا
أعادت الى مصر القديمة عزها ❁ وللعرب العرباء فخرا وسؤددا

وكم أطلعت فى منبت الفضل دوحة ۞ وكم أطلعت فى قبة المجـد فرقدا
وكم رفعت للعلم صرحا مشـيدا ۞ وكم شـيدت للبر دارا ومعهـدا
فياسـيدا أحيـا القلوب بزورة ۞ فكانت كنبت ذابل زاره الندى
نحييك عن دار الشـآم واهلهـا ۞ وكم حفظت دار الشـآم لكم يدا
ومأثرة فى الشرق قد سار ذكرها ۞ وفى العالم الغربى رن لها الصـدى
أبى الله أن ننسى صنيعك والوفا ۞ غداة رمت بيروت صاعقة العدى
فكنت حليف البائسين على الضنا ۞ وكنت لهاتيك الجراح مضمدا
لئن نحن جزنا كل قطر ومعشر ۞ وتاهت بنا الأسفار فى الأرض مرمدا
فتحفظ ما أوليتنا من مكارم ۞ وهيهـات أن ننسى الأمير محمدا

ثم وقف رئيس الحفلة وشرب بسر الراية الأميركية راية النجوم الزاهرة ورئيس الولايات المتحدة والشعب الأمريكى العظيم ذى الوطنيـة الحقة فصدحت الموسيقى بالنشيد الوطنى ووقف الجميع إجلالا وتعظيما

وقدم رئيس الحفلة للضيف والحضور الشـاب الأديب فيليب أفندى كاتسفليس فأنشـدهم بعذوبة صوته الأنشودة الآتيـة وهى من نظم رئيس الحفلة الدكتور رزق أفندى الحداد

بدر تم فى سمـا المجد سمـا ۞ وكسانا من سـناه حللا
وبأرض الغرب أضحى مشرقا ۞ فجلا الهم وأحيـا الأملا

يا أمير الشرق شرفت الحمى ۞ فانثنى كل فؤاد جذلا
وبنو الشام لديك اليوم كم ۞ ذكروا مصر وذياك الولا
فلتعش مصر ومن سادوا بها ۞ ورعاك الله يا بدر العلى

فطرب بها سموه وانشرح لها صدرا وهنا وقف الأمير متكلما باللغة الانكليزية فذكر رجلا من خيرة رجال أميركا فى مصر هو المستر تجاى قنصل جنرال الولايات المتحدة فقال يوم ساعدنا بيروت المنكوبة بقنابل الايطاليين لم نر مساعدة من أوربى أو أميركى عدا المستر تجاى الذى تبرع لمساعدة المنكوبين بمائة ليرا انكليزية وهو رجل طيب القلب يحب الخير للناس جميعا . وانى أسألكم أن تكرموه اذا زار الولايات المتحدة الأميركية وأنا معكم الآن أشرب بسر ذلك الرجل الكبير القلب المشفق على الضعفاء . وما كاد سموه ينتهى من كلامه حتى صدحت الموسيق بالسلام الخديوى فوقف الحاضرون اجلالا

وأخذ رئيس الحفلة يستدعى الخطباء فاستدعى أولا حضرة رئيس الجمعية داود أفندى حدارى الذى تلا خطابا فيه ما فيه من بيان العلائق الولائية بين مصر وسوريا وحبّ السوريين للأسرة الخديوية . وهنا استدعى حضرة الكاتب الفاضل والشاعر المجيد ندره أفندى الحداد نائب رئيس جمعية الاتحاد السورى فتلا قصيدة

من نظمه المتين مؤلفة من سبعة عشر بيتا وكل بيت منها كأنه الصرح المشيد منها

يا ابن الملوك الصيد من شادوا لنا ❁ مجــدا رفيعا قد تعالى شـأنه
أحييتم للشرق بعد هبوطه الـ ❁ عز الذى باهت به سـكانه
يســمو بعباس العلى وشـقيقه ❁ قطر سـعيد تزدهى وديانه
والنيــل معتز على أقرانه ❁ ان العزيز قليلة أقرانه
حرس الاله محمـدا وأخا العلى ❁ عباسـنا الثـانى وطال زمانه
ما أشرقت شمس ولاحت أنجم ❁ والروض مالت فوقه أغصانه

ثم استدعى حضرة النطاسى الفاضل الدكتور اسكندر بك جريديني الطبيب المعروف فى طنطا ومصر والعائد الى الوطن فى الوقت القريب . فوقف وقفة الخطيب وشكر لجمعية الاتحاد السورى دعوتها له ليقوم بواجب مقدّس نحو سمو الأمير واسترســل فى خطابه الى ذكر مصر وسـوريا الشقيقتين العزيزتين . قال : لا يفصل بينهما سـوى ذلك القنال . قنــال السويس . فاذا وقف السورىّ فى ضفة والمصرىّ فى الضـفة المقابلة يتحادثان بالود والولاء واذا مدّ الآخر يده الى الثانى يتصافحان مصافحة الإخاء . وذكر ما لمصر من الفضل على السورىّ وما فى فؤاد السورىّ من الشعور الحىّ نحو أبنـاء النيل وحكومته

والاحترام والحب للأسرة العلوية المحمدية ولاسماعزيز مصر وخديويها الحالى عباس الثانى . ولقد أجاد الدكتور كثيرا وأعرب عن صدق فى وطنيته دلت عليها لهجته وأقواله الصادرة عن وجدان حى

واستدعى للخطابة نجيب دياب صاحب هذه الجريدة فوقف وحيّا الأمير وذكر ما لمصر من الأيادى البيضاء على شقيقتها سوريا فقد كانت ملجأ اللاجئين اليها منذ أيام السيد المسيح وأمه العذراء مريم الى اليوم . ثم ذكر ما للأسرة الخديوية من الأيادى البيضاء على سوريا ومعاهد العلم فيها ومساعدة العلامة البستانى بالأموال الطائلة يوم ألف محيط المحيط ويوم اشتغل فى دائرة المعارف وأتى على ذكر القصر العينى ذلك المعهد الطبى الذى أسسه جدّ الأسرة الخديوية وما له من الافضال على السوريين . ورحب بالضيف الكريم باسم الصحافة العربية فى الولايات المتحدة وذكر بالخير الصحافة العربية المصرية والسورية وما أظهرته من الاهتمام فى رحلة سموّ الأمير وسياحته واحتفاء أبناء سوريا به وغير ذلك

واستدعى رئيس الحفلة جناب الكاتب الفاضل وليم أفندى كاتسفليس الرئيس السابق لجمعية الاتحاد السورى فألقى خطابا نفيسا امتدح به الضيف الكريم وأثنى على ديمقراطيته وتسامحه ولطفه ودعاه

أميرَ الأدباء وأديبَ الأمراء وقد جال وليم أفنـدى جولاته المعروفة بالفصاحة والافتنان فى الموضوعات ولابدع فى ذلك فله وقفات شهد له بها حتى خصومه

وهنا قدّم الدكتور حداد حضرة الكاتب الفاضل والشاعر المجيد الشيخ عباس أفندى أبو شقرا أحد محررى هذه الجريدة وكاتم أسرار جمعية الاتحاد السورى فتلا قصيدة عصماء من نظمه أعجب بها سموّه والحاضرون ومنها

أعظم بجدك مجـد الترك والعرب ❁ أخا العزيز أمير النيـل والنسب
حللت فى بلد تاجا على ملك ❁ حينا ينافس فيه سـائر الحقب
فمرحبـا بفتى العليـا محمـدها ❁ ركن الأريكة وابن السادة النجب
أقبلت بدرا ينير الغرب طالعـه ❁ بساطع من جلال القدر والحسب
فى هالة تأخذ الأبصـار زاهيـة ❁ تألفت من لبـاب العلم والأدب
لئن تنكرت فالأفعـال معلنة ❁ كما تنكر قرن الشمس فى الحجب
أو سرت منفردا لا تبتغى حرسـا ❁ تظل من همم فى جحفل لجب

وقدّم رئيس الحفلة حضرة الفاضل الشاعر المطبوع توفيق افندى فخر الذى لا ينسى الأدباء رقة نظمه وسلاسته وافتنانه فتلا قصـيدة غراء نالت استحسان سموّ الأمير

واستدعى أيضا فتى الشيوخ وشيخ الشعراء حضرة الفاضل ميخائيل أفندى رستم فتلا قصيدتين من نظمه الرستمى سرّ بهما سموّ الأمير سرورا لا مزيد عليه وأعجبه من رستم أفندى خفة روحه فانه بمناسبة تنكر الأمير باسم رستم بك فى رحلته قال (ميخائيل أفندى رستم) فى أبياته .

ردّ لى اسمى مع (فائظ) مستحق ۞ ولك الشكر من مداع صغير

فاستلطف سموّ البرنس هذا الشاعر الشيخ واستحسن مداعبته وأجابه . لا أرد الاسم اليك وأى ضرر لحق بك من استعمالى إياه فقال رستم أفندى

. بل أنا أطالب بحق وأطلب ان ترد لى اسمى مع (الفرط) فأجابه البرنس على الفور

. هو انت يهودى

ظهر بعد ذلك شيخ أبناء الذكاء ورب القول فى الزجل والشعر العامى الفاضل إلياس أفندى الفران فالقى فى حضرة الأمير أبياتا زجلية هى الفصاحة والبيان

وقدّم رئيس الحفلة حضرة الفاضل عبد الملك أفندى سعد أحد طلبة الطب فى جامعة هرفرد الشهيرة فى بوسطن وهو مصرىّ ومن أعيان الأقباط فتلا خطابا فصيحا رحّب فيه بسموّ شقيق عزيز مصر

ولفت أنظاره إلى عظمة هذه البلاد وعلومها وفنونها وما فيها من الرقىّ وتفاءل بسياحته خيرا للديار المصرية فسرّ الأمير به سرورا عظيما .

وهنا استدعى صاحب هذه الجريدة مرة ثانية فناب عن حضرة الكاتب المفتن الفاضل سليم أفندى سركيس صاحب مجلة سركيس المشهورة فى العالم العربىّ وتلا عنه خطابا كان قد أرسله الى جمعية الاتحاد السورى ليتلى فى هـذه المأدبة ولا يخفى أن سركيس أفندى وحضرة الفاضل صاحب العزة سـليم بك أيوب ثابت كانا فى طليعة المهتمين بهذه الحفلة الكبرى ومن اوّل المعجبين بها فتلا صـاحب هذه الجريدة الخطاب الآتى .

مصر فى ١٥ يونيه سنة ٩١٢

حضرات الإخوان الأفاضل رئيس وأعضاء جمعيـة الاتحاد السورى حفظكم الله .

كتابى هذا اليكم لتقرؤوه فى الحفلة التى تقيمونها لإكرام دولة الأمير محمد على ليعلم دولته حفظه الله أن السورىّ فى بلاد محمد على الكبير يشـترك مع أخيه فى بلاد واشنطون العظيم فى إكرام حفيد الرجل الشرقىّ العصامىّ وشـقيق العباس وابن توفيق الذى قال فيـه شاعر سوريا اليازجى

الخصم ليس له إليك طريق ❁ أنَّى يفوز وخصمه التوفيق

أنتم أيها الاخوان قد تشرفتم فى ديار الغربة بضيافة أمير مصرىّ من الأسرة العلوية الشريفة التى شرفت ابناء سوريا منذ أيام رأسها محمد على حتى الآن باكرامهم وتقديرهم حق قدرهم . هذا الأمير محمد على شقيق أفندينا عباس الثانى وفيهما يقول شوقى شاعر الحضرة الفخيمة الخديوية مخاطبا ساكن الجنان الخديوى توفيق

وترى ابنك العباس مبتسما ❁ يلقى وفود العُجْم والعرب
ويقول جدّى فى سماحته ❁ جدى وتوفيق الزمان أبى
والله شدّ بفضله عضدى ❁ بأخى علىّ المجد والحسب

وفى ضيفكم اليوم وفى أخيه العباس يقول شوقى

أعزة أينما حلت ركائبهم ❁ لهم مكان كما شاؤا و إمكان
تأبى السعادة الا أن تسايرهم ❁ لأنهم لملوك الأرض ضيفان
نجلان قد بلغا فى المجد ما بلغا ❁ معظم لهما بين الورى شان
يكفيهما فى سبيل الفخر أن شهدت ❁ بفضل سبقهما روس وألمان
هما هما تعرف العلياء قدرهما ❁ كلاهما كَلِفٌ بالمجد يقظان
ما الفرقدان اذا يوما هما طلعا ❁ فى موكب بهما يزهو ويزدان

أيها الإخوان . لاريب أنكم تريدون من صديقكم القديم الدائم

أن يوافيكم بشئ عن اخلاق ضـيفكم الكريم فنحن بطبيعة الحـال أدرى منكم بها لاننا نقيم حيث يقيم دولته

دولة الأمير ممتاز بصدق وطنيته العثمانية أولا فالمصرية ثانيا ويلتهب فؤاده غيرة على الشرق ومجـده وعاداته . يعشق تقـدّم العلم وإحياء الصـناعة ويميل الى مجاراة الغرب وأن يأخذ من عاداته أحسنها على شريطة أن لانهمل عاداتنـا الممدوحه وآدابنا العربيـة والشهامة التى امتاز بها قومنا . يريد أن نكون كاليابانيين الذين زار بلادهم محافظين على تقاليدنا فى الملابس والمآكل والعادات وأن نكون على أهبـة لردّ غارات الأمم التى تدّعى المدنية وهمها ابتلاع الأمم الضعيفة . يسوءه كثيرا وجود الضغائن والأحقاد بين الترك والعرب والمصرىّ والسورىّ والجركسىّ والالبانىّ الذين تجمعهم راية واحدة وعادات واحدة .

وأما أخلاق دولة الأمير فحدث بما شئت من الكرم والإخلاص وحب إغاثة الملهـوف وجميـل المعاشرة والابتعاد عن الكبرياء مع المحافظة على مقامه العالى

ودولة الأمير محمد على قوىّ الاعتقاد بدينه فهو مسـلم غيور ولكن بدون شئ من المغـالاة وهو لا يعرف الخمر ولا التدخين ولكنه مولع بالقهوة الجيـــدة وله مآثر خفيـــة فهو ينفق على كثير من الأسرات

المحتاجة وعلى تربية وتعليم بعض أبنائها فى مدارس أوربا ومصر بقدر ماتسع له ثروته

ويسرنى أن اقول ان دولته امتاز فى كل زمان ومكان بحبه الصحيح لأخيه سمو الخديوى المعظم

ان دولة الأمير الذى يشرف حفلتكم أيها الاخوان له فضل سابق على سوريا وأبنائها فيها وفى مصر شأن جميع أفراد هذه الأسرة القديمة وقد سمعتم ولا ريب بما كتبه فى رحلته السورية عن وطنكم وقومكم وسمعتم أيضا ما أبداه من الأريحية السامية فى إعانة أهل بيروت يوم فاجأهم الطليان بالعداء ودولته يرى الآن أن السورى عارف فضائل دولته فى كل مكان لأننا إخوان حقا يشعر كل فرد منا فى كل بلاد بالاحسان الى كل فرد آخر . فأنتم باكرام دولة الأمير الكريم قد رفعتم رأسنا وحفظتم كرامتنا وتركتم فى نفس دولته أجمل تأثير سيبقى فيها إلى ماشاء الله . وخليق بى وأنا أكتب من مصر أن أختتم رسالتى بقول الشاعر المصرىّ الكبير حافظ إبراهيم .

هذى يدى عن بنى مصر تصافحكم ❁ فصافحوها تصافح نفسها العرب

هذا وقد طبع الخطاب على حدة مصدرا برسم سمو الخديوى عباس الثانى وشقيقه ضيف الجالية ووزعت نسخه على الحاضرين

وكان مسك الختام قصيدة من نظم شاعر السوريين فى وادى النيل حضرة الفاضل خليل أفندى المطران بعثها لتتلى فى هذه الحفلة فانتدبت الجمعيـــة لتلاوتها حضرة الفاضل ندره أفندى الحداد نائب الرئيس الذى استدعى فليّ وتلاها بفصاحة وحسن إلقاء وقد سر بها سموه كثيرا وما وصل ندره أفندى الى البيت الاخير من قصيدة شاعر السوريين فى وادى النيل القائل :

جذلين ننعم فى صـــبيد ❁ حتناوليلتـــكم سعيده

حتى نهض الأمير وحاشيته وتبعهم الجمهور الى حجرة الاستقبال وهناك ودع سموه رئيس الجمعية وأعضاؤها وشيعوه بالاكرام اللائق بمقامه العالى

فى منتصف الساعة الثامنة من مساء يوم (الأحد ٢١ يوليه) لبينا دعوة قيصر أفندى صباغ وقرينته السيدة نجلاء الى المأدبة التى أعدت لنا فى فندق ريجنس العظيم فقابلتنا السيدة نجلاء وشقيقتها السيدة نبيهه عقيلة سليم أفندى مغبغب بالترحيب والإكرام وصدحت الموسيقى بالنشيد الخديوى وبعد أن جلسنا قليلا فى حجرة جميلة معدة لاستقبالنا فتح باب قاعة المائدة فدخلناها وجلست وعن يمينى السيدة نجلاء والى يسارى شقيقتها السيدة نبيهة ثم أخذ المدعوون مراكزهم .

وكانت المائدة مفروشة بالورد والأزهار وفى وسطهامصباح كهربائى يابانى ومن فوقها تتدفق المياه من نافورة كما تتدفق مياه الجندل والرايات المصرية والأمير يكية تزين الحجرة ورسوم الخديويين العظام فى وسطها . وقدكانت الزينة أبهى وأجمل زينة ولا عجب فى ذلك فهى نتيجة ترتيب وذوق النجلاء .

وكانت المائدة وما عليها من أفخر وأبهج ماصنعته الأيدى . فالملاعق والسكاكين و (الفراتيك) كلها من الذهب الابريز والآنية من صنع الصينى الحقيق

وما لبثنا قليلا حتى رأينا النجلاء قدنهضت تكرمنا وتحتفى بنا فلفظت الخطاب الآتى وكله درر ويشف عن أدب عال ورقىّ نادر .

قالت اكثر الله من أمثالها .

مولاى الأمير

إن تعطفكم وقبول دولتكم دعوتنا هذه الليلة مما يشير الى روحكم الديموقراطية الشريفة التى هى مصدر حياة البلاد وفلاح العباد . فبمثلكم تعتز الامة الشرقيـــة وتجارى بأفرادها الآن وبمجموعها غدا سائر الأمم الغربية .

مولاى . لقد زرت القاهرة فى السنة المنقضية فلأ مسعى

ثناء إخوانى فيهـا على الأسرة الخديوية المعظمة وعطفها عليهـم .
وسرّنى ما سمعته عن سموّكم من جميع إخوانى ومن صـديق المفضال صاحب السعادة إسمـاعيل باشا أباظه من الصفات الممتازة التى اتصـفت بها دولتكم . وعلمت من ابن عمى خليـل مطران وهو فى مقدمة المعجبين بدولتكم أن حفيد محمد على الكبير كبير بفضائله السامية و بأخلاقه الراقية و بعطفه على المساكين . وعلمت أيضا من صديق الكريم رجل الحزم والعزم سليم بك ثابت أن دولتكم كانت أوّل من مدّيد المساعدة للبير وتيين يوم فاجأهم الطليان بالنكبات واتصل بى من صـديق الفاضل سليم أفنـدى سركيس أن الأسرة الخـديوية حفظها الله هى بمثابة شجرة عظيمـة مسترسلة الأغصان يستظل بظلها أبناء وطنى فى وادى النيل .

و بلغنى أن دولتكم استحسنت زحلة مسقط رأسى ووطنى الأول وتكرمتم باطرائها خاصـة فى كتاب رحلتكم . فابنـة زحلة السورية ترحب بدولتكم فى هـذه الديار وتقدم الى سموكم شكرا ممتزجا بشعائر الاكرام والاحترام يكون عبارة عن وردة تزهو فى ظـلال الأمير وتنتعش فى حديقة سمو العزيز . وانى أسأل دولة الأمير رعاه الله ليثق بأن همته العالية مصادفة إعجابا واعتبارا من المرأة السورية كما أنها نائلة

قدرا ومكانة فى قلب الرجل السورىّ . فألتمس من دولتكم أن تكونوا فى طليعة الآخذين بناصر المرأة الشرقية ودفعها الى الأمام لأنها قد برهنت فى المدة الأخيرة التى أعطيت فيها حقوقها على مقـدرة عقلية وكفاءة لمجاراة أخواتها الأور بيات فى كل الأعمال العظيمة . فبلسان شقيقاتى الشرقيات فى هذه البلاد أرحب بكم وأثنى على دولتكم لتعطفكم وتشريفكم وأهتف بالدعاء قائلة ليحى عباس الثانى وليعش محمد على مرددة هتاف مواطنى فى وادى النيل

ألقت السيدة خطابها هذا بثبات ور باطة جأش وقدكان لكلامها وقع حسن جدا فى نفسى فجاهرتُ أمام الحـاضرين بشـدة إعجابى بفصاحة هذه السيدة الشرقية النادرة المثال ثم هنأتها وقلت لها ان أمة فيها أمثالك لاتخاف مستقبلا مظلما فكونى فى راحة ضمير واطمئنان على شقيقاتك الشرقيات ولقـد ابتدأنا نحن الشرقيين نعرف علل تأخرنا وأهمها تربية المرأة وسنصل باذن الله الى الطرق الغربية الموصلة الى تثقيف المرأة وجعلها فى مستوى مثيلاتها الغربيات وتزيد عنهن بالأخلاق الصالحة الشرقية ان شاء الله

خطب بعـد ذلك قيصر أفندى صباغ خطابا كله أدب وفصاحة وبيان ثم أعقبه الدكتور رزق أفندى حداد فالدكتور اسكندر جريديني

وبعـد الفراغ من تناول الطعام انتقلنا الى غرفة الجلوس وهناك أنشدنا فيليب أفنـدى كاتسفليس نشيد مريض يحب وطنه سوريا فطربنا منه واسـتعدناه مرارا وأخيرا انصرفنا بعـد أن شكرنا لطف الداعية وهمة قرينها الفاضل

فى صباح يوم (الاثنين ٢٢ يوليه) ركبنا عربة وذهبنا لشراء كتب هندسـية تختص بالعمارات الأميريكية لاهدائها لصـديق محمود بك فهمى باشمهندس الأوقاف وعنـد عودتنا الى الفنـدق أخبرت أن فضيلة العالم الشرقى الجليل عباس أفندى زعيم البهائيين يريد مقابلتى فضربت له موعدا فى الساعة الثالثة بعدظهر هذا اليوم وفى الساعة الثانية حضر عنـدى جلال بك قنصـل تركيا بالولايات المتحدة فوجدته رجلا كاملا تدل هيئته على الرزانة والكمال ومن حديثـه وثقت من اقتداره وكفاءته ففرحت به ودعوت الله أن يكثر من أمثاله العثمانيين خصوصا بين موظفى السفارات بأروبا

حضر بعد ذلك عباس أفندى فقابلته مرحبا به معظما له ولم تؤثر الشيخوخة فى ذكائه المفرط فانه مكث معى نحو ساعة من الزمن وهو يحدثنى فى موضوعات شتّى مفيدة جدا دلت على سعة اطلاعه وكثرة اختباره فهو اذا رجل العلم وعظيم من عظماء الشرق

بعد انصراف هـذا الشيخ الجليـل استأجرنا سيارة ذهبت بنا الى منزل قيصر أفندى صباغ وقرينته المحترمة لنشكرهما على دعوتهما ولـمـا لم نجدهما تركت لهما بطاقة زيارتى ومعها الخطاب الآتى

حضرة المصونة الفاضلة مدام صباغ

أقـدم لحضرتك عظيم شكرى على الدعوة الاكرامية الجميـلة التى دعوتنى اليها أمس وأعترف لك بكل ماسمعته عن آدابك العاليـه ومكانتك الراقيه فقد رأيتـه فيك بمجرد أن تعرفتُ بحضرتك . وقد أعجبنى منك كثيرا قلب السيدة الكاملة الذكية المحبة لبلادها ووطنها فتقبلى أيتها السيدة المهذبة خالص سلامى وشكرى لمـا سمعته منك البارحة من العبارات الرقيقة والثناء الحسن علىّ وعلى أسرتى و بلادى

ذهبنا بعـد ذلك لرد الزيادة لعباس أفنـدى فوجدنا منزله صغيرا ولكنه جامع لكل أسباب الراحة والنظام وقد كانت حاشيته مؤلفـة من عشرة أشخاص وعلى رؤوسهم (القلپق الفارسى) فعرفت من هذا الترتيب أن هذا الشيخ المحترم وقف على موضع ضعف الأمريكيين فاستصحب معه هذا العدد الكبير ليلفت أنظارهم اليه ولم أرد بذلك أن أحط من قدر الرجل فان صنيعه هـذا يدل على ذكائه ومعرفته الطرق الذى بها يؤثر فى نفوس القوم فيقتادهم اليه أما خطاباته الكثيرة

المؤثرة فانها أخذت دورا عظيما فى أمريكا وقد كانت اذ ذاك حديث الجرائد ينشرونها و يعلقون عليها آراء علمائهم الدينيين و بالجملة قد توصل باقتداره الى بلوغ الدرجة التى يحسده عليها الحاسدون . وقد مكثت معه زمنا أحادثه ويحادثنى فيطربنى بلذيذ كلامه ثم انصرفت من عنده وأنا أحفظ له فى قلبى المودة والاحترام . قبل أن نزايل مدينة نيو يورك أرسلت لحضرات رئيس وأعضاء جمعية الاتحاد السورى الكتاب الآتى .

إن ليلة الحفلة التى قمتم بها كانت بالغة غاية الكمال والجمال . وما قاله شعراؤكم وخطباؤكم ورجال صحافتكم أثناء حضورى أثر فى نفسى أعظم تأثير وقد وثقت أن احتفاءكم بى كان صادرا عن إخلاص صحيح ووداد متين وكان ذلك ظاهرا على وجوهكم الفرحة الناطقة بما تكنه أفئدتكم من السرور فشكرا لكم على ما أبديتموه من التجلة والاكرام لى ولأسرتى وجدودى ولذكركم بلادى المحبوبة مصر بكل افتخار و إعظام و إعجاب وكما أنى رأيت هذا السرور العظيم باديا عليكم كنت من نفسى فى سرور عظيم لوجودى بين إخوانى الشرقيين فى موقف ظهرت فيه صلات الوداد بأجلى مظاهرها والاخلاص الحقيق فى أبهى حلله . فأدعو الله أن يزيد هذه الصلات متانة

ويقوى بيننا الاتحاد والألفة حتى يصلا الى الدرجة التى أتمناها ويتمناها كل شرقى محب لبلاده وأمته . وأختتم كتابى بوداعكم فى حفظ الله وحراسته مؤكدا أنى لاأنسى هذه الذكرى الحسنة وأتوسل اليه سبحانه وتعالى ألا تكون هذه المظاهرة الودادية خاتمة المظاهرات التى تحكم الروابط والعلاقات بيننا والسلام »

فى يوم (٢٣ يوليه) زايلنا نيو يورك الى أوربا فودعنا على الباخرة قيصر ويلهام (Kaiser Wilhelm II) قنصل تركيا المحترم وحضرات رئيس وأعضاء الاتحاد السورى الذين قدموا لنا باقة ورد باهرة وقدم لنا حضرة قيصر أفندى صباغ سلة زهور جميلة

سارت بنا السفينة تحفها العناية الالهية فأخذت تشق عباب ذلكم الخضم راحلة بنا عن عالم الدنيا الجديدة الى عالم الدنيا القديمة . فاذا نظرت ورائى رأيت أمريكا بلاد العجائب أمام عينى وشواطئها أخذت تغيب عن ناظرى وعما قليل تتوارى خلف حجاب من البحر لا تخترقه العيون ولكن كلما غاب جزء منها عن عينى ظهر خياله فى فؤادى وما زالت الحقيقة تصغر فتخفى والخيال يعظم فيتجلى حتى توارت أمريكا كلها عن ناظرى فتمثل خيالها أمامى أنظره بعين القلب حتى خيل الى أنى مازلت فى أمريكا أجول فى أرجائها متنقلا

بين جبالهـا ووهادها وبدوها وحضرها وآكامها وآجامها وفنادقها وأكواخها وجنادلها وأنهارها وجزائرها وبحيراتها وأبيضها وأحمرها واذا نظرت أمامى ووجهت وجهى شطر بلادى تذكرت الديار والأهل والخلان وتمثل فى فؤادى وطنى المحبوب فهاجت الذكرى شوقى اليه وحنت اليه حنين ابن الرومى فى غربته الى بغداد وطنه اذ يقول فيها :

بلد صحبت به الشبيبة والصبا ❁ ولبست ثوب العيش وهو جديد
فاذا تمثل فى الضمير رأيتــه ❁ وعليــه أغصان الشـباب تميد

وبينا أنا غارق فى ذكر بلادى والحنين اليها اذا بى ملتفت ورائى فأذكر أمريكا ثم لاألبث أن أعود الى ذكر بلادى وهكذا بقيت نفسى بين عاملين يتجاذبانها الشوق الى الديار والحنين اليها وذكر أمريكا وأهلهـا والنازحين اليها من إخوانى أبنـاء الشرق وتلك الأيام التى قضيتها فيها بين حل وترحال باحثا فى العادات مقارنا بين الأخلاق مشاهدا لآثارها مطلعا على عجـائبها متمتعا برياضهـا وبديع مناظرها ولـكنى قلت فى نفسى إن كل لحظة تمر تقصينى عن أمريكا وتدنينى من بلادى فبلادى آتيـة وأمريكا ذاهبة بجدير بى أن أتفرغ لتلك الذاهبة لحظة لأناجيها بكلمة وداع فأقول :

سلام على الدنيا الحديثة . سلام عليك ياأمريكا . وعلى أبنائك

اولى الجد والعمل . أولى الآمال الواسعة . والغايات الشاسعة . سلام عليك ما آتيت أبناءك مفاتيح كنوز ارضك بجنوا ماعلى ظهرها وما فى بطونها من الخير العظيم حتى أوشكوا ان يكونوا جميعا أولى ألوف مؤلفة وقناطير مقنطرة من الذهب والفضة . سلام عليك ماأقبلت باسمة على أبنائك البيض المحدثين وان أدبرت عابسة عن أبنائك الحمر الأقدمين (وهذه عاقبة كل قوم أهملوا فى استخراج خيرات بلادهم إذ يسلط الله عليهم من يعرفون قيمة تلك الخيرات فيتمتعون بها وأهلها محرومون) . سلام عليك وعلى أبنائك الذين عرفوا فضل العلم فأنفقوا المال (على حبه) فى إنشاء مدارسك العامرة وجامعاتك الزاهية . سلام عليك ماأمك من هجروا بلادهم متجعين فوسعهم صدرك وإن جنى جل ثمار أعمالهم البيض من أبنائك السائدين . سلام عليك ماأفتن أبناؤك فى أساليب الكسب وضروب الإعلان . سلام عليك ماتنافس أبناؤك فى أسواق التجارة حتى ملكوا ناصيتها فى سائر بقاع الأرض . سلام عليك مامتعت أبناءك وبناتك بنعمة الحرية وان كانت مطلقة لاحدّ لها . سلام على قصورك الشامخة التى أوشكت أن تسامى السماء . سلام على ماخصك الله به من الآيات الدالة على عظيم قدرته من جبال وأنهار

و ينابيع وأشجـار وجنادل مناظرها رائعة تقف العقول أمام عظمتها حائرة . سلام عليك ما اتسـع أمام أبنائك مجال الخيال . وفتحت أمامهم أبواب الغلو حتى أرونا من الحبة قبة وخيلوا الينا أن الصخور السا كنة نسور طائرة والأحجـار الصامته أسود زائرة . سلام عليك مادمت دار هجرة لمن ضاقت به بلاده ونبذته أوطانه فالتقى فيك سائر الأجناس البشرية . سـلام عليك ماوفد اليك الوافدون ورحل عنك الراحلون . احييك تحيـة الوداع ولى فيك وديعة فأوصيك بها خيرا حتى ترد الى أهلها . أما تلك الوديعة فهى أنتم إخوانى أبناء الشرق السوريين . هأناذاراحل الآن عنكم ولكن صلات الود تربطنى بكم ولو شط المزار . فأستودعكم الله الذى أسأله أن يكلأ كم بعين عنايته و يوفقكم الى مافيه سعادتكم و يسدد خطا كم فى سبل النجاح فى جميع أعمـالكم . ويديم بينكم الألفة والتعاون على الخير و ينمى فى نفوسكم ماقرأته على وجوهكم ونطقت به ألسـنتكم من الحب العظـيم لبلادكم والاخلاص لدولتكم وأتمنى أن تعودوا بعـد أن تنالوا غاياتكم الى أوطانكم سالمين حتى تعملوا فيها بما رأيتكم عليه من الجد فى دار هجرتكم وتتضافروا على إسعادها ورفع شأنها فتقيموا من أعمالكم العظيمة حجة بينة على من ينكر على الشرقى استعداده للقيام بجلائل الأعمال والسلام .

قد فرغت الآن من أمريكا ووداع أبنائها والنازحين اليها فلأعد الى ذكر بلادى وأهلها لأخاطبهم من وراء البحار بكلمة صغيرة فى السياحة وما يجب أن يقصد منها ولأجعل تلك الكلمة خاتمة رحلتى فأقول :

السائح يجب أن يكون همه الأوّل من سياحته منصرفا الى تثقيف عقله وتوسيع نطاق معارفه بدروس السياحة العملية فكل يوم يمرّ عليه دون أن يزداد فيه علما نافعا له أو لبنى أمته فلا بورك له فى طلوع شمس ذلك اليوم . ولا يتم ذلك لسائح الا اذا راض نفسه ودرّبها على اليقظة والتنبه لكل مايقع تحت حسه (وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) مع إنعام النظر ودقة البحث حتى لايكتفى فى حكمه على مايرى بالوقوف عند ظواهره دون أن ينفذ فكره الى ماوراءه من بواطن كثيرا ماتخالف تلك الظواهر فيبنى حكمه على خطأ فى النظر فيكون مضلا وخليق به أن يكون هاديا . (يعلم حقيقة ما أقول كل من وقف على ما كتبه السائحون من أبناء الغرب عن الشرق وعوائد أهله وأخلاقهم فقد نسبوا للشرقيين كثيرا من عوائد وأخلاق لايعرفونها لأنهم كتبوا ما أملته عليهم الظواهر) عليه اذا ماحل بأرض قوم أن يبحث فى عوائدهم وأخلاقهم والجامعات التى تجمعهم من دين أو جنس أو مصلحة

و بالجملة يبحث مااستطاع فى سائر اعمالهم وشؤونهم لاسيما الاجتماعية منها ولا يألو جهدا فى التفكير لرد كل شئ من ذلك الى أصله الذى بنى عليه والوقوف على آثار تلك العوائد والأخلاق والجامعات فى شؤونهم العامة من رقىّ أوانحطاط وقوة أوضعف مراعيا فى كل ذلك أحكام الزمان والمكان حتى اذا ماملأت نفســه آيات العبر واهتــدى الى معرفة وسائل النجاح كما علم دواعى الفشل عاد الى بلاده بشيرا ونذيرا فأرشــدهم الى سبل الهدى وحثهم على سلوكها ونبههم الى مهاوى الضــلال وحذّرهم من الوقوع فيها . لاأريد بذلك أن يقتل السائح كل وقته فى التفكير فينهك قواه العقلية ويحرم نفسه من التمتع بمـا يسرّها فان ذلك إفراط وكل إفراط حليفــه العجز دون الوصول الى الغايات (ان المُنبَتَّ لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى) وربما كان السائح فى بلاده من أولى الأعمال العقلية وما رحل عن بلاده الا بعــد أن بلغ منه الجهد وطلبت نفســه الراحة من عناء التفكير فاذالم يجد فى سياحته من دواعى السرور مايشرح الصــدور ويرد اليه ماذهب به التعب من قوة عقله وبدنه فلا سبيل الى الاستفادة من سياحته . ـ فنعم لهو البال لمكدود ـ وانما أريد الا يجعل السائح همه فى سياحته منصرفا الى اللهو واللعب والانهماك فى اللذات والانغماس فى الشهوات

حتى اذا رجع الى بلاده رجع خاوى العقل من كل فائدة بعد أن أنفق وقته وماله بل ربما عاد الى أهله وقد خلف قلبه عند من لايحفظه رهنا بمواقاته فى عام مقبل .

وانى ليحزننى أن أرى كثيرا من إخوانى أبناء الشرق الأغنياء ولا سيما المصريين يرحلون عن بلادهم فى صيف كل سنة الى الأقطار الأوروبية ولا هَمَّ لهم الا أن يطلقوا لأنفسهم هنالك أعنتها تسابق فى ميادين الشهوات وتسبح فى لجج الملاهى حيث الحرية مطلقة وألسنة النقد موثقة وعيون الانكار مغضية فلا زاجر الا فضيلة راسخة وضمير طاهر وأنَّى لفضيلة لا تذهب وضمير طاهر لايدنس مع هذا الانغماس فى حمأة الرذائل فيعودون الى بلادهم وقد خسروا الفضيلة والمال مع أن من بينهم العلماء الأجلاء أولى العقول الراجحة والآراء الناضجة ممن لايعجزهم الاصلاح لو أرادوه ولايستعصى عليهم الارشاد لو قصدوه . فكأنهم نسوا أن لبلادهم فى أعناقهم حقوقا تطالبهم بأدائها مع أن الأمم الشرقية اليوم أمام هذا السيل الجارف من المدنية الغربية التى التبس على أبناء الشرق أمرها فلم يميزوا بين محاسنها ومساوئها ولم يعرفوا الى أين يذهب بهم هى فى أشد الحاجة الى أبنائها المتعلمين الذين يميزون لإخوانهم الخبيث من الطيب

ويبحثون عن أدوائهــا لاسيما داء التفرق وأمراض الأخلاق وعلل الجهل التى كادت تفتك بها فيستأصلونها بالعلاج الناجع وينبهونها الى مهاوى الفناء التى حفرت لها حتى تأخذ حذرها قبل السقوط فيها .

فهل منا من ســاح فى بلاد الغرب (والسائحون كثيرون) فبحث هنالك عن وسائل نهوض تلك الأمم وأسباب رقيها ثم عاد الى بلاده فأخذ يوقف أهلها على تلك الأسباب ويحث قومه على التمسك بها . لو قام السائحون منــا بذلك وأخلصوا فى عملهم لأصبحنا اليوم نرى المعامل الصناعية الوطنية منتشرة فى بلادنا والشركات التجارية مؤسسة بأموالنا والجامعات العلمية تخرج العلماء الأجلاء فى كل علم من أبنائنا وهناك يتم لنا الاستقلال الاقتصادى ولنا من ورائه كل خير وسعادة . فعار علينا ونحن أبناء أمم ذات مجد باهر وتاريخ عاطر أن نموت بداء الغفلة وتبيدنا علة الجهل .

هذه نصيحتى قد أخلصتها لكم وأسأله تعالى أن يؤلف بين قلوبنا ويرشـدنا الى طريق النجاح فى دنيانا والفوز برضاه ونعيمه فى أخرانا إنه على كل شئ قدير . وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الأنبياء وعلى آله وصحبه المرشدين الأتقياء .

(م٢٠٢/٦٨٦٣/١٩١٢/٥٠٠)

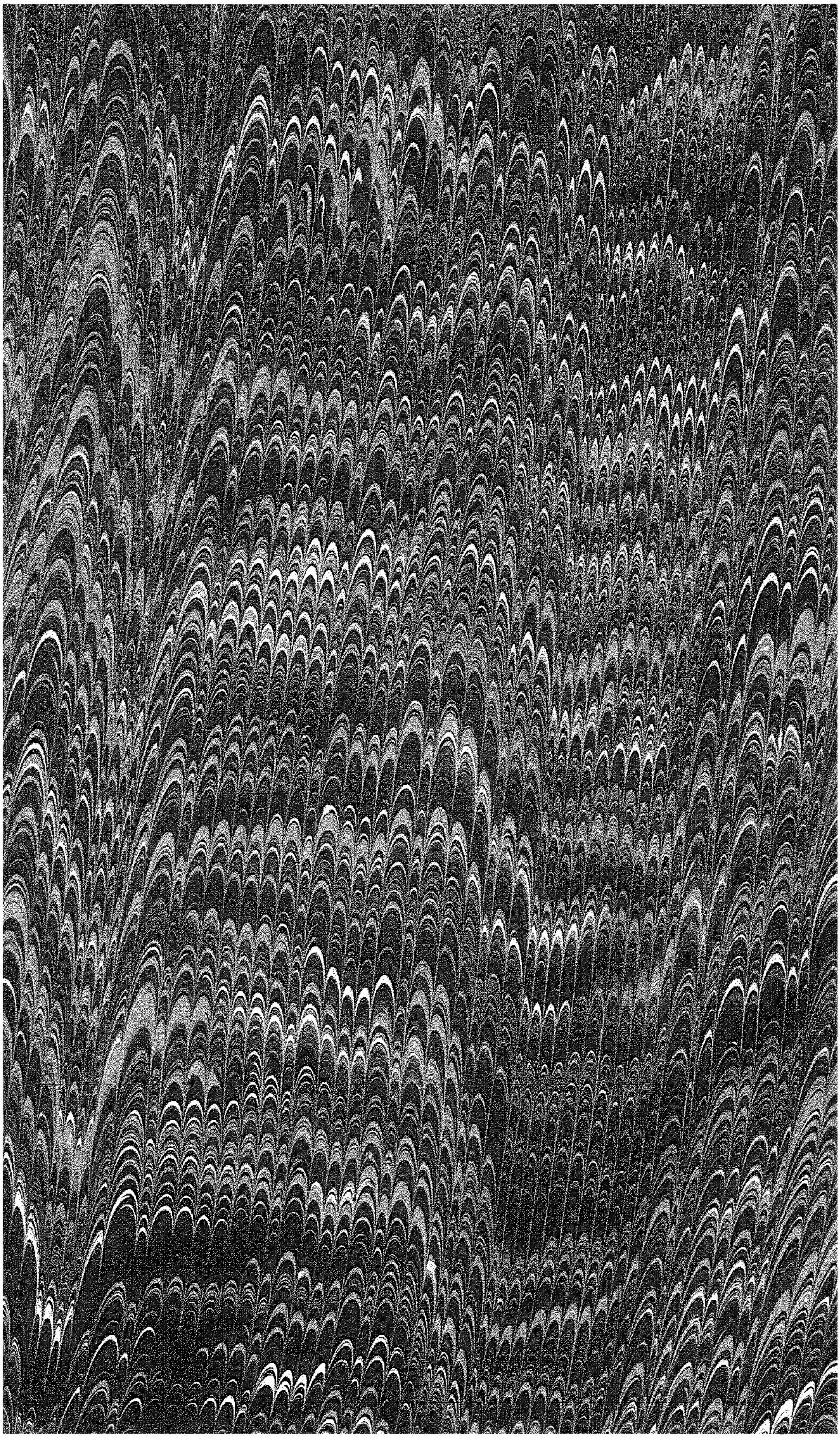

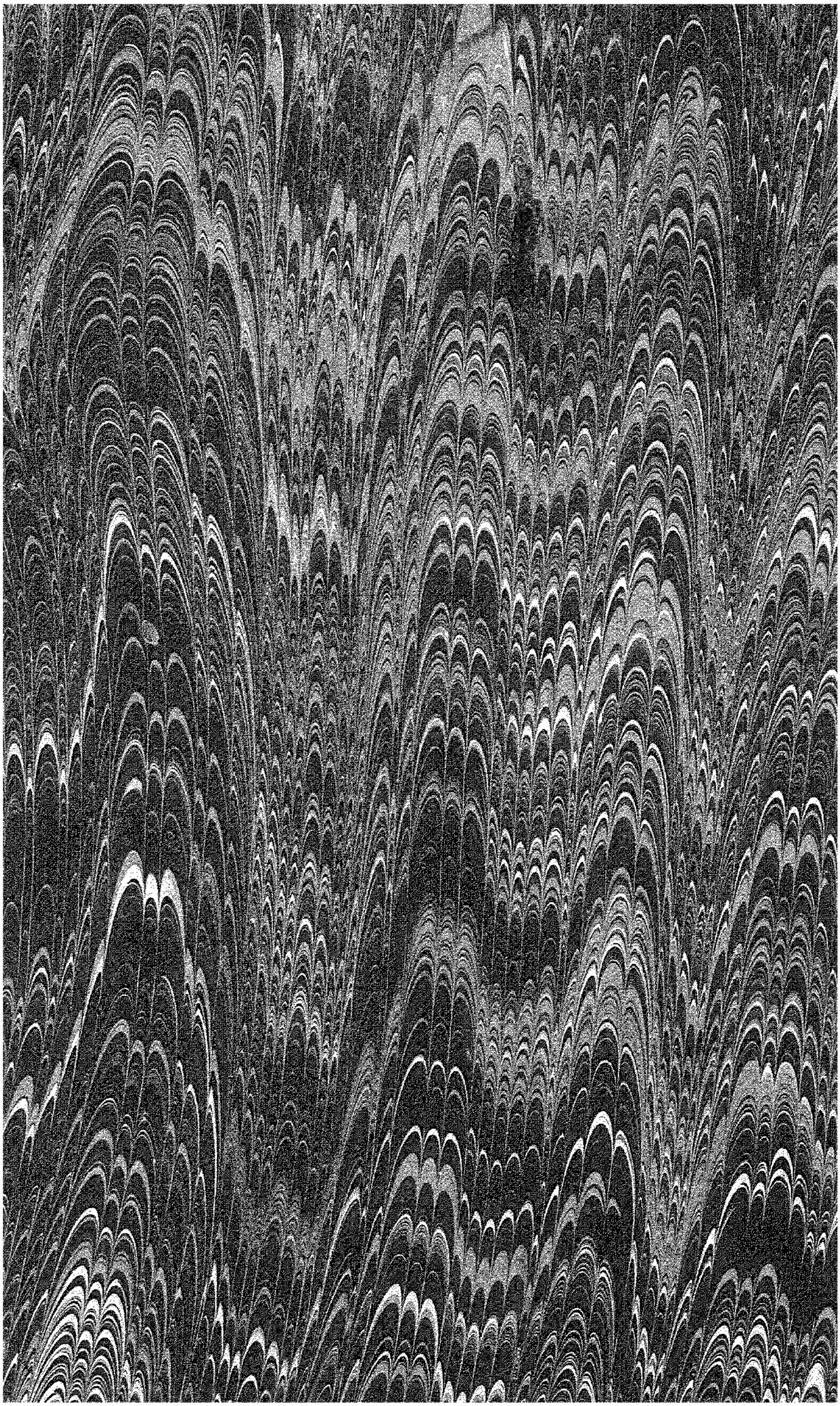

Bibliotheca Alexandrina
03378489